

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي

(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثالث

تنويه

أثناء إعداد هذا الجزء فجعت سورية والأمة العربية والعالم الإسلامي والإنسانية بوفاة راعي مشروع هذه الموسوعة الرئيس المؤمن حافظ الأسد، وكان ذلك يوم العاشر من حزيران، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، وآلت الرعاية الآن الى ولده الرئيس الدكتور بشار الأسد، أنار الله سبيله، وجعله خير خلف لخير سلف .

سهيل زكار

المكان الذي يقال نمت فيه الشجرة

التي من خشبها صنع الصليب

غادرنا الآن مكان ميلاد القديس يوحنا، وبمغادرتنا الوادي الذي جئنا عبره إلى ذلك المكان، تسلقنا الأرض المرتفعة على الجانب باتجاه القدس، ووصلنا إلى واد جميل وخصب، فيه قامت فيما مضى مدينة نوب التي كانت مدينة كهنة، وذلك حيث أكل داوود خبز التقدمة، وتسلم سيف جالوت، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر صموئيل الأول: ٢١، وانجيل متى: ١٢، وقد خرب الملك شاؤول هذه المدينة، وقتل كل انسان وجده فيها، وذلك حتى الأطفال الرضع، وقتل هناك بحد السيف خمسة وثمانين كاهناً، لأنها كانت مدينة كهنة وذلك كما قرأنا في سفر صموئيل الأول: ٢٢، وقد فعل هذا لأنهم أعطوا داوود خبز التقدمة والسيف.

ووصلنا من هناك إلى كنيسة جميلة، يلاصقها دير صغير، يعيش فيه رهبان جورجيون مع زوجاتهم، وعندما دخلنا إلى الكنيسة، اقتادونا إلى المذبح العالي، وهو المذبح الذي يقال بأنه قائم فوق البقعة ذاتها التي نمت فيها شجرة الصليب المقدس، ولهذا السبب، هذه الكنيسة مكرسة على شرف الصليب المقدس، واسمها كنيسة الصليب المقدس، ويوجد تحت الكنيسة حفرة، فيها حيننا أنفسنا نحو الأسفل، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وتلقينا انعاشاً من هذه الحفرة، لأنه منها فاحت رائحة طيبة، أغرقتنا بالوقوف مدة أطول أثناء تقبيلنا للموضع، ولقد جلبوا لنا ذراع القديسة برباره، التي قبلناها، وهذه هي البقعة الطيبة، التي نمت فيها الشجرة الطيبة، التي تستحق التشريف الإلهي، التي وإن لم يعرفوها، فإن الوثنيين القدماء صنعوا تماثيل وفق نمط، لأنهم عندما قرروا صنع تمثال للرب،

قرروا بدقة أنه ينبغي عدم صنعه من الذهب، أو الفضة، أو الحجر، بل من الخشب، على أساس أن الخشب هو المادة المناسبة جداً، وقد قرأنا عن هذا عند يوسبيوس في: De Evangel praeparat, Book III .CH III

وبعدما صلينا، جلسنا في ساحة الكنيسة لنتراح، لأننا كنا مانزال صائمين، وبدأ الحر يصبح عظيماً، وذهب بعض الحجاج إلى أكواخ أولئك الرهبان، وسألوهم إن كان لديهم أي شيء مطبوخ، غير أننا لم نر لامطابخ، ولاقدور طبخ في هذه الأكواخ، لأن هؤلاء الناس كانوا فقراء جداً، ووصل في الوقت نفسه، مسلم يحمل سله مليئة بالعنب، اشتريناها، وأكلنا معا بالخبز الذي جلبناه معنا في جعبنا، ونضحنا ماء من صهريج الرهبان، وعلى مقربة من هذا المكان يقوم الكثير من أشجار الزيتون، وهناك غابة صغيرة من أشجار الزيتون والتين، وقد قالوا بأن سليمان قد امتلك بستانا في هذا المكان أيضاً، وأنه كان في بعض الأحيان يأتي إلى هنا في عربته الذهبية للتمتع فيها.

وكان بعد أن استردينا أنفاسنا، ركبنا حيرنا، وصعدنا إلى قمة الرابية، وذلك عبر طريق وعر وصخري، وعندما كنا فوق الأجزاء المرتفعة منها، رأينا المدينة المقدسة على مسافة منا، وعبرنا إلى جانب بيت سمعان، عبر طرقات تمر بين جدران البساتين المصنوعة من حجارة، جافة، وعلى طريقنا ولدى اقترابنا من القدس، دخلنا إلى قرية بين هذه الجدران الحجرية، حيث قدمت إلينا طريقاً عريضاً، لكن لسبب لم أعرفه، وقف رجل مسلم أسود، كان نصف عاري، في وسط الطريق، وكان يكوم حجارة إلى أكوام، وكان يمسك بهم عالياً، مهدداً برميهم على جماعة الحجاج، إذا ما سار أحدهم على ذلك الطريق، وبناء على صراخه وتهديداته توقف الحشد كله لمدة حوالي النصف ساعة، وبذل أدلؤنا غاية جهدهم معه، وصرخوا مجيئين له، لكنه لم يهتم مطلقاً بهم،

وشرع وهو مغضب كثيراً، بكل جرأة، برمي الحجارة ضد كل من حاول التقدم نحو الأمام.

وفكرت في نفسي، وقلت آه: « لو أنك وقفت هكذا في الطريق، بدون سلاح، في منطقتنا من العالم، وأغلقت طريق رجل واحد من أقل هؤلاء النبلاء مرتبة، كم بسرعة كنت ستجد سيفاً أو نشابة في طرفك! لكن الحال في هذه المناطق الشرقية ليس هكذا، لأن الناس الشرقيين هم نوع مختلف عنا، أو بالحري، أحكامنا في الحياة غير أحكامهم، فهم لديهم عواطف مختلفة، وطرائق أخرى للتفكير، وأفكاراً أخرى، فأجسادهم لها أشكال بشرية أخرى مختلفة، فهم خاضعون لتأثيرات نجوم أخرى، ومناخ آخر.

وهكذا تمكن ذلك الرجل المسكين، الأعزل من السلاح، والعمري، من إرغام الحشد كله على التراجع، وذهبنا عائدين عبر طريق طويل، وأدركنا ظهورنا لجبل صهيون حتى وصلنا إلى طريق آخر، حيث استدرنا هناك، ومضينا نحو القدس، جاعلين وادياً بيننا وبين المدينة المقدسة، والتفتنا حول هذا الوادي، ووصلنا إلى القدس عبر حقل القصار، ووافينا جبل صهيون في وقت القيام بالقداس، وكان الرهبان — على كل حال — قد أخروا صلواتهم من أجلنا، حتى نتمكن من المشاركة معهم في القداس في ذلك اليوم، وبعد الفراغ من القداس، أخذ كل رجل منا نفسه إلى موضعه لتناول الطعام.

فصل حول

نزول الحجاج إلى نهر الأردن

سمع الحجاج بعد الغداء بأن قبطاني الغليونين، خططا في ذهنيهما، أخذ الحجاج واعادتهم إلى البحر في غليونيهما، وكأن الحج قد انتهى الآن، وقمت على الفور فكشفت بالحدس هذا السر، لأن من ممارسات

جون أوف بروسيا، وبتنا مستعدين لرحلتنا.

مغادرة الحجاج القدس في طريقهم إلى نهر الأردن المقدس

في الصباح الباكر، من اليوم التاسع عشر، وقبل أن يعم الضوء ويتشرب، نهضنا، وذهبنا إلى كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط، وهناك، بما أن اليوم كان يوم سبت، شاركنا في قداس العذراء المباركة، ومضينا بعد ذلك إلى جبل صهيون من أجل الصلوات الديرية، وفي بعض الظهر، وبعد الغداء، تسلمنا جعبنا في ساحة كنيسة جبل صهيون، وانتظرنا أدلاءنا وحميرنا مع سائقهم، وأخيراً وبعد انتظار متعب، ولدى حلول وقت العشاء، جاءوا مع دوابهم لأخذنا إلى الأردن.

ولدى قدومهم، ركض الحجاج نحو الدواب لتجهيز أنفسهم، ووقتها نشب خلاف بين فارس وكاهن حول أتان، قال كل واحد منهما بأنه كان الأول بالحصول عليها، وضرب الفارس الكاهن ضربات كثيرة بقبضة يده، ولو كان معه سيف لجرحه، وطرده الفارس وأبعده عن أتان، فحصل على حرمان كنسي، حرره منه الأب المسؤول قبل مغادرتنا.

وعندما انتهى كل شيء، نزلنا من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، وعبرنا الجدول، وتسلقنا الجانب الآخر بوساطة الوادي وجوانب من جبل الزيتون من خلال جبل العدوان، ونحن على طريقنا أشاروا لنا إلى بيت قديم، بني بقناطر معقودة، وهو مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الخائن يهوذا، ونظرنا نحو هذا البيت وازدريناه، وكأنه كان بيت الذي خلع حذاه، وكان مكروها في إسرائيل، لأنه جاء في سفر التثنية: ٢٥، أنه إذا مات أخ لرجل من دون أولاد، ورفض هذا الأخ أن ينجب أولاداً من الأرملة فلتقم وقتها زوجة أخيه هذه بخلع نعله من رجله، ولتبصق في وجهه، وبناء عليه يدعى بيته باسم بيت مخلوع النعل.

وجزى تنفيذ هذا القانون من قبل الرسل، حيث تولى كل واحد منهم الوظيفة التي لم يعتد عليها، وهي إنجاب أبناء في الكنيسة، لكن ليس بأنفسهم، بل من قبل المسيح، وقد حملوا بعد هذا اسمه، وقد فعل هذا الرسل بعد المسيح، لكن يهوذا قد حرم من كل شيء، لأنه لم ينجب أولاداً لأخيه، والكنيسة التي هي زوجة المسيح بصقت في وجهه، وطرده، واختارت ميثاس لأخذ مكانه، ولذلك لم يخلف شيئاً وراءه، باستثناء بيته الذي خلع فيه نعله، وهو مهدم ومزدرى، ولذلك مبارك ما قيل في الأمثال: ١٧، «من يجازي عن خير بشر لن يبرح الشر من بيته» وبغم عبرنا من قرب هذا البيت الملعون «لأنه بيت متمرد» (حزقيال: ٢).

المكان الذي لعن الرب فيه شجرة التين ولهذا لا توجد ثمار عليها

وإثر تركنا للبيت المتقدم ذكره خلفنا في الوادي، سرنا بين جدران من الحجارة الجافة العائدة للبساتين والحدائق، وفي بطن الوادي، حيث إذا سرت أبعد، عليك الصعود، وصلنا إلى حديقة جميلة جداً، قامت فيها حشود من أشجار التين، وأغصان أشجار التين معلقة فوق الجدران الحجرية نحو الطريق، وهذه هي الحديقة التي رأى فيها المسيح من بعيد شجرة تين، عندما كان سائراً على الطريق من بيت عنيا إلى القدس، وكان جائعاً، وقد دخل إلى الحديقة، وجاء إلى الشجرة، طالباً ثماراً، ولكنه حيث وجد أوراقاً فقط، لعن الشجرة، فبيست على الفور، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى — الاصحاح الحادي والعشرين.

ولدى تعجب تلاميذه من ذلك قال لهم: «الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولا تشكون، فلاتفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر، فيكون»، وعندما قال الرب هذا أشار باصبعه إلى جبل الزيتون، الذي عند سفحه حدثت هذه الأشياء، وبناء عليه جثونا في هذا المكان مصلين، وبعدما صلينا للرب، حصلنا على

غفرانات، وتغذينا بالنظام الروحاني، متأملين كم هو مرعب أن تحمل اسم مسيحي أو ديانة من دون ثمار، مشاهدين كيف أن لعنة الرب سوف تنزل ثقيلة على مثل هؤلاء، لأنهم أغصان جافة أعدت لتحترق بنار أبدية.

وتابعنا سيرنا من هناك نحو الأمام، فوصلنا إلى بيت عنيا، وهي قرية مريم، ومرثا، ولعازر، وقد اجتزناها بخطوات واسعة وسريعة، ولسوف نقدم وصفاً لهذا المكان في المستقبل، ونزلنا من هذا المكان إلى صحراء منستات monstat وجاء نزولنا عبر طرقات وعرة، وهضاب خطيرة، وقارب حلول المساء، لأن الشمس قد غابت، ورغبنا بالاستراحة في مكان ما، حتى بزوغ القمر، وذلك بسبب وعورة الطريق، وعندما نزلنا قليلاً، كانت الدنيا مظلمة، وقد وصلنا إلى بيت مقنطر كبير، يمتلك من حوله، داخل اطار مغلق، مايشبه ديراً، لكنه مهجور وفارغ، وترجلنا قرب هذا البيت من على ظهور حميرنا، بقصد أن نتمكن من الاستراحة هناك قليلاً، وقد دخلنا إلى المكان ونحن نحمل مصابيح، نبحث عن مكان يمكننا أن نرتاح فيه، لكننا لم نجد مانريده، لأن ذلك البيت كان مهدماً ومليئاً بالقاذورات والهوم، ولذلك خرجنا منه ثانية، وتمددنا فوق الأرض في مقابل البيت، وقد تفرقنا إلى عدة جماعات، في حين فصل أدلاؤنا المسلمون أنفسهم أيضاً عنا، واستراحوا في مكان أعلى قليلاً، وكان قد لحق بهؤلاء الأدلاء بعض الشباب ذوي الأوضاع السيئة، الذين كرهونا، كما سيظهر فيمايلي:

والآن بعدما أكلنا عشاءنا معاً، أطفأنا مصابيحنا، ووضعنا رؤوسنا فوق جعبنا، وبدأنا بالنوم، وفي الوقت ذاته، أقبل شاب مسلم بشكل سري، ونزل بشكل لصوسي وسار بين حشد الحجاج، وانتشل جعبة حاج اعتقد أنه نائم، وهرب بها إلى جماعته، لكن الحاج ورفاقه ركضوا خلفه وهم يصرخون، وانتزعوا منه الجعبة واستردوها ثانية، وبعد مضي

بعض الوقت نزل آخر وسار بشكل سري، وسرق جعبة، كان فيها خبزاً، وجبناً. ولحماً مدخنأً، وبيضاً مغلياً، وعندما اكتشف الحاج ذلك، شرع بالصراخ بصوت مرتفع، ودعا بقية الحجاج إلى مساعدته، وبناء عليه نهض الحجاج، وركض عدد كبير منهم مغضبين نحو المسلمين، وحدث صراخ عظيم، واضطراب شديد، أرغم المسلمون بموجبه على الابتعاد عن الحجاج بوساطة العصي والسيوف، والتقط كل جانب الحجارة، لكن مامن أحد بدأ برماية أي منها، لأنه لو رمى أحدهم بحجرة، لاشك كان سينشب قتال خطير جداً، لأنه كانت هناك أعداد لا تحصى من الحجارة، كلها ناعمة ومناسبة للرماية.

وهكذا وقفنا أمام بعضنا بعضاً، وصرخنا، وبذل قبطانا الغليونين والتراجمة جهوداً عظيمة لإعادة الهدوء، وكانوا يقومون بتهدة مكان ثم ينصرفون نحو المكان الآخر، لأن المسلمين شرعوا بإغضاب كثير من الناس، وعندما هدأ هذا الاضطراب، وصمت الجميع، بدأ مسلم برمي الحجارة على حشد الحجاج من مكان خفي، وبناء عليه استأنفنا ثانية، وركضنا للحصول على حجارة، ودعونا بصوت مرتفع الترجمان والقبطانين للدفاع عنا ضد هؤلاء اللصوص، ورمى بعضنا بحجارة بين المسلمين، مما أثارهم وأغضبهم، فنزلوا بسيوف مجردة، وأرغمونا على رمي الحجارة التي التقطناها، وعلى كل حال، لدى رؤية sa-bothytanco، الترجمان، وكالينوس الكبير، أن كلا الجانبين في حالة من الهياج عظيمة، يريد كل فريق منهما الايقاع بالفريق الآخر، ويصرون بأسنانهم غضباً، وقتها أمر الحشد جميعه بالنهوض والمغادرة، ولدى امتطاء حميرنا تركنا هذا المكان الملعون، وقد أشار الرب يسوع إلى مخاطر هذا المكان في الاصحاح العاشر من انجيل القديس لوقا، عندما تحدث عن الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا بين اللصوص، وعنه سوف يأتي في المستقبل حديث أطول، هذا ولقد كنا من بعض الجوانب

الأخرى حتى في خطر أعظم، لأننا جلبنا لصوصنا معنا، على حسابنا، وكان علينا تحمل وجود لصوص غرباء وبامكاننا ذلك، لأنه قد قيل: «أسوأ الأعداء هم الذين من آل بيت الانسان»، وكان البيت الذي رغبتنا بالاستراحة إلى جانبه، فيما مضى نزلاً وفق الطريقة الشرقية، لأنهم بنوا بيوتاً عظيمة إلى جانب الطريق العام، مع كثير من الاسطبلات تحت، وغرفاً فوق، من أجل دواب الانسان للاستراحة فيها، والبيت قائم مفتوح الباب، من دون أي سكان أو أي أثاث، وعندما كان يمر غرباء من هناك، كان بامكانهم الدخول إليه، والاستراحة في الظل، وأكل أي طعام جلبوه معهم، لأنه لا يوجد هناك لارجل ولا امرأة للطبخ، وفي الحقيقة كان للجمال الذين يحملون الأثقال، محطات محددة، كانوا لا يتجاوزونها بل يرتاحون في نهاية كل واحدة منها، وكان يقوم في مثل هذه الأماكن بالعادة خانات من أجل الانسان والدواب للراحة فيها، ولا يجد الانسان في الشرق نزلاً إلى جانب بيوت الاستراحة الفارغة هذه، حيث لا شيء فيها إلا ما يجلبه الانسان معه إليها، ويبدو أن النزل الشرقية كانت دوماً بيوت راحة من هذا النوع، ولهذا قرأنا في سفر التكوين: ٤٢، حول أخوة يوسف، أنهم عندما كانوا في نزل، فتح أحدهم عدله ليعطي علفاً إلى حماره، وكذلك في سفر الخروج: ٤، بأن الرب طلب أن يقتل موسى في نزل.

فضلاً عن هذا، لقد حدث في نزل من هذا النوع أن ولد الرب (لوقا: ٢)، ولهذا انطلقنا من ذلك النزل، وكنا مسرورين بأننا غادرنا المكان، لأنه كان من المتوجب علينا امضاء الليل هناك في حالة خطر، بسبب قتال المسلمين، وكان القمر، في الوقت نفسه، قد بزغ نوره، ونزلنا بخطوات واسعة عبر الطريق الوعر، كما نزلنا مسرورين عبر الصخور المنزلة، وعلى طرقات من هذا النوع تعرف الحمير كيف تسير بسهولة، بدون وقوع، وهم ينزلون بقوائمهم الأمامية فوق الصخور ببراعة

مدهشة، وذلك في طرقات هي مستيحلة بالنسبة للخيل، والطرقات في هذه الصحراء حجرية وهي بالعادة عالية وضيقة، مع وديان عميقة على كلا الجانبين، وبناء عليه إذا حدث وسقطت دابة من فوق الصخور المنزلة، كانت هي ستسقط في هوة عميقة، ولسوف يهلك الانسان والدابة معاً، ولقد دهشت تجاه النسوة اللاتي كن برفقتنا، لأنهن ركنن بجراً كبيرة، ومصدر عجبني هو أن المرأة ضعيفة بشكل طبيعي.

وكان معنا امرأة مسلمة، ركبت معنا حتى أريحا، وكانت شابة، جيدة الملابس وفق طريقتهم، لكن مامن أحد كان يمكنه أن يرى وجهها، لأن وجهها كان مغطى بقطعة قماش سوداء، كانت شفافة، وبذلك كان بإمكانها رؤيتنا، وأخيراً وفي نهاية النزول، وصلنا إلى المنطقة السهلية العائدة لأريحا، التي تبدأ عند سفح جبال اسرائيل، وعبرنا خلال أريحا ونحن نركض، ونزلنا خلال الجبل لمدّة ثلاث ساعات، وجاء سيرنا خلال منطقة منبسطة، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى قفار الأردن، التي من خلالها نزلنا إلى مجرى نهر الأردن، وهنا أعطينا. حيرنا إلى سائقيهم وابتعدنا عن المسلمين، الذين مركزوا أنفسهم بين الأشجار لنيل الراحة، بينما أوينا نحن إلى فراش النهر المقدس وذلك وصولاً إلى الماء، حيث فيه جلبنا البرودة إلى أيدينا، ثم تمددنا للاستراحة فوق الرمال، حيث استرحنا بهدوء لبعض الوقت، لأن النهار لم يكن بعيداً.

قداس النهر المقدس الذي أقمناه على ضفته

وفي اليوم العشرين، الذي كان الأحد الثامن، بعد عيد الثالوث المقدس، وما أن صار ضوء النهار منتشرًا، حتى نهضنا نحن الكهنة أولاً، وقرأنا ماتوجب علينا على ضفة النهر المقدس، وبعدما قرأنا صلواتنا الصباحية والأولى، نزلنا نحن الكهنة حتى الماء المقدس، وبدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة - Lavacra pu- rigurgitiscoelestis agnus attigit الخ، وغنينا بعد هذا - chris-

tum hodie in jordane baptizatum
hoc loco in jordane baptizato، بل وضعنا في مكانها hodie
Domino الخ، لأن من المعتقد، أنه في هذا المحل جرى تعميد الرب
من قبل يوحنا، وعلى صوت غنائنا، أفاق الحجاج الذين كانوا نائمين
بين القصب، وجاءوا يسعون نحونا، وأفاق المسلمون أيضاً، ووقفوا
فوق أرض مرتفعة ينظرون نحونا، وبعدما غنينا الترنيمات المعينة في
كتب المسيرات، ارتقمنا على الأرض وقبلنا الأشياء الرطبة والأرض
المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ومكثنا بعض الوقت في
الصلاة، لأن اليوم كان نهار أحد، ولم نكن ذاهبين لسماع أي قداس،
وليس هذا بسبب إهمالنا، ولكن بسبب استحالة ذلك، مما أعفانا من
ذنوب الانتهاك.

استحمام الحجاج في الأردن والأشياء الثلاثة التي حرمت عليهم

وعندما فرغنا من صلواتنا، نزعنا عنا ملابسنا، حتى نتمكن من
الاستحمام في النهر المقدس، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، سمحوا لنا
بغسل أنفسنا، لكن حظروا علينا أشياء ثلاثة: (١) أن لا يسبح انسان
حتى الضفة الأخرى، (٢) لا يجوز لانسان أن يغوص تحت الماء، (٣)
ينبغي أن لا يأخذ انسان أية مياه معه في قارورة، ليحملها إلى وطنه معه
عبر البحر، ومن ثم إلى منطقته، وكان السبب الأول لهذه المحظورات،
أن الذين يسبحون نحو الضفة الأخرى، يحصل كل واحد منهم، في
جميع الأحوال، في دائرة الخطر على حياته، ولم يحدث قط أن انساناً من
بين الذين سباحوا حتى الضفة الأخرى عاد من دون التعرض لبعض
الأذى، والسبب من أجل الحظر الثاني، هو أن قاع الأردن طيني، وكل
من يغطس فيه، ربما يلتصق هناك ويهلك، وسبب الحظر الثالث هو أن
ابحار السفن التي تحمل على ظهرها ماء من الأردن، هو دوماً غير
سعيد، فهذا غالباً ما وجده الملاحون بالتجربة.

وصحة ما قد قلته سوف تظهر فيما بعد، وهكذا بعدما نزعنا ثيابنا ذهبنا إلى الماء المقدس، وباسم الرب عمدنا أنفسنا في أمواجه، ولم يخلع بعض الفرسان ملابسهم، بل غطسوا في الماء بالثياب التي ارتدوها عندما امتطوا ظهور حميرهم، قائلين بأنهم سوف يكونون دوماً سعداء بهذه الثياب من الآن فصاعداً، وبناء عليه، إنهم عندما سيصلون إلى الوطن، سوف يحفظون هذه الملابس ويدخرونها مثل الكنوز، ويلبسونها عندما يذهبون إلى المعارك، معتقدين أن مامن أذى سوف ينزل بهم، واشترى بعضهم قطعاً من الكتان أو الصوف، قاموا بتغطيسها بالماء، بقصد التمكن من أخذها معهم إلى الوطن، ومن ثم صنع ملابس منها حسبما يطيب لهم، معتقدين أنهم عندما سيلبسونها سوف يبتسم الحظ لهم، ويكون أكثر لطفاً معهم من غير ذلك من الأوقات.

وكان بعضهم قد جلبوا معهم أجراساً صغيرة، كانوا قد اشتروها من البندقية، وقد جلبوها معهم إلى الأردن، وعمدوها في الأردن باسم الثالوث، وقد حملوا هذه الأجراس فيما بعد معهم إلى الوطن، ومن ثم إلى المناطق الخاصة بهم، وهم يقولون بأنه في أثناء العواصف، والبرق والرعد، إذا ما قرع جرس معمد في الأردن، لا البرق ولا البرد، يمكن أن يحدث أذى، في إطار المنطقة التي سمع فيها صوت القرع، وعلى كل حال إن مدى الصدق في هذه الحكايات حول الأجراس والملابس المعمدة في الأردن، وفيما إذا كان اعتقاد العوام، الذي يؤكد صحة الحكايات المتقدمة، كله صحيحاً أو وهماً، فهذا على الرجل العاقل تأكيده بالنسبة لنفسه.

وبناء عليه وقفنا في الماء وسط بهجة عارمة، وكان كل واحد منا يقوم مبادراً بتعميد الآخر، ومع أن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، لم تكن المياه باردة، بل دافئة، ومناسبة للاستحمام فيها، كما أننا شربنا بعضاً

منها، ومع أننا كنا صائمين، لكننا فعلنا ذلك صدوراً عن التقوى، وهي على كل حال — لم تكن طيبة الطعمة لأنها لم تكن باردة، وكانت موحلة مثل مياه المستنقعات.

وأول ما حدث أن بعض الحجاج لم يطيعوا أمر الحظر الأول، الذي صدر عن المسلمين، وسبح عدد كبير منهم إلى الضفة الأخرى من النهر، وكنت خلال حجي الأول قد سبحت أيضاً إلى الضفة الأخرى، لكن في الثاني مكثت، وجلست في المياء فوق الرمل، والماء حتى عنقي، وكنت مرتدياً قميصي ووشاحي الكتفي، ولم أرغب، في حجي الثاني، بالسباحة عبر النهر، لأنه حدث في حجي الأول أنني ارتعبت بشكل هائل، عندما كنا على الضفة الأخرى من النهر، بسبب فعلنا ذلك، لأننا سبحنا وعبرنا برفقة عدد كبير من الفرسان الآخرين، وكنا نلعب بسرور في الماء على الجانب الآخر، عندما ارتفع فجأة صراخ مرتفع، وبدأت تحدث فوضى مع اضطراب عظيم، والذين كانوا على الضفة الأخرى صرخوا صرخات مخيفة، وعلاوة على ذلك، ركض المسلمون، الذين تألفوا من أدلائنا والآخرين، إلى أعلى الضفة، وصرخوا بأصوات مخيفة غاضبة، وشتموننا وهددوننا، وتجاه ذلك وقفنا مندهشين، وبسبب كثرة الناس الذين كانوا يصرخون، لم نستطع أن نعرف ما الذي حدث، حتى سبح حاج نحونا من الضفة الأخرى، وعندما اقترب منا، صرخ: انتبهوا، إن واحداً من إخواننا الحجاج، قد غطس في وسط الماء، ولا يمكن رؤيته، وبمجرد سماعنا ذلك، سبحنا إلى المكان الذي غطس فيه، وسبحنا من حوله، منتظرين له كي يظهر.

وأخيراً، وبعد مضي وقت طويل، أمكن رؤيته، وقمنا على الفور بجره من شعره، وجلبناه إلى الضفة الأخرى، أي إلى الضفة التي نحوها سبحنا وعبرنا إليها، لأنها كانت الأقرب بين الضفتين، وكان أشبه بالميت، ثقيلاً وغير قادر على التكلم معنا، حتى تقيأ الماء الذي

ابتلعه، وعندما أعدناه لمناه، وسألناه كيف بلغ به الحمق حداً، أنه ذهب إلى الماء، من دون أن يفهم فن السباحة، فأجاب: إنني منذ صغري، كنت دوماً عارفاً بهذا الفن، ذلك أنني نشأت على أطراف المياه، لكن عندما دنوت من وسط الأردن، لمسني شيء ما من تحت الماء، ولقد ارتعبت كثيراً بتلك اللمسة، إلى حد أنني فقدت كل قوة أطرافي، ولم يعد بإمكانني مساعدة نفسي، لا بقدمي، ولا بذراعي، وعندما كان يقول هذا ارتجف، ولم يعد بإمكانه الوقوف.

وكان المسلمون وقوفاً على الضفة الأخرى من النهر، فأخذوا يصرخون لانتهاه من هذا الأمر، ولنسبح ثانية عائدين، وهكذا شجعنا ذلك الحاج، ونزلنا إلى الماء معه، ولكن بعدما سبح مسافة ضئيلة بدأ يغرق، فأمسكناه من شعره، وواجهنا بعض الصعوبة في جره، وكان المسلمون في تلك الآونة، وقوفاً على الضفة أمامنا، وكانوا قد فقدوا صبرهم، وكانوا يصرخون علينا، وهنا أقدم اثنان من الحجاج الأقوياء، كانا يتقنان السباحة، فوضعا بينهما بشكل أنه أمسك واحداً منهما من ذراعه وأمسك بالذراع الأخرى، وتعلق على رقبتيهما، حتى يتمكن من السباحة معه ومن ثم إعادته، ولكن ما أن بدأ الثلاثة بالسباحة حتى شرعوا بالغرق، وبصعوبة بالغة تمكن الاثنان من انتزاع نفسيهما من قبضته، وتمكنا من انتزاع نفسيهما، وخرجا إلى سطح الماء، لكنه بقي لمدة طويلة تحت الماء، ثم ظهر ثانية، وكما حدث من قبل، سحبناه إلى الشاطئ وكأنه ميت، وقد فقد جميع قوته.

وبناء عليه أمرنا أدلاؤنا، بالسباحة والعبور إلى حيث كانت ملابسنا، وأن نترك ذلك الحاج حيث كان، حيث سيتدبرون أمره، وهكذا سبح جميع الحجاج وعبروا، وعندما أردت السباحة والعبور، استولى علي الفزع، بسبب الخطر الذي رأيته، وبدأت أرتجف وأتخيل وأتمتم قائلاً: «إنني بخفتي وطيشي، تخليت عن ثوب طائفتي، وقدمت إلى هنا، على

الرغم من أوامر سادتي أدلائي، وإنني إذا ما غرقت هنا، فإنني سوف أغطس من أعماق هذا الماء إلى هوة الجحيم، وذلك بسبب فسقي وخفتي، وعريّ اللاديني، فلأجل هذا السبب أستحق الحرمان الكنسي لأنني عصيت أوامري، ولكم كان جميلاً لو كنت مع أولئك الحجاج، الذين هم على الضفة الأخرى، ذلك أنهم يقفون بأمن وأمان، يارب مولاي، أرجوك لاتدع عاصفة الماء تحملني نحو الأسفل ولا أن تبتلعني الأعماق، ولاتدع أيضاً هوة الجحيم تفتح فاهها لإلتقافي».

وما أن فرغت من قول هذا، حتى قوّيت نفسي بشارة الصليب، وقفزت بقوة ورغبة شديدة إلى الماء، وأرغمت نفسي بقدميّ وذراعيّ على عبور وسط النهر، ووصلت إلى الضفة الأخرى من دون عائق، وعلى الفور، بعدما وضعت عليّ وشاح طائفتي، قطعت على نفسي عهداً خاصاً، في أن لا أبتعد ثانية مادمت حياً بين الناس، لمثل هذه المسافة عن ثوبي الرهباني وشعار طائفتي، لأنني في أن أكون بعيداً عنه أمر مخزن جداً بالنسبة إلي، ويبدو أنه أمر غير محتمل بالنسبة لي في أن أغرق بالماء من دون ثوبي، لكن في ثوبي، ماكنت لأهتم بالأمر كثيراً.

ولو أنني قدّرت الأمر، وفكرت بالعمل قبل السباحة والعبور، لما قمت بالسباحة والعبور مقابل أي شيء في الدنيا، وإنني أعرف جيداً، أن الحكماء في كل من القانون واللاهوت، يؤكدون بأن على رجل الدين، إذا كان ملزماً بارتداء ثوب طائفته، أن يفعل ذلك سواء أكان مرتاحاً في فراشه، أو في أي حال من الأحوال، مالم تكن هناك حاجة ضاغطة جداً، أو مرض لايسمح له بارتدائه، وبدون ذلك يكون قد اقترف ذنباً مميّثاً، علاوة على ذلك إنه إذا ما ظهر رجل دين دون أن يأبه — بدون ثوبه الكهنوتي — أمام رجل علماني، فبهذا العمل بالذات ينال الحرمان الكنسي، ولقد وقعت في خطر عظيم بسبب الإهمال.

وكان الآن، في ذلك الوقت، الحاج المتقدم الذكر، واقفاً وحده،

عارياً، وملئاً بالخوف، ومضطرباً مع وجه شاحب، وقام مسلم بامتطاء فرس قوي، وسار مسافة كبيرة عبر مخاضة للأردن، وأعادته إلينا، وأعطاه الحاج ذهباً كثيراً، ثمنا لحياته، وكان هذا الحاج، قبل أن يصاب بما أصيب به، رجلاً وسيماً، وشهوانياً، ومفرطاً، وكثير الخصومات، وكان مكروهاً من قبل كثير من أتباعه، لكن بعد إعادته إلينا، صار انساناً آخر تماماً، شاحب الوجه، وجباناً، ومتواضعاً، صاغراً، وقد بقي دوماً حزيناً، وكأنه كان منبوذاً، ولا أعتقد أنه عاش كثيراً من السنوات، بعد ذلك.

ولسوف أتحدث عن نازلة أخرى، أنا بالحقيقة لم أكن شاهداً لها، بل سمعتها من واحد جدير بالتصديق: ففي السنة التي كانت بين حجي الأول وحجي الثاني، ذهب عدد كبير من النبلاء الألمان بحراً نحو الأرض المقدسة، وجلب واحد من أعظم الرجال بينهم ديكه معه، ومع أنه لم يكن يعرف الأردن، كان لديه شعور مسبق بالخطر، ذلك أنه اعتاد طوال الرحلة على القول بأنه لا يخاف من أي شيء خلال ذلك الحج، إلا من الأردن فقط، وعندما وصل إلى الأردن، رفض السباحة عبره مع البقية، ومع ذلك خلع ثيابه، ودخل إلى الماء لتبريد نفسه وغسلها، ولكن والماء لم يصل إلى صرته، بدأ يغطس، وقد غرق تحت الماء، ولم ير مرة ثانية.

وكذلك في حجي الثاني هذا، الذي أتولى الآن وصفه، سبح عدد كبير عبر النهر، دون مراعاة لأوامر الحظر التي صدرت عن المسلمين، وكانوا يتوقعون وقوع بعض المخاطر، ولذلك صرخوا يلومون الذين سباحوا عبر النهر، وكان بين هؤلاء كاهن، سبح عبر النهر، مثلما فعلت أنا من قبل، وقد فقد عند الضفة الأخرى قوته الجسدية، ولم يعد قادراً على السباحة، كما أنه لم يعد يعرف كيف، بل وقف يرتعد خوفاً، وقد أعيد من قبل رفاقه مع صعوبة كبيرة، أعيد وهو رجل ضعيف ومحطم، في حين أنه كان قبل هذا مفعماً بالحياة وقوياً، وكان صديقاً عظيماً لي،

وغالباً ما سألته عما حدث له، وقد أجباني بأنه فجأة فقد قوته، ولقد سألت حجاجاً قدموا إلى الأردن قبلي وبعدي، فوجدت نزول بعض المصاعب دوماً بواحد ما.

ومما تقدم قوله ينبعث سؤال هو: كيف حدث أن ذلك الخطر والاضطراب غالباً ما وقع في هذا الاستحمام، مشاهدين أن النهر ليس عريضاً، ولا يمتلك تياراً سريعاً، بل تياراً بطيئاً إلى حد ما؟ ولهذا جواب ما، هو أن بعض الحيوانات الشريرة تكمن في تلك المياه، وهي عندما تشاهد حركة انسان وهو يسبح، تخرج من قعر الماء وتحاول الامساك به وهو يسبح، ويقول آخرون، إن السبب هو أن مكان الاستحمام قريب من المصببات التي يفرغ الأردن بها نفسه في البحر الميت، لذلك يحدث هناك بعض التمازج لمياه البحر الميت مع مياه هذا النهر، ونظر لسمية هذه المياه، يفقد الرجال الذين يسبحون عبره قوتهم.

ويقول آخرون بأن مامن شيء يعيش في البحر الميت، باستثناء بعض الحيوانات الجهنمية غير الطبيعية، التي تسبح، وتصعد من البحر الميت، وتسبب موت الذين يسبحون، ويقول آخرون بأن منشأ الخوف هو تصورات مرعبة، لأن الحجاج يسمعون دوماً حكايات حول هذه المخاطر، وكل واحد يرتجف تجاهها، ويقوم الجميع وهم محتزون، خشية من لحاق بعض الشرور بهم، يقومون وهم في حالة من الرعب بالسباحة عبر النهر، ويفقد بعضهم قوته من خلال التخيل والاعتقاد، بأنهم لمسوا، أو جرى جرهم نحو الأسفل للاغراق، ويقول آخرون بوجود سبب آخر، وهو أن السباحة عبر النهر فيها علامة على الشهوة واقتراف الاثم، مما لا ينبغي اظهاره في مكان مقدس مثل هذا، فالرب عانى من الاضطراب ليأتي إلى رجل واحد، من أجل ان يعبر الآخرون هناك عن الجدية، والهدوء، والالتزام بالنظام، لأنه بسبب الأمور الاعجازية التي صنعت هناك، صار هذا المكان، مكان وقار، وليس

مكان طرب، مكاناً للبكاء وليس مكاناً للضحك، مكاناً للصلاة وليس مكاناً للصراخ، مكاناً للركوع وليس مكاناً للصراع، ومكاناً للتوبة وليس مكاناً للشهوة.

لكن الحجاج أخذوا هذا كله من الجانب المعاكس، ولهذا أرخيت الأربطة في مثل هذا المكان المهيب ولذلك تعرض بعضهم للعقوبة ليكونوا مثلاً للبقية، ولكن مامن شيء لحق الذين عمدوا أنفسهم بشكل رصين وخشوع، كما رأينا في أوضاع النساء من الحجاج، اللاتي تحممن بين القصب فوقنا، بشكل لطيف وهادئ، وتقي، وأكثر سكونا مما فعلنا، وكنت أرغب، بالنسبة لمسألة هؤلاء النساء العجائز، أن يكون ماقيل صحيحاً ويتبرهن حقاً، لأن الناس يقولون، بأن من يستحم في الأردن، لا يصير أكبر، لابل كلما بقي في الماء مدة أطول، صار صغيراً أكثر، فعلى سبيل المثال، إذا استحم لمدة ساعة، صار أصغر لمدة ساعة واحدة، وإذا استحم لمدة ساعتين، صار أصغر لساعتين، وإذا كان لثلاث ساعات، صار أصغر لثلاث ساعات، وإذا استحم لمدة سنة، صار أصغر لمدة سنة وهكذا، لكن رفيقاتنا من النساء يحتجن للاستحمام لمدة ستين سنة، حتى يستعدن شبابهن، لأنهن كن نساء في الثمانين من العمر، فما فوق.

وإذا كان الذين يستحمون في الأردن لا يكبرون، فوقتها إنه حمام شرير، لأن الرب قال على فم اشعيا (٦٥ / ٢٠): «لأن الصبي يموت ابن مائة سنة، والخطيء يلعن ابن مائة سنة»، وسيكون هذا الحمام مطلوباً فوق كل شيء ومرغوباً، إذا كان يزيل الأمراض، والضعف، والشيخوخة من الجسد، ويعيد الشباب إلى العقل.

علاوة على ذلك، إن كثيراً من الناس العلمانيين تافهين، أو ساذجين، إلى حد الاعتقاد أنهم إذا ماتعمدوا في الأردن سوف لن يكونوا أكبر مطلقاً، وهذا سبب بذلهم جهوداً كبيرة للوصول إلى الأردن وتعميد

أحدهم الآخر هناك، وهم أيضاً الذين يغطسون في المياه العميقة، مخالفين لأوامر المسلمين.

وبعدما فرغنا من استحمامنا، أخذ بعض الحجاج ماء من الأردن، بجرار، ودوارق، وقوارير من زجاج مخالفين بذلك الأمر الثالث للمسلمين، الذين منعوا ذلك، بناء على مبادرة القبطانين، لأن قادة السفن لا يسمحون بوجود الماء على ظهر سفنهم، لأنهم يعتقدون بشكل ثابت وأكيد، أن السفن التي على ظهرها مياه من الأردن هي سيئة الحظ، ولا يمكنها القيام برحلات سريعة، بل هي في خطر، مادامت نقطة صغيرة من المياه باقية على سطحها، وغالباً مارأيت أنا شخصياً هذا، فعندما كانت هناك مخاطر في البحر، ناجمة عن رياح معاكسة أو من الحاجة إلى الريح (١٩٨) يسعى القباطنة حول أطراف الغليون ويركضون، يفتشون جميع الحجاج والصناديق وكل ما هو مغلق، ويبحثون في كل شق وزاوية بحثاً عن مياه الأردن، التي إليها يعزون سوء الحظ وإذا لم يجدوها في التفتيش الأول، يبحثون ثانية، وإذا ما استمرت مصاعب الملاحة، يعاودون البحث بحدة متناهية، ويتهددون كل من يجدون لديه أيا من هذه المياه، حيث يقومون برميها مع حقائبه في البحر.

وتحملنا في حجي الأول كثيراً من هذا القبيل، وجرى تفتيشنا بشكل مهين من قبل الملاحين، بحثاً عن هذه المياه، وبناء عليه، إنه لمن المفيد، معالجة هذا الأمر، ورؤية مدى الصدق الموجود في هذه الفكرة، أي فكرة، أن مياه الأردن، إذا ما وضعت في قارورة، وحملت على ظهر سفينة مسافرة في البحر، فيها أي طاقة تعيق إبحارها، وتجعل البحر هائجاً، وتمنع الريح الطيبة من الهبوب، أو تغير أحوال الهواء أو البحر في أي حال من الأحوال، وذلك كما يقول قادة السفن بأنها تفعل، وهنا علي أن أذكر أنني سمعت من رجل موثوق ومتعلم بأنه قد رأى في

روما مرسوماً بابويا بختتم رصاصي، فيه جرى منع أي انسان من جلب ماء من الأردن إلى البلدان الموجودة فيما وراء البحار، وإذا فعل ذلك فسوف ينال لعنة البابا، وقالوا أيضاً، بأن سادة البندقية قد أمروا، بإعادة أي انسان من فوق سطح البحر، إذا كان معه الماء المتقدم الذكر، وأنهم غالباً ما يقدمون ويفتشون السفن، ويريقون المياه التي يجدونها فيها.

وبناء عليه، فإن الذي يقول بأن ابحار السفن يعاق بحظر البابا، هو معلن معترف أن ذلك بسبب الماء، بل الذي هو مصدر الإعاقة هو الحظر البابوي، والآن إذا كانت أوامر الحظر البابوية، تعيق إبحار السفن، لا بد أن ذلك يتم بوساطة معجزة، وبسبب وجود أشخاص محرومين كنسياً، وليس بسبب الماء، وذلك تماماً كما نقرأ حول أشخاص محرومين كنسياً، في كونهم عرضة لكثير من المآسي، من ذلك على سبيل المثال، أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يدفنون في أفنية الكنائس، بل يلقي بهم أثناء الليل في العراء ويتركون للافتراس من قبل الحيوانات المتوحشة.

ومثل هذا عندما كان النبي يونان عاصياً هبت عاصفة هوجاء، وعندما ألقي به من السفينة، توقفت العاصفة، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، وهذا — على كل حال — لا يحدث إلى جميع الأشخاص المحرومين كنسياً، بل فقط مع الأشخاص الذين يرغب الرب في إظهار معجزة عليهم وبهم، وواضح أن هذا لا يقع للجميع، من قضية هؤلاء الحجاج الذين يقلعون مسافرين من دون الحصول على ترخيص من البابا، ويصلون إلى القدس بسلام، مع أنهم في وضع المحروم كنسياً، ومن هنا ينبعث سؤال جديد، هو بناء عليه: لماذا أقدم البابا على اصدار قرار بمنع جلب مياه الأردن، والجواب كما يبدو، هو أنه فعل هذا، ليزيل الأوهام التي أثارها استخدام ذلك الماء، لأن بعض الكهنة الساذجين، يعتقدون أنهم لن يملكوا القوة الحقيقية للتعميد، مالم

يمزجوا الماء مع بعض الماء من الأردن، ذلك أنهم اعتقدوا أن التعميد بذلك الماء هو أكثر قداسة، وأعظم تأثيراً منه بدونه، ومثل هذا، فإن بعض النساء اللاتي يؤمن بالأوهام، لا يقبلن بتعميد أولادهن، ما لم يكن في الماء بعض الماء من الأردن، قد مزج به، حتى وإن آمنّ بأن الماء الآخر فيه كفاية، تراهن مع ذلك بقدرن، أنه حيث توفر ماء قد مزج به بعض ماء الأردن فهو أكثر قداسة، وجميع هذه الآراء خاطئة.

وعلاوة على ذلك إذا ما أراد المشعوذون والسحرة، القيام باستخدام خاص لهذا الماء، استخدموه في الحال عندما يتمكنوا من جلبه، وذلك في ممارساتهم الواهمة، من أجل تحليل الخطر الذي أصدره البابا حول جلب المياه، لكن إذا — بناء على ذلك — ما جرى إعاقة إبحار السفن، فوقيتها يكون الرب قد عمل معجزة جديدة، ويقول آخرون، بأن الماء من الأردن، مادام جارياً، هو ماء حي، لكن عندما يوضع في قارورة يموت، ويصبح آسناً، وبما أن البحر لا يمكنه أن يحتمل ما هو ميت وفاسد، لذلك — كما يقولون — تعاق السفن في إبحارها، لكن هذا غير صحيح، لأنني رأيت أوعية كبيرة، صار الماء فيها آسناً، وقد جرى حملها إلى مسافات عظيمة فوق سطح البحر، وذلك من أجل أن تبقى بعض المياه الطازجة في السفينة، مع أنها كانت آسنة، ومثل هذا رأيت جسد رجل ميت، قد مات مؤخراً، وقد حمل على ظهر السفينة من جزر السيكلاد cyclades حتى البندقية، وهذا أمر سوف أتولى شرحه فيما بعد.

ويقدم آخرون سبباً آخر، ويقولون بأن البحر الميت يحتوي على صفات مدهشة، وبما أن مياهه تتمازج هنا مع مياه الأردن في هذا المكان، لذلك لا يستطيع البحر الكبير تحمل مياههما، بسبب العداوة التي يحملها كل واحد من البحرين نحو الآخر، لكنني لا أصدق هذا ولا أؤمن به، وأتصور انعدام وجود الملوحة فيه، في حين أن مياه البحر

الميت، شديدة الملوحة، ولهذا أطلق عليه في الكتابات المقدسة اسم «البحر الأعظم ملوحة»، وعلى هذا لا يوجد هناك، في ذلك المكان، تمازج بين المائتين، ويقول آخرون بشكل أفضل، وأكثر صدقاً، بأنه من الأوهام أن تؤمن بأن مياه الأردن لها قوة إعاققة، أو تغيير الرياح، أو التدخل في حركات الهواء والبحر، ومع ذلك إنه بسبب عدم إيمان الأناس المسيحيين، يتم هذا كله بأمر من الرب، حتى وإن تكن هناك على ظهر السفينة مياه من الأردن، فإن هذا يحدث ليس بسبب الماء نفسه، ولكن بسبب الحاجة إلى الايمان، لابل حتى كما نرى أنه من خلال الايمان السيء، بعض الأشياء تعمل فتشفي من بعض الأمراض، وهي أشياء ليس لديها سبب لشفاء هذه الأمراض، كما أنها غير متبناه في فن الطبابة لفعل ذلك، من ذلك على سبيل المثال إذا ما وقع فرس وصار أعرجاً بقدمه اليمنى، أقوم مباشرة بربط القدم اليمنى لبقرتي، التي ليست عرجاء، ويشفى بعد ذلك حصاني، ليس بسبب ضهاد بقرتي، بل بسبب سوء ايماني في اعتقادي بهذا، وهذا فيما يختص بالسؤال الذي هو أمامنا.

وحالما ترى قبطان سفينة يعتقد أن نقاطاً قليلة من ماء نهر الأردن يمكن أن تغير المجرى العام للهواء والماء في البحر الكبير، وتغير الرياح، وقتها عليك أن تعاقبه لذنبه، لأن الرب هو الذي يأمر بإعاققة الابحار، لزيادة الايمان السيء، هذا وكون هذا الاعتقاد هو وهمي، واضح أيضاً، من حقيقة أن كثيراً من الناس يمكن العثور عليهم، ممن جلبوا هذه المياه، علماً بأنهم اقترفوا خطأ بعملهم ذلك، لأن ذلك محرم من قبل البابا.

وليكن في هذا كفاية، ذلك أنني تجولت بعيداً عن مكان استحمامنا في الأردن، ووصلت بعيداً حتى البحر الكبير، وبناء عليه، عندما دعانا المسلمون، خرجنا من الأردن المقدس، وارتدينا ملابسنا، وخرجنا من

مجرى النهر، ووقفنا نتأمل المكان، ثم إننا جلسنا بين الشعراء، وأكلنا خبزنا والأشياء الأخرى التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، وذلك دون أن نعبأ بالمسلمين، الذين كانوا واقفين على أقدامهم، وتابعوا يستدعوننا لمغادرة ذلك المكان.

وصف الأردن وأولاً ينابيعه

أنا مقبل على تقسيم ماسأقوله حول نهر الأردن، إلى ثلاثة أقسام، هي: (١) ينابيعه، و(٢) صفاته و(٣) (إطرائه).

وفي وصفي للأردن، لابد أنني بحاجة لصنع إشارة إلى أماكن، أنا لم أرها بعيني، لأنه صحيح أن حجتنا قد وصل إلى الأردن، لكنه بالفعل لم يصل إلى بداياته، وفيما يتعلق بنبابيع الأردن، لقد قيل بشكل عام، وما قيل هو صحيح، بأنه ينبع من أسفل جبل لبنان، وذلك من نبعين، هما «أر» و «دان»، ومن هذين الاسمين مجتمعين نال اسمه وبات يعرف «بالأردن»، وأرجع بعضهم ينابيعه إلى الوراء كثيراً، وقالوا يرسل الفرات، الذي هو نهر من أنهار الجنة، فرعاً صغيراً من فروع، من خلال قناة سرية، تحت الأرض، وهذه تجمع مياهها في نبع اسمه فيالا phyala، وهو نبع عميق، وملء دوماً، لكنه لا يتدفق، ويطلق المسلمون على هذا النبع اسم «ميدان»، وورد هذا الاسم في انجيل متى: ١٥ «مجدل»، وفي انجيل مرقس: ٨، باسم دلمانوثة.

وكما قلت من قبل لا تتدفق مياه هذا النبع، بل تمر خلال منطقة الطرخونية من خلال قناة تحت الأرض سرية، وبذلك تجعل النبع يجري عند سفح جبل لبنان، وهو الذي اسمه «دان»، وكون نبع دان هو نبع المجدل مبرهن عليه من خلال حقيقة القش الذي يرمونه في نبع المجدل فيجدونه جارياً من خلال نبع دان، ويبعد هذان النبعان عن بعضهما ستة آلاف غلوة.

ويقولون بأن نبع «الار» يتلقى مياهه من نهر الدجلة الذي هو نهر الجنة الآخر، وذلك بوساطة قناة من تحت الأرض، وتتدفق مياه هذان النبعان: «أر» و «دان» من سفح جبل لبنان، مع وجود مسافة بين الأول منهما والآخر، ويجريان معا في نهر واحد أمام باب المدينة التي كان اسمها القديم هو لايش، وصار لهما اسم واحد هو الأردن، ونقرأ عن مدينة لايش في انجيل يوحنا: ١٠، وفي سفر القضاة: ١٨، فهنا ورد الخبر بأن أبناء دان قد وجدوها مدينة غنية وآمنة، فاستولوا عليها، وأحرقوها، ثم أعادوا عمارتها وأعطوها اسم دان، وهو اسم أبيهم.

وكانت هذه المدينة آخر مدينة في الأرض المقدسة باتجاه الشمال، وفي هذا المكان جرى نصب صنم ميخا، الذي نقرأ عنه في ثانيا الاصحاح الثامن عشر من سفر القضاة، علاوة على ذلك نصب يربعام، ملك اسرائيل، هناك واحداً من عجلية الذهبين، وأمر الناس بعبادته، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثاني عشر: ٣٢، من سفر الملوك الأول، وبعد زمن طويل من أيام فيليب، الذي كان الطيطراخ للايطورية والطرخونية، صار اسمها قيسارية، صدوراً عن احترام قيصر، ولهذا السبب ورد اسمها في انجيل متى: ١٦، «قيسارية فيليب»، وسماها الاغريق فيما بعد «بانياس»، وهي في هذه الأيام، لاتدعى باسم لايش، ولا دان، ولا قيسارية، ولا بانياس، بل بلنياس.

وبناء عليه يلتقي «الأر» مع «دان» أمام باب هذه المدينة، ويشكل اجتماعهما نهر الأردن، الذي يجري من هناك في طريق متعرج وطويل، وبذلك يفصل منطقة الايطورية عن الطرخونية، ثم إنه يصب في وادي، حيث تتجمع مياهه في بحيرة، وتعرف هذه البحيرة باسم «مياه ميروم»، وحوها نقرأ في سفر يشوع: ١١، وتمتلئ هذه البحيرة في مواسم الشتاء العظيمة، لكن المياه تجف في الصيف، وتتوفر هناك نباتات كثيفة، فيها تعيش الأسود، وحيوانات مفترسة أخرى.

وبعد ذلك تسيل المياه بين مدينتين هما كفرناحوم وكورزين، وهناك تشكل بحيرة كبيرة، هي بحر الجليل، أو بحر طبرية، وذلك مثلما يشكل الراين بحيرة كونستانس، وتتدفق المياه من الجزء المنخفض من هذا البحر، وتمر فيما بين جبال اسرائيل، وجبال العربية الصغرى، وتصل ممتدة حتى سهل أريحا، ومن هناك تصب بين فكي البحر الميت، ومن ثم يجري ابتلاعها.

هذا وإن المسافة من حيث يبدأ منطلقاً من بحر الجليل، إلى المكان الذي يدخل فيه إلى البحر الميت سفر اثني عشر يوماً، والبحر الميت في طوله يستغرق سفر خمسة أيام، وهذا البحر مرتبط مع المياه التي اسمها في سفر الخروج: ١٥ «مياه ماره»، ومياه ماره مرتبطة بالبحر الأحمر، هذا ويرتبط البحر الأحمر بالبحر الهندي، الذي يتفرع عن المحيط، وعلى هذا إن مجرى الأردن طويل جداً من نبعه حتى نهايته.

صفات نهر الأردن

دعونا نرى الآن، أي نوع من الأنهار هو نهر الأردن، فهذا النهر المقدس ليس نهراً عريضاً جداً، فعرضه لا يكاد يتجاوز الستين خطوة، لكن، صحيح أنه صغير بالعرض، هو عميق جداً، وله بشكل خاص في المكان الذي استحمينا فيه، قعر رملي، وضفتين طينيتين، وهو يفيض ويتناقص وفقاً للموسم من السنة وهو يفيض بشكل خاص في أيام حصاد القمح، أي في أيام الربيع، لأن القمح، كما هو معتاد، ينضج في ذلك الوقت، في بلاد فلسطين، وذلك كما قرأنا في سفر يشوع: ٣، وفي الحقيقة يفيض بشكل كبير يبلغ به الحد أنه يتدفق خارج مجراه إلى الحقول، لأن أنهاراً كثيرة وجداول تصب فيه، من ذلك — على سبيل المثال — نهر ييوس، الذي عبره تصارع يعقوب مع الملاك، ويمتلك وقتها مجرى عميق إلى حد ما، مع ضفتين عاليتين، ومياهه طيبة، ومناسبة للشرب، ولا سيما في المواسم الباردة، أي في الشتاء، لأن هذه

المياه في الصيف دافئة جداً، ومياهه موحلة، هذا ولست عارفاً فيما إذا كانت دوماً كذلك، وفيها كميات وافرة من الأسماك الجيدة، ومجره ليس مجرى سريعاً، لكنه يسيل بشكل صامت، ومع ذلك عندما يسبح الانسان عبره، يشعر وهو في وسطه بتيار الماء وهو يتحرك ضده.

ويمتلك نهر الأردن من منبعه عند قيسارية فيليب حتى نهاية البحر الميت، أي لمسافة حوالي المائة ميل، يمتلك على ضفتيه سهولاً واسعة، تنتهي بجبال عالية، وإلى جانب الأردن قفار، هي التي نقرأ عنها أيضاً في سفر اشعيا: ١٢، حيث كان يوجد فيها في العصور الماضية عدداً كبيراً من الديرة، وأماكن سكنى لرجال دين، وخرائبها مازال مرئية في هذه الأيام، وتتجول في قفار الأردن وسهولها أعداد كبيرة من الحيوانات المتوحشة، وهم يأتون حتى في هذه الآونة وينزلون إلى الماء للشرب مثل قطعان من الأغنام، لكنهم ينامون في الأوقات الحارة من النهار في الكهوف بين الصخور، وهناك بينها أسود، ودبية، وثعالب، ويحامر، وغزلان، وأرانب، وحمير وحشية، وماشابه ذلك، وهم يسرون هناك ويتجولون مثل الحيوانات الأليفة، ولا يفرون من الناس، إلا عندما يحاولون الاقتراب منهم.

واعتماد منذ سنوات مضت أسد ضخيم على السكنى هناك، ولم يكن هذا الأسد يؤذي أحداً لا من البشر ولا من الحيوانات، بل كان يراقب الناس وهم يمرون، ويظهر إلفته بتحريك ذيله، وحدث أن واحداً من المسيحيين كان معه قوس، فرمى بسهم على الأسد، وركض الأسد نحو السهم وشمه، فأطلق عليه سهماً آخر، وعندما كان السهم طائراً، نهض بنفسه وكان يريد أن يلتقطه، ومن ذلك الحين لم يعد يرى في بقعته المعتادة، بل أخذ يتجول خلال السهول وأماكن غابات الأردن، وكان يسير هناك وهو يزأر باحثاً عما يمكنه أن يفترسه، وأحدث منذ ذلك الحين كثيراً من الشرور لحقت بالبشر وبالحيوانات.

فخار وإطراء نهر الأردن المقدس

إن فخار نهر الأردن المقدس أمر عظيم لا يمكن تقديره، لأنه يفصل أرض المؤمنين عن أرض غير المؤمنين، ذلك أنه كان يوجد وراء الأردن العمونيون، والمآبيون، والأدوميون والعرب، في حين كان يوجد على هذا الجانب ويسكن بنو إسرائيل، وقد جعل طريقاً لبني إسرائيل، وبشكل اعجازي أوقف جريانه وتجمعت مياهه، حسبما ورد في سفر يشوع: ٣، وقد شفى نعمان المجذوم، الذي كان قائد جيش الآراميين، كما ورد الخبر في سفر الملوك الثاني: ٥/١٤، وقد أطاع هذا النهر أوامر إيلياء، واليشع، وفتح طريقاً لهما في وسطه (الملوك الثاني: ٢/٨)، وقد طفا على وجهه بشكل اعجازي عمود من الحديد (الملوك الثاني: ٦/٦).

وقام يوحنا المعمدان الأعظم قداسة، بتعميد الناس في هذا النهر، حسبما قرأنا في انجيل لوقا: ٢، وفي انجيل يوحنا: ١، وفي انجيل مرقس: ١، ويبقى الأكثر أهمية من هذا كله، ومن هؤلاء جميعاً، هو أن يسوع المسيح، ابن الرب، كان مسروراً بأن يجري تعميده في هذا النهر، ولقد أمكن بلمسة من جسده الأعظم نقاء أن يضيفي على المياه هناك، قوة تجديد روحانية، وبناء عليه إن هذه المياه هي أم الجميع الذين عملوا تجديداً روحياً في المسيح، ولهذا السبب قال برنارد: «يتلقى الأردن ببهجة المسيحيين في صدره، الذين يتفاخرون بأنهم تقدسوا بتعميد المسيح»، ومثل هذا قال: «أي نهر أعظم قدراً من هذا النهر، الذي كرسه الثالوث المقدس نفسه، وقدسه لنفسه، بحضوره المثلثي؟، فالآب هناك سمع، والروح القدس شوهد، والابن تعمّد، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى: ٣، ويوحنا: ١، ولوقا: ٣»، واستطرد برنارد يقول: «نفهم من هذا كله بأن المجذوم الآرامي قد كذب حين فضل أي نوع من مياه دمشق لا أعرفه، على مياه إسرائيل، وذلك بوجود أردننا، الذي برهن مراراً بأنه يعبد الرب بخشوع».

ونواجه هنا سؤالاً: طالما أننا نرى أن نهر الأردن، بهذه الدرجة من القداسة، والسمو، وأنه لذلك هو مبارك، ونقي، ومقدس، وعذب، ومياهه صحية، لماذا عليه أن يصب في مياه هي ملعونة، وغير نظيفة، وشريرة، ومالحة إلى أقصى الحدود، وسامة، والمقصود بهذا صب مياهه في البحر الميت أو بحيرة سدوم؟ وفي إجابة لهذا السؤال يقول بعضهم بأنه صحيح أن الأردن يتدفق بالحقيقة نحو البحر الميت، لكنه عندما يصل إلى شواطئه، يخرق الأرض، ويدخل من هناك، قبل بلوغ البحر.

غير أن هذا غير صحيح، لأنه من الممكن رؤيته، وهو يجري في البحر لمسافة طويلة، وهو متميز عن مياه البحر، التي هي كثيفة، ومنظرها أسود، في حين نجد أن مياه الأردن بيضاء وصافية، ويقول آخر بأن هذا يحدث من أجل أن تتلطف لعنة الأول ببركة الثاني، ويتبنى آخرون وجهة نظر أرفع حول الموضوع، ويقولون تكمن هنا أسرار عظيمة، لأنه صحيح أن الأردن نهر مقدس، لكن بما أنه لا يمجد نفسه، بل يجري نازلاً نحو البحر الميت، لا تتمكن قداسته من انقاذه ومنعه من السقوط في البحر الميت، ومن مشاركته لعنته، ومثل هذا الانسان، نجد مع أنه قد تقدس بعمادة المسيح، لا يرفع نفسه عالياً، بل يتابع السير نازلاً على طريق الضعف الجسدي، ولعدم محافظته على قداسته يسقط في اللعنة، ويجعل من نفسه شريكاً لها، مثلما يفعل الآخرون الذين لم يتعمدوا، ولأنه مثلما الأنهار الأخرى والجداول غير المباركة تصب في البحر الميت، وتشارك في لعنته، كذلك الانسان المذنب مع أنه قد يكون معمداً، لكنه لم يكن مقدساً، هو مثل ذلك، وهكذا دواليك.

ومن المعتقد أن المكان الذي استحمينا فيه، قد قام بنو اسرائيل بعبور النهر عنده، فوق المجرى الجاف لاحتباس المياه عن الجريان، وأنه هناك جرى تعميد: ايليا، واليشع، والمسيح، ولهذا قام هنا — حسبما قرأت في كتاب حج قديم جداً — في هذا الجانب من الأردن، حيث تعمد الرب،

صليب طويل، اعتاد الحجاج على نزع ملابسهم إلى جانبه، ومن ثم كانوا يدخلون إلى الماء، وفي المكان الذي خلع فيه الرب ملابسه على هذه الضفة من النهر، كانت قد بنيت كنيسة كبيرة، لها سقف معقود على قناطر، مدعوم بتسعة أعمدة من الرخام، وكانت هذه الأشياء جميعاً قد جرفتها منذ زمن طويل مياه فيضانات الأردن وابتلعته، ولهذا السبب، لا يمكن في هذه الأيام رؤية أثر منها، وقد تحدث القديس برنارد بإطراء عن نهر الأردن، في الفصل التاسع من قداسه لفرسان الداوية.

مغادرة الحجاج للأردن باتجاه بيعة القديس يوحنا — قفار الأردن وصحراء القديس يوحنا المعمدان

وبعدما فرغنا من استحمامنا، عاودنا على الفور امتطاء ظهور حميرنا، وغادرنا النهر المقدس، وسرنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وعاد الحجاج الذين لم يكونوا عازمين على زيارة جبل سيناء، ببهجة عارمة، بسبب أنهم وصلوا أخيراً إلى نهاية حجاجهم، لأن الأردن هو خاتمة حج القدس، وبناء عليه مضينا مسرعين خلال قفار الأردن، إلى داخل صحراء القديس يوحنا المعمدان، الذي بدأ بسكنى هذه الأماكن المنعزلة، إلى جانب الأردن، فور تلقيه كلمة الرب، التي وصلته في القفار، قرب بيت أبيه، وبناء عليه، وصلنا الخبر في انجيل القديس لوقا: ٣، بأنه تجول في جميع المنطقة التي من حول الأردن يبشر، ويعمد.

ومثل هذا، لقد سكن لبعض الوقت في بيت عبره، عبر الأردن، حسبما ورد في انجيل يوحنا: ١، وتنقل بين جميع أماكن منطقة الأردن، من مكان إلى آخر، حتى يتمكن من التبشير، ففي هذه القفار التي نحن صاعدين إليها، جاء الرب يسوع مرة إليه، يطلب منه التعميد، ويوجد على ضفتي الأردن قفاراً وعرة، فيها سكن يوحنا المعمدان، ومن بعده عدد كبير من الآباء المقدسين، الذين احتذوا حذو المعمدان، فتحزموا بأحزمة الجلد وأكلوا الجراد، والعسل البري، وذلك حسبما قرأنا في

انجيل متى: ٣، ويوحنا، ودعونا نرى ما كائنه تلك الجرادات والعسل البري.

ويقول بعضهم بأن الجراد عبارة عن حيوانات صغيرة جداً، تطير على طريقة القفز، ولها مناشير في أرجلها، ولهذا تسمى أيضاً باسم ser-ratae، ولها أجساد صغيرة جداً وقصيرة، مثل اصبع يد الانسان، وهي من السهل امساكها في الأعشاب، وبعد قطع رؤوسها تقلى بالزيت وتؤكل، وهي طعام القوم الفقراء، والجراد هذا موجود في هذه الأيام في صحراء اليهودية، وعلى هذه، عاش — كما يقال — القديس يوحنا المعمدان.

ويقول آخرون، ممن ينظرون إلى الأمور نظرة أكثر سمواً: «من غير المعقول أن يكون يوحنا المعمدان الأعظم مباركة أن يكون قد أكل لحم الجراد في الصحراء، لأنه رفض أن يأكل الخبز في بيته المتقدم»، ويقولون هناك نوعاً من الأعشاب، ينمو في القفار، اسمه Longusta، وقد صحف العوام اللاتين هذه الكلمة إلى Locusta، ويجمع الناس الفقراء هذه العشبة، ويأكلونها، على أنها طعام القديس يوحنا، وبناء عليه اعتاد رهبان الأيام الخالية، الذين سكنوا إلى جانب الأردن، أن يستخدموا يومياً هذه العشبة في أطعمتهم.

ويقول بعضهم بأن العسل البري، هو ما يتم العثور عليه في جذوع الأشجار، حيث تولى النحل حمله إلى هنا، ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع القصب ينمو هناك، له عصير حلو، وهذا القصب، هو الذي نسميه قصب السكر، وينمو هذا القصب قرب الأردن، ومنه لا يستخرج العسل، بل سائلاً أعلى قيمة، هو سائل السكر، وهكذا إنهم يقولون بأن يوحنا عاش على قصب السكر هذا، غير أن آخرين يتفكرون بكلمات الرب (متى: ١١/١٨) التي قال فيها: «جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب»، ويقولون بأن اللاهوتين قد قالوا لدى تعاملهم مع هذا النص، بأنه قد

قليل هو لم يأكل ولم يشرب، لأنه لم يستخدم الطعام العام، والشراب المعتاد لبني البشر، ثم ما الذي يأكله ويشربه الذي يعيش في القفار غير أشياء ضئيلة جداً، هذا ولا يعد العسل المتقدم الذكر، سواء المستخرج من تجاويف الأشجار أو الذي يستخرج من قصب السكر، بين الأطعمة المتيسرة للعوام من الناس، بل من طعام النبلاء الذين يتغذون بلطف بالأطعمة الفاخرة اللذيذة، ويقوم آخرون بتطيب الطعام بالعسل والسكر، لجعله أكثر لذة وشهية، وبناء عليه ليس صحيحاً القول بأن القديس يوحنا قد أكل مثل هذا الطعام، ذلك أنه رفض أن يأكل في بيت أبيه الطعام المطبوخ، والفواكه، أو الخضار، فكيف من الممكن أن يكون قد أكل، العسل، وأقراص العسل في القفار؟ وبناء عليه هم يقولون بأنه كان هناك نوعاً من جذور الأعشاب، اسمها العسل البري، ويقول آخرون بأن العسل البري، هو أوراق بعض النباتات، التي هي بيضاء، ولطيفة ومستديرة وهي عندما تفرك مع بعضها في اليد، يكون لها شيئاً من طعم العسل.

ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع البراعم، تنمو على نوع محدد من النباتات، فيها بذور خضراء مثل الفاصولياء، فهذه ما كان يأكله القديس يوحنا، والسهل كله مغطى بهذه النباتات عندما كنت في القفار، غير أنني وجدت بذورها قاسية مثل الحجارة، بحيث لم يكن بإمكانني فصم أي منها بأسناني، ويقول آخرون بأن هناك أشجاراً في القفار، اسم ثمارها «الخروب»، كنت قد أتيت على ذكرها من قبل، وهي ثمار سوداء مستطيلة، وعندما تنتزعها من أغصانها جيدة للأكل، ويطلق على هذه الثمار في كل مكان اسم «خبز القديس يوحنا»، وهي تباع من قبل الذين يبيعون التوابل في حوانيتهم، وهي في الشرق كثيرة جداً، تكاد أن تكون لاقيمة لها، يتولى الفقراء جمعها، وانتزاع قشورها بأسنانهم، وتجهيزها وأكلها كمنقوع حلو، مع بقاء القطع المنقوعة في العصير، وغالباً ما

أكلت من هذا الخروب في الماضي، غير أن نفسي لم تشبع منها، ومن الممكن أن القديس يوحنا كان يشرب عصير هذه الحبوب.

وسرنا خلال هذه القفار، التي هي قفار القديس يوحنا بسرعة، وبعد قطعنا حوالي الميل، فجأة انبعث صراخ وعويل بين رفيقاتنا من النساء الحاجات، مما أحدث الفوضى بين صفوفنا، لأنهن اعتدن على السير بهدوء عظيم جداً، وبخشوع وصمت، وكان هناك انزعاج كبير بينهن واضطراب كبير، مما سبب الدهشة لكل واحد منا، ولذلك بادرنّا مسرعين نحوهن، وهن يبكين، وسألنا عن سبب بكائهن، وقد أجبنّا بأن واحدة من رفيقاتهن قد جرى البحث عنها بين الحشد، فلم يعثر عليها، وأنهن كن يبكين لفقدانها، وقد رجونا التوقف، وعدم السير وراء المسلمين، الذين مضوا أمامنا مسرعين جداً، وذلك حتى يمكن العثور على رفيقتهن، ولهذا وقفنا مع هؤلاء السيدات، ولم نتقدم نحو الأمام، وفي الوقت نفسه استدعانا المسلمون لمتابعة سيرنا، وهم يصرخون ويتهددون.

غير أنهم عندما رأوا أننا لم نلحق بهم، عادوا إلينا، وبعدما سمعوا شكاوى كثيرة مضاعفة، بعثوا على الفور بعدد منهم، على ظهور خيول سريعة جداً، وذهب معهم بعضاً من أقوى الحجاج للبحث عن المرأة العجوز، وتوجه هؤلاء الرجال مسرعين نازلين نحو الأردن، وذلك عبر طريق القفار، لأننا خفنا من امكانية غرقها في مياه الأردن، أو أنها وقعت فاقدة لوعيها لحاجتها للطعام في القفار، أو أنها التصقت بالطين على طرف النهر، ولم تكن قادرة على الخروج، أو لعلها اعتقلت، وسرقت، واغتصبت من قبل أحد المسلمين، وقد تشوقت أجواف الحجاج لرؤية أختهن، ومع ذلك، فإن بعض قساة القلوب من الفرسان، أبدوا انزعاجهم تجاه تعرض الحشد كله للفوضى والاضطراب من أجل امرأة عجوز واحدة، ولوجرى اتباع ما أشاروا به

لتمّ فقدان المرأة العجوز فقداناً كاملاً، وبهذا الموقف كانوا أشد وحشية من المسلمين، الذين لدى قلقهم بشأن ضياع المرأة، خافوا من أن تكون قد خطفت من قبل بعض البداءة أو الرعاة المدينيين، أو أنها افترست من قبل أسد، أو من قبل حيوان مفترس آخر، ووقفوا بصبر ينتظرون معنا، في ظل حرارة الشمس العالية جداً.

وحدث أن قائد هؤلاء المتزمرين، الذين رأوا إنها مسألة تافهة، فقدان امرأة عجوز، والذين ربما رغبوا بضياعها، سقط هذا فيما بعد بأيدي هؤلاء النساء العجائز (عندما مرضوا) ورجاهن بدموع بنيل المساعدة ممن ازدراهن من قبل، هذا وكنا قد تعرضنا لهذا الموضوع من قبل، وفي الحقيقة كان قد انحدر إلى وضع كان أسوأ من وضع المتسولين التعساء.

هذا وتجول الذين أرسلوا للبحث عن العقيلة التقيّة، أي رفيقتنا، وأخذوا يفتشون وهم يصرخون على طول الطريق في أرجاء القفار، وذهبوا حتى ضفة الأردن، إلى المكان الذي استحمت فيه النساء، وهناك وجدوها متمددة نائمة في فراش من القصب، وقد أيقظوها، وأخذوها، وحملوها على ظهر حصان، وقدموا إلينا وسط صرخات فرح، وكأنهم قد أمسكوا حيواناً مفترساً.

كيف دخل الحجاج إلى كنيسة القديس يوحنا

وهكذا جرى استقبال العقيلة بسرور، وهنأها الرجال الجيدون، مثل الذي فقد شاة، في انجيل لوقا: ١٥، وتابعنا السير على طريقنا حتى وصلنا إلى نباتات وأشواك في أرض جرداء، لاتنبت النباتات عليها ولا الأشجار، وبذلك صارت غير مستوية، وتلالاً رملية، ومناطق مرتفعة، وفيما نحن على طريقنا وصلنا إلى كنيسة جميلة وواسعة، التي هي كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وهناك ترجلنا من على ظهور حميرنا، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم اننا دخلنا في قداس

مخصص للحجاج وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وجلسنا هنا لوقت قصير، في الظل وأرحنا أنفسنا.

وقد حكيت إلى الحجاج عن الازعاج الذي تعرضنا إليه في حجي الأول، في هذه البقعة، الأمر الذي أنا مضطر لإقامه هنا أيضاً، لأننا عندما خرجنا من القفار، إنما قبل أن نصل إلى الكنيسة، دفع بنا أدلاؤنا من على ظهور حميرنا، وأرغمونا على قيادتهم بأيدينا، ومنعوا كل واحد من الصعود إلى الكنيسة، التي قامت فوق الطريق، بل أمرونا بالمرور إلى جانب الكنيسة مسرعين صامتين، وكان هذا العبور مزعجاً لنا، لأننا لم نكن راغبين بعدم رؤية الكنيسة، وغير راضين بفقدان الغفرانات، علاوة على ذلك كان الطريق رملياً، وغطسنا في كل خطوة عميقاً في الرمل، إلى حد أننا كدنا أن نغطس حتى ركبنا، وكان النهار حاراً جداً، والشمس كانت متوهجة جداً، وقد تعذبنا كثيراً ومرضنا بسبب تلك الرحلة ولمورنا المقيت إلى جانب الكنيسة.

وكان سبب حدوث ذلك، هو أن أحد البداة الملعونين، وكان ابناً شريراً للشيطان، قد استولى على تلك الكنيسة، واتخذ منها بيتاً لنفسه، وهناك عاش كلص، يقوم بهجمات من هناك ويسلب المارين، وقد أعلن عن كراهية خاصة نحو جميع المسيحيين، وكانت هناك عادة بين المسلمين أنه إذا ما التقى رجلان في الحقل، وكان أحدهما يخاف من الآخر، يقوم الذي لا أمل لديه بالانتصار، بالترجل من على ظهر دابته، ويمشي على قدميه، حتى يقابل الآخر، وذلك كعلامة على الاحترام، ومن أجل أن يظهر بهذه الطريقة الاحترام نحوه، ومثل هذا إذا ما أراد حشد من الناس اظهار احترامهم نحوه آخر، يقوم جميع الرجال بالترجل من على ظهور دوابهم، وكذلك أيضاً، عندما يركب ويسير على الدرب، أي ملك، أو أمير، أو نبيل مسلم، أو مملوك كبير، يقفـز جميع الذين يواجهونهم من على ظهور دوابهم، ويقفون حتى يمرون بهم، وإذا لم

يترجلوا من على ظهور دوابهم في المناسبات المتقدم ذكرها، يقوم الآخرون باقتلاعهم من على ظهورها بالقوة، مع كثير من الالهانة والازعاج، وقد خشي أدلاؤنا من هذا البدوي، وخافوا أن يكون هو وأتباعه كامنين ينتظرون في الكنيسة، وأنه من الممكن الاندفاع من هناك، والانقضاض علينا، خاصة إذا ما مررنا بالبيت دون اظهار الاحترام، ولهذا أمرونا بالترجل من على ظهور حميرنا، وأن نمرّ بذلك البيت بشكل متواضع، الأمر الذي فعلناه، وعلى كل حال كان الفرسان في غاية الانزعاج، ولعنوا ذلك البدوي بأبشع الكلمات وأرهبها، ومهما يكن من أمر لقد عبرنا من هناك، ولم نر أحداً في ذلك المكان، وكان ذلك لصالحنا، لأننا خفنا كثيراً نحن مع أدلائنا من ذلك البدوي، وأكثر ما كنا نخشاه أن يقوم بالحقاق بنا.

كنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر وقداسة المكان

وكنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر، واسعة إلى حد ما، لكنها الآن مشبعة بسبب سكنى البداية فيها، الذين يعيشون حياة قطاع طرق فيها، ويسكنون فيها وكأنها حصن، وقد جرى تهديم مذابحها، وفقدت من بعض الجوانب شكلها ككنيسة، وهم يقولون بأن القديس يوحنا المعمدان قد وعظ الناس في هذه البقعة، وأعطى إلى الجميع أحكاماً، بموجبها عليهم أن يعيشوا، وذلك حسبما قرأنا في انجيل القديس لوقا: ٣، وهنا أيضاً قدم شهادة للرب يسوع، كما قرأنا في انجيل متى: ١، فضلاً عن هذا كان يوحنا واقفاً في هذا المكان، عندما جاء الرب يسوع إليه، ولدى رؤيته له، أشار باصبعه إليه قائلاً: «هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا: ١).

ويقول بعضهم بأنه من هذا المكان جرى رفع إيليا إلى السماء في عربة من نار، لكن هذا لا يتوافق تماماً مع ماورد في سفر الملوك الثاني: ٢، لأن إيليا جرى رفعه من وراء الأردن، وكان هناك فيها مضى دير ملاصق

لهذه الكنيسة، فيه كان القديس زوزيما Zozima الراعي لكثير من الرهبان، وكان على مقربة من الدير هناك دار ضيافة للحجاج، فيها أمضت القديسة مريم المصرية ليلتها الأولى، عندما نزلت من القدس بغية الذهاب إلى القفار عبر الأردن، وجاءت القديسة مريم المصرية إلى هذه الكنيسة قادمة من القفار، وكان ذلك يوم الجمعة بعد عيد الغطاس، وتسلمت فيها قداس القربان من القديس زوزيما، وقد سارت في ذهابها إلى القفار وإيابها منها فوق نهر الأردن، وعبرته جافة القدمين.

وفي الأيام الخالية كان يحتفل بعيد كبير عند هذه الكنيسة، وذلك في يوم عيد الغطاس، في الأيام التي كان العصر الذهبي مايزال فيها مستمرا، لأن بطريرك القدس، وأسقف بيت لحم، ورعاة الدير، والرهبان، ورجال الدين، والشعب، هؤلاء جميعا كانوا قد اعتادوا على النزول إلى هنا، وبعد إقامة قداس، كانوا ينزلون معاً، مع الأعلام والصليبان إلى الأردن، وهناك يغنون مزامير إلى جانب النهر المقدس.

واعتاد راعي دير القديس يوحنا، أن يغطس الصليب الذي كان يحمله في الماء، ولدى غطيس الصليب، اعتاد جميع الأشخاص المرضى على القاء أنفسهم في الماء، وبذلك كانوا يشفون، ويقوم في الوقت نفسه الأصحاء بتعميد أنفسهم بخشوع، وبذلك يصبحون أقوى، ومن المعتقد أن هذه المعجزات التي كانت تتم هناك، كانت تتم لاسبب قداسة النهر، بل بسبب المراعاة الصحيحة للدين، بين المسيحيين بشكل عام، وكذلك بين الرهبان وبين رجال الدين، ولدى الفراغ من الاحتفال كان كل واحد يذهب إلى وطنه وإلى موضعه الخاص، وبلي هذه القفار، صحراء القديس جيروم الواسعة، التي خلفها يقع البحر الميت، وفوق البحر الميت هناك جبال عين الجدي، ولسوف أتولى وصف هذه الأماكن جميعاً، في اليوم الرابع من آب.

موضع الجلجلال المقدس ومكانته العلية

وبعدما استرحنا قليلاً وبردنا أنفسنا في كنيسة القديس يوحنا، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا بتواضع، ووصلنا إلى مكان بين تلال رملية، حيث يسير الطريق السلطاني بين هضبتين صغيرتين، وقد قال لي أحدهم، بأن اسم الهضبة الأولى منهما هو جرزيم، واسم الثانية عيبال، وهما جبلي المباركة واللعنة، اللذين قرأنا عنهما في سفر التثنية: ٢٧، لكن الأمر ليس كذلك، وسوف نتحدث عن هذين الجبلين ونبينهما بعد قليل.

ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل منطقة أريحا، الذي كان محترقاً بأشعة الشمس، ووصلنا هناك إلى موضع الجلجلال، الذي ورد ذكره عدة مرات في الكتابات المقدسة، ففي هذا المكان وضع بنو إسرائيل علامات حددوا بها معسكرهم، وكان ذلك بعد عبورهم للأردن، وهنا كان أول مكان سكنوا فيه فوق تراب الأرض المقدسة، وهنا جرى ختانهم للمرة الثانية، وهنا حافظوا على عيد الفصح، وبدأوا هنا بأكل ثمار الأرض المقدسة، ولم يعد المن ينزل عليهم من السماء، بعدما أكلوا ثمار الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع: ٤-٥.

هذا وإنني أتصور، أنه عندما قدم يشوع إلى الجلجلال مع بني إسرائيل، لم يكن هناك بناء، ولا قرية، ولا مدينة، بل تمتد الحشد فوق أرض جرداء في سهول أريحا، وبعدما نصب بنو إسرائيل خيامهم هناك، عملوا بعض الأبنية من أجل خيمة عهد الرب، وتابوه العهد، للذان بقيا هناك لمدة طويلة، وكذلك من أجل الاثنتي عشرة حجرة، التي أمر يشوع بني إسرائيل باخراجها من الأردن، عندما عبروا في وسط الأردن، وساروا فوق مجراه وأقدامهم جافة، وقد نصبت هذه الحجارة في الجلجلال، كما قرأنا في سفر يشوع: ٤.

وكنـت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، بأن المسيحيين قد بنوا في العصور القديمة في الجـلجال في المكان الذي وقفت فيه خيمة عهد الرب فيما مضى، وحيث أيضاً نصبت الحـجارة الاثنتي عشرة ووضعت، بنوا كنيسة فخمة، فيها وضعت الحـجارة المتقدمة الذكر، وكانت حـجارة غير مصقولة وكبيرة إلى حد أنه لم يكن بإمكان اثنين من الرجال حمل واحدة منهم بسهولة، ورفعها من على وجه الأرض، وكانت احداهن قد انقسمت بالصدفة إلى قسمين، وقد أعيد لصقها فنيا من جديد بواسطة أعمال حديدية.

ولم نكن — على كل حال — قادرين على رؤية خرائب هذه الكنيسة، ومع ذلك كنا مسرورين جداً برؤية المكان، وانكبنا على وجوهنا، وقبلنا الأرض المقدسة، التي هي عن حق مقدسة، لأنه هناك تحباً يوشع ليحل حذاءه وليخلعه من قدميه، لأنه عندما ذلك الرجل القوي والمقدس، أي يوشع، كان في الميدان، رأى رجلاً واقفاً أمامه، مع سيف مجرد، ونحوه تقدم يوشع دونما خوف وقال له: «هل لنا أنت أو لأعدائنا؟» فأجابه قائلاً: «كلا أنا ميكائيل رئيس جند الرب، والآن أتيت لمساعدتك» (يشوع: ٥)، وقد عدّ هذا المكان مقدساً منذ القديم، وبسبب قداسته سكنت هنا جماعة من الأنبياء، وكانت مثل دير للرهبان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ٤.

وكان هذا المكان الأول، الذي شرع الرجال المقدسون في سكناه مع بعضهم، مثلما يفعل رجال الدين في الدير، وذلك بسبب قداسة المكان، الذي قدسه رئيس الملائكة ميكائيل بشكل خاص بظهوره هناك، وذلك مثلما جرى تقديس جبل جرجانوس Garganus الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد، والذي إليه يسعى الناس من أقصى أجزاء الدنيا، هذا وإن تقديس هذا المكان بواسطة الملاك هو مؤكد تماماً، ذلك أنه مؤيد بشهادة الكتابات المقدسة القانونية، وهو أمر صحيح بدون أدنى

شك بظهور القديس ميكائيل، الذي وقع في هذا المكان.

ويسعى الناس إلى الحج في بلدان الغرب، حتى إلى البحر البريطاني، إلى ما يعرف باسم جبل القديس ميكائيل ليشاهدوا حقاً بعض الآثار، والأسلحة — ولأتحدث مثل طفل — العائدة للقديس ميكائيل، حيث قالوا بأنه فوق هذا الجبل وضع القديس ميكائيل الأسلحة التي غلب بها التنين، والتي بها دافع عن يوشع في منطقة أريحا، ولم يقتصر الأمر على الأطفال، الذين ارتحلوا إلى هناك في سنة ١٤٥٧، من جميع أجزاء ألمانيا، بأعداد كبيرة جداً، بل تعداهم الأمر إلى الرجال المسنين، ورجال ذوي مدارك كانوا غير قادرين على القراءة.

وحول هذه القضية، أود أن أحدثكم عما عانيت به شخصياً وجربته، ففي أحد الأيام خرجت من أولم مع مرافق واحد، من أجل أن أتمكن من الوعظ في بلدة جنتسبورغ Gunzburg، وصدفنا ونحن على الطريق حاجاً، كان مسافراً على الطريق نفسه، والتحققت عن قصد بهذا الرجل، وسألته من أي حج كان عائداً، مضيفاً أنني شخصياً ذهبت حاجاً إلى بلدان أجنبية، ولهذا كنت أشد ميلاً لمعاشرة الحجاج، وكان هذا الحاج رجلاً له شخصيته كما كان محترماً، ومتفوهاً بلسان البنادقة، غير أنه كان رجلاً علمانياً غير متعلم، فأجابني قائلاً: «لقد قدمت من بلاد نائية، من المحيط، من جبل القديس ميكائيل» فسألته: «أرجوك ما الذي التمسته هناك، وما الذي رأيته؟»، فأجابني: «إن الذي التمسته قد وجدته، ورأيت به عيني، ذلك أنني رأيت في ذلك المكان ترس وسيف رئيس الملائكة ميكائيل المجيد، الذي بهما أنشب الحرب في السماء مع التنين، الذي هو الشيطان، حيث تمكن من طرد ابليس وجميع أتباعه من السماء، وبهما كان متسلحاً عندما ظهر أمام يوشع بن نون، في حقل أريحا».

وعلى هذا أجبته: «يا أخانا، هذه مسائل هائلة، فمن الذي أراك هذه

الأشياء؟ فأجابني: «رهبان يرتدون الثياب الكهنوتية البيضاء الطويلة، ورجال أتقياء، وقد عرضوا هذه الأشياء على جميع الناس، مع كثير من الأبهة، وقد حصلوا على مرباح وافية من وراء ذلك»، فقلت: «من الذي وضع هذه الآثار الهائلة في تلك البقعة»؟ فأجاب: «القديس ميكايل، بعدما تغلب على الشيطان، وتوقف عن القتال، نزل شخصياً إلى هذا الجبل، وصنع مستودعاً هناك من أجل سلاحه، وفي أيام المسيح الدجال، سوف ينزل إلى هناك للمرة الثانية، وسوف يحمل هذا السلاح ثانية، وبهذا السلاح سوف يتغلب على المسيح الدجال، وسوف ينزل الهزيمة بشياطينه».

وسألته بعد هذا عن شكل هذا السلاح وحجمه، فأجابني بلغة منتقاه على كل نقطة، وأخبرني أشياء كثيرة، قام رهبان ذلك المكان بالتبشير بها بشكل علني، وهي تحتوي مافيه الكفاية من الأخطاء العقائدية، ولقد تعذبت كثيراً حتى أشرح لهذا الرجل، بأن القديس ميكايل بانتصاره على التنين لم يكن بحاجة إلى ترس مادي أو سيف، وأن هذه الأشياء قد اخترعت بشكل غير صحيح، بسبب جشع هؤلاء الرهبان، وأن السلاح الذي قاتل القديس ميكايل فيه، لم يلقه قط، ولم يتوقف مطلقاً عن القتال به.

لأنه كما أنشب الحرب في السماء ضد الملائكة السيئين، كان مثل هذا، في العهد القديم، قائد جيش بني اسرائيل، وقاتل من أجلهم، كما هو واضح في يشوع: ٥، علاوة على ذلك، هو لم يقاتل قط — في العهد الجديد — إلى جانب المسيحيين، كما هو مبرهن عليه في سفر دانيال: ١٠، وبناء عليه هو لم يلق سلاحه، عارفاً أنه لم يكن سلاحاً مادياً، وبعدها فرغت من توجيه هذا الرجل العلماني نحو هذه القضايا، قدم الشكر إليّ.

وغالباً ما اعتاد الراهب ميكايل سيكز sicz، الذي كان طباطخ الدير

في أولم، على الحديث عن هذا السلاح، لأنه زار المكان في السنة التي تقدم ذكرها مع الأطفال الآخرين بهدف رؤية السلاح، هذا والحكايات هذه حكايات أطفال، في حين كان الظهور في الجلجال ظهوراً حقيقياً تماماً، وحقيقة مقدسة، ولهذا يتوجب هنا التماس القديس ميكائيل والبحث عنه، لأنه من المؤكد تماماً بأن الملاك المقدس، قد ظهر ليوشع هنا بسيف مسلول، ولم يكن الذي معه سيفاً غير حقيقي، كما أن الجسد الذي ظهر به لم يكن جسده الطبيعي، لأن كل من الجسد والسلاح قد تشكلا من الهواء، وكانا لا يليان الاستخدام الانساني، وعادا بعد الظهور إلى حالتها المتقدمة، وعلى كل من يود —بناء عليه — أن يرى الأماكن التي رؤيت فيها الملائكة بالفعل، عليه أن يقوم بهذا الحج، ولسوف يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى أعظم من هذه.

وادي اللص عكان الذي فيه رجم

وتابعنا سيرنا من الجلجال نحو أريحا، واقتربنا من وادي عكان، الذي دفن فيه مع جميع آل بيته وكل الذي امتلكه، تحت كومة من الحجارة، وكان ذلك بسبب السرقة التي اقترفها، عندما جرى هدم أريحا، وذلك حسباً قرأنا في سفر يشوع: ٧، وتعجبنا في هذا الوادي نحو قسوة العدالة الربانية، التي تعاقب شعباً كاملاً بسبب جريمة رجل واحد، وتضفي ذنب واحد على الجميع لأن النص يقول (أخبار الأيام الأول: ٢/٧) بأن بني اسرائيل نافقوا، مع أن مامن واحد منهم أذنب، باستثناء عكان الذي سرق لساناً من الذهب، وثوباً وبعض الفضة، وعكان هذا هو نموذج للراهب السيء، الذي استولى على النظام الذهبي العائد للقديس أوغسطين، وقد عرف هذا النظام بالذهبي لأنه ثمين، وفخم، وثقيل، ومليء بالقيمة، وحدث هذا الاستيلاء من قبل مذهب، كان قد لبس بشكل غير صحيح الثوب الرهباني، وأساء استخدام الصدقات التي تسلمها بصرفها على ترف غير ضروري، فضلاً عن هذا،

إنه عندما أفسد المواهب التي منحت له، بالانصراف نحو المدح البشري، كان بذلك يدفن الفضة بالأرض، وبهذا الاثم، لم يعد هو وحده مسؤولاً، بل الدير كله معه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا إلى البقعة، التي هي غير بعيدة عن مدينة أريحا، وذلك حيث جلس الرجل الأعمى على طرف الطريق وهو يستجدي، وذلك عندما مرّ الرب، وهو صاعد من الجليل إلى القدس، وهناك منح الرب النور إلى عينيه، وذلك حسبما قرأنا في انجيل لوقا: ١٨، وقرأنا فوق هذه البقعة القديس المعين في كتب المسيرات، وانكبنا فوق الأرض، وقبلنا آثار أقدام مخلصنا وحصلنا على غفرانات (+).

بيت العاهرة راحاب وبيت زكّا والمحنة التي عانى منها الحجاج

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة أريحا، وكان يقوم إلى جانب باب المدينة، بيت مقنطر، وهو قديم جداً، وقد قالوا بأنه كان فيما مضى بيت العاهرة راحاب، حيث عنه نقرأ حكاية جلييلة في سفر يشوع: ٢، ومثل هذا أعطيت هذه العاهرة مكاناً في سلسلة نسب الرب يسوع في انجيل القديس متى (الاصحاح الأول)، لأن سليمان، أمير سبط يهوذا، قد تزوج من راحاب، وأنجب منها بوعز، وهكذا ارتقت هذه المرأة من وضعها كعاهرة دنيئة، ومنحت مكاناً في الانجيل المجيد؟ هذا وتعرضت هذه المدينة للتهديم مراراً، ومع ذلك ممتع أن يحكي الانسان أن بيت راحاب العاهرة قد بقي لوحده من دون أذى، وهو مشاهد حتى هذا اليوم.

وبعدما سرنا لمسافة بعيداً عن بيت راحاب، وصلنا إلى بيت كبير في وسط البلدة، ماتزال جدرانه سميكة وعالية، وكأنه كان فيما مضى قلعة، وقد قيل بأن هذا كان بيت زكّا، وهو الذي تفضل الرب يسوع بباركه

وقدسه، بطريقة خاصة عندما قال: «يقدم الخلاص هذا اليوم إلى هذا البيت»، وهنا في داخله أكل، وهدى كثيراً من المذنبين مع زكاً، وكنا راغبين بالدخول إليه، لكن لم يسمح لنا بذلك، وعلى كل حال توقفنا إلى جانب الجدار، وقال واحد من الحجاج بأنه يرغب لو أن زكاً ما يزال صاحب ذلك البيت، لكان زودنا وضيفنا، لأننا كنا جائعين وعطشانيين، والأشياء التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، في جعبنا، كانت قد أكلت كلها تقريباً.

وكنا نأمل أن نجد في أريحا خبزاً وماء لإنعاشنا، لأننا من دون ذلك كنا سنكون فارغي الوفاض، وكان هناك نقص آخر بانتظارنا، هو خبز الآلام، وماء المحنة، وبينما كنا وقوفاً هناك ويتحدث أحدنا مع الآخر، بدأ أدلاؤنا بسرعة، وبأصوات مخيفة، يعملون على دفعنا نحو الأمام، والاسراع بمغادرتنا أريحا، لأن أهل أريحا جمعوا بعضهم بعضاً، وكانوا يعملون ويخططون لمنعنا من الانسحاب، بقصد استخراج المال منا، ولدى رؤية أدلائنا لما كان يحدث، ساقونا إلى خارج المدينة بأكثر سرعة ممكنة، وركب الرجال المسلحون المرافقون لجماعتنا خيولهم، وساقوها في وسط الحشد، فقسموه إلى قسمين، وشقوا لنا طريقاً في وسطهم، وهنا ركض الأطفال والنساء، ورموا حشدنا بالحجارة، وأثناء عملهم هذا سحبوا عدداً كبيراً منا من على ظهور حميرهم، وسرقوا قبعاتهم، وجرح بعضهم بالحجارة، وحدث بعض الاضطراب بسبب الركض وتقدم الرجال والدواب، فثار الغبار من الأرض، وبلغ من الكثافة حداً، بدت فيه أريحا وكأنها قد غلفت بسحب مظلمة.

وعندما رأى أهل أريحا أننا سوف ننجو من بين أيديهم، ولن يحصلوا على شيء منا، وأننا أفلتنا من بين أيديهم، لجأوا إلى الحجارة، وبها طردونا مع أدلائنا من مدينتهم، ولشدة خوفنا، هربنا جميعاً، وكأننا كنا مطاردين بالسيوف، وهكذا خرجنا من أريحا ليس فقط خالي الوفاض،

بل مضروبين وبشكل فوضوي، مما دفع عدداً كبيراً من الفرسان إلى الغضب، وودوا لو أن ناراً تنزل من السماء، وتلتهم أريحا وكل الذين سكنوا فيها، لأنهم أثيروا بالروح نفسها مثلما أثير كل من جيمس ويوحنا، حسبما ورد في انجيل لوقا: ٩، عندما جرى رفض استقبال الرب وتلاميذه في قرية من قرى السامرة، فوقتها رغب هذان الاثنان، بنزول نار من السماء والتهامها، لكن لفعلهم ذلك قد ليما حسبما قرأنا في المكان نفسه.

مدينة أريحا: ما الذي كائته وماهي عليه الآن

مدينة أريحا، التي تعرف أيضاً باسم مدينة النخيل (أخبار الأيام الثاني: ١٨/ ١٥)، وأنها كانت من ميراث سبط بنيامين، قد كانت في الأيام الخوالي مدينة مزدهرة، وذات مظهر جيد، باستثناء أنها افتقدت الماء العذب، وذلك حتى أيام النبي يشع الذي حوّل نبعاً مالحاً جداً إلى نبع عذب، كما سوف نرى فيما يأتي، وكانت هذه أول مدينة استولى عليها بنو اسرائيل، بعد عبورهم للأردن، وتمّ فعل عدد كبير من المعجزات أثناء الاستيلاء عليها، وهذا يمكن الاطلاع عليه في سفر يشوع: ٦.

وقام يوشع بتدميرها بالكامل، وأنزل اللعنة على كبار أولاده وصغارهم، الذين سوف يعيدون عمارتها، وبناء عليه، عندما شرع بعد مضي سنوات طوال حييّل البيتيلي بإعادة عمارتها، ووضع الاساسات لها، توفي ابنه الأول أيرام، وعندما نصب أبواها توفي الأصغر سجب، وذلك وفقاً للعة يوشع (الملوك الأول: ١٦ / ٣٤).

وكانت هذه المدينة قد هدمت أولاً من قبل يشوع، وثانياً من قبل الرومان، وثالثاً من قبل التتار، وآخر شيء من قبل شعب آخر، لذلك هي الآن قرية بلا أسوار أوخنادق، والذين يسكنون فيها عددهم قليل،

وسكان هذه القرية سود البشرة، وأقوياء، والنساء هناك، هن من القوة مثل الرجال العاملين، لذلك يصعب على الانسان تمييز المرأة عن الرجل.

حدائق أريحا الجميلة وورودها

وبعدما خرجنا من أريحا، نظرنا بأعين شريرة نحو أدلائنا، بسبب الانزعاج الذي عانينا منه، ذلك أننا كنا نتوجس أن ماتعرضنا إليه، كان تدبيراً مقصوداً من قبلهم، وكان صبرنا قد انعدم، من خلال الصوم، فاليوم كان يوم أحد، وكنا حتى ذلك الوقت لم نأكل شيئاً، وكان هناك إعياء في حرارة الشمس، وكانوا في الحقيقة قد وعدونا بأننا سوف نجد خبزاً وماء في أريحا، وأنه سيكون بإمكاننا إراحة أنفسنا هناك، وعندما رأوا أن ثأرتنا تكاد تنفجر، جعلونا نهدأ بكلمات ناعمة، قائلين بأننا سوف نصل على الفور إلى نبع جيد، وأن خبازين سوف يلحقون بنا من أريحا، جالبين الخبز معهم، ولذلك خرجنا من أريحا، وتقدمنا باتجاه جبل القرنط، ولدى مرورنا بين أسوار الحجارة الجافة لبساتين أريحا، رأينا أجمل الحدائق، التي كانت تسقى من مياه الجداول التي تسيل من نبع الشبع، ولذلك سوف أحدثكم عنها في مكانها.

ورأينا في هذه البساتين كثيراً من أشجار الجميز، التي هي أشجار طويلة، وقد ذكرنا مشهدها بشجرة الجميز التي تسلقها زكاً، عله يرى يسوع (لوقا: ١٩)، وإلى جانب أشجار الجميز، نمت أشجار أخرى، تألفت من أشجار الفواكه، ودوالي عنب الخمر الطيبة، مع كثير من أشجار التين، الحاملة لثمار حلوة جداً، ومثل هذا، رأينا هناك أنواعاً متعددة من الورود والزهور، من مختلف الأشكال، وشممنا روائح طيبة جداً، لأن النباتات الشوكية والأشجار، تحمل وروداً رائعة بشكل خاص، وفواكه حلوة، وبدا أن الأعشاب الخضراء، وكذلك حشائش الطبخ، قد نمت هناك بشكل كانت أفضل فيه من أي مكان آخر، فكل

النباتات وكل ماكان نامياً هناك في التربة كان مزدهراً إلى أبعد الحدود.

ولهذا شبهت الحكمة الربانية نفسها إلى الوردية، لكن ليس إلى أي وردة، بل إلى وردة أريحا، ذلك أن ورود أريحا هي الأكثر جمالاً، ولقد قرأنا في سفر الإلهيات: ١٤ / ٢٤، «لقد أطريت مثل وردة في أريحا»، وكذلك أعلنت العذراء المباركة عن نفسها، كل يوم، على لسان الكنيسة، أنها مثل وردة في أريحا، وفي الحقيقة، هذه الوردية هي الأجل، وهي تشبع النظر بجمالها ورونقها، وتجعله يبتهج بشم شذاها، ويتمتع بملاسة لطافتها، فهذه الوردية تشفي المريض بفضائلها، وتبعث السرور في نفس الحزين بألوانها، وتجعل حتى المتزمتين من الناس يعجبون بروائعها ومظهرها، وتمثل الوردية بجمالها الشكل المتوقع للفردوس، وكان في واحدة من هذه الأشجار أكثر من مائة وردة.

ولدى ذكر يوسفوس لهذه البساتين، في كتابه «تاريخ حروب اليهود» الكتاب الخامس، الفصل الثامن، قال بأن هذه المنطقة اعتادت فيما مضى على إنتاج البلسم، الذي هو أثمن الثمار جميعها وشجر السرو الذي ينتج صمغ المصطكا، وذلك إلى جانب ثمار النخيل، من مختلف النكهات والأسماء، والذي عندما يعصر يعطي كثيراً من العسل، الذي قليلاً منه تغني عن العسل الحقيقي، وبالنسبة للفواكه الأخرى أيضاً، من الصعب القول بأن بلداً آخر في العالم يمكن أن يساويها، فهي تنتج أضعافاً مضاعفة كل بذر يبذر في أرضها، وقد اعترتنا الدهشة تجاه خصبها العظيم، في الوقت الذي كانت فيه المنطقة التي فوقها والتي تحتها جرداء، وسبب خصب التربة هو نبع الإشع.

جرزيم وعيال: جبلا المباركة واللجنة

وتابعنا صعودنا مسيرين مجرى الماء الذي يسقي هذه البساتين، وذلك باتجاه المنطقة التالية، التي منها تتدفق، وتلك المنطقة التالية

مرتفعة، وقد رأينا هناك جبلين يقابل أحدهما الآخر، اسم الأول منهما جرزيم، واسم الآخر جيبال أو عيبال، هذا ويقول السامرة بأن هذين الجبلين واقعان قرب نابلس، التي هي شكيم، وفي الحقيقة يقول بعض الكاثوليك مثل هذا، وقد وجدت الأمر كذلك في كثير من أوصاف الأرض المقدسة، غير أن جيروم المبارك، قد قال في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» بأنهم يخطئون كثيراً بجعلهم بعض الجبال هي جبلي جرزيم وعيبال (٢٠٥)، غير الجبلين اللذين هما قرب أريحا، لأن الكتابات المقدسة تشهد دوماً بأنها قرب الجلجال، فضلاً عن هذا، إن الجبلين اللذين قرب شكيم، واللذين يقولون عنهما بأنهما جرزيم وعيبال، يبعد أحدهما مسافة طويلة عن الآخر، وكذلك من غير الممكن سماع أصوات المباركة واللعنة منهما معاً، وقال بعضهم بأنها الجبلين الواقعين فوق بيعة القديس يوحنا، وتحت الجلجال، ولكنني لا أصدق هذا أيضاً، لأن هذين الجبلين مجرد تلتين من الرمل، تجمعتا بوساطة الريح، ولا تتسعان لعدد كبير من الناس، ولا لعدد الأمراء الكبير، فضلاً عن هذا من غير الممكن إقامة مذابح من حجارة غير مصقولة فوق الرمال، وذلك مثل المذابح التي ورد ذكرها في سفر التثنية: ٢٧.

ودعونا — على هذا — نقف مع القديس جيروم، بأن هذين الجبلين، الموجودين على يميننا هما جبلي جرزيم وعيبال، بنا أن أمراء الأسباط الاثني عشر كان يمكنهم الوقوف، وبناء مذابح والصراخ بلعنات ومباركات، وارسالها من الجبل الأول إلى الجبل الآخر، وكذلك يمكن للناس الوقوف في السهل من تحت، وسماعهم.

ولدى مشاهدتنا لهذين الجبلين، أصابنا الرعب، بسبب اللعنات المخيفة التي أنزلت على الذين أهملوا الشريعة، الأمر الذي من الممكن العثور عليه في سفر التثنية: ٢٧—٣٨، ولا يمكن لأي مسيحي أن يقول بأن تلك اللعنات والمباركات، عائدة إلى اليهود فقط، ذلك أنهم يعودون

إلى المسيحيين أيضاً، فلنقرأ ما جاء في انجيل متى: ٢٠ / ٥ قوله: «فإني أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتب والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات»، ومن هذا إنه واضح بأن هذه اللعنات والمباركات تتعلق بنا بشكل كامل بالنسبة للقضايا التي أمرنا بمراعاتها، بعد قدوم الرب، وهكذا جثونا على ركبتنا أمام هذين الجبلين، ودعونا إلى رب الجبال.

المكان الذي سخر فيه الأطفال من الإشعاع النووي

وابتعدنا بعد هذا عن جبلي المباركة واللعنة، ووصلنا إلى سفح جبل القرنفل، وشرنا إلى جانب مجرى الماء، وذلك على طول الطريق الذي يقود من أريحا إلى بيت إيل، الذي قرأنا عنه بأن النبي الإشعاع قد صعد عليه (الملوك الثاني: ٢٣ / ٢ - ٢٤)، وعندما كان صاعداً، جاء عدد قليل من الأطفال من أريحا، وساروا خلف الرجل المقدس وسخروا منه، وقالوا له: «اصعد أيها الأقرع»، وعندما سمعهم النبي ورآهم صلي ولعن أولئك الأطفال، وعلى الفور قدم دبان من الغابة وافترسا اثنين وأربعين من هؤلاء الأطفال، ونعرف من هذا أنه شيء خطير أن نسخر من رجل عجوز، أو من أناس قرعان، لابل على العكس علينا بالحري احترام الرجال المتقدمين بالسن من ذوي الرؤوس البيضاء، أو الصلعان.

رحلة الحجاج إلى نبع النبي الإشعاع

واثر مغادرتنا للمكان الذي سخر فيه من الرأس الأقرع المقدس، مضينا صاعدين (٢٠١) مسافرين لمجرى الماء، حتى وصلنا إلى مستنقع عميق، توجب علينا بذل جهد كبير لعبوره، والتصق بعض الرجال مع حميرهم في الطين، وبصعوبة بالغة أمكنهم الخروج، وثيابهم كلها قد

توحدت، أما الذين سلكوا ممراً جانبياً فحصلوا في مكان أعمق، في حين واجه الذين بذلوا جهودهم للعبور حيث نمت النباتات، مشاكل مضاعفة، لأنهم غرقوا في وحول عميقة، ووصلوا إلى أشواك حادة جداً، لأن جميع النباتات التي تنمو في تلك البلاد دونها زراعة، لها أشواك حادة، أدنى لمسة لها تسبب جرحاً خطيراً، وكأن رؤوس الأشواك مسممة، وفي محاولة عبوري هذا المستنقع سقطت مع حماري بين هذه الأشواك، ولم أستطع الخروج منهم سالماً، غير أنني بذلت غاية جهدي وكنت خائفاً، وحككت كثيراً من الفتحات التي تمزقت من ثيابي:

إن الشوك والقتاد مؤذ لعقل الراهب

لأن ثيابه تبلى هناك وتتمزق

وبعدما عبرنا المستنقع، صعدنا مسافرين لجانب مجرى الماء، ووصلنا إلى مكان فيه نوع من أنواع الطواحين، حيث تحرك المياه دواليب، وحيث لم يتوفر هناك ممر للصعود مسافة أعلى، إلا من خلال الطاحون نفسها، وعندما وصلنا إلى هناك، وقف صاحب الطاحون وخدمه عند الباب، في مواجهتنا، وبأيديهم عكايز ورماح، ومنعونا من المرور خلالها، إنما بعد جدل طويل اقتحم أدلاؤنا ودخلوا إلى البيت، وعملوا لنا ممراً للمرور من خلاله، ومضينا من الجانب الآخر من الطاحون نحو الأعلى أكثر، ووصلنا إلى مكان ظليل مليء بالأشجار والنباتات، من وسطها تتدفق المياه في مساحة كبيرة، وهنا ترجلنا من على حميرنا، وسرنا نازلين تحت أوراق خضراء، كل جماعة لحالها، وجلبنا ما كان قد بقي في جعبتنا، وأكلناه وشربنا من الماء، الذي كان ينبع من بين الصخور، وكان نقياً، براقاً، وطازجاً وصحياً، هذا وعندما جلبت جعبتي وأخرجت ما كان فيها من بقايا، وجدت كل شيء قد تكسر وتمزج من البيض المسلوق والخبز والجبن، وقد حدث هذا لي عندما كنت أحاول السير في المستنقع والخروج منه مع حماري، فوقيتها تعرضت جعبتي لكثير من

الحركة، حيث كانت تحتي، ذلك أنني جلست فوقها، وهكذا انسحق طعامي إلى قطع صغيرة جداً، وعلى كل حال، بما أنني كنت جائعاً جداً، فقد جلست أرضاً، وأكلت تلك الفتات الممزوجة بكل سرور، لأنه بالنسبة للإنسان تبدو حتى الأشياء المرة، حلوة كما قال أيوب (الاصحاح: ٦/٧): «ماعافت نفسي أن تمسها هذه صارت مثل خبزي الكريه»، وأعترف أنني تناولت هنا بدون كراهية، الأشياء التي كنت في الوطن أكره النظر إليها، أو حتى كنت أرتجف نحوها، وحزنت بسبب ضالة كمية تلك الفتات، ونحت وبكيت بسبب قتلهم، لكنني أنعشت بوساطة واحد من الرهبان الفرنسيين، الذين عرفوا هذا الحج بالممارسة، والذين أعدوا لأنفسهم زاداً كافياً من الخبز وكذلك من الخمر، وفي الوقت نفسه، عندما كنا جالسين هناك، قدم إلينا رجال ونساء من أريحا، جالبين معهم سلالاً كبيرة مليئة بالعنب وأرغفة الخبز، التي اشتريناها وعملنا بذلك وجبة جيدة من دون أي طعام مطبوخ.

وبعدما انتعشنا، إنما وفقاً لطعامنا، وليس وفقاً لمعيار رغبتنا، جلسنا للاستراحة، وأخذ كل واحد منا المكان الذي استقر فيه، وأزحنا الحجارة التي أعاقت تمددنا على الأرض، لأن الأرض كلها كانت مليئة بحجارة حادة جداً، ومع أن هذا الفراش كان قاسياً، لقد لبي حاجتنا للاستراحة، وذلك بالنسبة لنا وللمكان، لأننا كنا منهكين ومصابين بالإعياء، وقد مرت بنا الليلة الفاتئة بلا نوم تقريباً، بعد الجهود التي بذلناها وبعد استحمامنا في الأردن، فضلاً عن هذا كانت أيام القمر قد حلت، وهي الأيام التي اعتاد الناس أن يغلبهم النوم فيها.

وكان المكان ظليلاً، ومحمياً من الحرارة، وكانت المياه متوفرة أيضاً، وكانت وهي تجري فوق الصخور تعمل صوتاً يستدعي الرجل المتعب للنوم، علاوة على ذلك كانت أوراق الأشجار والنباتات تتصارع مع بعضها بعضاً، أثناء هبوب الريح عليها، وجعلت أصواتها نومنا أكثر

حلاوة، لأنه كان هناك غدير له مياه صافية جداً، وكان يسيل بين النباتات الخضراء بخير لطيف، ورائحة طيبة صادرة عن النباتات، وكانت الريح تحرك الأغصان بأصوات صفير منخفضة، تحت المتعب على الاستراحة، وفي تلك الأثناء، نهض بعض الحجاج، بعدما استراحوا قليلاً، وصعدوا مجارين لمجرى الماء، قاصدين الوصول إلى المكان الذي تنبع منه المياه من الجبل، لكن المسلمين تصدوا لهم، وأرغموهم على الفرار بوساطة الحجارة، وأجبروهم على العودة إلى أماكنهم.

وصف نبع النبي الإشع: كيف كان وما هو عليه الآن

يطلق على النبع الذي يصدر عنه هذا الجدول، اسم نبع الإشع، ومصدره ليس بعيداً عن المكان الذي استرحنا فيه، وعلى كل حال لم يسمح لنا بالذهاب إلى هناك، وهو بعيد مسافة لا بأس بها عن سفح الجبل، يتدفق بكميات كبيرة من المياه، تجري بجدول قوي، وتتدفق نحو فسحة واسعة، وتسقي المنطقة السهلية حول أريحا، وتسيل من هناك نحو البحر الميت، ولهذا افترض بعضهم بأن مياه البحر الميت قد اتخذت طريقها إلى هناك بوساطة قناة تحت الأرض، وأنها تتدفق هنا، ومن ثم تعود ثانية إلى المكان الذي جاءت منه، ومن هذا النبع إلى البحر الميت، مسافة ثلاثة أميال ألمانية.

وكانت هذه المياه قبل الإشع، غير قابلة للاستخدام والشرب، لا للبشر ولا للحيوانات، بل كل من أرغم على الشرب منها، كان يتلوث فمه، وحلقه، ولسانه، وبلعومه، على الفور بطعم المرارة المقيت، وإذا ما ابتلع أياً من هذه المياه، كان يقع مريضاً مباشرة، بداء يشبه مرضاً مميتاً، كان يتبعه الموت، وذلك مثلما تفعل مياه البحر الميت في هذه الأيام، فضلاً عن هذا، كانت كل امرأة تستخدم هذه المياه تتحول على الفور عاقراً، والتي هي حامل بولد في الرحم كانت تهلك لدى تذوق هذه المياه، وحدث مثل هذا مع الدواب، وكانت الأرض التي تسقى بهذه

المياه، تصبح غير قادرة على انتاج أي شيء أخضر، بل تتحول إلى أرض غير صالحة، وهكذا صارت مدينة أريحا، حيث تضررت كثيراً بجريان هذه المياه الملوثة.

وحدث في أحد الأيام أن النبي مرّ بأريحا، وقد استقبل ببهجة واحترام من قبل شعب أريحا، وعندما سأهم عن أوضاع مدينتهم أجابوه: «اعلم، نرجوك، إن وضع المدينة جيد، لكن الماء فيها ليس كذلك، والأرض جرداء»، وعندما سمع النبي هذا، أخذ كأساً مملوءاً بالملح، ومضى نحو نبع الماء، وألقى الملح فيه، وقام وهو رافع يمينه، يمين الصلاح نحو السماء، ووقتها صب سائلاً مهدئاً في النبع، وصلى لأن يوقف هذا السائل مرارة النبع، ويفتح عيون ومجاري الماء العذب، وتوسل إلى الرب أن تهب على النهر ريحاً مثمرة، وأن يمنح سكان المدينة، الوفرة في الثمار الناتجة عن الأرض، وأن يزيد من تعداد الأطفال حتى يرثوهم، وبهذه الصلوات صار الماء صحياً، وعذباً أكثر من أية مياه أخرى، والينابيع والمياه التي كانت حتى الآن سبب القحط والمجاعة، أصبحت الآن مصدر الخير والخصب، وصارت قوة المياه عظيمة جداً، إلى حد لو أنها بللت الأرض فقط كانت تجعلها أكثر خصباً من الأراضي الأخرى التي تقف فيها المياه مدة طويلة، والذين يستخدمونها بكثافة يجنون قليلاً، أما الذين يستخدمونها بقلّة فيجنون وفرة عظيمة.

علاوة على ذلك، تسقي هذه المياه مساحة أكبر من غيرها من مياه الينابيع الأخرى، وتروي سهلاً طوله خمساً وسبعين غلوة، وعرضه عشرين غلوة، وتعمل حيث تمرّ بساتين فائقة الجمال، وهذا ما تحدثنا عنه أعلاه، وهذه المياه في الصيف باردة، وفي الشتاء دافئة، وتحمل النساء اللائي بلا أولاد، والحيوانات العقيمة بعد الشرب من هذه المياه والاستحمام فيها، وخصوبة وصحة مجرى هذا الماء، لن يخطيء الانسان، إذا ما قال بأن تلك القطعة من الأرض بأنها سماوية مقدسة، ويقدر

الناس جميع الثمار هناك تقديراً عالياً، لأنها تنمو كبيرة، وفائقة الجودة، فهذا مقالته يوسفوس في كتابه الثاني من «تاريخ حروب اليهود»، الفصل الثامن.

ويبعد هذا النبع مسافة مائة وخمسين غلوة عن القدس، وستين غلوة عن الأردن، وجميع المنطقة من القدس حتى هناك هي قفار حجرية، وتمتد نزولاً حتى الأردن، والبحر الميت هو منخفض ومثل شاطئ بحر، لكنه أجرد، وغير مفلوح مثل البقية، وذلك باستثناء الأجزاء المروية من قبل ذلك النبع المبارك، فهي مزدهرة خضراء مثل الجنة، وشربنا من هذه المياه مثل أبقار، وبدون حدود، لأننا عندما وصلناها كان الجفاف قد أعيانا، وكنا عطشى إلى أبعد الحدود، ومع ذلك مامن انسان تأذى من اسرافه بالشرب، فهذه المياه مع قدرتها الشافية، قد أتت الكنيسة على ذكرها في قداس من أجل تكريس الماء المقدس.

الصعود الخطر إلى الكهف الذي صام فيه المسيح ووضع ذلك الكهف والجبل

وهكذا استرحنا إلى جانب الجدول، الذي كان يسيل من النبع المتقدم الذكر، لمدة ساعة أو أكثر، منتظرين أن تخف حرارة الشمس، إنما في الوقت نفسه، وعلى الرغم من الحرارة، عانينا من أعمال شاقة، لكن لسنا جميعاً، بل فقط الذين رغبوا بالعمل، وكان يمكنهم ذلك، وعلى كل حال شارك الشطر الأكبر من الحجاج في هذا العمل، وفي المخاوف التي تلتها.

فقد نهضنا، وتركنا الظل البارد والمنعش، وخرجنا من بين الأشجار الجيدة، إلى حرارة الشمس المحرقة، ومن دون وجود ممر، تجمعننا لتسلق جبلاً عالياً، وزحفنا صاعدين الصخور والحجارة، وفي هذا الصعود تخلف عدد من الأصحاء والذين قهرهم الحر، وكانوا غير قادرين على

المتابعة، بل استراحوا حتى استردوا أنفاسهم، ثم نزلوا إلى الظل مرة ثانية، وأثناء صعودنا وصلنا إلى حيث كان بعض الحجاج والسيدات من جماعتنا في الحج، كانوا قد وصلوا إلى هناك وقت ساعة الاستراحة، فقد كانوا جالسين، دون التجرؤ على المضي أبعد، وعندما سألناهم، لماذا لم يتابعوا سيرهم نحو الأمام، أجابونا أنهم لن يتابعوا الصعود مقابل أي شيء في الدنيا، وذلك بسبب مخاطر الممر، فالذي عليه أن يرتحل هناك، لا بد له من السير على الجهة اليسرى، على طول حافة واد عميق جداً، وأيضاً على طول ممر ضيق كثيراً، بحيث مامن أحد يمكنه المرور إلا بالسير على الجوانب، لأن الممر قائم على وجه جدار من الصخر، شكله أنك تجد على جهتك الأولى هناك وادياً عميقاً جداً، وعلى الجهة الأخرى جداراً مرتفعاً وعالياً من الصخر، يتوجب على الإنسان المتسلق بأن يتوجه نحوه بوجهه، وذلك خشية أن يفقد وعيه من الخوف من الهوة السحيقة التي تحت، وأيضاً من أجل أن يمسك بالجدار بكلتا يديه، وإذا ما وجد هناك أماكن يمسك بها، يمكنه أن ينظر إلى قدميه ليرى أين يمكنه أن يضع قدمه الأولى بعد الثانية، ويده الأولى بعد الثانية، لأنه إذا ما انزلت قدمه، أو انزاحت جانباً من المكان الذي وضعها فيه، لا بد من أن يسقط على رأسه إلى الوادي في الأسفل، لأن الوادي موجود عند ظهره، وأمام وجهه جدار من الصخر منتصب عالياً في الهواء، وتحت قدميه ممر ضيق وغير مستوي، وهو في بعض الأماكن متقطع بفجوات وتشققات في الصخر، ومن خلال هذه الفجوات يمكن للإنسان أن يلمح وجود أعماق سحيقة ومظلمة.

وإذا ما نظر المسافر الصاعد نحو الأسفل إلى الوادي، سوف يبدأ على الفور بالارتجاف، لأنه تطلع نحو الأسفل من مثل هذا الجرف الشاهق، وإذا ما نظر نحو الجدار الذي تعلق به، يخاف من امكانية ان تسقط الصخور المعلقة فوقه عليه، وشجعنا أنفسنا، وتسألنا بالنعمة،

ودخلنا إلى هذا الممر الضيق، الذي من خلاله اتخذنا طريقنا، لكن ليس من دون خوف، ووصلنا بعد هذا إلى مكان للصعود خطير جداً، وقف عند سفحه عدد كبير من الفرسان بدون حراك، خوفاً من تسلقه، لأن معنى الانزلاق أو أن يدوس الإنسان فوق مرقاة غير صحيحة أثناء التسلق، كان الموت، ذلك أنه لم يكن هناك من سبيل للصعود، إلا أن يضع الإنسان يده ثم قدمه حيث يستطيع ذلك.

وعندما وصلنا إلى القمة، قدمنا إلى مدخل كهف، وهناك وقف بدوي مسلم ويده عكاز، (٢٠٨) وما كان يسمح لأحد بالدخول مالم يدفع مارك بنديقي، ودفعنا هذا المال، ودخلنا إلى الكهف، فهناك — كما هو معتقد — صام الرب يسوع لمدة أربعين يوماً وليلة، وذلك حسبما جاء الخبر عند الانجيليين (متى: ٤، مرقص: ١١: ٢ ولوقا: ٤)، وغنينا هناك «Ductus est Jesus» الخ، مع ترانيم أخرى معينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وانحنينا بعد هذا بأنفسنا ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وبقينا لبعض الوقت في هذا الكهف الأعظم قداسة، في حالة تأمل، وأحاديث خاشعة، فهنا — على هذا — أقام مخلصنا وحيداً، حيث صام وصلى، وسهر، وتمدد، ونام على الأرض العارية، وعاش بتواضع وهدوء مع حيوانات الحقل، وابتهج عندما صلى وتعبد بوساطة الملائكة.

آه، ما أقدم هذا القفر! الذي إليه اقتاد الروح القدس ابن الرب، القفر الذي قدسه الرب يسوع بسكناه فيه، وشرفه بصيامه ذي القيمة العالية، ومجده بالأمثلة الرائعة من الفضائل التي أبداه، وهنا فضح دسائس أعظم أعداء الجنس البشري، وأشدّهم، وسلم إلى الذين تعرضوا للإغواء من قبله، الوسائل التي يمكنهم بها التغلب عليه، ولهذا ان هذا الكهف جدير بأن يسمى مدرسة الفضائل، وليس مجرد كهف في القفار.

وبعدما فرغنا من تأملنا، سرنا للقيام بتفحص هذا المكان المقدس، وأمعنا النظر في هذا الكهف بفضول أكثر من ذي قبل، وهو كهف واسع نسبياً في الصخر، ليس منحوتاً بعمل بشري، بل هو محفور من قبل الخالق منذ البداية، له من جانبه الأول ضوء ينزل إليه من الأعلى من خلال فتحة، وكان هذا الكهف قد جرى تكريسه في القديم من قبل المسيحيين، واتخذ بيعة، وكان فيه مذبحين وصوراً على الجدران، مازال من الممكن رؤيتها، ويوجد من خلال الفتحة التي يدخل منها الضوء إلى الكهف طريق إلى قمة الجبل، وذلك فوق صخرة شديدة الانزلاق، والصعود إلى هذه القمة خطير جداً لأن يقوم به أي إنسان، وكان من خلال هذا الطريق أن أخذ الشيطان الرب يسوع إلى قمة الجبل، ومن هناك أراه جميع ممالك الأرض، كما سنوضح ذلك.

وقد تسلقت من خلال النافذة، غير أنني لم أتجرأ على المغامرة بالصعود إلى فوق، وفي الحقيقة لقد ارتعدت تجاه منظر الهوة السحيقة الموجودة تحت، ونحو ارتفاع الصخرة فوق، ووقف عدد كبير من الحجاج الآخرين يراقبونني، حتى إذا ما صعدت، قام كثيرون منهم باتباعي، وهكذا بعدما رأينا كل ما كان في الكهف المقدس، خرجنا منه مع الحذر نفسه والخوف، وتسلقنا فوق الصخور باتجاه آخر إلى كهوف أخرى، لأن حول الجبل هناك كهوف في الصخور، وتحت الحجارة، وفي الجدران الحجرية، وهذه الكهوف بعض منها طبيعي، وشطر آخر مصطنع، وفيهم اعتاد القديسون المسيحيون على الإقامة في الأيام الخالية، لأنه وقتها كان الجبل كله مليئاً برجال دين أمضوا أوقاتهم هناك مع الرب في استغفار ميمت للجسد، وقمت خلال حجيّ بالتجول حول هذا الجبل المقدس، فوجدت كثيراً من القلايات قد نحتت في الصخر الأصم، وكهوف في أشد الجروف انحداراً، وأقيصة على أخطر المنحدرات، فيها كان بإمكان رؤية أماكن الإقامة الخطرة للربان

المقدسین، وكان من الممكن بالنسبة لي أن أتبع الآثار في هذه الكهوف، فأميز أماكن للصلوات، وأخرى للنوم، وثالثة لتحضير الطعام، وأماكن لحفظ الحاجات الضرورية، وكان في الجدران حفراً مربعة لوضع الكتب فيها، ورأيت في الجهة المقابلة من المنحدرات كهوفاً، لم يكن من الممكن لأحد أن يصل إليها، إلا صيادي الماعز والحيوانات البرية، وفيها قد عاش فيما مضى رهبان، كانوا قد اعتادوا على الدخول والخروج، عبر ممرات سرية، بطريقة كانت تخفيهم عن الناس جميعاً، وذلك من أجل أن لا يزعجوا بزيارة الناس لهم.

لكن ويالأسف، جميع هذه الكهوف والقلايات فارغة الآن، وهي مسكن للحيوانات المتوحشة، وقبل مضي سنوات قليلة انقضت، كان رهبان شريون ما يزالون يعيشون هناك، لكنهم طردوا من قبل واحد من السادة المسلمين من غزة، حيث دمر الممر إلى الكهف، وبذلك لم يعد أحد قادراً على الوصول إليه، لكن السلطان، عندما تشكى المسيحيون إليه، رمم الممر حتى صار في الحالة القائمة الآن، ولقد حدث أنه إلى هذه المنطقة الجبلية، كان ارسال الجاسوسين من قبل يوشع إلى أريحا، وقد صعدا إليها للالتجاء، ومكثا هناك متخفين في هذه الكهوف وفقاً لمشورة راحب العاهرة، وذلك حسبما قرأنا في يشوع: ٢.

صعود جبل آخر والمشاكل التي واجهناها هناك

وبعدما فرغنا من تفحص أماكن سكنى وكهوف القديسين بدقة، رغبت في أن نكون على قمة الجبل، التي إليها هناك ممر طويل فوق صخور منزلقة، وقد بدا لنا هذا الطريق جرفي وشديد الانحدار، لذلك من المعتقد أن مامن انسان قادر على تسلقه، وكان معنا رجل، كان قد تسلقه فيما مضى، وقد أخبرنا أنه لن يكون بإمكاننا الوصول إلى القمة من ذلك الجانب، لكن إذا ما أردنا الصعود، علينا أولاً أن ننزل ثانية كل الطريق الذي صعدناه، وأن نسير حول سفح الجبل باتجاه الشمال،

فمن ذلك الجانب يمكننا الصعود من دون خوف من الجروف، إنما ليس من دون تعب ومشقة، وبناء عليه نزلنا ثانية حتى وصلنا تقريباً إلى المكان الذي تركنا الحشد فيه، وهناك وقفنا، وتناقشنا حول ما إذا كنا سنسير حول الجبل، ونتسلقه، ذلك أنه لم يكن معنا دليل يرينا المكان الصحيح للصعود منه.

وصدف — على كل حال — أن مسلماً طويلاً في سن المراهقة، كان عابراً على المنحدرات التي كانت فوقنا، وقد استدعيناه إلينا، وأعطيناه مدنوس حتى يقودنا إلى القمة، وأخذ الشاب المال، وبدأ يسير نحو مكان الصعود، وقمنا نحن باتباعه، وعندما رأى أدلائنا هذا، خرجوا من الظل، وبدأوا يصرخون لمنعنا من الذهاب، قائلين بأنهم على وشك مغادرة المكان واستئناف السفر، علاوة على ذلك، وقف الحجاج الآخرون الذين بقيوا في الظل، وبذلوا جهدهم لدعوتنا للرجوع، وتظاهروا بأنهم يتجهزون للسفر من جديد، وعلى كل حال، تبعنا الفتى، ولم نهتم بصراخهم، وفي الحقيقة كنا قد غضبنا من قيام إخواننا الحجاج بدعوتنا للعودة، وقد سمعت واحداً من الفرسان الذين كانوا معنا يقول: «لولا وجود المسلمين، الذين أخشى من غضبهم، لعدت وقمت بإهانة الحجاج الذين يصرخون خلفي، وإذا ماتابعوا صراخهم، سوف أريهم... العارية»، ولدى قوله ذلك جعلنا جميعاً نضحك من قلوبنا، وكنا في الوقت نفسه قد ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، إلى حد أننا لم نعد نسمع صراخاتهم، لكن كنا نراهم وقد امتطوا خيولهم وحميرهم، وكأنهم قد عزموا على الذهاب من دوننا، ورأينا عدداً من الحجاج يركضون خلفنا، لكنهم عندما شاهدوا اصرارنا، أهملوا صراخ المسلمين والتحقوا بنا.

وبناء عليه تابعنا سيرنا، ولدى ابتعادنا عن نظر الحشد، وصلنا إلى المكان الذي فيه مكان بداية مكان الصعود إلى الجبل، حيث انتظرنا

هناك الذين كانوا يتبعوننا، حتى نكون جميعاً مع بعضنا، ثم شرعنا نسلق تلة منحدره، وقام وقتها واحد من الحجاج، فجثا على ركبتيه أمام الجبل، ودعا إلى الرب، ثم بدأ يصعد الجبل في وضعه ذلك مع ركبتيه جاثيتين، وجسده منتصب، وقد مدّ ذراعيه على شكل صليب، وهكذا صعد فوق ذلك الطريق العظيم الوعورة، والتلة غير المستوية، دون أن يعين نفسه بيديه أو بقدميه، لكنه عندما كان يرغب، كان يستند على مرفقيه، بشكل أنه لم يستخدم يديه لجرّ نفسه بهما نحو الأعلى، إلا في الحالات التي لم يكن بإمكانه فعل ذلك بدونهما، كما حدث عدة مرات في أماكن منحدره.

كم كان التعب، وكانت المشقة، التي عانى منها هذا الحاج في ذلك التسلق، والذي تبرهن من خلال تأرجحه من جنب إلى جنب، وهو يخطو صاعداً على ركبتيه، لأنه عندما خطا بركبته اليسرى، مال كلياً على جانبه الأيسر، وحدث الشيء نفسه عندما خطا بركبته اليمنى، فمال على يمينه، وأثناء قيامه بذلك غالباً ماسقط على جانبه الأول أو جانبه الثاني، أو وقع متمدداً على وجهه، وقد تمزق نعله، وسال الدم على ركبتيه على جلده، وبذلك صبغت كل خطوة من خطواته بالدم، وتمزق كميته عند مرفقيه، وألمت الجراحة بذراعيه، وتورم وجهه، وتغير المظهر الخارجي للرجل كلياً.

عجباً، كنا بصعوبة نزحف نحو الأعلى، مستخدمين لأقدامنا ولأيدينا، في حين تسلق هو على ركبتيه وعلى أربعته، بكل رجولة، دونما اهتمام بعذابه، لأن الاستغفار التقوي يجعل الأشياء المرة حلوة، والأشياء الثقيلة خفيفة، والأشياء القاسية ناعمة، أتوسل إليكم، من الذي لا يرتقي إلى الخشوع، لدى رؤيته لهذه الشدة، والصعوبة، وممارسة الفضيلة من قبل ذلك الحاج؟، ومن الذي لا يتوب من ذنبه لدى رؤية مثل هذه العقوبة المربعة للمذنبين؟

وهكذا بعدما تسلقنا إلى قمة ذلك التل، رأينا فوقنا قمة أخرى بعيدة عنا، إليها تشوقنا بهمة عالية، وبأنفاس سريعة، ظانين أن تسلقنا لها سوف يكون هو النهاية، إنما بعدما وصلنا إلى تلك الذروة بكل مشقة، ظهرت لنا هناك ذروة أخرى عالية، كانت هي الأعلى في تلك المنطقة الجبلية، ومع أننا كنا أعلى من جميع الجبال من حولنا، صعدنا من ذلك الارتفاع الذي كنا فيه إلى جبل آخر مستدير، عريض من الأسفل، كان كلما صعدته صار مديباً في الأعلى، وكان كلما غداً أعلى صار أعظم انحداراً ووعورة، وكان مغطى من كل جانب بصخور حادة جداً، مع أن الجبل نفسه كان من حجارة ناعمة جداً، منه اقتطعت هذه الصخور والجروف، وهكذا بادرنا مسرعين واحداً تلو الآخر، وبمشقة تسلقنا ذلك الجبل نفسه، ووصلنا إلى القمة هناك، وكان الذين وصلوا أولاً، يمدون أيديهم إلى الذين تحتهم ويتشلونهم فوق تلك الجروف، وانتظرنا نحن جميعاً وصول الحاج المتقدم الذكر، وسحبناه وهو متلاشي ونصف ميت، ثم سرنا إلى الجزء المتوسط من قمة الجبل، وجلسنا تحت جدار للبيعة هناك، في الظل حتى نسترد أنفاسنا، وذلك قبل أن نتلو صلواتنا، لأننا كنا منهكين جداً، ومصايين بالإعياء بسبب ما بذلناه من جهود أثناء الصعود، كما كنا نتوهج من حرارة الشمس، ولذلك فإن بعض الحجاج عندما كانوا يحاولون الجلوس على الأرض لاسترداد أنفاسهم، وقعوا وهم يرتجفون، وكان بعضهم قادرين بكل صعوبة على التنفس، وأثناء الجلوس للاستراحة، روحوا عن أنفسهم بالتهوية أمام وجوههم بقبعاتهم وبملابسهم.

واضطربنا كثيراً وقلقنا على واحد من الحجاج، الذي لا أريد ذكر وضعه ومرتبته، بسبب مشاعر تقوية، فقد تمدد هذا الحاج على الجبل مثل إنسان ميت، بدون مشاعر أو عقل للاستخدام، بل سحبناه بين أيدينا مثل جثة هامدة، وقد استطاع راهب دومينيكاني من فلورانس انعاشه

ورده إلى وعيه، لأنه حمل منعشات لهذه الغاية معه، وأعتقد بشكل مؤكد أنه لو لم يكن ذلك الراهب هناك لمات ذلك الحاج فوق الجبل، وفيما يتعلق بإغناء ذلك الحاج أود أن أكشف هذا السر، من أجل تهذيبنا، فقد جاء هذا الحاج من البلدان الواقعة فيما وراء البحر، وكان كاهنا وراهبا متقيداً بدقة بأحكام نظامه، فلدى مغادرته لوطنه، عندما شرع في تنفيذ هذا الحج المقدس، ارتدى على جسده العاري دروعاً حديدية كاملة، هو لم يخلعها خلال الرحلة كلها، بل كانت مخفية تحت ثياب حجه ليلاً ونهاراً، في البحر وفي البر، وفي الحر والقر، وقد اتخذ سبلاً كثيرة لإخفاء هذه الدروع عنا، لكنه لم يستطع.

وعندما عرفت هذه وأشياء أخرى، وانتشرت بين الحجاج، جعلت حجهم أكثر تقوى من أية أماكن مقدسة أخرى، لأن مثل هذه الأمثلة كانت تثير الناس أكثر من الكلمات، وكانت الكلمات تحركهم أكثر من الأماكن، ويعتقد المسيحيون البسطاء والطيبين، أنهم إذا ماكانوا في المواضع التي صنع فيها ربنا يسوع عمل خلاصنا، عليهم استقاء كثيراً من التقوى منهم، غير أنني أقول لهؤلاء الناس، صدقاً إن التأمل والتفكير حول هذه المواضع، والاصغاء إلى وصفهم، فيه تهذيب وتأثير أكثر من رؤيتهم الفعلية وتقبيلهم، فما لم يضع الحاج أمام ناظريه بعض الأمثلة الحية للتقوى، تساعد الأماكن قليلاً في مسألة القداسة الحقيقية.

هذا وإن البكاء والتنهيدات التي هي عامة في الأماكن المقدسة، تثور في الغالب من حقيقة أنه عندما يبكي أحد الحجاج، لا يستطيع آخر منع نفسه من البكاء، ويحدث أحياناً أنهم جميعاً يبكون وينوحون، أو بسبب أن بعض الناس يمتلكون فن جعل أنفسهم يبكون حتى نحو قضايا لاعلاقة لها بالدين، ويذرف مثل هؤلاء الناس دموعاً لقيمة لها في الأماكن المقدسة، وينوحون ويولولون كلهم تقريباً، إنما ليس بسبب القوة الذي يمارسها المكان عليهم، مع أن الأماكن قد تدفع على الخشوع

بكل تأكيد، إنما القضية تتعلق بالسهولة التي يكون فيها، ومما لا شك لديّ فيه، أن هناك عشرة مسيحيين جيدين في قلايتي في أولم، يرغبون برؤية الأرض المقدسة، والأماكن التي كانت مقدسة لدى الرب يسوع، وأن هؤلاء يمكنني أن أثّر خشوعهم حول هذه الأماكن، أكثر مما لو أنهم كانوا منكبين على الأرض في الأماكن المقدسة نفسها.

وقد حرصت على قول هذا، في هذا المكان، بسبب أننا كنا خاشعين كثيراً على هذا الجبل، لأننا قد أنجزنا عملاً صعباً، ورأينا فضيلة عظمى متمازجة، وهكذا بعدما انتعشنا، واستردينا أنفاسنا نهضنا كلنا معاً، وأنشدنا القديس المحدد في كتب المسيرة مع الإضافات، وانكبنا بخشوع عظيم بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا للرب، وقدمنا صلواتنا المتوجبة إلى الرب يسوع، لنظهر رفضنا للشيطان الذي كان يبكي كثيراً، وهو الذي تجرأ في هذا المكان على إغواء الخالق له نفسه ولجميع الأشياء، وأن يستجره إلى وعود كاذبة، لكي يهوي إلى عبادته، حيث أراه في لحظة من الوقت واحدة — كما قرأنا في لوقا: ٤ — جميع ممالك الدنيا، ومجدها قائلاً: «لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إليّ قد دفع، وأنا أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع»، وحصلنا في هذا المكان على غفرانات مطلقة(++).

الاماكن التي رأينا من ذلك الجبل

وعندما فرغنا من صلواتنا، فجأة، وصلت مجموعة أخرى من أفراد الحجاج، إلينا، الذين قالوا بأننا لولم نصعد، لغادروا المكان منذ زمن طويل، وقد سررنا بقدمهم، لأنهم لو غادروا من دوننا، لسارت الأمور، بالحقيقة، بشكل سيء، ورفعنا الآن أبصارنا، ونظرنا من حولنا طويلاً وعريضاً، ورأينا بأعيننا كل ما ذكره القديس متى في الاصحاح الرابع، وتبين لنا أنه صحيح، وذلك عندما أطلق على هذا الجبل اسم جبل في غاية الارتفاع، لأن هذا الانجيلي ما كان ليقول «غاية» ما لم يكن

الجلبل بالفعل في غاية الارتفاع، وقد رأينا على كل جانب أماكن غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة (٢١٠)، لأننا رأينا من جهة الشرق المنطقة الجبلية للعربية نفسها، الممتدة من خلال ممر طويل من الشمال إلى الجنوب، ويقوم بين هذه الجبال: جبل نوب، وجبل فشخة، أو عبريم، الذي منه رأى موسى الأرض المقدسة، وهو الذي رأيناه واقفاً متميزاً فوق البقية، ورأينا أمام أعيننا منطقة جلعاد الجبلية، التي أعطيت إلى سبط رأويين، وسبط جاد، ونصف سبط منسا، وأرض وسهل مآب وعمون، حتى القفار الحجرية الواقعة عبر الأردن، هذا وكانت هذه كلها بعيدة عنا، وأيضاً رأينا هشبون وباشان، ورأينا على طرفنا من الأردن سهل أريحا العظيم، ويجرى نهر الأردن مع قفاره، والبحر الميت.

ورأينا باتجاه الجنوب، عبر البحر الميت، قفار القديس جيروم الكبيرة، وجبال عين الجدي، وجبل لوط، وبراري تقوع، ومنطقة أدوم التلية.

وباتجاه الشمال رأينا جبال اسرائيل، الذين كنا فيهم أيضاً، ولم نكن قادرين على أن نلمح الجبال التي قامت من حول القدس، لأنها كانت أعلى مماكانه، لأن جبال القرنطل وقفارها واقعة على كتف جبل الزيتون، وقد رأينا هذه الأماكن المتقدمة الذكر بوضوح أكثر عندما كنا على جبل عين الجدي، ولسوف نتحدث عن هذا الجبل وعن مسائل أخرى في ص ٢٨٣ ظ.

وأخيراً هناك عند سفح الجبل الذي وقفنا عليه، أريحا، التي تقع عاي (تل الحجر) إلى الجنوب منها، وباتجاه الغرب، هناك المدينة التي اسمها بيت إيل، حيث رأى يعقوب في منامه السلم، وحتى هذا اليوم من الممكن رؤية الحجر التي كان قد وضعها تحت رأسه عندما رأى السلم، والتي عليها صب زيتاً عندما أفاق من نومه، وقال العبرانيون بأن يعقوب قد رغب بالنوم، فكوّم ثلاث حجرات، ووضعهم تحت رأسه.. بسبب أن النص يقول بأنه قد أخذ الأحجار من ذلك المكان، وذلك

بعدما أفاق من رؤياه المتعلقة بالسلم، وجعلت الأحجار الثلاثة في حجر واحد، ولهذا قال النص بأنه أقام حجراً واحداً، وفي هذا المكان، نصب يربعام، ملك إسرائيل، واحداً من العجلين الذهبيين، حتى لا يذهب الناس إلى القدس، وقد قرأنا حول سلم يعقوب في سفر التكوين: ٢٨، وعن العجل الذهبي في سفر الملوك الأول: ١٢/٣٢.

وحملنا بعد هذا أنفسنا لمشاهدة الجبل نفسه، الذي كان في غاية الارتفاع، ولأنه منتصب قائم من منطقة سهلية، فإن الجبال على الجهة الغربية مستندة عليه، ولهذا هو أعلى منها، والجبل كله صخري، وأجرد، ومنحدر، وتقوم بيعة على قمته، هي الآن مهدامة، غير أن جدرانها وخرائبها مرئية في هذه الأيام، ويبدو وكأنه كان هناك دير، وفي ماقلناه كفاية.

عودة الحجاج نحو مدينة القدس المقدسة

وبعدما أمضينا ساعة على قمة الجبل المقدس، اتخذنا طريقنا نازلين، وقد مضى بعض الفرسان الشباب أمامنا، وهم يركضون ويقفزون نزولاً، لكننا تبعناهم بثبات فوق الصخور والجروف، والمنحدرات والأماكن المنزلة، وعندما كنا على طريقنا نازلين، وأثناء وصولنا إلى جرف مرتفع، كنا نسمع من الأسفل من عند سفح الجبل صراخاً وأصواتاً عالية صادرة عن رجال كانوا يزمجرون غاضبين بالعربية والألمانية، وبين هذه الأصوات كان بإمكاننا سماع واحد يصرخ Rob-bery، وبالألمانية كلمات: mordjo, mordjo، ولدى سماعنا ذلك، أدركنا مباشرة، بأن الفرسان الذين ذهبوا أمامنا كانوا في ورطة، ولذلك انزلنا مسرعين نازلين، وقد انزلنا بأنفسنا من فوق الجرف إلى مكان الخصاص، فهناك كان قد وقف خمسة من النبلاء الحجاج في كهف عميق عند سفح الجبل، يمسكون حجارة بأيديهم، جاهزين أيتها رقت رقف أربعة من البداة العرب أمام الكهف، مع حجارة وكانوا يزمجرون مع

بعضهم، فقد طلب البداية منهم مالا على سبيل الخفارة، الأمر الذي رفضوه، ووضعنا أنفسنا بينهم بمثابة صانعين للسلام، خشية أن يرمي أحدهم الحجارة على الفريق الآخر، وقد رأينا أن هذا لو حدث، لعدّ جميع الحجاج خارقين لمعاهدتهم بالمرور الآمن، وكان سيسبب لنا اضطراباً عظيماً، وكان علينا بذل جهد عظيم حتى تغلبنا على رفاقنا لإلقاء حجارتهم، وطلب البدو أيضاً بعض المال، وأخبرناهم أننا لن ندفع لهم شيئاً في ذلك المكان، بل فقط وسط الحشد، وبحضور أدلائنا، وهكذا أحضرنا إخواننا من ذلك الكهف، وخلصناهم من أيدي البداية العرب، لكنهم لو كانوا أقوى منا، لما أمكننا المغادرة بسلام، علماً بأن أولئك الحجاج الخمسة كانوا سيأكلون البداية الأربعة لو أنهم وصلوا إلى الضراب، وعندما كنا مبتعدين عن هؤلاء البداية، هددوننا بأنهم سوف ينتقمون منا، وبالفعل قاموا بذلك، كما سيتضح فيما بعد.

وهكذا عدنا إلى الحشد في المكان الظليل، قرب الماء، وكان قد جلب إليهم خبز وعنب، ووجبات جاهزة، غير أن البداية المتقدم ذكرهم، دعوا إليهم أتباعهم، ومركزوا أنفسهم أمامنا، متسلحين بالرماح وبالأسلحة الأخرى، ووقفوا في وسط الطريق الذي كان علينا أن نقطعه أثناء ذهابنا، وعند غياب الشمس، وتناقص حرارتها، نهضنا من ذلك الموضع، وركبنا حميرنا وانطلقنا نسير فوق السهول، ولكن البداية العرب تصدوا لنا، رافضين السماح لنا بالمرور، قبل أن ندفع لهم خفارة من أجل ذهابنا إلى الجبل، وللمقاومة المتسعة للحجاج، ذلك أن البداية يقولون بأنهم سادة القفار، والأماكن المشعثة، ولذلك هم لا يعبأون بكتب الأمان، بل يجيئون خفارات من جميع الذين يمرون من خلال الصحراء.

وهكذا وبعد جدال طويل، أرغم أدلاؤنا قبطاني الغليونين، على دفع ثماني دوقيات إلى البداية العرب كخفارة لدخول الجبال، ومن أجل

العنف الذي مورس ضدهم، ولأن الحجاج حملوا الحجارة ضدهم، وتخلصوا منهم بالقوة، ودفع القبطانين المال بغضب عظيم، مع عظيم اللعنات الموجهة إلينا، وأرادا أن يعرفا من كان السبب وراء هذه القضية، لكن مامن أحد أخبرهما، لأنها لو علما من من الحجاج كان وراء ذلك، لاستخرجنا المزيد من المال منهم، وبناء عليه عندما انتهت هذه القضية، وتركنا البداية وغادروا، نزلنا نحو أريحا، غير أننا تركناها على يسارنا، وتابعنا سفرنا باتجاه الجنوب، مسافرين لسفح الجبل، حتى يمكننا الوصول إلى الطريق السلطاني، الذي جئنا عبره عندما نزلنا إلى هاهنا من القدس.

وفيما نحن على الطريق العام فوق أريحا، وصلنا إلى بيت مقنطر، قد بني على شكل بيعة، حيث كان الموضع الذي أعطى فيه الرب يسوع النظر إلى رجلين أعميين، وذلك حسبما قرأنا في متى: ٢٠، وكان الأول منهما معروفاً من قبل كثيرين، وكان اسمه بارتيماءوس بن تيماءوس، وهذا وحده ورد ذكره في مرقس: ١٠، وترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وقبلنا طبعات قدمي الرب يسوع، وحصلنا على غفرانات (+).

واثر مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى الطريق الصاعد إلى المنطقة التالية، التي هي جبل قفار أدوميم، وقام هنا فيما مضى بلدة، رأينا خرائبها وقد كان اسمها أدوميم، أي الصعود إلى الأيدي الحمراء، وذلك بسبب الدماء التي غالباً ما سفكت هناك من قبل قطاع الطرق، ومن هذا الحصن أطلق على جميع القفار الممتدة من أريحا إلى بيت عنيا، اسم أدوميم، ومن أجل حماية الرحالة المسافرين خلال هذا المكان الدموي المتوحش، جرى بناء حصن هناك، وهو حصن أدوميم المتقدم ذكره، وورد ذكر هذا المكان في سفر يشوع: ١٨، علاوة على ذلك، نجد في الحكاية المثلية حول الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا، قد أتى الرب على ذكر هذا الطريق الخطير جداً، وذلك حيث جرى سلب

الرجل وجرحه (لوقا: ١٠)، ولذلك نجد الألمان في هذه الأيام يدعون الحصن المتقدم الذكر مع القفار باسم Rothbach، ومعنى ذلك «نهر دم»، لأن البداه يصعدون إلى هناك، ويكمنون في تلك القفار على جانب الطريق، ويسلبون العابرين، ولا يتجرأ المسلمون على المرور صعوداً أو نزولاً، إلا في عساكر كبيرة.

وبناء عليه، عندما وصلنا إلى صحراء أدوميم، لم يتوقف أدلاؤنا عن حثنا ودفعتنا للسير مسرعين، الأمر الذي لم يسبب لنا أدنى اضطراب في حجي الثاني، إنما من الصعب عليّ اخباركم عن المصاعب التي عانينا منها على ذلك الطريق في حجي الأول، وأتجرأ على القول أنني في حجي الأول، شخصياً ورفاقي تعرضنا لمصاعب وتعاسات على طريق حجتنا إلى الأردن وحده، أعظم من كل ما واجهناه على جميع الطرقات التي سافرنا عليها في حجي الثاني، فعندما كانت الدنيا مظلمة وصلنا إلى أماكن منحدرية وتلال، وعندما كنا عاملين على التسلق أكثر نحو الأعلى، أرغمونا على الترجل من على ظهور حميرنا، وأن نسير على أقدامنا، لذلك كان من الصعب علينا التنفس لشدة حاجتنا إلى الطعام، ولقد رأيت عدداً كبيراً من الحجاج جالسين على ظهور حميرهم، وهم غير قادرين حتى على حمل مقاعد حميرهم، بسبب ضعفهم، ولذلك سقط بعضهم، وتركوا حميرهم تذهب، وتمددوا على الأرض، ومع ذلك أرغمهم المسلمون بحنق على المتابعة، وكانت مشاق تلك الليلة لا يمكن تحملها بسبب الظلام، وخطورة المنحدرات، والاغماء على الحجاج، والطريقة المرهقة التي ساقهم فيها المسلمون نحو الأمام، وكان الحال مثل سائقي عربات كانوا يحملون أوزاناً عظيمة في عرباتهم، فوق طرقات منحدرية وجبلية، وكانوا يهددون دوابهم ويحثونها على الإسراع نحو الأمام بصرخات لم تعرف التوقف وبضربات، إنهم مثل هؤلاء كان قادتنا، لم يتوقفوا عن تعجيلنا نحن ودوابنا فوق طرق خطيرة جداً،

حيث كان معنى انزلاقة واحدة الموت بالنسبة للدابة، وسقوط الانسان فوق واحد من الجروف والمنحدرات، وكان هذا العمل شاقاً إلى حد لو أن أي انسان لمح وجوه الحجاج بوساطة ضوء، لرأى وجنات مبللة بالدموع، وعيون محمرة من شدة البكاء، بين رجال كانوا في بلادنا مزينين بالذهب، والفضة، والحجارة الكريمة.

وسمعت في تلك الليلة بعضهم يئن، وبعضهم يبكي، وبعضهم يصلي، في حين كان بعضهم يلعنون أنفسهم، والطريق، والبلاد، وفروسياتهم، والمسلمين، وسمعت آخرين يتمتمون ويحدثون أنفسهم للحفاظ على ذواتهم، إنما خلال هذه المشاق كلها، تفوقت ريفاتنا من الحاجات، والنساء العجائز، علينا جميعاً، حيث احتلن المكان الأول واستولين عليه من الفرسان، فلم يصدر عنهن أنين، كما أنهن لم ينحن بسبب متاعبهن، بل مضيّن في الصف الأول من المسيرة، أقوى من الرجال، وأشجع من الفرسان، ولقد وصمت هذه العجائز الفرسان بعار كبير، من خلال تحملهن، وفي الحقيقة قال فارس لي: «انظر يا أخي، أنا لا أعتقد أن هذه المخلوقات المسنة هي نساء مطلقاً، بل شياطين، لأن النساء خاصة النساء العجائز، ضعيفات، لطيفات، حساسات، في حين هؤلاء النسوة صنعن من حديد، وهن أقوى من جميع الفرسان»، ولكم وددت لو أن سليمان قد كان في حشدنا، فوقتها كان لن يجد امرأة واحدة قوية، بل عدداً كبيراً من النساء قويات، لأنه في أيامه عين جائزة لامرأة قوية واحدة ولو كانت من أقصى أطراف الأرض، حسبما ورد الخبر في الأمثال: ٢١، ووقتها لم يجد أية امرأة قوية، ولذلك قال (الالهيات: ٧): «رجلاً قوياً واحداً بين ألف، وجدت، لكن امرأة واحدة بين كل هؤلاء لم أجد»، ولو أنه كان في حشدنا، لما وجد رجلاً واحداً قوياً، لأنهم كانوا جميعاً محطمين بالتعب، وضعفاء بسبب الصوم، في حين لم تكن هناك امرأة ضعيفة، أو متذمرة، أو شاكية من الشقاء الذي

تعرضت إليه وعانت منه، ومن أين من الممكن قد جاءت القدرة إلى الضعفاء، والقوة إلى النساء، إلاّ منه، الذي اختار الأشياء الضعيفة في العالم ليخزي القوي، ومن الذي وضع هؤلاء النسوة فوق الرجال، حتى لا يمكن لواحد منهم التفاخر بجنسه، وبقوته، وبجماله، وبفتوته، أو بأصالة مولده؟ لأن أولئك النسوة لم يكن رجالاً، ولا أقوياء، ولا جميلات، ولا نبيلات، ومع ذلك تحملن جميع المتاعب من دون الإصابة بإغماء، مثلاً حصل للفرسان، وهنا أخزى الرب شموخ هؤلاء الفرسان الذين ازدروا اصطحاب هؤلاء السيدات، وأن يكن برفقتهم، مثل الذي عدّ مسألة صغيرة ضياع واحدة منهن في القفار إلى جانب الأردن، حسبما تحدثنا من قبل وهنا ستجد المزيد حول هذه القضية.

وإذا صدف وكنت ممن يضحك نحوهن، أو تستخف بأوهامهن النسوية، قد تجد الجواب في رسالة جيروم ضد فيجيلانتيوس Veg-ilantius حيث قال: «أنا لا أستحي تجاه إيمان النساء، مشاهداً أنها كانت امرأة التي شهدت قيام الرب أولاً، والتي أرسلت الرسل، والتي أطريت من قبل الرسل المقدسين، بشخص أم الرب مخلصنا»، لكن لماذا أضيع أنا الوقت على مديح هؤلاء السيدات العجائز؟ ليكن في ذلك كفاية في الوقت الحالي.

وهكذا وصلنا في حوالي منتصف الليل بعد كثير من المتاعب وأعمال التسلق الشاقة، إلى نبع كان ينبع من جانب رابية، وهذا النبع هو الذي أعتقد أن اسمه نبع الشمس، كما ورد في يشوع: ١٨، ولعل سبب ذلك أنه قائم في مواجهة الشمس المشرقة، وبأشعتها كان يسخن، أو أنه كان مقرراً من قبل الروح القدس، وجوب تسمية هذا النبع بهذا الاسم، بسبب شمس صلاح واستقامة ربنا المسيح، الذي من المعتقد أنه غالباً ما شرب منه، ذلك أنه صعد على هذا الطريق ونزل مراراً عدة، وعند هذا النبع لم يرغب أدلاؤنا بأن نترجل، ولدى سماعنا ذلك نحن لم نترجل بل

رمىنا أنفسنا من على ظهور دوابنا بكل سرور، ويوجد حول هذا النبع بناء قديم ومهدم، الذي قد بقي منه الجدران الأربعة فقط واقفة، ولعله كان فيما مضى محطة قوافل أو نزل، واسمه البيت الأحمر، واسمه هذا قد اشتق أيضاً من اسم صحراء أدوميم، وقد دخلنا إلى هذا البيت مع شموع مضاءة، وجعلنا المكان مناسباً لنا بواسطة إزالة فضلات البشر والحيوانات، وكان بذلك مليئاً، وقد وضعنا حجارة للجلوس عليها وللنوم.

وبعدما نظفنا المكان، جلسنا، وجلبنا آخر ما كان في جعبنا من فتات، وأكلناهم، لكن الجزء الأعظم منا كان منهكاً، حيث أنهم ما أن ترحلوا من على ظهور حميرهم، حتى ألقوا بأنفسهم فوق الأرض، وكانوا غير قادرين على الأكل، أو الشرب، أو الكلام، وكانوا يأملون بالراحة، وكان في الوقت نفسه حول الماء تدافع وفوضى، فقد كان كل من البشر والدواب يبذلون جهودهم للوصول إلى الماء، ولهذا السبب كان المرضى يصرخون، لأننا جميعاً كنا عطشى، وكان النبع صغيراً جداً، ونشبت خلافات كثيرة بيننا وبين المسلمين، لانهم أنفسهم وقفوا في الواجهة متماسكين، وشربوا مثل بقر، لكنهم لم يمنحونا مكاناً.

ولدى فراغنا من طعامنا وشرابنا، وفق طريقة خاصة، أطفأنا جميع الأضواء، وأخذنا بالنوم فوق الأرض، وتمددنا فوق الحجارة، حيث غرقنا في نوم عميق جداً، وبما أنه قد قيل بأن الجوع طباخ جيد، فهذا صحيح لانه يجعل جميع الاطعمة طعمها طيب، ومثل هذا قيل بأن العمل فراش جيد، لانه يجعل جميع الاماكن مناسبة للنوم والاستراحة، وكان النوم في هذا المكان خطيراً: أولاً، بسبب أن الجدران كانت مهدمة، والحجارة التي انتزعت من الملاط، كانت معلقة فوق رأسنا، وتهدد بالسقوط، وثانياً، بسبب الأفاعي، والعقارب المتخفية في الجدران القديمة، وتحت الحجارة، وهي خطيرة جداً عندما تلدغ، وثالثاً، كانت

هناك هوام أخرى خطيرة وذلك بسبب الخرائب واهمال المكان ورابعاً،
أخص بالذكر نوعاً من الهوام هو المسمى نملة فرعون، ويدب هذا النوع
على الارض في القفار كلها، كما عنه سأتحديث في ص ٢٤٧، وكان هذا
النمل الاحمر الصغير يسعى هناك حول الأرض، وخامساً بسبب قسوة
مضاجعنا، وسادساً، بسبب اللصوص المسلمين الذين بقيوا برفقتنا، غير
أننا لم نهتم بهذا كله، وقذفنا بكل شيء كان هناك، ونمنا بعمق كبير.

وأخبرنا ادلاؤنا بأنهم عازمون على ايقاظنا قبل الفجر، لكن الذي
حدث كان غير ذلك لانهم انفسهم كانوا منهكين مثلنا نحن- ومع ذلك
كانوا أقل تعباً منا- وقد نمنا نحن وهم حتى شروق الشمس، وكان
داوود قد أنعش نفسه عند هذا النبع، عندما وصل الى هنا متعباً، قادماً
من القدس مع رجاله، حسبما جاء الخبر في سفر صموئيل الثاني: ١٧.

مسيرة الحجاج ورحلتهم صعوداً إلى القدس

في اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم القديسة براكسيديس،
Praxedes العذراء، وبعدما أشرق الشمس، وغطت بأشعتها الذهبية
الرائعة قمم الجبال، ورؤوس الصخور الوعرة، بدأ المسلمون بإلحاح في
ايقاظنا بصرخات عالية، وصرخ بعضهم بلغتهم «روق، روق»
وبعضهم Trica, trica وبعضهم Cabalca, Cabalca ، وصرخ
بعضهم بلساننا، ذلك أنهم كانوا قد تعملوا بعض كلماتنا، فصرخوا:
Rita, rita, uff, uff ، وهذه الكلمات معناها في الحقيقة الحث على
الانطلاق، وقد نهضنا، ورفعنا أعيننا، فرأينا أشعة الشمس على قمم
الجبال، لأننا كنا في وادي، محاط من كل جانب بجبال وعرة، وكنا قد
ارتحنا بشكل جيد، وانتعشنا باستراحتنا فملأنا قواريرنا بالماء من بئر
المخلص، وغادرنا، ونحن نقود حميرنا بأيدينا، لانه كانت هناك
منحدرات منزلة، ممتدة حتى مسافة بعيدة، وما كان بإمكاننا الابقاء على
أنفسنا على ظهور دوابنا، وبناء عليه بدأنا بالتعرق في الصباح الباكر،

وذلك قبل انتشار حرارة الشمس.

ونحن على طريقنا، وصلنا إلى حجرة قائمة مثل مرجل، على طرف الطريق، ولهذا أطلقوا عليها اسم Thaben Boen، أي حجرة بوهن ابن رأوين، وهذه الحجرة هي علامة حدود أرض بني يهوذا، وذلك وفقاً لجيروم، في كتابه «حول مسافات الأماكن»، وقد ورد ذكر هذه الحجرة في سفر يشوع: ١٨/١٧، ومن هذا النص، يبدو أن تلك الحجرة كانت أبعد نزولاً، وراء حصن أدوميم، إنما هل هي الحجرة نفسها أم غيرها، فتلك مسألة قليلة القيمة، وفكرنا في ذلك المكان بعجب حول أفاعيل الأيام الخالية، التي الحجرة مثل عليها.

المكان الذي أعلن فيه عن ميلاد العذراء المباركة إلى واكيم

ولدى مرورنا بحجرة بوهن، رأينا ونحن صاعدين الرابية، بيتاً قديماً، على جهة اليمين، وهو قائم بين جروف ونباتات، وهذا البيت قائم فوق الموضع الذي كان فيه رعيان واكيم يطعمون قطعانهم، وواكيم هو والد مريم العذراء الأعظم مباركة، واليهم هرب عندما سمع بنفسه الملامة بأنه بلا أولاد، وبشكل علني، ورميت تقديماته من على المذبح في الهيكل، وهنا سكن وهو حزين، يتوسل إلى الرب بصلوات خاشعة، حتى يرحمه ويعطف عليه، ويمنحه الصبر.

وفي أحد الأيام، عندما كان يصلي بخشوع أعظم، وبحرارة أكثر من المعتاد، فجأة ظهر الملاك جبرائيل أمامه، على شكل ضوء مشع، وكان وقتها يصلي، ولدى رؤيته له دهش واضطرب وقال الملاك له: «لا تخف يا واكيم، لأن دعاءك قد استجيب له، وكانت دموعك أمام الرب، وهاهي حنة زوجتك سوف تحمل لك ابنة، وستسميها أنت مريم، وهي سوف تمتليء بروح القدس، حتى وهي في رحم أمها، ولسوف تمجد فوق جميع النساء، وستظل عذراء بشكل أبدي، وستحبل من العلي

الأعلى، وستحمل ولداً ذكراً ولسوف تدعى باسم «أم ابن الرب» وإليك فيمايلي شارة ممنوحة لك: عندما ستذهب إلى القدس، وعندما تقترب من الدخول من الباب الذهبي، هناك سوف تلتقي بحنة زوجتك وهي سوف تفرح من قلبها برؤيتك».

وبهذه الكلمات اختفى الملاك، وبناء عليه انكبينا على وجوهنا في هذا المكان ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات، وعندما كنا نتحدث أحدهنا مع الآخر في هذا المكان، طرح واحد من الحجاج السؤال التالي حيث قال: «عجبا، إننا نقيم عيد القديسة حنة، لكن القديس واكيم لا عيد له، مع ان واكيم مثله - على الاقل - في القداسة مثل حنة، حسبما رأينا من الحكاية ذاتها»، وحاول بعضهم حل هذه المعضلة، فوقع بأخطاء غريبة حول الحمل بالعذراء المباركة، وأعلن أنها لم يحمل بها في ذنب أصيل، لأنها كانت موجودة مع الطفل بوساطة الروح القدس قبل ان يحصل اللقاء بين واكيم وحنة تحت الباب الذهبي، وقال آخرون بأن حنة قد حملت من واكيم بقبلة فقط، وكانت هناك تفاهات كثيرة، تفوه بها الذين حاولوا ايجاد سبب لوجوب الحفاظ على عيد القديسة حنة، وليس عيد واكيم.

بحوريم حيث شتم شمعي الملك داوود

ولدى متابعتنا سيرنا، صعدنا إلى جانب تل بحوريم، الذي قام عليه فيامضى حصن، اسمه بوريم، عنه نقرأ في سفر صموئيل الثاني: ٥/١٦، واسم هذا الحصن في بعض الاسفار بحوريم، ويمر الطريق السلطاني تحت هذا الحصن، ولذلك وقفنا هناك، واسترجعنا إلى ذاكرتنا العمل الجليل جداً، التالي: فعندما جرى طرد الملك داوود وجميع اتباعه من القدس، بوساطة ابنه أبسالوم، وقدم إلى هذا المكان، تقدم واحد اسمه شمعي وشتم الملك داوود وجميع خدمه، ورمى حجارة عليهم، وألقى بالرمل عليهم من الأعلى، وعندما أراد واحد من رجال داوود

قتله، منعه داوود، ورغب في أن لا يتعرض للأذى من أجل الخطأ الذي اقترفه، ولقد أعجبنا بصبر وشقاء الملك المقدس، وكنا غاضبين من أنفسنا نحن الذين نشور بكلمة مزعجة واحدة، ونرغب بالانتقام من جيراننا، ياللهول، على هذا الطريق كان الملك داوود عابراً، حافياً، ورأسه مغطى، وهو يبكي، وجميع خدمه معه وهم في ثياب الحزن، حيث كانوا قد طردوا من بيوتهم.

وقتها خرج واحد من خدمه، وكان من أهل الحرب، وصعد هذا الرجل وأخذ يشتم الملك، ويرمي الحجارة نحو الملك، ويلقي بالرمل عليه، ويكرر شتائمه، وبذلك اقترف جريمة خيانة عظمى، ومثل هذه الخيانة تعاقب في جميع البلدان، ومع هذا فإن هذا لم يثر الملك المهذب، ولم يغضبه، بل مر بكل تواضع، وأطفأ غضب أتباعه، قائلاً لهم: «دعوه يسب، لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتني ويكافيني الرب خيراً عوض مسبته بهذا اليوم».

لا يوجد في طول الكتابات المقدسة نص محزن مثل هذا النص عن فرار داوود من القدس، وصبره عندما تعرض للشتم، وعندما يكون انسان عارفاً بهذا النص ويمر عابراً لهذا الطريق، من الصعب عليه أن يمنع نفسه من البكاء، وذلك عندما يتفكر حول مثل هذه المحاسن، آه، كم كان القديس غريغوري سيبكي بحرقة في هذا المكان، بعدما رأينا -كما قرأنا- الذي أظهره ذلك الامبراطور إلى أرملة تضرعت إليه، لأنه أكثر رحمة، أن يظهر الانسان الرحمة نحو انسان تولى شتمه والاساءة إليه، ولا يمكن مقارنة ذلك بالرحمة التي يبيدها نحو الذي تضرع إليه وباركه، ومن هذا المكان مضى داوود نازلاً إلى نبع الشمس واستراح هناك لأنه كان مرهقاً.

وذهبنا الآن من هذا المكان صاعدين، وقد رأينا جبل الزيتون عن بعيد، وذلك مع كنيسة صعود الرب، القائمة على القمة هناك، ولدى

رؤيتنا ذلك ابتهجننا، بسبب أننا بتنا على مقربة من القدس.

السهل القائم أمام قلعة بيت عنيا

وهكذا مضينا نريد القدس، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل، من طرفه الأول يقوم جبل الزيتون، ومن الطرف الآخر جبل العدوان، وفي هذا السهل تنتهي قفار أدوميم، لأنه من هناك نزولاً حتى الأردن قفار جرداء، باستثناء المنطقة المسقية من نبع الشبع، لكن من هذا السهل حتى جبل الزيتون، الذي يقوم عند سفوحه، توجد أجمل البساتين والحدائق، والكروم، وفوق هذا السهل تقوم قلعة بيت عنيا، التي بنيت على طرف جبل الزيتون، وتمتد من هناك نزولاً إلى السهل، وهذا السهل مغطى بحجارة واسعة جداً ومستوية، وكأنه قد جرى تبليطه بشكل فني، لكن في الأماكن حيث الأرض غير مغطاة بالحجارة، تنتصب هناك أشجار الزيتون وأشجار فواكه أخرى، علاوة على ذلك، يوجد في هذا السهل عدداً كبيراً من الصهاريج، حفرت عميقاً في صخور قاسية جداً.

وتابعنا سيرنا عبر هذا السهل، نحو بيت عنيا، ووصلنا إلى أمام القلعة حيث حجرة واقفة قد وضعت بشكل يمكن للإنسان أن يجلس عليها، ولا يمكن نقل هذه الحجرة، لأنها منبعثة من أعماق الأرض، وهي قاسية جداً، وقد قيل بأن الرب يسوع قد جلس على هذه الحجرة، وذلك عندما جاء صاعداً من المنطقة التي حول الأردن، بعد وفاة لعازر، وجلس أمام باب القلعة، حيث إليه جاءت مرثا، وتحدثت بصدق مطلق مع الرب يسوع حول الايمان، والقيامة، والحياة الأبدية، وبالطريقة نفسها قابلت مريم المجدلية المسيح وهي تبكي، لأنها كانت غائبة عندما مات أخوها لعازر، كما قرأنا في انجيل يوحنا: ٢١/١١.

وبناء عليه توقفنا في ذلك المكان المقدس، وعملنا الصلوات المعينة في

كتب المسيرة، وانكبينا بعد ذلك على الأرض، وقبلنا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وبكى الرب في هذا المكان، وقد انزعج تجاه بكاء الأختين، ولذلك تغني الكنيسة لهما:

ofelicis soror utraque meriti, quorum laerimis est
motus fons ipse pietatis

وأعتقد أنه قام في هذا المكان، في الأيام الخالية، بيعة ما، أو كنيسة.

بيت القديسة مريم المجدلية ومخزنها

وسرنا من هذا المكان نحواً من رمية سهم باتجاه جهة اليمين، ووصلنا إلى كنيسة قديمة مهدمة، قائمة فوق المكان الذي سكنته القديسة مريم المجدلية بشكل خاص، لأن لعازر ومريم المجدلية، ومرثا، كانوا أغنياء، وامتلكوا كثيراً من المساكن في داخل الحصن وفي خارجه، وفي القدس، وفي حصن المجدل في الخليل، وكان هذا بيت مريم المجدلية، وبعد تحولها إلى المسيحية أقامت فيه مخزناً للرب، يحتوي على توابل متنوعة، منها عملت هناك منعشات ومراهم تمنع التعرق، والسخونة، والبرودة، والقشعريرة، والانهك، وقد تبعت الرب في كل مكان حاملة معها هذه الدهون المصنوعة من التوابل، وكانت قد اعتادت على دهن أطرافه بها، وهكذا فإن هذه التي اعتادت قبل هدايتها أن تستخدم هذه الأشياء لترفها الجسدي، استخدمتهم بعد ذلك لتقوية جسد الرب، وبناء عليه، قمنا في هذه الكنيسة بالصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++).

بيت القديسة مرثا الذي كان الرب فيه ضيفاً

ومضينا من هناك إلى الجهة اليسارية من الحجرة المتقدمة الذكر، فوصلنا إلى خرائب جدران بيت منزل قديم، قد قيل بأنه بيت مرثا المباركة، الذي إليه غالباً مادعت الرب، وذلك حسبما ورد في انجيل

لوقا: ١٠، حيث جاء قوله: «فقبلته امرأة اسمها مريثا في بيتها»، وفي هذا البيت لامت مريثا أختها مريم أمام الرب، وأعطى الرب قراراً لصالح مريم قائلاً: «ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح»، وهكذا دواليك، وقبلنا الأرض في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ذلك أننا تلونا وغنينا الصلوات المعينة في كتب المسيرة.

كنيسة ضريح القديس لعازر الذي تمدد فيه لمدة ثلاثة أيام

وانعطفنا بعد هذا بأنفسنا نحو بيت عنيا، وبعدما دخلناه، أتينا إلى كنيسة كبيرة وجميلة، لكنها كانت مغلقة، إنما قام أهالي بيت عنيا بفتحها لنا، بعد إعطائهم دريهمات قليلة من قبطاني الغليونين، ودخلنا إليها، وقد وجدنا في جهة اليمين ضريح لعازر، الذي تمدد فيه ميتاً لمدة ثلاثة أيام، حيث أقامه الرب ثانية بعدها، حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ١١، وبناء عليه توقفنا أمام ضريح لعازر، وقمنا بالصلوات المحددة لذلك المكان، وقبلنا الضريح نفسه، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

ومثل هذا، ذهبنا صاعدين من القبر الى المذبح العالي، القائم فوق المكان الذي وقف فيه الرب يسوع وصرخ: «لعازر هلم خارجاً»، وكانت هذه الكنيسة فيما مضى كنيسة جليلة، بنيت من قبل القديسة حنة (هيلانة)، فوق ضريح لعازر، وفي الأيام الأخيرة للصليبيين كان إلى جانبها دير للراهبات من طائفة القديس لعازر، في ظل نظام القديس بينت، وكان لباسهم الرسمي ازاراً أبيض ورداء أسود، مثل راهبات القديس يوحنا، مع صليب أخضر، وفي بيت عنيا (١) الأخرى الواقعة عبر الأردن، حيث كان يوحنا يعمد، كما قرأنا في انجيل يوحنا ١، فقد كان هناك ديراً آخر مثل هذا، ملكاً للطائفة نفسها، وهؤلاء الراهبات قد كن ثريات جداً وتقيات، وكان هذا الدير محاطاً بأشجار الزيتون، إلى

١ - وهم فابري، فالذي في انجيل يوحنا: ٢٨/١ «بيت عبرة».

حد كان من غير الممكن رؤيته من قبل الذين قدموا نازلين من جبل الزيتون، علاوة على ذلك، راهبات هذا الدير، اعتدن أن يرسلن إلى البلدان الأخرى من العالم لبناء أديرة مماثلة، وعلى هذا هناك في الوقت الحالي واحد من هذه الديرة في دولة أصحاب كيفخبورغ Kyvchburg قرب ثورغو Thurgau، واسمه دير سيدات القديس لعازر.

وبعد فقدان الأرض المقدسة، تفرقت الراهبات، وهدم الدير والبلدة جميعاً، باستثناء الكنيسة مع الضريح، حيث مازالا قائمين، وهناك قبر مرتفع من الرخام، يوجد تحته كهف، هو الآن مغلق، ويحترم المسلمون هذا القبر، مثلما نفعل نحن، ذلك انهم يحترمون جميع الأماكن التي عمل فيها الرب أعمالاً رائعة، لكنهم يزدرون الأماكن التي عانى فيها من أي من سوء المعاملة، وهذه الكنيسة مهملة ومذابحها محطمة، وعندما كنا فيها كانت مليئة بحزم القمح، مثل مخزن رجل فلاح.

بيت سمعان المجذوم الذي حل الرب به ضيفاً

ومضينا من هذا البيت، فصعدنا إلى كنيسة أخرى مهدمة، بقاياها العظيمة ملقاة موزعة هناك، وقد بقي أحد الجدران قائماً، منه يمكن للإنسان أن يرى أنها كانت كنيسة كبيرة النفقات، فقد كانت لها أرضية معمولة من مختلف أنواع الرخام، حيث وجدنا بعض البقايا وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي قام فيه بيت سمعان المجذوم، الذي أتى على ذكره متى الانجيلي (الاصحاح: ٢٦) ومرقس (الاصحاح: ١٤).

وإلى هذا البيت جاء يسوع بمثابة ضيف في يوم السبت، قبل أحد السعف، وهنا صبت مريم المجدلية العطور فوق رأسه، وهو جالس يتناول الطعام، وهنا أبدى تلاميذه حزنهم تجاه الاسراف، حسبما تحدثنا في صفحات تقدمت، وفي انجيل يوحنا: ١٢.

وهناك بيت آخر لسمعان، لكن ليس سمعان هذا، وهو موجود في القدس، وإلى هذا البيت جاءت مريم المجدلية، عندما اهتدت للمرة الأولى، كما قرأنا في انجيل لوقا: ٧، وعن هذا البيت كنت قد تحدثت من قبل، وهذا البيت - على كل حال - يعرف باسم بيت سمعان المجدوم، وهو لم يكن مجذوماً، عندما عمل العشاء، لكنه كان قبل هذا مجذوماً، وقد شفي من قبل الرب، إنما حافظ على اسمه «المجدوم»، وبناء عليه، بعدما تلونا هنا الصلوات المعينة، حصلنا على غفرانات (+).

حصن بيت عنيا ووصفه

أنا لم أجد متى بني حصن بيت عنيا، ولا من قبل من قد بني، لأنه لم يرد ذكره في جميع العهد القديم، إلا إذا كان قد جاء ذكره تحت اسم آخر، أنا لم أجده، أو ما لم يكن اسم بيت أوريم، الذي ورد ذكره من قبل، وجميع أصحاب الأناجيل قد أتوا على ذكر بيت عنيا، ليس بيت عنيا هذا، وإنما أيضاً الموجود عبر الأردن، وأعتقد أن الحصن قد بني حديثاً في أيام المسيح، وتظهر خرائطه أنه كان بناء قوياً وجليلاً، لكن ليس بناء واسعاً، وهو في هذه الأيام قرية مكتظة بالسكان، فيها مسلمون غدارون، وهي مجاورة لجبل الزيتون، على الجهة الشرقية منه، ومنه لا يمكن رؤية مدينة القدس، بسبب جبل الزيتون، الذي يقف في الطريق، ويوجد - على كل حال - على طرف جبل الزيتون، بينه وبين جبل الصعود، مكان لمشاهدة وادي جهنم وجبل جيحون، وكانت قرية بيت عنيا قلعة: مريم، ومرثا، ولعازر، حسبما أخبرنا في انجيل يوحنا: ١١، وتبعد عن القدس خمسة فرلنغ، مما يعادل أربعة أميال إيطالية، وميلاً ألمانيا قصيراً، وقد تحدث القديس برنارد بشكل طيب عن هذه القلعة، في قداسه لفرسان الداوية، كل من يرغب يمكنه أن يجد هذا النص فيه.

رحيل الحجاج من بيت عنيا نحو جبل الزيتون

وبعدما رأينا الأماكن المقدسة في بيت عنيا، استدرنا نريد القدس، وقد أعطينا سائقي هميرنا الإذن بالمغادرة للعودة إلى القدس بأقرب الطرق، أي على الطريق السلطاني، الذي عليه كنا قد غادرنا، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وقد نوينا على العودة مشياً بخشوع على الأقدام، على طول ذلك الطريق الذي قدم الرب يسوع عليه وسار من بيت عنيا إلى القدس، في يوم أحد السعف، وهو جالس على ظهر أتان.

وهكذا عاد سائقو الحمير إلى القدس نازلين عبر الطريق المنخفض، ومعهم ذهب عدد كبير من الحجاج، الذين كانوا مستعجلين لنيل بعض الطعام المطبوخ، مع مكان للاستراحة فيه، لأننا لم نتذوق منذ مغادرتنا القدس حتى عودتنا إلى هناك طعاماً ساخناً، ومع هذا بقي الشطر الأكبر في بيت عنيا، ومنهم ما كان - في الحقيقة - أحداً سيقى لولا أنني حشتهم على فعل ذلك، وبناء عليه عندما غادر الآخرون، خرجنا نحن أيضاً من بيت عنيا، ووصلنا في خارج القرية، دون أن نعرف، إلى أرض مقبرة إسلامية، توجب علينا عبورها أو السير من حولها، ولقد قمنا بعبورها، لكن الذي حدث أن امرأة مسلمة كانت واقفة عن بعد كبير، رأتنا، فركضت بسرعة نحونا، وصرخت عالياً، وشتمتنا ورمت حجارة علينا، وطردتنا من أرض الدفن، وبناء عليه فررنا مسرعين، خشية قدوم مسلمين آخرين وقيامهم بازعاجنا، لأنهم لا يتحملون سيرنا فوق قبور موتاتهم، وهذا ما كنت قد تحدثت عنه من قبل.

وهكذا وصلنا إلى الطريق الذي يسير عبر جبل الزيتون، والذي عليه سار الرب يسوع في يوم أحد السعف، وسرنا بخشوع، وصمت، وصلاة، خلال بساتين التين، ووصلنا إلى واحدة من هذه البساتين، رأينا فيها تيناً ناضجاً شكله أرجواني داكن، وذهب اثنان من جماعتنا إلى هذا البستان، لكن عندما تسلقا الشجرة، قدمت امرأة عجوز، رمت حجارة

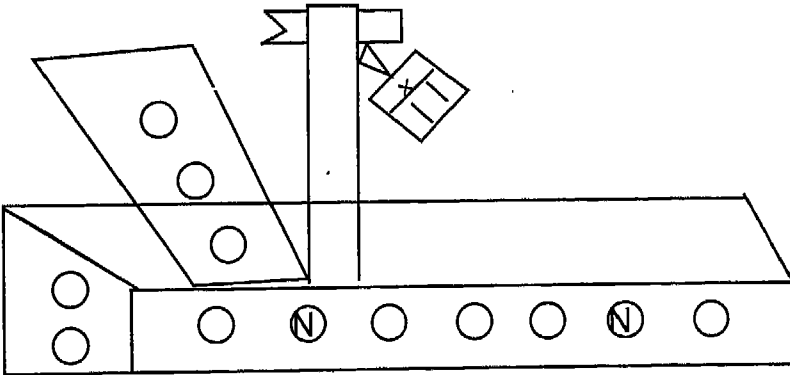
عليهما، وطردهما خارج البستان، ومع ذلك جلبا لنا بعض الثمار،
أكلناها، وتابعنا سيرنا صاعدين للراية.

ووجدنا على هذا الطريق كثيراً من القطع المربعة الصغيرة من الرخام
المصقول من مختلف الألوان، وقادنا راهب خارج الطريق الحديث إلى
مكان حيث وجدنا ميدانا كله مبلطاً برخام مصقول من مختلف الألوان،
فلقد كانت القديسة هيلانة هي التي زينت ببلاط رخامي جميع الطرق
التي عرفت بأن الرب يسوع قد عبرها أثناء اسبوع الآلام، وذلك من
بيت عنيا صعوداً إلى جبل الزيتون، ونزولاً من الجانب الآخر هناك
صعوداً إلى الباب الذهبي، ومراراً وجدت آثاراً من هذا البلاط، وبشكل
خاص عندما يسير الانسان على جانب الطريق وهو صاعد، لأن الطريق
الحديث قد حفر عميقاً وتلف بسبب أعداد الذين يعبرون عليه، وكل
انسان يذهب صعوداً، إذا ما استدار جانباً، وكشط الأرض بيديه،
وعمل حفرة، سوف يجد الطريق القديم المبلط برخام مصقول، وقد
علمت شخصياً صحة ذلك عن طريق الخبرة.

عودة الحجاج إلى القدس عبر بيت فاجي، قرية الكهنة

وتابعنا من هناك تقدمنا، ووصلنا إلى مكان، قامت فيه فيما مضى قرية

F.F.F.F.F.



الكهنة، التي هي بيت فاجي، التي نقرأ عنها في انجيل القديس متى (الاصحاح: ٢١)، وحدث أن الرب أرسل من هذه القرية اثنين من التلاميذ إلى القدس لي جلبا له أتاناً، وقد انتظرهما هناك، وغنينا في هذا المكان ترنيمة: « Cum appropinquaret dominus » ، الخ، وقبلنا طبعات أقدام مخلصنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وورد ذكر بيت فاجي في الاطراء الذي ورد في قداس القديس برنارد إلى فرسان الداوية (الاصحاح: ١٢)، ومن بيت فاجي ما برحت المدينة المقدسة لا يمكن رؤيتها، ولدى متابعتنا تقدمنا، تسلقنا مصعد جبل الزيتون، ووصلنا إلى منطقة يوجد أعلاها مصعد منحدر، فوق تسع درجات، وحيث قائم فيها حجرة طولها طول الطريق صعوداً إلى الرابعة، وعرضها بعرض الطريق نفسه، ونحتت هذه الحجرة وفق عمل فني إلى درجات يمكن للبشر والدواب عليها الصعود إلى الرابعة، وهذه الحجرة مقسومة طويلاً إلى قسمين، وكأنها قطعت بسكين، وهم يحكون أثراً قديماً يروونه عن القديسين، بأن هذه الحجرة قد انشقت أثناء آلام الرب، لتكون شهادة إلى جميع الذين يمرون من هناك، ولتكون ذكرى دائمة (عن موته).

وقبلنا هذه الدرجات، بسبب المعجزة، وبسبب طبعات قدم الرب، لأننا لا يمكن أن نرتاب بأنه غالباً ما اجتاز هذا الطريق، وعندما مضينا نحو الأعلى من هذا المكان، بدأت أبراج المدينة المقدسة تبدي أنفسها، وكان أول برج رأينا أعلاه هو برج الناقوس، وبرج كنيسة الضريح المقدس، الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل، وهذا البرج في هذه الأيام أعلى من غيره من الأبنية، ورأينا بعد ذلك مباشرة، المدينة المقدسة كلها، وهي متألقة سروراً تحت أشعة الشمس، لأن هذه المدينة الأعظم حلاوة لها منظر بهيج، برؤيته يشرق عقل مشاهده، وأعرف أنا حقيقة هذا، لأنني لم أكن قط قادراً على اشباع نفسي من النظر إلى المدينة، لأنه كلما

زاد الإنسان من النظر إليها، كلما بدت له أكثر حلاوة، وزادت من انفعال الإنسان وعطفه نحوها، وفي الحقيقة عندما كان الرب يسوع ماشياً على طول هذا الطريق، وشاهد المدينة بكى عليها، وأثير بالشفقة عليها بوساطة المنظر الفعلي، ذلك أنه ليس من دون سبب دعيت القدس باسم «رؤيا السلام».

ومضيا الآن نازلين من الجانب الآخر لجبل الزيتون، عبر الطريق الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وعبرنا جدول قدرون، حيث صعدنا إلى جبل صهيون، وهناك جرى الترحاب بنا بسرور من قبل اخواننا هناك، وبعدما تناولنا الطعام تمددنا أرضاً للاستراحة، لأننا كنا مقبلين على أعمال جديدة.

الدخول الثالث للحجاج إلى ضريح الرب

والازعاجات التي تحدث بالعادة هناك

وفي اليوم نفسه (أي يوم الحادي والعشرين) وبعد الظهر بوقت طويل، وعندما كان المساء يقترب، جرى استدعاء الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، وعندما كنا في الساحة في الخارج، قدم السادة المغاربة، ووضعونا في الكنيسة، وفق الطريقة نفسها التي وصفناها من قبل، وعندما كنا في الداخل فعلنا مثل ما كنا قد فعلنا من قبل، وقام الحجاج، الذين عرفوا أنهم لن يروا الأماكن المقدسة بعد الآن، بزيارتهم مع كثير من الخشوع، ولمسوهم بمجوهراتهم، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل مراراً، وذلك وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها في ص ١٩٨.

ولقد أمضى الفرسان تلك الليلة، بشكل أقل رصانة، وكانت أفكارهم مشتتة أكثر مما كانت في الليالي الماضية، التي بقيوا فيها مستيقظين عند الضريح المقدس، وانشغلوا في الليلة الأولى في اعداد أنفسهم لتناول قربان العشاء المقدس مع الاعتراف، وقد تجدد الأثر

الذي عملته الأماكن المقدسة على عقولهم، مثلما ذكرنا ذلك من قبل، وكانوا في الليلة التالية قلقين بشأن فروسياتهم، وأمضوا الليل في طلبها، كما سلف لي الحديث عن هذا الموضوع ، ولأنه في تلك الليلة لم يكن لديهم ما يشغلهم، فقد أودعوا أنفسهم للراحة ولأعمال التسلية، لكن هذا لم يشمل الجميع، بل فقط الذين كانوا أقل غيرة من البقية، ومع الأسف، شكلوا العدد الأكبر، وبناء عليه دعونا نرى كيف أمضى وقتهم هؤلاء الحجاج، الذين كانوا بلا خشوع، وبدون عرفان، وبدون غيرة أو انضباط، فقد قام بعضهم بجولة اعتيادية حول الأماكن المقدسة، ثم جلسوا بعد ذلك، وشربوا ما كان في جعبهم، التي جلبوها معهم محشوة بالطعام، وعملوا مناقشات طويلة، ثم مالبت أن غلبهم النوم فبحثوا عن أماكن منعزلة، أو زوايا هادئة، حيث ناموا طوال الليل، وذلك لمدة ست ساعات أو سبع، وكأنهم كانوا متمددين في مضاجعهم وغرف نومهم.

وقام آخرون كانوا مدمنين، وبالحري كسالى، بتزويد أنفسهم بخمرة قوية جيدة، وبأطعمة تشجع على العطش، وبعدما ركضوا مسرعين حول الأماكن المقدسة، جلسوا مع بعضهم، يأكلون ويشربون، وكأن الكنيسة الأعظم قداسة من جميع الكنائس كانت حانة، وتابعوا على هذه الشاكلة حتى باتت قوارير رفاقهم فارغة.

وقام آخرون، أقل بعد نظر، بعدما أفرغوا قواريرهم، بالحديث حول المسائل الدنيوية غير المفيدة، وحول الأمراء، وتخاصموا حول الحملات التي خدّموا فيها، ومقارنة المقاتلين أحدهم بالآخر، وخلال ذلك كانت هناك أقوال شريرة، وخلافات، وكذب، وتمجيد ذاتي من مختلف الأنواع، وقد استمر ذلك، دون إعطاء أدنى اهتمام لقداسة المكان.

وعندما اكتفى آخرون وشبعوا من المناقشات الطويلة، وانفجروا ضاحكين، ساروا حول داخل الكنيسة، ودخلوا إلى بيع الأماكن

المقدسة، وبعد تظاهر قصير بالصلاة، وقفوا هناك يتحدثون دون ابداء أي احترام للمكان المقدس، ولجميع ما حل بهم، وهكذا زاروا الأماكن المقدسة من دون أية فائدة لأنفسهم، وقبل سنوات خلت، تصرف واحد من الفرسان الألمان هكذا، وقد عاقبه الرب ليكون مثلاً للآخرين، فلبعض الوقت كان يختال برعونة حول الكنيسة مع أتباعه الذين دخل معهم إلى ضريح الرب، وعندما كان واقفاً هناك، قال بطيش سخيف: «انظروا يارفاقي، وليكن ما أنا مقدم عليه، علامة على صدق أنني لم أتردد في إعلان أنني كنت في الضريح المقدس للرب، وأنتم شهوداً على ذلك» وما أن فرغ من كلامه هذا حتى صعد فوق القبر المقدس، وتمدد بنفسه كلياً فوقه، وذلك على ظهره، وعندما كان متمدداً هناك وهو يضحك، فجأة امتدت يد الرب إليه، وأصابته بالشلل، وبناء عليه بدأ جسده يزداد قسوة، حتى لم يعد قادراً على النهوض بنفسه، وعندما شعر بيد الرب ثقيلة عليه، توسل بتواضع وبكثير من الدموع أن يرفعها عنه، لكنه لم يسترد أبداً بعد ذلك الاستخدام الحر والطبيعي لأطرافه، وعاد إلى وطنه أعرجاً ومريضاً، ومات مشلولاً، والعجيب أنه لم يهلك في البقعة ذاتها.

وأمضى آخرون الليل كله وهم يقامرون مع تجار وباعة، لأنه إلى كل مكان ذهب إليه الحجاج وهم في الأرض المقدسة، رافقهم تجار مسيحيون، من أصل شرقي، كانوا على درجة عالية من البراعة، وهراطقة جشعين، لا ينامون خلال الوقت الذي يكون فيه الحجاج في الأرض المقدسة، وكان كلما دخل الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، جاء هؤلاء التجار مع بعضهم، ودخلوا معهم، وكانوا يحصلون على اذن بالدخول بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، وكانوا يركزون أنفسهم على الفور أمام باب الكنيسة، ويمدون أقمشة فوق الأرض، ويضعون سلعهم فوقها من أجل البيع، وكان بعض الحجاج، وقد رأوا أن وقت

مغادرتهم بات قريباً، يجلسون مستيقظين طوال تلك الليلة، يتساومون ويشترون جميع أنواع الأشياء، وكان مع التجار للبيع هناك ليس فقط حبوب الصلاة الربانية، والأحجار الكريمة، بل أقمشة الدمستق، ووبر الجمل، والحرير، وكان من حول هؤلاء التجار كثيراً من الاضطراب والضجة، وكان الوضع مثل وضع سوق للبيع والشراء.

وقد رأيت هناك بعض الحجاج اللامعين من ذوي الأصل النبيل، الذين يرون بأن المقامرة والمساومة مع الباعة، حتى ولو كان ذلك في سوق عام، شيئاً غير مقبول بالنسبة إليهم، ودون مستواهم في الحياة، ومع ذلك، هنا في هذا المكان الأعظم قداسة لم يتوقفوا عن المقامرة وعقد الصفقات، وشراء السلع الثمينة والمجوهرات، وهكذا فإن الذين قد تركوا بلادهم منفردين من أجل حب الرب، وفي سبيل الفروسية، أغراهم الجشع وحب الربح، لأن يصبحوا تجاراً، وعملوا في سبيل تحقيق مصالحهم واعتمدوا على الكذب، والغش والخداع، والأيمان المرعبة، وذلك مثل أولئك المنشقين والهرطقة الذين كانوا معهم يتعاملون، والذي كان المتوجب عليهم الابتعاد عنهم وعدم استخدامهم، لأن أولئك الحجاج كانوا يبذلون غاية جهدهم لشراء الأشياء بسعر رخيص، من أجل أن يتمكنوا من بيعهم بمبالغ أكبر لأناس آخرين في بلادهم، وذلك مثلما يفعل التجار الحقيقيون، الذين يجنون نفقات حياتهم بمثل هذه المبيعات، أو أن يتمكنوا بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة من شراء الصداقات الدنيوية، ومحبة كثيرين، أو استخدام مشروعه في سبيل فخارهم، والمجد الفارغ.

وفي هذه المبيعات لم يعيروا اهتماماً، للامكان المقدس، وللاليوم المقدس، لأن عيد القديسة مريم المجدلية كان قد بات الآن قريباً جداً، ولم يقتصر عمل هذا على العلمانيين فقط، بل شارك في هذه الأعمال بعض الرهبان غير المحترمين ورجال الدين، ولكم كان عملاً مؤذياً

وبلا تقوى أن يرى المسلمون ويشهدوا هؤلاء الباعة يجلسون ويبيعون سلعهم في الكنيسة، ويتجادلون حول الأرباح، وهذا واضح من نقاء مساجدهم، حيث لن يسمحوا مقابل أي شيء في الدنيا بالبيع والشراء فيها، أو بالكلام حول الشيء نفسه، بل نحن جعلنا بيت الصلاة وحولناه إلى بيت تجارة، والكنيسة جعلناها وكراً للصوص، وعندما يرى المسلمون هذا، يعدون إيماننا حماقة وشيئاً لا قيمة له.

ولم يكن بعض المتجاوزين الآخرين أقل من هؤلاء المتقدمي الذكر، لأنهم كانوا يأثمون بحق المسيحيين والمسلمين سواء، لأن بعض النبلاء، اقتيدوا بعبث نحو كتابة أسمائهم مع شعار نبالتهم ومكانتهم الاقطاعية، على جدران الكنيسة، أو نحو رسم رنوكهم عليها، أو القيام بلصق أوراق، عليها كتبت هذه الأشياء كلها، ولقد ألصقوها على جدران هذه الكنيسة وكنائس أخرى، وحفر بعضهم أسماءهم بأزاميل حديدية، ومطارق على الأعمدة، وعلى الألواح الرخامية، وأغضب هذا وأزعج جميع الناس هناك، ولقد رأيت بعض النبلاء ذوي الفخار الفارغ، ممن دفعهم تشاخمهم إلى مثل هذه الأعمال الحمقاء، ذلك أنهم عندما دخلوا إلى بيعة جبل أكر (الجمجمة)، وانحنوا بأنفسهم فوق الصخرة المقدسة، حيث توجد حفرة الصليب، كانوا يتظاهرون بالصلاة، وفي اطار ذراعي كل واحد منهما، كانوا يحفرون بآلات حادة جداً رنوكهم، مع علامات أصالة ميلادهم الأمر الذي لا يمكنني قوله، لأنهم بالحري وضعوا علامات سخافاتهم، لتكون ذكرى دائمة على حماقتهم، وقد فعلوا هذا بشكل سري، لأن حارس الصخرة المقدسة، الذي اسمه جورج، لو رآهم يفعلون ذلك، لجرهم من شعورهم وأبعدهم، ودفعت الحماقة نفسها بعضهم لحفر أسمائهم ورنوكهم وشعاراتهم بآلات حديدية حادة على الألواح التي تغطي قبر الضريح الأعظم قداسة للرب، وهكذا وضعوا جانباً الخوف والاحترام الذي يدينون به للرب، من أجل أن

تبقى ذكرى حماقتهم وسخافتهم دون دمار، بل أن تدوم إلى الأبد، وبذلك يمكن أن يعلنوا في كل يوم، على كل من جبل أكرأ، وفي الأبدية أمام ضريح الرب، لأن كل حاج تقي وعاقل، عندما يأخذ طريقه نحو هذه الأماكن بعد كثير من النفقات والأتعاب، وبعدما يمر خلال آلاف المخاوف، ويصل إلى الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، ويحشوا على ركبتيه للصلاة، فوقتها سوف يرى أمامه هذه القطعة من الحماقة، وعندها لابد أن يقوم بعد صلاته بلعن الأحق الذي أقدم على صنع هذه الأعمال الشائنة في هذه الأماكن الأعظم قداسة، ويدعو عليه بالموت، أو بشلل يده ويأسها، أو أن تتقلص يده أو أن تنبتر، أو أن يدعو إلى الرب لينتقم لكرامته من الذي أقدم على حفر شاراته الشرفية، على الصخرة القائمة كعلامة على التشريف الذي يستحقه.

والرجال الذي يتولون أعمال الحفر يظنون أن جميع الناس سيعجبون برنوكهم، وسوف يكونون مسرورين برؤيتهم، والذي أقوله أنا، أنه بين عشرة آلاف لا يوجد واحد ممن يقدمون إلى هاهنا، سوف يكون لديهم أدنى سرور نحوهم، وإذا كان الحجاج أجانب، ولا يعرفون هذه الرنوك، سوف ينظرون إليهم بازدراء، وسيعجبون نحو هذا التبجح، ويعلنون عن صاحبه بأنه أحق، مع أنهم لم يروه قط، ذلك أنهم سيمقتون هذه الخربشة، وسينظرون إليها برفض، وسيمجونها، وربما قد يصدف ويأتي ابن المخربش إلى هنا، وقتها سوف ينزعج بسبب وراثته لحماقة أبيه.

والنبلاء الألمان هم وحدهم الذين يقتربون هذه الحماقة، وكأن العالم ليس فيه أي نبيل، إلا هم أنفسهم، فلکم هم سخفاء بابتلائهم بهذه العادة، وذلك بين المسيحيين والمسلمين، وأعرف أنا بشكل جيد، أنني، لأسفي وخجلي، قد شعرت بالارتباك العظيم تجاه ذلك بين المسيحيين والمسلمين، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لكتابة كل الذي شهدته، فلقد عرفت واحداً من الحجاج، حمل دوماً معه في حافظته حجرة حمراء، كان

قد اعتاد أن يكتب بها أحرف اسمه على ألواح المذابح، إما بحجرته الحمراء، أو بمدية أو بمخرز، وكان يكتب اسمه في رأس الهامش الفارغ لكتاب الصلوات، أو كتاب الترانيم، أو كتاب القداسات، أو كتاب المزامير، وكأنه كان هو مؤلف الكتاب، في حين لم يكن يفهم ولا جملة لاتينية، لأنه كان مجرد رجل علماني.

وكان يبذل جهداً كبيراً ليحفر اسمه ورنكه في هذه الأماكن، وفوقها جميعاً، الأمر الذي سوف يلاحظ من قبل الناس الذاهبين والأيين، لكن كيف كانت نهاية هذا الانسان؟ أنا أخجل أن أقول، فقد مللت منه، كما أنني لأرى أنه أمر لا تق بكتاب رحلاقي وجولاقي أن أضع فيه مثل هذه الأشياء، ويكفي — على كل حال — أن أقول، أن رفاق وأقرباء الحاج المتقدم الذكر، هم على استعداد لدفع كثير من الذهب لو تمكنوا من محي اسمه من على وجه الأرض، وأن هؤلاء الناس أنفسهم، رغبوا لو أنهم لم يعرفوا اسمه قط، الذي بذل جهداً كبيراً لرسمه في كل مكان.

ويمكن أن يسمح، أو ربما هو مفيد من بعض الجوانب، أن يقوم بعض النبلاء برسم رنوكهم، أو بكتابة أسمائهم، في نزل، وحانات، وقاعات، وساحات، وأبراج، وقلاع، وأبواب، وأسوار، ومسارح، وأسواق، وساحات الثقافة والمنازلة، وأماكن علمانية أخرى، إنما أن يفعلوا هذا في الكنائس والأماكن المقدسة، فذلك خطأ، وحقاقة، واجرام، وبعضهم يبذل جهوداً عظيمة من أجل ذلك، ففي سبيل ذلك يهملون صلواتهم وزياراتهم إلى الأماكن المقدسة، لابل يهجرّون النوم، ويحذو حذوهم بعض العمال البسطاء، فيأخذون قطع فحم، ويكتبون أسماءهم غير المعروفة، وألقابهم التافهة على الجدران، لابل لحق الضلال بعض الكهنة ورجال الدين، واقتيدوا من قبل بعض القروء الحمقى لفعل هذا، ولوثوا الجدران بالخبر الذي جلبوه معهم لكتابة روايات عن الأماكن المقدسة التي رأوها، وأعجب نحو جميع هؤلاء الناس، الذين لم

يتفكروا حول المثل العامي، الذي حتى الأطفال، يقوله أحدهم للآخر، وهو: «تلوث أيدي الحمقى أطراف البيت»، وبناء عليه، إذا — حسب المثل العامي — عدّ حمقى الذين يلوثون جدران بيوت الناس، لابد من أن يعد أعظم حماقة الذي يلوثون بيت الرب، والأماكن المقدسة عند الرب، ويعد فوق الجميع حماقة الذين يرسمون، أو يعلقون ترستهم وسوابغهم ودروعهم، فوق صور الرب، وصور العذراء مريم المباركة، وصور الصليب المقدس، والنخبة من قديسي الرب، لأنه في كثير من الحالات، يوجد على دروع النبلاء صوراً لبعض الحيوانات، أو الوجوه الشنيعة، أو المخلوقات غير الطبيعية، أو مجموعات من الألوان والأشكال لا معنى لها، كلها انحدرت من الوثنية القديمة.

وهكذا نقرأ بأن أنوبيس Anoubis ومسيديو Macedo ولدي أوزوريس، اللذان تجولا في جميع أنحاء العالم، وهما يقترفان الشرور، قد حملا شعارين، فكان شعار الأول كلباً، وشعار الثاني ذئباً، حيث رسما صورتيهما على المعابد التي بنيت في جميع البلدان، ليظهرها استخفافهما ببقية الأرباب، ومثل هذين فعل نبلاؤنا في كنيسة الضريح المقدس، التي جدرانها في حالة فوضوية [٢١٧ ظ]، بسبب الترسة التي جرى تعليقها فوق الصور، لأنه حول القاعة المستديرة، كانت الجدران القديمة مغطاة ومزينة بالفسيفساء، لكن الفرسان والنبلاء لم يظهروا رحمة نحو هذه التماثيل والصور الثمينة، وعلقوا ترستهم فوقهم، وبذلك غطوا جميع صور المسيح، والعذراء المباركة، وقد خرقوا هذه الصور بالمسامير، وقد قام الرب منتقماً لانعدام الاحترام هذا، فقد حدث في إحدى المرات أن ملك مصر جاء إلى القدس ليصلي في معبده الذي اسمه هيكل سليمان، وبعد ما أنهى صلواته، صعد ودخل إلى الـ Anastasis أي كنيسة قيامة الرب، حتى يمكنه أن يصلي هناك أيضاً، وعندما كان ينظر من حوله ويتعجب من حجم الكنيسة وجمالها، رأى ترسة نبلاء مربوطة إلى

الجدران، وموضوعة فوق صور الفسيفساء، وعندما علم سبب تعليقهم هناك، غضب غضباً عظيماً، وأراد أن يهدم كنيسة القيامة كلها ويسويها بالأرض، لولا أن الرب جعله يغير نيته، وعلى كل حال، أمر بانزال جميع هذه الترسة وانتزاعهم من على الجدران، وكومهم في كومة واحدة، وأمر بإلقاء النار فيهم، وأحرقهم جميعاً، ولذلك لا يوجد الآن هناك أي ترس، كما ليست هناك صور فسيفساء كاملة، بل مشوهة وغير واضحة.

ومضى آخرون حول الكنيسة مع أدوات حديدية، مخفية في ملابسهم، وعندما كانوا يصلون إلى الأماكن المقدسة، كانوا يقومون باقتلاع الأحجار المقدسة، والتقاطها، أو كسرها أو اقتطاع أجزاء منها، لحملها معهم إلى الوطن، لأنه ما هو السبب، إلا أن يكون الإنسان قد ضل، أو أعمته الشرور، حتى يفكر بتعرية الأماكن المقدسة من زينتها، أو أن يقوم بتشظيه، أو تشويه بعض الأعمال الفنية، التي عملت بعد جهد كبير ونفقات عالية؟

واقفادتنا أعمال التشظية السخيفة للحجارة إلى رعب عظيم، ليس مرة واحدة، بل أكثر من مرة، ففي إحدى المرات، بعدما ذهب الحجاج إلى منازلهم، بقينا طوال الليل في كنيسة القيامة، وفي الصباح اكتشف بأن شظايا قد اقتطعت من صخرة الجمجمة، ومن لوح الضريح، ومن حجرة تحنيط الرب، وعندما رأى المسيحيون الشرقيون هذا، صرخوا في الكنيسة ضدنا، ودعونا باسم لصوص وسارقين، وثار اضطراب عظيم ضدنا، وهددونا بأنهم سوف يتشكون ضدنا إلى سادة المغاربة وسادة المسلمين.

ولدى سماع الأب المسؤول بهذا، كان خائفاً، وظن أن شراً عظيماً بات يحيق بنا، فدعانا جميعاً إلى بيعة العذراء المباركة، وبسلطاته الرسولية، حرم الذين قاموا بتشظية الحجارة، ولم يدعنا نخرج من الكنيسة، حتى أعطيت الشظايا إليه، وهكذا وقعنا هناك باضطراب

وارتباك وخجل، وثار الناس جميعاً ضدنا، بسبب الاثم الذي اقترفناه.

وبسبب مثل هذا، وقعنا بارتباك في القديسة كاترين في العربية، وقد ارتجفت رعباً وخوفاً، عندما تذكرت ذلك، لأننا سلمنا إلى البداة العرب من قبل الرهبان الشرقيين وقد أرغمنا بالضرورات الحادة على إعادة ماسرقناه، ولا يقطع الناس هذه الشظايا بدافع التقوى، بل بسبب أن بعض الشرهين من الفرسان، هم رعاة لبعض الكنائس أو المذابح، وهم يفعلون هذه الأشياء، بقصد إثارة السواد الأعظم من الناس ودفعهم لزيارة كنائسهم، وبذلك يحصلون على الفائدة، فالجشع هو الذي يدفعهم لمحاولة فعل ذلك، على الرغم من الأوامر التي أعطيت للحجاج بأن لا يفعلوا ذلك، الأمر الذي سلف تيبانه في أكثر من موضع.

هذا وإن موضوع الذين يلتقطون الحصى من الأماكن المقدسة، ويسعون إلى التقاط الآثار المقدسة، دون أن يشوهوا الأماكن المقدسة، مختلف، والقيام بذلك عمل مقدس وتقوي، كما سنبهرن على ذلك في ٢٥٣و، وبناء عليه، أمضى بعضنا هذه الليلة في عمل ما قمت بوصفه، بينما شغل آخرون أنفسهم بالأعمال التعبدية، وأقمنا القداسات منذ منتصف الليل حتى أضاء الصباح.

مغادرة الحجاج لضريح الرب واجتماعهم فوق جبل صهيون للتشاور حول مغادرتهم للقدس

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان عيد القديسة مريم المجدلية، غنينا قداس قيامة الرب في ضريح الرب، وفي هذا القداس المهيب، أتينا على ذكر القديسة مريم المجدلية، وبعد انتهاء القداس، قام الحجاج الذين كانوا على وشك المغادرة، بالسعي من مكان مقدس إلى آخر وتقبلهم مع الدموع، مودعين لهم مع الأسف، لاقتراب مفارقتهم لهم،

وفي الحقيقة للأماكن المقدسة قوة جذب خاصة، بها يجد الحجاج أنفسهم في النهاية منجذبين إليهم أكثر من ذي قبل، وقد احتشدوا جميعاً حول ضريح الرب، وتابعوا الدخول والخروج مثل نحلات في خلية للنحل.

وعندما كانوا يعملون هذا، جاء المسلمون، وأخرجونا من الكنيسة، وطلبوا منا جميعاً الصعود إلى جبل صهيون، لأنهم أرادوا التحدث هناك معنا حول بعض الأعمال، وبعدما خرجنا من الكنيسة، دخلنا إلى بيعة القديسة مريم المجدلية، الموجودة في الساحة خارج الكنيسة كما تقدم لنا ذكر ذلك، وتوسلنا هناك من أجل حمايتها، وغنينا ترنمة « O mundi lapas »، الخ، وصعدنا بعد هذا إلى جبل صهيون، ووجدنا الرهبان هناك قد بدأوا للتو، بقداس من أجل عيد القديسة مريم المجدلية، وقد مكثنا حضوراً هناك حتى النهاية، لأن الوقت كان ما يزال مبكراً، وساعة الغداء لم تحل بعد.

افتراق الحجاج عن بعضهم من أجل جبل سيناء والاجتماع الذي عقده

وقدم بعد القداس السيد جانم الذي كان حاكماً للقدس، مع بعض شيوخ المسلمين، والسيد Sabathytanco، أي كاليوس الأكبر، الرئيس الأعلى للمشفى، والترجمان المسلم، والفحل كاليوس الأصغر، الذي كان دليل الحجاج عبر الصحراء، وعدد كبير آخر من الأعيان، وعندما اجتمعوا كلهم، جلسوا في قاعة الرهبان، وفي القاعة الكبرى، التي يطلق الرهبان عليها اسم قاعة البندقية، وجلس معهم الأب المسؤول، والأخ جون أوف بروسيا، مع شيوخ آخرين من الرهبان الفرنسيين، ومثل هذا الشخصيات البارزة بين الحجاج مثل اللورد جون ويرنهر Wernher، والبارون فون زيمبيرن Zimbern، واللورد جون التروخسيس، واللورد برناردفون بريتنباخ Braitenbach،

وحاجب الكنيسة الكاتدرائية في مينز، واللورد فيرديناند فون ويرنوي Wernawe، واللورد ماكس فون روبولستين Roppolstein، وكان إلى جانب هؤلاء بين الحضور القبطانين لأنها كانا أساسيين، وكذلك أعوانهما، ووقتها صدر الأمر إلى جميع الحجاج للوقوف أمام هذا الجمع، وعند اكتمال حضورهم، جرى إخبارهم بصوت المنادي، بأن الحج إلى القدس قد انتهى الآن، وأنه لم يبق هناك من شيء لعمله سوى المغادرة من هناك، والعودة إلى الأوطان، الأمر الذي يتوجب علينا الآن الاستعداد له بأكبر قدر ممكن من السرعة، وعلى كل حال، إذا وجد بين الحجاج أي واحد يرغب في التخلف في القدس، والانطلاق من هناك إلى جبل سيناء، فعليه وعلى أمثاله الاعلان الآن عن أنفسهم، والبقاء في القاعة مع السادة، وعلى الآخرين مغادرة القاعة والاستعداد للمغادرة، لأنه بعد انتهاء الغداء سوف يقودونهم نازلين من القدس نحو البحر.

وبناء عليه غادر جميع الحجاج القاعة، باستثناء ثمانية عشر، هم الذين بقيوا مع السادة، وهم الذين سلف لي أن ذكرت أساءهم، ثم بدأنا نبحث حول الحج إلى سيناء مع السادة، وهي مباحثات، تقتضي الإجراء قبل مغادرة قبطاني الغليونين، ورفاقنا من الحجاج، كما ينبغي أن تكون بحضور قبطاني الغليونين، والأب المسؤول، وبعض الحجاج المثقفين، لأنه بعد فراقهم، سوف يتصرف المسلمون مع الحجاج المتبقين كما يرغبون، ولسوف يبتزون الأموال منهم بقسوة وبدون رحمة، ذلك أنه مع وجود القبطانين قد تصرفوا بشكل معقول أكثر، ثم إنهم إذا ما طلبوا مبلغاً غير معقول، سوف ينزل الحجاج إلى البحر مع رفاقهم، ولسوف يتخلون عن الحج إلى جبل سيناء.

وبناء عليه نظمنا نوعاً من العقد من أجل سلامتنا، واعطاء الأمان لنا للسفر من القدس في اليهودية، إلى غزة في فلسطين، ومن غزة خلال الصحراء العربية حتى جبل سيناء، ومن جبل سيناء حتى مصر من

خلال بلاد مدين، ومن مصر إلى المطرية حيث بستان البلسم، واعطاء أمان لتراجمة القدس ليصلوا إلى هذا المكان وليس أبعد من ذلك، وفيما يلي الشروط التي أبرمناها معهم، وأبرموها معنا:

الشرط الأول: على السيد Sabathytanco أي كالينوس الأكبر، أن يتلطف بوعدنا باتخاذ اجراءات من أجل اقتيادنا بسلام من هنا حتى مصر، وذلك من خلال الأماكن المتقدم ذكرها، وأن يقوم هو نفسه، بشخصه ذاتياً، بمرافقتنا على نفقته وحسابه من القدس حتى غزة، وعلى هذا الشرط أعطى كلمته بأنه سوف يفعل ذلك.

ثانياً: فيما يتعلق بجميع الخفارات، والضرائب، والعشور التي سوف يجري دفعها فيما بين القدس وغزة، هو الذي سوف يدفعهم عنا. من ماله، وقد طلبنا هذا منه، على أساس معرفتنا أنه بدون ذلك سوف نتعرض للنهب بدون حدود من قبل المسلمين على الطريق.

ثالثاً: عليه أن يؤمن لكل حاج حماراً يركب عليه، مع رجال لسوقهم (وهؤلاء السائقين يعرفون أيضاً باسم مكارية)، وأن يكون سائقي حميرنا مسيحيين، وأن يأخذونا ويخدمونا من هنا حتى المطرية في مصر، ويقدمون الطعام لأنفسهم ولحميرهم، مالم يصدف ويقوم الحاجج باختيارهم، بإضفاء شيء ما عليهم.

رابعاً: عليه القيام بتأمين نقل جميع حاجياتنا، مثل الملابس والأوعية، كلها على حسابه الخاص، وذلك من القدس إلى غزة المتقدم ذكرها، باستثناء الخمرة، التي سوف نأخذها معنا على حسابنا.

خامساً: عليه أن يؤمن على حسابه في غزة مجموعة من الجمال لحمل حاجياتنا إلى جبل سيناء، ومن هناك إلى مصر إلى المطرية، وعليه أن يؤمن لنا في غزة نزلاً معقولاً وله حجم مناسب ويضعه تحت تصرفنا.

سادساً: عليه أن ينيب واحداً من رفاقه، ليتولى مرافقتنا مكانه

شخصياً من غزة حتى القاهرة في مصر، علاوة على ذلك رجونه أن يرسل معنا الفحل، الذي اسمه كالينوس الأصغر، الذي — كما ستتحدث فيما بعد — غالباً ما ارتحل خلال الصحراء مع الحجاج، ونحن ملزمون بأنفسنا بتزويده بالأطعمة من مخزننا.

سابعاً: عليه أن يزود كل حاج بزق، ليحمل فيه الماء خلال الصحراء، لأنه غالباً لا يمكن العثور على ماء، على ذلك الطريق لأيام سفر كثيرة.

ثامناً: عليه أن يعطينا إذناً لشراء خمرة في القدس، من المسيحيين الشرقيين، وأن يتدبر تمكننا من حملها على ظهور الجمال أو الحمير، من دون أن نتعرض للإهانة من قبل المسلمين، لأنه مالم تتخذ احتياطات فائقة جداً أثناء شراء الخمرة وحملها، لكن يكون الحجاج بأمان.

تاسعاً: عليه أن يعيرنا ثلاثة سرادقات أو خياماً صغيرة، حتى نتمكن من نصبها في كل مكان في الصحراء، حيث نرتاح، لنحمي أنفسنا من الحر الصادر عن الشمس.

عاشراً: على كل واحد منا أن يدفع إلى الترجمان، من أجل جواز المرور والخفارة، وكل شيء آخر تقدم ذكره مبلغ ثلاثاً وعشرين دوقية، ندفع له نصفها في القدس والمتبقي في غزة، بعدما نكون قد جهزنا الجمال، والأمور الأخرى المتقدم ذكرها، وفقاً للاتفاقية والشروط الواردة فيها.

حادي عشر: ينبغي وضع الاتفاق كله كتابة، وتوقيعه مع اختتام السيد حاكم القدس، وكالينوس الأكبر، وحفظه في ديوانه.

ثاني عشر، وأخيراً: طوال بقائنا في القدس، ينبغي أن يسمح لنا بزيارة الأماكن المقدسة، في داخل المدينة وفي خارجها، أي أن يسمحوا لنا بالدخول إلى كنيسة القيامة عندما نطلب منهم ذلك، وأنا عندما ننطلق

برحلتنا إلى جبل سيناء، أن يأخذوننا إلى بيت لحم، وأن يدعونا نقيم هناك لمدة أيام، وأن يقتادوننا من بيت لحم إلى حبرون، لنرى المكان الذي صنع فيه آدم من طين، والكهف المزدوج.

لقد كانت هذه شروط العقد الذي أبرمناه، وعانينا من خلافات كثيرة مع اضطراب عظيم قبل أن نتفق على رأي واحد، وأخيراً اتفقنا، وجرى ختم العقد في اليوم نفسه، أمام الحجاج، وإخواننا الرهبان، ومضينا، إنما دفعنا دوقيتين رسماً من أجل الختم.

مغادرة الحجاج القدس وعودتهم إلى الوطن

وفي اليوم نفسه، أي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، وبعد انتصاف النهار، جاء السادة المغاربة مع السادة المسلمين، مع حشد كبير من الأتباع المسلحين، وجاء جميع سائقو الحمير مع حميرهم إلى جبل صهيون، ليأخذوا الحجاج من هناك وينزلونهم إلى البحر، وقد جاءوا مع جيش شجاع وقوي للدفاع عنهم ضد الكائن على طريقهم، ذلك أنهم عرفوا بأن هناك كائن جرى إعدادها للحجاج على الطريق، وذاع الخبر في جميع أنحاء البلاد، بأن هناك كثيراً من الحجاج في القدس، والناس سوف يكونون مسرورين لمهاجرتهم، ولذلك تأمروا واجتمعوا مع بعضهم.

وفي الوقت نفسه عندما كان كل واحد يسعى نحو الأمام ونحو الخلف، ويعد نفسه للرحلة، أرسل خلفي موالى اللوردات الأربعة الذين قدمت معهم، عندما تركت الوطن، وهم الفارس اللورد جون بارون فون زيمبيرن، والفارس اللورد بير فون ريخبيرغ، والفارس اللورد هينريخ بارون فون ستوفل، والفارس اللورد جون التروخسيس، وأضافوا إلى جميع أعطياتهم المتقدمة لي مايلي: فقد أعطوني كمية من الدوقيات، لأدفع نفقات رحلتي إلى جبل سيناء، ورجوني أن أصلي

للرب من أجلهم عندما أكون في تلك الأماكن المقدسة، وأن أتفحص بدقة تلك الأماكن، وأن أكتب وصفاً عنها، وكررت شكري لهم، وأعطيت واحداً منهم رسالة ليأخذها إلى المعلم المبجل لودويغ فوخس في أولم، فله كتبت واصفاً أوضاعي وأنها تسير على مايرام.

وساعدت بعد هذا خدام موالي لحمل أغراضهم، وحزمها على ظهور حميرهم، وكان بعض الفرسان يغادرون القدس وهم مرضى كثيراً، إلى حد أنهم كانوا غير قادرين على الجلوس على ظهور الحمير، ومن أجلهم جرى جلب جمال، مع سلال كبيرة، علقت كل سلة على طرف من طرفي الجمل، وفي السلال جرى حمل المرضى إلى البحر، وكان هناك واحداً من الحجاج الشباب مريضاً جداً، إلى حد تعذر فيه حمله على ظهر الحمار أو في سلة، لذلك تركوه وراءهم، ولقد مات بعد مغادرتهم مباشرة، وقد دفن في مقبرة الرهبان على جبل صهيون.

والآن عندما باتوا جميعاً جاهزين امتطوا حميرهم، وبدأوا يغادرون القدس، وبكى كثيرون بسبب محبتهم للأماكن المقدسة، التي كانوا الآن كارهين جداً لتركها، وبكى آخرون لانفصالهم عن رفاقهم وإخوانهم، الذين تركوهم خلفهم، الذين كان بينهم لوردات، وخدام لوردات، وهؤلاء عندما نظروا إلي لم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء، وقد بكوا معي، وفي الحقيقة لقد افترقت مع مرارة عظيمة في القلب عن موالي الأعظم لطفاً، فهم لم يكونوا سادة لي، بل أصدقاء لطفاء وإخوان، وقد بكيت خشية من الاضطرابات التي سوف يواجهونها في البحر، أكثر من بكائي على انفرادي ووحدي، والتعاسة التي أنا مقبل على مواجهتها في عبور المنطقة التي بلا حدود من الصحراء، ومن البحر في رحلة شتوية، فهما معاً مليئتين بالرعب الدائم، لأنني تذكرت التعاسات والشقاء الذي عانى منه الحجاج أثناء عودتهم في حجي الأول، الأمر الذي تحدثت عنه من قبل، وكذلك حتى الوصول إلى البندقية، ولقد

كنت خائفاً جداً، خشية من أن يواجهوا مثل ذلك النوع من الشقاء.

وهكذا غادر الآن باسم الرب قبطانا الغليونين القدس، ومعهما اللوردات والحجاج، وأرسلنا معهما اثنين من جماعتنا، ليجلبا إلى القدس الأشياء التي تركناها خلفنا في الغليونين، وقد وصلوا إلى الرملة، التي تعرف بشكل عام باسم راماء، وحجزوا هناك لكثير من الأيام، وتعذبوا بشكل فظيع، لأنه يسكن في تلك المدينة الأسوأ بين أهل الشرور، كما وضع معنا ووضعناه في ص ٣٧٦، ويقوم سكان الرملة دوماً بإزعاج الحجاج المغادرين للأرض المقدسة أكثر من القادمين الجدد.

وبعد مضي هذه الأيام، نزلوا إلى يافا، وعندما كانوا نازلين إلى هناك، عذب المسلمون اثنين من الحجاج كثيراً، وأرغموهم على التمدد لعدة أيام في حانة قدرة في يافا، إليها تقدمت الإشارة في ص ٣٢٩، ففي هذه الحانة أصيب كثير الحجاج بالمرض، بسبب القذارات في المكان، وبسبب الحاجة إلى الضروريات، وبشكل خاص أكثر بسبب العذاب والإزعاج الذي تعرضوا له على أيدي المسلمين، وعلى أيدي أطفال المغاربة، كما سلف وتحدثنا عن ذلك، ولقد عذبوهم أثناء عودتهم أكثر مما فعلوه عندما قدموا، ولذلك وصل الحجاج إلى حالة من الغضب والمرارة ضد المسلمين على طرف البحر، أنهم قرروا وهم صاعدون على ظهر السفينة، قطع أعناق جميع المسلمين الذين سوف يقابلونهم، من كل من الشيوخ والشباب، غير أنهم أرغموا على التخلي عن هذه الخطة، من أجل الذين بقيوا في القدس، لأنهم لو أقدموا على قتل إنسان واحد، لجرى رمينا جميعاً بالسجن، ولربما أقدموا على قتل بعضنا انتقاماً للدماء التي سفكت.

وغالباً ماحدث أنه عندما يكون الحجاج على وشك الافتراق عن المسلمين، يعطي بعضهم للآخر أسماء سيئة، ويشتم أحدهم الآخر، مع أنهم قد يكونوا أصدقاء عندما يكونوا على الشاطئ، وقد حدث قبل

بضع سنوات مضت، في ميناء يافا، أن غضب الحجاج من المسلمين، وغضب المسلمون من الحجاج، حتى صف الطرفان أنفسهم في صفوف قتال، وتحاربوا مع بعضهم بعضاً.

ومكثنا في حجي الأول لمدة أربعة أيام في ميناء يافا، انزعجنا فيها وتعذبنا إلى أبعد الحدود، ومثل هذا فعلوا اليوم حيث عذبوا الحجاج، وكما قلت من قبل، لولا خوفهم على سلامة الحجاج الذين بقيوا خلفهم في القدس، لما كانوا صعدوا إلى ظهر الغليون من دون سفك للدماء، وعلى كل حال، أقلق الحجاج بسلام— من أجل سلامنا— في قوارب كبيرة، وأبحروا إلى الغليونين، اللذان كانا حتى الآن راسيان بدون حركة، في المكانين اللذين تركناهما فيهما في البداية، ثم فك شعبنا الغليونين من أربطتهما، ورفعوا المراسي، وحركوا علامات الغليونين، وأطلقوا حجارة من أدوات قذفهما على أبراج يافا، وغادروا الميناء بصرخات عالية تحدياً للمسلمين.

وعندما وصلوا إلى قبرص، كان عدد كبير منهم مرضى، وقد مات عدد من الفرسان النبلاء هناك، وأقلعنا من هناك، وذهبنا إلى رودس، غير أن رحلتها كانت رحلة بطيئة، ولذلك عانينا كثيراً من الحاجة إلى الماء، ولهذا توجهنا نحو ناتوليا Natolia ، التي كانت أقرب البلدان، وكانت تحت حكم الأتراك، محاولين الحصول على الماء من هناك، ولكن عندما دخلنا إلى الميناء، وعرف الأتراك، أنهما كانا غليونين، جالبين لحجاج القدس، لم يسمحوا لهما بالحصول لاعلى الخبز ولاعلى الماء، كما رفضوا منحهما جوازاً بالنزول إلى الشاطئ، بل أرغماهما على المغادرة بسرعة، والابتعاد عن شواطئهما، ولذلك ذهبا أسفين بسبب حاجتهما إلى الماء، وأرسل الرب — على كل حال — لهما مباشرة ريحاً طيبة، حملتهما إلى جزر السيكلاد، حيث رسوا في جزيرة رودس بينها، وهناك أنعشوا أنفسهم، وأقاموا هناك عدة أيام.

وعندما أقلعنا، وابتعدا عن رودس، ووصلا إلى أعالي البحار، قابلا فجأة سفينة قرصان مسلحة، مهيأة لقتال الغلايين، ولولا أن الرب أعانها بريح جديدة وقوية جداً، من المؤكد أنهما كانا لن ينجيان من أيدي القرصان، ذلك أنه عندما كان القرصان على مقربة منهما، هبت الريح، وبسرعة حملت الغليونين عائدين إلى ميناء رودس، وأبحرا في اليوم التالي على طريقهما، وعملا رحلة طيبة، حيث عبرا المقاطعات الشرقية، أي بلاد الاغريق وآخيا والبقية، حتى وصلا إلى بارنزو Pa-renzo في استريا ودالماشيا، وكانت بارنزو آخر ميناء قبل أن يدخل الإنسان إلى بحر البنادقة، الذي لا تستطيع الغلايين والسفن الكبيرة عبوره من دون ربح خاصة، وعندما لا تهب تلك الريح، لا بد لهم من الرسو والانتظار في ذلك الميناء لبعض الوقت، أي حتى تهب تلك الريح، ولهذا السبب هناك دوماً في ذلك الميناء أصحاب قوارب، مع قوارب كبيرة، وعندما يكون هناك بعض الناس يريدون الوصول إلى البندقية بسرعة، يستأجرون قارباً، ويذهبون به إلى البندقية، وبناء عليه عندما رأى الحجاج أن الريح لن تهب بشكل موافق للبحار في خليج البندقية، استأجروا قوارب، لكن فجأة هاج البحر، وأخذت قواربهم تتقاذفها الأمواج الكبيرة، لذلك لم يبق لديهم أمل كبير بالنجاة من الموت، لأنهم عندما كانوا في هذا الاضطراب، انكسرت دفة القارب الذي كان فيه موالي، وباتوا لذلك في فزع عظيم، وتحركت المياه بشدة بوساطة الريح، وانصبت عليهم من كل جانب، وانكسرت السارية في القارب الذي كان بجوارهم، وطار الشراع مع عارضته، وبناء عليه، كان هؤلاء الرجال حتى في خطر أعظم، وقد فقدوا كل أمل، لذلك شرعوا بالاعتراف بذنوبهم أحدهم إلى الآخر، وقطعوا العهود، ونذروا النذور، كما جرت العادة بالنسبة للذين يكونون بمثل هذه المضائق، ومع ذلك تمكنوا على كل حال، بمعونة الرب، الذي حفظهم في ضيقهم، من الرسو جميعاً في ميناء البندقية، وكانوا مبللين، يرتجفون وفي حالة

مزرية.

وقد مكثوا في البندقية لعدة أيام، ثم غادروا المدينة نحو وطنهم، وفي حوالي يوم عيد القديس غول Gall ، كانوا في منطقتهم، وكان قد مات عدد كبير من النبلاء ومن الخدم، لكن مامن واحد من موالي ومن خدمهم قد فقد، باستثنائي أنا وحدي، فقد بقيت بعدهم في القدس، وذلك بموافقة موالي، وكانوا جميعاً مع خدمهم بصحة جيدة، والعدد نفسه الذي سافر، عاد إلى الوطن، وقد جرى الترحيب بهم بسرور لحدود له، وببهجة، وجاء ذلك من آبائهم، وأزواجهم، وأولادهم، ورفاقهم.

الحمد للرب

هنا نهاية الحج الذي عمل بشكل جماعي إلى القدس.

هنا بداية الحج إلى الأرض المقدسة الذي عمل خلال الأرض المقدسة من قبل الحجاج الذين عزموا على الحج إلى جبل سيناء بعد مغادرة الحجاج الآخرين للقدس وللارض المقدسة

في اليوم الثالث والعشرين، الذي هو يوم القديس أبو لينارس -Apolinaris الشهيد، اجتمع حجاج جبل سيناء في الصباح الباكر، فوق جبل صهيون، واستدعوا إلى هناك الأب المسؤول، والراهب جون أوف بروسيا، وشيوخ الدير، ورجوهم مع كثير من التوسل، بأن يتكرموا عليهم ويتفضلوا بتعيين غرف لهم، يمكنهم العيش فيها وتلقي الرعاية خلال الوقت الذي سوف يقون فيه بالقدس، وأثار الأب كثيراً من المضاعف حول هذه المسألة، وعرض أسباباً كثيرة لعدم التمكن من أخذهم في الدير، وعندما سمع الفرسان ذلك، حاولوا الحصول على موافقته بالذهب، وأحضروا عدداً كبيراً من الدوقيات، قدمها أحدهم إلى الراهب جون قائلاً: «خذ يا أخانا هذه القطع من الذهب، وامنحنا مسكناً، أرجوك، واحصل على طعام لنا، وعند صرف هذه النقود، سوف نعطيك بعضاً آخر»، لكنهم حتى بذلك لم يصلوا إلى هدفهم، لأن الأبوين رفضا النقود، وخاطبا الفرسان بهذه الكلمات: «اعلموا ياسادتي الحجاج الفرسان، لقد تعلمنا بطول التجربة أنه أفضل لكم الإقامة في الخارج، وليس معنا في الداخل، ولذلك سوف نساعدكم على اكتراء مكان للإقامة، ووقتها سوف يكون الدير تحت تصرفكم من أجل الأمور الروحية، وإذا ما وقع أحدكم مريضاً، سوف ندعه يرقد في قاعة المعالجة، وسوف نرعاه ونعتني به، علاوة على هذا، ولكي لا نبذو أننا رافضين كلياً لطلبكم، سوف نستقبل بيننا رفيقكم وزميلكم بالحج، الراهب فيلكس، مثلما استقبلناه لدى أول قدومكم إلى هنا، وهو سوف يقيم بالقلاية التي يشغلها الآن، وسوف يرتاح فيها، وسوف يأكل

ويشرب معنا في قاعة الطعام طوال الوقت الذي ستبقونه في المدينة المقدسة».

ولدى سماع الحجاج لهذا، أقبلوا عن الضغط من أجل مطلبهم الذي كانوا قد بدأوا به، في حين قدمت أنا الشكر للأبوين على لطفهما الذي أبدياه نحوي، وشغلت وأنا ممتن، مكان إقامتي هناك، طوال الوقت الذي بقيته في القدس، وكنت أدخل وأخرج مع الرهبان المبجلين، وكأني من أفراد طائفتهم، وذلك دونما خوف أو ازعاج من قبل المسلمين، وهكذا أقمت في الدير، وقد جهزت بشكل رائع، وذلك من دون نفقات.

واكتري الآن بقية الحجاج مسكنا في بيت الفحل، أي كاليينوس الأصغر، الذي كان مسلماً وكان هذا البيت قائماً في اطار أحواز جبل صهيون والقدس، على الرابية التي تنزل إلى الضريح المقدس، وكان في هذا البيت ثلاث قاعات إلى جانب قاعة صغيرة منفردة، وكان هناك في الوسط قاعة أو ساحة ذات حجم لا بأس به، حيث توجد دوالي مع عناقيد عنب، وكان تحت البيت صهريج كبير، من أجل أعمال الاستحمام الاحتفالية للمسلمين، وقد أعطى كاليينوس قاعتين من قاعات بيته إلى الحجاج، وقد احتفظ مع أخيه بالقاعة الثالثة مع أثاثها، وفي المدة التي أقام بها الحجاج في البيت، لم يأكل هذين الرجلين ولم يناما في البيت، بل تركا البيت تحت تصرف الحجاج، ولذلك دخلوا وخرجوا، وناموا وأكلوا في البيت، وكانوا يتابعون ماكانوا يحتاجونه، ويطبخونه حسبما يرضيهم، وقسم الحجاج أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، حتى يكون بذلك وضعهم أفضل، وأعظم تزويداً بالضروريات أثناء السفر بالصحراء، كما أنه بذلك يكون حفظ السلام بينهم أحسن، لأنه يكون أمراً أسهل بين مثل ذلك العدد، وبقيت — على كل حال — الفئة الأولى والفئة الثانية، دوماً مع بعضهما، ومثل ذلك بقيت الفئة الثالثة

لحالتها.

وكان في الفئة الأولى ستة حجاج هم: اللورد جون، كونت أوف سولمس Solms الذي كان الأصغر سنّاً بين الجميع، لكن الأكثر نبالة من حيث الميلاد.

— اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي هو الآن عميد الكنيسة (الكاتدرائية) في مينز.

— اللورد فيليب فون بينخن، الذي كان فارساً، ووصياً على الكونت المتقدم الذكر.

— إيرهارد، وكان تابعاً، ووظيفته حمل السلاح، كما كان خادماً للكونت

جون، ويدعى هنجي Hengi، وكان متعهداً للمؤمن وطباخاً خبيراً.

جون كنوس Knuss، وكان مترجماً إلى اللغة الإيطالية.

وكان في الفئة الثانية، ثمانية حجاج، أسماؤهم كما يلي:

اللورد ماكس، وكان يكنى بسيناسينوس Sinasinus، وهو بارون فون روبلستاين Roppelstein.

اللورد فرديناند، بارون فون ميرنا و Mernawe، وكان فارساً.

المعلم كاسبر فون بولاخ، Caspar von Bulach، وكان فارساً.

المعلم جورج ماكس، وكان فارساً.

المعلم نيقولا (عرف بالميجر انكروت Inkrot)، وكان فارساً.

كونراد، وكان حلاقاً، وعازفاً على المزمار، وطباخاً، ومتعهداً للمؤمن

الأب بول جوجلنغر Guglinger وكان كاهناً من طائفة

الفرنسيكان

الراهب توما، وكان راهباً علمانياً من الطائفة نفسها، وكان رجلاً بارعاً بكثير من اللغات.

وكان في الفئة الثالثة، ستة حجاج، هاكم أسماءهم مرتبة:

اللورد هنريخ فون سخونبورغ Schauenburg (كذا)، وكان فارساً.

اللورد كاسبر فون سيكولي Siculi، وكان فارساً.

اللورد بيتر فون مورسباخ Morspach، وكان فارساً.

المعلم بيتر فلسخ Velsch وكان فارساً.

المعلم جون لازينوس Lazineus ، رئيس شمامسة، وقانوني كنيسة ترانسيلفانيا في هنغاريا.

والراهب فيلكس، وكان من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، وهو كاتب هذه الرحلات والجولات، وهو أيضاً الذي جلب رئيس الشمامسة المتقدم الذكر إلى فثنا، وفي الحقيقة هو لم يكن يقوم بهذا الحج لولا ثقته بي، لأنه كان هنغارياً تماماً، ولم يفهم كلمة ألمانية واحدة، مع أنه كان بارعاً باللغات اللاتينية، والسكلافونية، والإيطالية، والهنغارية، وكان رجلاً من أصل نبيل، وفاضلاً، ومثقفاً، وخطيباً عظيماً، وعالماً بالرياضيات، وقد بقي، كما ذكرت من قبل، إلى جانبي، الأمر الذي سنراه فيما بعد أيضاً.

ويتوجب علي في هذا المكان، أن أصف الفحل، الذي هو كالينوس الأصغر، الذي في بيته أقام الحجاج، والذي تقدمت الإشارة إليه من قبل، وسوف تأتي فيما بعد، فقد كان للمشفى وللحجاج في القدس معلمين، هما الأعلى والأدنى، وكان اسم الأعلى Sabathytanco،

وكالينوس الأعلى، أي معلم المشفى والحجاج، وكان كل من هذين الكالينوسين يعرف باسم الترجمان، أي حامي الحجاج المسيحيين، ودليلهم، والوصي عليهم، وفي الحقيقة، كان في كل مدينة أناساً منحهم السلطان امتياز، قيادة المسيحيين خلال البلاد، وحمايتهم من الأذى، وكان هؤلاء الناس موظفين في الدولة لديهم سلطات منحت لهم من قبل السيد السلطان، وهم يعرفون باسم التراجمة.

ومثل هذا، وبالطريقة ذاتها، كان لليهود تراجمتهم، أو كالينوس، وفي الأماكن حيث يتوفر عدد كبير من الحجاج، يكون هناك بالعادة كالينوسين: أعلى وأدنى، وذلك على سبيل المثال في كل من القدس وفي القاهرة، وهذين خاضعين أحدهما للآخر، ويتلقى الأدنى راتبه من الأعلى، في حين يستخرج الأعلى راتبه من الحجاج، وعندما يكون هؤلاء التراجمة جيدين ومستقيمين، كل شيء يسير بشكل جيد مع الحجاج، كما سوف نرى فيما بعد، وكان الترجمان الأعلى في القدس Sa-bathytanco رجلاً عجوزاً وطويلاً، وثرى، وصاحب معنويات عالية، غير أنه كان قاسياً على الحجاج، يتعجل بهم دوماً من مكان إلى آخر، ويستخرج المال منهم بشكل مخزن، علاوة على ذلك، هو لم يحافظ على عقوده بشكل جيد، وخرق كثيراً من وعوده، ومع هذا حمّانا باخلاص كبير، وبذل قصارى جهده للدفاع عنا، عندما طلبنا منه المساعدة.

وكان كالينوس الأدنى في القدس، أي الفحل، رجلاً متقدماً بالسن، وأعتقد أنه قد تجاوز الثمانين، وكان رجلاً حكيماً، ومسلماً مستقيماً، مليئاً بالمحاسن والفضائل، لكنه قليل المعرفة بالإيمان الحقيقي، أي أن جميع الناس من الممكن انقاذهم بالإيمان حيث ولدوا، شرط البقاء ظاهرين، في حين أعلن هو أن الذين يتخلون عن إيمانهم، سوف يكونون مدانين، ولذلك أدان المالك الذين كانوا من أهل إيمانه، وكانوا قد ارتدوا عن

الإيمان المسيحي، وكذلك جميع المسيحيين الشرقيين، فقد قال بأنهم يستحقون الادانة واللعنة، لأنهم جعلوا أنفسهم مثل المسلمين، وأقسموا يمين الولاء والتبعية للموكلهم، وقد حمل الرأي نفسه حول اليهود الذين سكنوا معهم، وقد قدر تقديراً عالياً إيماننا وخلصنا، لكنه اعتقد أنه لو تخلى عن إيمانه، لا يمكنه نيل الخلاص بإيماننا، كما أنه اعتقد أن مامن مسيحي مرتد، يمكنه نيل الخلاص بإيمانه هو، وغالباً ما تحدثت معه حول هذا الموضوع، لأنه عرف اللغة الإيطالية، وبعضاً من اللغة الألمانية المكسرة، التي تعلمها من الحجاج، الذين عبر معهم صحراء جبل سيناء ثمان وأربعين مرة.

وقد أبدى حباً عظيماً نحو المسيحيين من بلاد ماوراء البحار، إلى حد أنه كان يخاطر بحياته معهم، لابل أكثر من ذلك، كان على استعداد لوضع نفسه في خطر الموت من أجلهم، ولهذا نجده وإن كان رجلاً متقدماً بالسن، ومشهوراً بلطفه، قد قام على الرغم من ذلك، بعبور الصحراء مع الحجاج، وليس في ذهنه الحصول على أية مكافأة، بل كان هدفه فقط رفقته، وكان ينزعج كثيراً، لدى تفكيره بالكيفية التي يمكن قيادة الحجاج بها، بعد موته، خلال الصحراء، وخلال هذه المناطق، وفي الحقيقة أنا شخصياً انزعجت حول هذا، وفزعت من موته، مثلما فزعت من موت الراهب جون الذي تحدثت عنه من قبل.

وزار هذا الكالينوس البندقية، وكذلك بلاط الامبراطور فردريك الثالث، كما زار روما في أيام بابوية البابا نيقولا الخامس، وحدث هذا وفق الطريقة التالية: فقد قاد في إحدى السنوات، بعض الفرسان عبر الصحراء، كان بينهم فارس ألماني قوي، أحبه حباً عظيماً، وغالباً ما اعتاد على حشه، ورجائه، أن يذهب معه إلى ألمانيا عبر البحر، وأنه سوف يحسن إليه ويعامله معاملة جيدة، ويبقيه سالماً، لكن المسلم لم يوافق على هذا، وكان عندما ذهباً إلى القاهرة حيث اعتاد كالينوس على ترك

حجابه والعودة ثانية إلى القدس، سأل هذا النبيل كاليانوس أن ينزل معه حتى الاسكندرية ويبقى برفقته حتى هناك، وهناك سوف يدعه يذهب.

وعندما كانا في الاسكندرية، طلب النبيل من قبطان الغليون، الذي عزم على العودة على ظهره، أن يعلمه لوحده باليوم وبالساعة التي سوف يقلع الغليون بها، وبناء عليه، بما أن الغليون كان سيسافر في وقت متأخر من احدى الليالي، جلب ذلك النبيل في تلك الأمسية كاليانوس إلى ظهر الغليون معه، ولم يعرف كاليانوس بأن السفينة سوف تقلع في تلك الليلة، وظن أنه سوف يعود في الصباح إلى المدينة، لكن في ظلام الليل أقلعت السفينة بصمت، ولاقت ريحاً طيبة، فقطعت مسافة كبيرة في البحر، وهكذا أرغم المسلم على البقاء معهم، وعبور البحر.

وأخذه الفارس إلى كل من الامبراطور والبابا، وحدثهما عن محاسن الرجل وعن تقواه، إنما كان من غير الممكن تحويله عن دينه، وهكذا أعيد إلى البندقية، وسافر من هناك من جديد إلى وطنه، ومنذ ذلك الحين أظهر نفسه حارساً أعظم اخلاصاً لجميع المسيحيين، وأكثر مما كانه من قبل، لأنه أحضر معه هدايا ثمينة من الامبراطور، ومن البابا، ومن النبلاء، واعتاد أن يتحدث لأبناء وطنه عن الكرم العظيم للمسيحيين، وعن أجدادهم.

وكما قلت من قبل، سكن السادة النبلاء من الحجاج في بيت هذا الرجل الأمين، الذي إليه نزلت كل يوم، وكنت أدخل إليه وأخرج منه، كما أشاء، ويكفي ما قيل حول هذا الموضوع.

وفي اليوم الرابع والعشرين، عقدنا نحن الحجاج اجتماعاً على جبل صهيون، لنبحث معاً بشؤون الحج الذي عزمنا على القيام به في الأرض المقدسة، وعقدنا هذا الاجتماع، لأننا لم نرغب بأي حال من الأحوال

أن نستسلم للكسل في تلك الأيام التي كنا سنمضيها في الأرض المقدسة، بل أن نقوم بالحج إلى هذا المكان وإلى ذاك، ووافقنا جميعاً على هذه الرغبة، لكن الشيطان، ماكان ليسمح لنا أن نفعل ذلك، فقد بذر الخلاف وبدا الحجاج مختلفون واحدهم مع الآخر، ويتجادل أحدهم مع الآخر حول الأماكن المقدسة التي يودون قصدها، واختلفوا نتيجة لهذا حول مسائل أخرى أيضاً، وفي الحقيقة إنهم امتلكوا مطبخين في اطار البيت المتقدم الذكر: مطبخان، وطباخان، وشراء منفصل للميرة، مع أن ذلك كله كان من الممكن صنعه بشكل أسهل وأحسن تحت إدارة واحدة، واتحد— على كل حال— سيدا الفئة الأولى والفئة الثانية مع بعضهما، وكان لهما نار واحدة، وإدارة مطبخ واحدة، لكن سادة الفئة الثالثة— التي أنا انتميت إليها— عاشوا منفصلين بأنفسهم، وكان الفارس الذي اسمه بيتر فلسخ هونفسه الطباخ والمسؤول عن تأمين الميرة للفئة، وقد اكرى اثنين من اليهود الألمان الفقراء لمساعدته، حيث كانا يذهبان معه إلى السوق لشراء الذي كنا نطلبه.

وكان بعض الحجاج متشوقين كثيراً لزيارة الأماكن المقدسة في الجليل، أي لزيارة قرية الناصرة، وجبل الطور، ومرج ابن عامر الكبير، وبحر الجليل، وكفرنا حوم، وكوروزين، وهو الجبل الذي فيه بشر المسيح، وفيه أطعم الناس، ودمشق، وغير ذلك، ولكن عندما تشاورنا حول هذه القضية مع الأب المسؤول، وكالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، أخبرانا بوجود كثير من العوائق تقف في وجه هذا الحج، وأنه يتوجب علينا دفع مبالغ كبيرة لشراء سوء معاملة المسلمين، الذين قيل عنهم بأنهم في تلك المناطق معادين كثيراً للمسيحيين، إلى حد أن الحجاج نادراً مايتجرأون على الذهاب إلى الجليل، وأعلن لنا الأب المسؤول، أنه يوجد في الحقيقة في هذا الحج مخاطر أعظم من عبور الصحراء إلى جبل سيناء، وعندما سمع بعض الحجاج هذا سحبوا

اقتراحهم، وتخلوا عن الحج إلى الجليل، بيد أن آخرين كانوا راغبين بالذهاب، على الرغم من المخاطر التي أخبرنا عنها، إنما على الرغم من انفصالنا الشديد إلى فئتين، تمّ التخلي عن هذا الحج، لأنه لا يمكن لفئة واحدة دون الأخرى تحمل النفقات العظيمة، فضلاً عن هذا قام الذين لم يرغبوا بالذهاب بالشكوى ضد الذين قالوا إنه سيتوفر وقت لنا قبل العودة من الجليل للشروع بحجنا إلى جبل سيناء، وأننا في هذه الحالة علينا أن نتظرهم، الأمر الذي ماكانوا ليقوموا به، وفي هذه النقطة كانوا مخطئين، لأنه كان بإمكانهم الذهاب إلى هناك ثلاث مرات قبل أن نطلق من القدس، وذلك كما سيظهر فيما بعد، وهكذا حدث أنه بسبب الانقسام بين صفوف الحجاج، تُركت أشياء كثيرة دونها إنجاز، كان بإمكاننا إنجازها بسهولة، لو أننا كنا على رأي واحد، لأننا لو اتفقنا، ودفع كل واحد منا خمس دوقيات، لكان من الممكن أخذنا خلال الجليل كله، لابل ليس خلال الجليل فقط، لابل حتى أنطاكية، التي كانت تعرف في الماضي باسم ربله، كما ورد في سفر الملوك الثاني: ٢٥/٢٠-٢١.

ولقد رغبتنا فوق كل شيء برؤية الناصرة، التي قيل بأنها في هذه الأيام قرية صغيرة، لا يعبر فيها عن الاحترام للمسيح أو لعبيده، لكنها كانت في الماضي، في أيام القديس جيروم كرسي رئاسة أساقفة محترمة، ترأس عليها القديس سيلفانوس Sylvanus، حسبما جاءنا الخبر عند سيريل، في رسالته إلى أوغسطين، «حول معجزات القديس جيروم».

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس جيمس الرسول استيقظ رهبان جبل صهيون قبل شروق الشمس، وأخذوا كل شيء كانوا بحاجة إليه من غرفة المقدسات وخرجوا من الدير، وكنت أنا معهم، وقصدوا كنيسة القديس جيمس، لأقامة قداس هناك، وكنا

قد قدمنا من قبل وصفاً لهذه الكنيسة، وعندما وصلنا إلى الكنيسة، تركت الرهبان يدخلون إليها، وركضت أنا مسرعاً، ونزلت إلى مكان سكنى الحجاج، وقرعت على الباب بحجر، وأيقظتهم من أجل سماع القداس، وصعدت ثانية معهم إلى الكنيسة المتقدمة الذكر، ورتلنا في بيعة إعدام القديس جيمس قداساً مهيباً، لابل أقمنا قداساً تلو آخر فوق ذلك المذبح ذاته، ورجعنا إلى أماكننا التي فيها أقمنا من أجل الاستراحة في ذلك اليوم، الذي كان يوم سبت، وهو اليوم الذي حافظ المسلمون عليه، وعدوه مقدساً مثلنا نحافظ نحن على يوم الرب، ولم يسمحوا لنا بالتجول في أنحاء المدينة، في مثل هذا اليوم، لأنهم يقيمون صلوات مقدسة وقتها. (١)

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديسة حنة، أم العذراء الأعظم مباركة، استيقظنا باكراً، وذهبنا إلى الكنيسة القائمة فوق مكان بيت القديسة حنة، الذي فيه حملت بأمر الرب، ورجونا الذين سكنوا هناك بالسماح لنا بالدخول، لكنهم لم يستجيبوا بأي شكل من الأشكال، وبناء عليه صلينا للقديسة حنة، وتعبدنا ابتتها من خارج الأبواب، وقد سلف لي الحديث عن هذه الكنيسة، ولسوف أتحدث عن المكان بعد وقت قريب، وغادرنا الآن تلك الكنيسة، وعبرنا من خلال باب اسطفان، ونزلنا إلى وادي شعفاط، من أجل أن نقيم قداساً في كنيسة صعود العذراء المباركة، لكن عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مغلقة، ولم يكن بإمكاننا الدخول إليها، ولذلك تركناها وصعدنا إلى قبو صلاة المسيح وآلامه، حيث زيناً مذبحاً، وأقمنا قداساً، علماً بأن هذا لم يحدث مثله من قبل، أي أن نقيم الطقوس اللاتينية قداساً هناك، هذا ولقد سلف لي أن قمت بوصف هذا المكان.

ولدى الفراغ من قداساتنا، قمنا بزيارة الأماكن المقدسة الأخرى على

١- وهم فابري، وكان عليه أن يقول بأن اليوم هو يوم الجمعة.

جبل الزيتون، إنما عندما وصلنا إلى كنيسة صعود ربنا، أوقفنا واحد من المسلمين، ولم يسمح لنا بدخول الكنيسة ما لم ندفع له مالاً، وهددنا بأننا سوف نشتكى ضده إلى السيد جانم حاكم القدس، غير أنه لم يعبأ بذلك، وهكذا عدنا إلى مسكننا لتناول طعام الغداء على جبل صهيون.

وفي اليوم السابع والعشرين، الذي كان الأحد التاسع بعد التثليث، قدم جميع الحجاج باكراً إلى القديس على جبل صهيون، وهو القديس الذي توليت أنا ترتيبه لصالح الراهب سيرافينوس Seraphinus، القانوني الذي كان مسؤولاً عن السدة في ذلك الأسبوع، ذلك أنه رجاني بتلاوة القديس عوضاً عنه، وتوليت إدارة القديس إلى جميع الرهبان الذين ليسوا في طوائف الرهبان، ولقد وافقت على هذا بسرور، وعددته فضلاً خاصاً خصصت به حين نظر إليّ على أنني جدير بتلاوة قديس للدير في المكان الذي نعتقد أن هذا القديس الذي هو قديس القربان، قد تأصل بالأساس في هذا المكان، وأني حين أشارك بذلك القديس مع إخواني أفعل ذلك في المكان نفسه الذي شارك فيه المسيح مع تلاميذه بقديس أكل جسده على هذه البقعة، كما تحدثت من قبل في ص ٤٢٠، وبعد الغداء استرحنا.

ونزلت في اليوم الثامن والعشرين باكراً مع المسؤول عن التموين إلى المدينة، وقصدنا السوق، وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع، وحشداً عظيماً من الناس، وكثيراً من المطابخ، للناس الذين لا يطبخون في بيوتهم، كما يفعلون في ديارنا، بل يتعاون طعامهم من المطابخ العامة، الذين يعدون اللحوم بنظافة متناهية في مطابخ مفتوحة، ولا يمكن رؤية أية امرأة هناك قريباً من النار، لابل ما من امرأة تملك الجرة حتى على دخول هذه المطابخ لأن المسلمين يكرهون الأطعمة المطبوخة من قبل النساء، كراهيتهم للسم، ولذلك لا يوجد في الشرق كله امرأة تعرف كيف تطبخ كعكة، بل الرجال وحدهم هم الطباخون،

وتحتاج المطابخ في هذه المناطق جدراناً عامة، وذلك بسبب جفاف البلاد، والخشب نادر، ولذلك من غير الممكن أن يكون هناك مطبخاً في كل بيت، مثل الحال في بلادنا، وذلك بسبب الحاجة إلى الخشب، وبعد رؤيتنا لهذا كله، عدنا إلى أماكن الإقامة، وتناولنا الغداء بعد القداس.

وفي اليوم التاسع والعشرين، اشترى كل واحد لنفسه فراشاً محشواً بالقطن، وذلك لصالحنا، من أجل استخدامهم في القدس، وفي خيمنا في الصحراء، وقد تدبرت صنع واحداً لي أيضاً عندما كنت في القدس، وقد حملته معي عبر الصحراء، وعبر البحر إلى البندقية، ومن البندقية إلى أولم، إلى قلأتي الخاصة، حيث أنني مددتها بمثابة أثر مقدس من آثار حجي المقدس.

وبعد الغداء ركب الأمير جانم حاكم القدس، والسيد فكاردينوس Vaccardinus، والسيد Sabathytanco، والأعيان المسلمون، وصعدوا على ظهور الخيول إلى جبل صهيون للترويح عن أنفسهم، لأن الهواء على جبل صهيون دوماً منعش أكثر منه في القدس، ولهذا اعتاد أعيان الناس على الصعود إلى هناك بين آونة وأخرى، لإنعاش أنفسهم، وللتمدد في كنيسة الرهبان، التي هي دائماً باردة، وعندما قدموا، مدّ الرهبان زرابي فوق البلاط، مع فرش ومساند، وجلس السادة هناك، واستندوا بمرافقهم فوق الفرش، لأنه لم تجر العادة في هذا البلاد بالجلوس فوق المقاعد، أو فوق الكراسي بظهر أو بدون ظهر، بل يضطجعون على الأرض، وإذا كانوا أغنياء ومن أعيان الناس، يجري مدّ زرابي من أجلهم.

وعندما استقربهم الحال جلب لهم الرهبان أطعمة في صحون من المعدن، ومعجنات صنعت مع التوابل، وبعض الأرغفة من خبزهم، وأقراص معمولة بالعلس، وفواكه وأعشاب، ولوز وبطيخ، مع ماء بارد للشرب، لأنهم لا يشربون الخمرة، وأكل هؤلاء السادة بكل سرور، وفي

الوقت نفسه وقف الرهبان الفرنسي سكان ونحن الحجاج من حولهم وتولينا خدمتهم، في حين وقف خدمهم من المسلمين من حولنا، وقد سألونا أسئلة كثيرة من خلال مترجم، وسمعوا أجوبتنا بإعجاب، وناقشوا بجدية، أحدهم مع الآخر ماسمعوه، لأنهم كانوا قوماً متقدمين بالسن، وعليهم سمات الوقار، مع لحى طويلة، وذوي خبرة واسعة، ذلك أنهم كانوا أعيان حكام المدينة المقدسة، ولهم حضور أصيل.

وحدث في اليوم المتقدم، أن بعث الأب المسؤول باثنين من الرهبان من جبل صهيون، إلى بيت لحم، لكن مسلماً انقض عليهما على الطريق، وضربهما ضربات كثيرة، حتى وصل الأمر إلى سفك الدماء، واشتكى الأب المسؤول من هذا المسلم، إلى هؤلاء السادة، الذين وعدوه بمعاقبته، وأنهم سيتعاملون معه بشكل يمنعه من إلحاق الأذى بأي مسيحي مرة أخرى، وبعد الفراغ من سماع شكوى الأب المسؤول، تقدمنا نحن الحجاج، وعرضنا شكوانا ضد المسلم الذي لم يسمح لنا بالدخول إلى كنيسة صعود الرب، حسبما عرضنا ذلك تحت عنوان اليوم السابع والعشرين، ورجوناهم السماح لنا بزيارة الأماكن المقدسة من دون دفع، وقد أجابوا بأنه ينبغي علينا أن لاندفع أي شيء إلى الذي يتولى حفظ باب كنيسة الصعود، وأنه من الآن فصاعداً لن يطلب منا أي شيء، وفيما يتعلق بزيارة الأماكن المقدسة لقد قالوا: «يمكنكم الذهاب إلى أي مكان تريدون، وحسبما ترغبون، ونحن ننصحكم أنكم كلما سرتهم في الخارج، ليكون معكم بعض المسلمين، لكي لا يتمكن الأولاد الأشرقياء، الذين لايمكننا ضبطهم، من ازعاجكم»، وهكذا مضى ذلك اليوم، وفيه أكلت أثناء كل من الغداء والعشاء بشراهة فائقة من البطيخ، الأمر الذي اقترفته لايزاء نفسي.

وكنت في اليوم الثلاثين مريضاً طوال اليوم، حيث عانيت من حمى حادة جداً، وكنت ملتهباً بحرارة فائقة، وأعتقد أن سبب ذلك، هو

البطيخ، الذي هو في القدس كبير جداً، وعظيم الحلاوة، وقام— على كل حال— الراهب بابتستا Baptista ، المسؤول عن قاعة المعالجة، بالاعتناء بي بشفقة، وجعلني على الفور أشفى، بجعلي أتعرق، وهكذا لم أغادر في ذلك اليوم قلایتي.

وسمعت في اليوم الحادي والثلاثين بأن اثنين من إخواني الحجاج كانا مرضى، وأنها يسيران وهما متكئين على عصا، ونزلت من جبل صهيون، وأنا عظيم الاضطراب والانزعاج بسبب ضعفي، وسرت حتى مسكن الحجاج، مع أن الطريق صعوداً ونزولاً طويل نسبياً، وبما أنني كنت مريضاً، فقد زرت قوماً مرضى، وبقيت معهم طوال اليوم، وفي المساء تولى اثنان من الفرسان مرافقتي صعوداً، وسط رعاية كبيرة، حتى أنني عدت سليماً من جديد، إلى مكاني في جبل صهيون، حيث وجدنا أهل الدير كله مشغولين بطوافهم اليومي حول الأماكن المقدسة، وبناء عليه ذهبت معهم، مثلما اعتدت أن أفعل في أوقات أخرى، وعدت مع إخواني للهجوع في قلایتي.

وكان لرهبان جبل صهيون عادة مقدسة وجديرة بالثناء، وهي قيامهم كل ليلة، بعد غناء القداس، والفراغ منه، القيام بزيارة الأماكن المقدسة، للحصول على الغفرانات وفق الطريقة التالية: يذهبون أولاً إلى المذبح العالي، في المكان الذي تأسس فيه القربان، وهناك يسجدون بأنفسهم ويقبلون المكان، ويحصلون على غفرانات، ومن هناك يذهبون إلى مكان غسل الأقدام، وبعد هذا يذهبون فيطوفون حول الرواق، إلى المكان الذي أنزل إليه الروح القدس، ومن هناك ينزلون إلى بيعة القديس توما الرسول، ويعبرون حول الرواق، ويدخلون إلى بيعة القديس فرانسيس Francis الملاصقة لباب الرب وعموده، وقبلوا هنا الباب، وخرجوا من الرواق إلى المكان الذي قام فيه موضع اعتكاف مريم العذراء المباركة، وتابعوا من هناك إلى المكان الذي وعظ فيه

المسيح، وهناك استداروا بأنفسهم إلى ضريح داوود والملوك الآخرين، وتابعوا من هناك إلى مطبخ الرب، ومنه إلى ضريح القديس اسطفان، ومن هناك أخذوا يستديرون حول المنطقة، وينزلون إلى كهف توبة داوود.

وشرعوا يتابعون من هذا الكهف سيرهم، إلى زاوية جبل صهيون، ثم ليستديرون بأنفسهم نحو الشرق على ركبهم الجاثية، أي باتجاه جبل الزيتون، فيتعبدون أماكنه المقدسة بصلاة واحدة قصيرة، ثم يلقون نظرة على وادي شعفاط، ويصلون، وهم ينظرون نحو كنيسة صعود العذراء المباركة، من أجل أنه بفضائلها وشفاعتها يمكن أن نحظى هنا ببقاء قاضينا بسرور فوق تلك البقعة.

وكانوا يبقون بعد هذا فوق البقعة نفسها، ويستديرون بأنفسهم نحو الشمال، ومدينة القدس المقدسة، وينظرون نحو هيكل سليمان المقدس، ثم يلقون نظرة واحدة على كل الأماكن المقدسة في المدينة المقدسة، وبعد الفراغ من هذا كانوا يستديرون بأنفسهم من الشمال نحو الغرب، أي نحو كنيسة الضريح المقدس للرب، التي هي كنيسة القيامة، والتي لا يمكن رؤية شيء منها باستثناء الأجزاء العالية من برجها، وذلك بسبب وقوف جبل صهيون في الطريق، ولدى تطلعهم إلى هناك كانوا يصلون بتقوى عظيمة، وينهضون بعد هذا، ويصلون عندما يصبحون أمام بيت عناس، الكاهن الأعلى، ويمضون من هناك نحو بيت كيفاس، ويقدمون صلواتهم هناك، ويديرون وجوههم نحو الدير، ويصلون إلى موضع افتراق الرسل.

ثم كانوا يتابعون سيرهم من هناك إلى بيعة القديس يوحنا، حيث اعتاد أن يقيم قداساً، وأن يقوم يومياً بإقامة قداس قربان إلى مريم العذراء المباركة، وعبروا من تلك البيعة إلى بيت العذراء المباركة، وذلك حيث أنهت أيامها، وكانوا يذهبون من هناك إلى المكان الذي جرى فيه

اختيار القديس ميثاس رسولاً، وحيث أيضاً جرى اختيار القديس
جيمس أسقفاً، وحيث أيضاً جرى اختيار سبعة رجال جيدين شمامسة،
وعبروا من هناك إلى مقبرة إخوانهم الذين دفنوا هناك، فخاطبهم
وصلوا من أجلهم، وبعد فراغهم من عملهم هذا، كانوا يعودون ثانية
من خلال باب الدير، ومن ثم يأخذ كل واحد نفسه إلى قلايته
للاستراحة، ووفق هذه الطريقة طفت كل يوم معهم، عندما كنت مقيماً
معهم.

الفصل الخامس

ويحتوي: على أعمال الحجاج خلال شهر آب، مع وصف لمختلف الأماكن في الأرض المقدسة التي إليها ذهبوا، كما ويحتوي على مسائل أخرى كثيرة مفيدة

جلب لنا شهر آب، في يومه الأول عطلتين مزدوجتين: كانت أولاهما، اطلاق سراح القديس بطرس الرسول وفك أغلاله، والثانية كانت عطلة عيد محمد (صلى الله عليه وسلم)..... والعيد الأول معروف لدينا، أما الثاني فغير معروف لدينا، إنما له مهابة عظيمة لدى المسلمين، الذين يحافظون على عيد اعطاء شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأنه في ذلك اليوم أعطيت شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).... ونشرت بين الناس، وأيضاً في ذلك اليوم تدفق القرآن بحر (الفضائل) فغمر العالم كله تقريباً، ونشر بين الناس....

وكان هذا اليوم الأول من آب، يوم جمعة أيضاً، وقد عدّ هذا اليوم مقدساً لدى المسلمين خلال السنة، ليس فقط لأنه اليوم السادس من الاسبوع، بل بسبب.....(١) ولهذا لم نتجرأ في هذا اليوم على اظهار أنفسنا خارج الأبواب، بل بقينا بعيداً عن الأنظار في أماكننا، وذلك مثلما يفعل اليهود يوم الجمعة الحزينة، فيغلقون أبوابهم على أنفسهم، ولا يتجرأون على التجول في الطرقات، وبسبب عيد محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، لم نكن قادرين على الاحتفال بعيد القديس بطرس في الأغلال بشكل لائق، لأن رفاقي الحجاج، لم يتجرأوا على الصعود من مسكنهم إلى جبل صهيون، لسماع القداس، وأرغمنا نحن على تمضية ذلك اليوم بهدوء بدون سماع أي قداس، لأن المسلمين قد قرروا أنهم كلما احتفلوا بيوم عيد أو بيوم صيام، أو امتنعوا عن الطعام، أو حافظوا على أي يوم على أنه مقدس، سواء أكان لفرح أو ترح، كانوا يرغبون

١ - قمت باسقاط العبارات النائية.

جميع الغرباء والحجاج على فعل مثل ذلك، ومثل هذا يفعلون أيضاً فيما يتعلق بمسألة الخمرة: فيما أنهم لا يستخدمونها هم أنفسهم، فانهم لا يسمحون للحجاج بشرها في بلادهم، إلا بالسر، عندما لا يراهم أحداً.

وفي اليوم الثاني الذي كان يوم القديس اسطفان، البابا والشهيد، وبعد سماعنا للقداس، أخذنا بعض الطعام، والتقينا عند جبل صهيون، مع نية الذهاب حول مدينة القدس كلها من الخارج، لنرى دفاعاتها، أو بالحري خرائب دفاعاتها، دون أن نأبه بالحرارة العالية جداً، وبأشعة الشمس المحرقة، لأنه لم يكن بإمكاننا فعل ذلك إلا وقت حرارة الشمس، ففي ذلك الوقت يبقى المسلمون في الظل، ففي الصباح الباكر، وفي المساء، عندما تكون الشمس أقل حرارة، كانوا يذهبون إلى حدائقهم، ويمشون من حول خارج الأبواب، ووقتها كانوا لا يسمحون لنا بالطواف حول المدينة، ولهذا اخترنا ساعة راحتهم، لنعمل ذلك أثناءها.

وبدأنا طوافنا كما يلي: عبرنا أولاً وسرنا حتى برج داوود على الجانب الغربي، وذهبنا من هناك إلى باب السمك، أو باب التجار، القائم عند الزاوية الغربية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الجنوبي، ومضيئنا من هذه الزاوية إلى حقل القصار، الذي يقوم فيه في الوقت الحالي بستان أشجار، ومسجد، ومقبرة للمسلمين، وهو قائم حيث هو كما كان في أيام القديس جيروم، وذلك حسبما قرأنا في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، واستدركنا في حقل القصار نحو الشمال، حيث أبقينا خندق المدينة المقدسة على يميننا، ومشينا نحو الشمال على طول الحافة هناك، وكان هذا الخندق فيما مضى عميقاً وواسعاً، وقد بني سور المدينة نفسه على صخرة، وقد بنيت البيوت فوق السور نفسه، وهي تطل على الخندق، ورأينا تحت الصخرة نفسها كهوفاً عظيمة، من

خلالها هناك طريق يقود تحت الأرض إلى وسط المدينة تقريباً، ولو كان معنا مصباح مشعل لكان من الممكن لنا الذهاب والسير في هذا الكهف، وكنا أسفين لعدم جلبنا واحداً معنا، وأطلق يوسفوس، في الفصل الثامن من كتابه السادس عن «حرب اليهود» على هذه الكهوف اسم «كهوف الملك»، لكن لماذا أسماهم هكذا، أنا لم أقرأ قط حول ذلك، غير أنني أفترض أنه قد توفرت فيهم بعض الطرقات في داخل المدينة، وكانت هذه الطرق معروفة من قبل الملك وحده، حتى يتمكن من الدخول إلى المدينة، والخروج منها، من دون معرفة أية انسان، أو ربما كان هناك طريقاً فيهم من قصر الملك.

وتابعنا تقدمنا من هناك، وسرنا مسافة طويلة على حافة الخندق، حتى وصلنا إلى الزاوية الشمالية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الشمالي، ويوجد في مواجهة هذه الزاوية هناك تضخم أو ارتفاع بالأرض، حيث عليه خرائب الأسوار، وقام هنا فيما مضى برج عظيم الارتفاع، كان اسمه Phaselus أو Phaselus Hippius، هناك مشهد منه لكل من البحرين، أي البحر القائم في جهة الشرق، الذي هو البحر الميت، والبحر القائم في جهة الغرب، الذي هو البحر الكبير، أو البحر المتوسط، وقد قرأنا عن هذا في الفصل الثامن، من كتاب يوسفوس السادس، أي كتاب «حرب اليهود»، ومع ذلك غالباً ماتساءلت كيف يمكن هذا، مشاهداً من جهة الغرب الجبال وهي مطلة فوق المدينة المقدسة.

واستدرنا من هذه الزاوية نحو الشرق، وسرنا على محاذاة حافة الخندق، ورأينا هناك جزءاً كبيراً من أسوار قديمة، لأن السور كان مزدوجاً، بشكل أنه كانت هناك ممرات داخل السور، وفي الوسط هناك، في كل من الأعلى والأسفل، وجعلت الصخور التي قام عليها السور، مربعة بشكل صناعي في كثير من الأماكن، وقد وقفت فوق هذه

الأماكن الأبراج، وفي الحقيقة، كانت المدينة جيدة الدفاعات من هذا الجانب، لأنه من الممكن مهاجمتها من هنا بسهولة أكبر من الأماكن الأخرى، وبناء عليه من هنا تمكن صلاح الدين ملك مصر من الاستيلاء على المدينة وانتزاعها من أيدي الصليبيين في سنة ١١٨٧ التي كانت السنة الأخيرة لحكمهم لها.

وتابعنا السير من هناك حتى وصلنا إلى باب إفرام، أو باب القديس اسطفان، وهو الموجود عند الزاوية الشرقية، أي حيث يتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، وهذا السور الشرقي ليس له خندق أمامه، بل يمتلك بدلاً عن ذلك وادي شعفاط، الذي على طرفه ينهض السور مرتفعاً، وهناك على كل حال، ممر صغير يسير على طول طرف السور، فوق الوادي، وذلك من الزاوية الشرقية للسور، حتى الزاوية الجنوبية منه، ومع ذلك لم نتجرأ في متابعة طوافنا، بسبب وجود مقبرة اسلامية، قائمة في مواجهة الباب الذهبي، ولم يكن بإمكاننا عبور هذه المقبرة من دون تعريض أنفسنا إلى خطر عظيم، وذلك كما ذكرنا من قبل.

وهكذا تخطينا عن هذا الممر، ونزلنا من الزاوية، من فوق منحدر منزلق إلى وادي شعفاط حتى جدول قدرون، ذلك أننا سائرنا، فكان جبلي الهيكل والمدينة من الجانب الأول، وجبل الزيتون من الجانب الآخر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى سفح جبل صهيون في وادي سلوان، واستدردنا هنا نحو الغرب، وذهبنا صاعدين خلال الوادي الذي يفصل جبل صهيون عن جبلي حقل الدم وجيحون، امتداداً حتى حقل القصار، حيث كنا قد بدأنا طوافنا، وقد دخلنا إلى المدينة من خلال باب السمك، وذهبت مع موالي الحجاج إلى مكان سكنهم، وهناك أنعشنا أنفسنا، حيث كنا نشعر بالحرارة والتعب، لابل كنا في غاية الانهاك، وهكذا مرّ ذلك اليوم، وعلى كل من يرغب بالاطلاع على حجم القدس ودفاعاتها في الأيام الخوالي، أن يقرأ مصنف يوسفوس»

حرب اليهود»، الكتاب السادس، الفصل الثامن، ومع ذلك خشية أن يظن بأنني أتجنب قول أي شيء واضح حول حجم المدينة الأعظم قداسة، ليكن معلوماً أنها ليست بأي حال من الأحوال كبيرة مثلما يعتقد عوام الناس، فهؤلاء يظنون أن حجمها لا بد أن يكون عظيماً بقدر شهرة اسمها وفضائلها.

قد قيل أشياء رائعة جداً عنك أنت يامدينة الرب، ويقال الآن عنك، ولسوف يقال عنك مادامت الدنيا قائمة، وهذه المدينة الآن، ودوما كانت، أدنى من المدن الكبيرة، لكنها أكبر من المدن المتوسطة الحجم، ومثل هذا قيل عنها من قبل الأمم، فقد قال هيكاتيوس Hecataeus الفيلسوف أوف أبدرأ Abdera: «القدس مدينة حصينة جداً، يبلغ محيطها حوالي الخمسين غلوة، ويسكن فيها أكثر من مائة وعشرين ألفاً من الناس»، ومضى في حديثه فقال عنها أشياء أخرى حسبما قرأنا في مصنف يوسيبوس «Praeparatio Evangelica» الكتاب الثامن — الفصلان الثاني والثالث.

وأخبرنا فيلسوف آخر هو تيموخارس Timochares، الذي كتب تاريخ انطاكية أن «مقياس محيط القدس هو حوالي الأربعين غلوة، وهي محمية من جميع جوانبها بوديان عميقة جداً، وهي تشرب من كثير من الينابيع التي تنبع في داخلها، علماً بأنه لا يوجد ماء صالح للشرب حولها في إطار يبلغ أربعين غلوة»، وقد زاد على هذا كثيراً، حسبما قرأنا في مصنف يوسيبوس المتقدم الذكر — الكتاب العاشر، الفصل الرابع.

هذا وحدثنا يوسفوس، الذي كان يهودياً، وكاتباً متميزاً للتاريخ، في الفصل الخامس من كتاب تاريخه المتقدم الذكر بأن «مدينة القدس بكامل سعتها، موجودة ضمن إطار مقداره ثلاث وثلاثين غلوة»، وقد حدثنا في هذا الفصل نفسه، بأشياء كثيرة رائعة عنها، وأنا ميال أكثر

لتصديق كلماته، لأنه كان من أهل القدس، وقائداً ليهود المدينة أثناء تدميرها من قبل تيتوس.

وواضح من هذه المصادر المعتمدة، بأن القدس قد كانت قبل التوسعة التي عملها الامبراطور اليوس هدريانوس، أكبر من أولم (التي هي من المدن المتوسطة الحجم) في الوقت الحالي، وفي الحقيقة غالباً ما قمت أنا شخصياً بقياس محيط أولم، فوجدت أن هذا المحيط هو خمساً وعشرين غلوة، وخمساً وسبعين خطوة واسعة، مما يساوي نصف ستاديوم، وبناء عليه كانت القدس أكبر من أولم بثمان غلوات.

وقد حدث أنه بعد مضي سنين كثيرة من أيام يوسفوس، قام الامبراطور إليوس، بإعادة بناء القدس، التي كانت مهدمة، وأدخل فيها موضع الجمجمة وضريح الرب، وجعلها داخل الأسوار، وبذلك وسعها توسعة كبيرة جداً، وبذلك صارت حسب خطة التوسعة هذه، بالمقياس والحدود، حسب الذي أورده الفيلسوفان، اللذان تقدم ذكرهما، وإذا كانا قد كتبا قبل التوسعة، فإنهما أدخلنا في قياسهما جبل صهيون، الذي لم يدخله يوسفوس في قياسه، لأننا إذا أخذنا جبل صهيون مع جبل الجمجمة والجلجلة، فإنه يتكون لدينا اطار كبير، مقياسه ليس أقل من اطار مدينة أوغسبورغ Augsburg ، التي هي مدينة في سوابيا، وتعدّ بين المدن الكبيرة في ألمانيا، ومع ذلك عندما ينظر الانسان نحو مدينة القدس من جبل الزيتون، لاتبدو له مدينة كبيرة جداً، لأنها تقوم فوق بقعة غير مستوية، أي ليس فوق أرض منبسطة، وفيها فراغات وأماكن كثيرة لا يمكن رؤيتها، لأن جبل صهيون منفرداً بذاته، يمكنه أن يحتوي على مدينة ليست ذات حجم صغير، ولو أنه بني كله، فإن الخرائب تبرهن أنها كانت فيما مضى كذلك، هذا ولسوف نقدم في المستقبل المزيد حول وصف هذه المدينة.

الدخول الرابع للحجاج إلى ضريح الرب

في اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد ميلاد القديس اسطفان، والذي وافق الأحد العاشر بعد التثليث، رجونا في مساء السبت المتقدم، أصحاب السيادة الحكام المسلمين للمدينة المقدسة أن يحسنوا إلينا، فيدعونا ندخل إلى كنيسة الضريح القدس، وقد وافقوا على هذا، شريطة أن ندفع الرسم المعتاد، وهو خمس دوقيات عن كل شخص، وهنا رجوناهم أن يرأفوا بنا، وبينما أن هذا المطلب حاد جداً، وأن عددنا صغير الآن، وبسبب أننا ننوي أن ندخلها مراراً قبل مغادرتنا، وأنهم إذا لم يقوموا بتخفيض الرسم المعتاد، لن نتمكن لا الآن ولا في المستقبل من الدخول إليها، وهكذا بعد التماسات طويلة ومناقشات تمكنا من اقناعهم بسبب الحاحنا، واتفقنا أننا كلما اردنا الدخول إلى كنيسة الضريح المقدس أن ندفع رسم انسان واحد، أي أن ندفع خمس دوقيات، وقد أرضانا هذا.

وبناء عليه عندما اجتمعنا جميعاً في ساحة كنيسة الضريح المقدس، جاء السادة المغاربة مع المفاتيح، وفتحوا الأبواب، ودخلنا نحن وأمضيـنا تلك الليلة سهرانين حول الضريح المقدس وفق الطريقة التي ذكرتها في ص ٥٠٤، ولدى حلول الفجر، غنينا قداساً في بيعة العذراء المباركة التي تقدم وصفها في الصفحة نفسها المتقدمة الذكر، وتلونا قداسات خاصة، حسباً أردنا دونما ازعاج، وعند الفراغ من هذا كله، قدم المسلمون، وفتحوا الأبواب، ورمونا بالخارج، وذهبنا الآن جميعاً إلى جبل صهيون المقدس، وتدبرنا تلاوة قداس في المكان الذي وجد فيه جسد القديس اسطفان مدفوناً، وانظر حول هذا المكان ماتقدم في ص ٤٢٢، ولدى الفراغ من القداسات، اتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بعض الأماكن المقدسة في داخل المدينة، مما لم نزره من قبل.

والتقينا بعد الغداء فوق جبل صهيون، وأخذنا معنا الفحل، أي

كالينوس الأدنى، ودخلنا إلى القدس من باب القاذورات، أو من تلة القاذورات، التي غالباً ماجاء ذكرها في الكتابات المقدسة، وبشكل خاص في سفر نحميا - الاصحاح الثاني، ففيه أطلق على الباب باب الدمن القديم، وهو ما يزال يعرف بالاسم نفسه حتى الآن، بسبب أن الأوساخ والقاذورات تحمل من خلاله، ويرمى بها نحو الوادي، وهكذا تشكل من الأوساخ المرمية هناك كومة تنامت حتى صارت مثل تلة، وغدت عالية حتى باتت تطل على السور في ذلك المكان، وعندما عبرنا من خلال هذا الباب، وصلنا إلى سوق الضأن، وذهبنا من هناك إلى طريق ضيق، سكن فيه كثير من المسيحيين النوبيين، وقد قرعنا باب كنيستهم.

وعندما فتح الباب، دخلنا وتلونا صلواتنا هناك، وكانت هذه الكنيسة واسعة نسبياً لكنها مظلمة، وفي الحقيقة إن جميع الكنائس الشرقية معتمدة ومظلمة، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى بيت مريم، أم يوحنا، الذي لقبه مرقس، وهو الذي قرع بطرس باب، عندما أخرج من السجن بوساطة الملاك، والحكاية الحلوة حول ذلك من الممكن قراءتها في الاصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل، وتابعنا سيرنا قليلاً من هذا المكان، فوصلنا إلى بيت آخر لمسيحيين شرقيين، وعندما سمحوا لنا بالدخول إليه، أرونا في ساحة ذلك البيت صهريجاً تابعاً للبيت، وقالوا بأنه هناك ظهر المسيح للقديس توما الرسول، فعندما كان ينضح بعض الماء، وواقفاً على أحد أطراف الصهريج، وقف الرب يسوع على الطرف الآخر، وأخبره أن عليه الذهاب إلى الهند، فهذا ما قاله المسيحيون الشرقيون وأنه حدث هنا، لكن الاسطورة اللومباردية قد ذكرت بأن هذا قد وقع في قيسارية، ومثل هذا ذكرت كتب أخرى لكنيستنا.

ومضينا من هناك إلى بيت آخر، حيث كان فيه كنيسة أيضاً، يقول

المسيحيون الشرقيون بأن فيها قد ولد الرسولان المقدسان جيمس وجون، لأنهم قالوا بأن أباهما زبدي قد سكن هناك مع زوجته، إنما بعد اصابتهم بالفقر سافروا من هناك إلى الجليل، وحصلوا على نفقات عيشهم باصطياد السمك إلى جانب بحر الجليل، ولهذا جاء الخبر في انجيل يوحنا — الاصحاح؛ ١٩، بأن «ذلك الرسول كان معروفاً لدى الكاهن الأعلى».

وقام على مقربة من هذا البيت مسجد اسلامي، وكان بابه مفتوحاً، وبما أننا لم نر مسلماً فيه، دخلنا إليه، ولم نجد فيه شيئاً جميلاً، ولا شيء يبعث على التدين، ولا شيئاً مرغوباً به، بل مجرد بناء فارغ، مقبب، ومستدير، وجدران مطلية بالبياض، ومصابيح معلقة من السقف المطلي، وكانت الأرضية مغطاة بالحصر، عليها يركعون ويسجدون أثناء صلواتهم، وبعد مشاهدتنا لهذا خرجنا ثانية، وهذه الأماكن المتقدمة الذكر، قريبة من هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان.

وذهبنا بعد هذا باتجاه الهيكل، ورأينا في الساحة هناك كثيراً من المسلمين واقفين ومعهم قوارير وأوعية، وجرار لنضح المياه، التي كانت تتدفق هناك بقوة من انبوب ماء، عجبت منه كثيراً، لأنني قرأت دوماً وسمعت بأن المدينة المقدسة كانت بلامياه شفه، ولكن عرفت فيما بعد بالخبرة بأن هذه المياه تنبع من مكان بعيد عن المدينة المقدسة، وهي تحمل إلى القدس بوساطة أقنية من تحت الأرض ومجاري مياه، عنها سوف أتحدث بتوسع في ص ٩٨٩.

وصعدنا من هذا المكان نحو الهيكل، ثم إلى شارع مغطى بسقف مقنطر، من خلاله ذهبنا إلى باب كبير، يقود إلى ساحة الهيكل، وكان في هذا الشارع كثيراً من الحوانيت والأبواب للتجار على كلا الجانبين، وعندما رأونا نسعى مسرعين نحو باب الهيكل، ركض كثير من الناس لمنعنا من الدخول إلى هناك، وأخبرناهم بالاشارات بأننا لن ندخل إلى

هناك بل سنصلي للرب فقط خارج الباب، وبذلك سمحوا لنا بالذهاب إلى الباب، حيث صلينا على ركبنا المنحنية، ناظرين نحو هيكل الرب، إنما حتى هذا أغضب المسلمين ولذلك صرخوا علينا، وكان باب الساحة نفسها واسعاً وكبيراً، مصنوعاً من عوارض حديدية ثقيلة، وهم يقولون بأن هذا الباب الحديدي هو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل — الاصحاح الثاني عشر: ١٠، والذي من خلاله قاد الملاك القديس بطرس إلى الشارع لأن سجن بطرس كان فيه.

ومن هناك عدنا ثانية، على طول الشارع نفسه، واستدردنا قليلاً، فوصلنا إلى شارع آخر مقنطر، فيه أيضاً، مثل المتقدم تجار جلوس في حوانيت، ودخلنا إلى هذا السوق وسرنا صاعدين فيه حتى باب الهيكل، دون أن نعبأ بصرخات المسلمين وبنزعاتهم، كما أننا لم نعر اهتماماً لأوامر كاليينوس دليلنا، الذي بذل طاقة جهده لمنعنا من النظر إلى الهيكل، لأن المسلمين كانوا يحثونه لئلا يمنعنا من الاقتراب من الهيكل، وقالوا بأن هذا الباب هو «الباب الجميل» العائد للهيكل، الذي تحته شفى بطرس الرجل الأعرج، عندما صعد هو ويوحنا إلى الهيكل للصلاة في الساعة التاسعة، وقال: «ليس لي فضة ولاذهب»، كما جاء الخبر في أعمال الرسل: ٣.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، تابعنا سيرنا خلال شوارع البيوت، القائمة حول الهيكل، ووصلنا إلى جزء آخر من الساحة، حيث هناك إلى جانب سور الساحة، مسجد جديد، قيد البناء، بنفقات عالية ليكون مكان اعتكاف لصاحب السيادة السلطان، فيه يمكنه أن يصلي كلما كان في القدس، وهكذا صعدنا إلى ذلك المكان، ورجبنا في أن نصعد أكثر، إلى حيث كان العمال، لننظر إليه، ولكن أخبرونا أن مامن انسان يتجراً على الصعود إلى حيث كان العمال، من دون إذن من القاضي، الذي كان أسقف هيكل المسلمين، وهكذا دخلنا إلى بيت القاضي، الذي كان صعباً

حتى نسأله من أجل الاذن، وبيت هذا القاضي واسع ومرتفع، وله سقف مقنطر، مزين برخام مصقول، ومجمل برزاي، وهو مثل كنيسة، لكن من دون مذابح، وأعتقد الآن أنه كان مسجداً اسلامياً، فيه استقبال لجميع الناس من جميع الملل، بسبب القاضي، الذي كان ساكناً بجواره، وذلك مع أهل بيته وحاشيته، لأنني رأيت نساء وأطفالاً ينظرون إلينا من خلال فتحة في السقف.

وجاء القاضي لمقابلتنا، وكان مهيباً ومتقدماً بالسن، ومحترماً وله لحية، وعندما فهم الذي نريده، وافق على الفور، وتدبر أمر أخذنا إلى المسجد، وذلك بأن أمر واحداً من أصحابه بمرافقتنا، وصعدنا نحو المسجد، فوجدنا كثيراً من الحرفيين والعمال هناك، وكانوا يصنعون زينة رقيقة من مختلف أنواع الرخام المصقول، ومن مختلف الألوان، وكانوا يزينون كل من الأرض، والجدران بالصور، زيادة على هذا كان الجزء العلوي يلمع بالذهب وبالألوان الثمينة، وكانت النوافذ مزججة، وتضيء المبنى بشكل رائع جداً.

وفي الجدار الذي يرتفع من ساحة الهيكل، كانت هناك نوافذ طويلة وعظيمة، لم تكن قد زججت بعد، ولكنها مفتوحة، رأينا من خلالها ساحة الهيكل، والهيكل نفسه، وقد رأينا هناك الأعمال الرائعة العالية النفقات لذلك المكان، والتي سوف نصفها في حديثنا عن الهيكل على الصفحة ٢٦٠، وقبلها.

وعندما فرغنا من رؤيه هذه الأشياء، أعطينا الحرفيين ثمن شراب، وخرجنا ثانية، وأنا لا أعتقد أن أي مسيحي سوف يتمكن قط من الدخول إلى ذلك المسجد، لأنهم سوف يقومون بعد قليل بإيقافه على عقيدتهم المرتبطة بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وعند القيام بذلك سوف لن يدعو مسيحياً يدخل إليه، وهكذا ذهبنا عائدين إلى أماكننا.

وفي اليوم الرابع، نزلنا جميعاً، بعد الغداء من جبل صهيون، واقتادنا بشكل شبه سري يهودي، قال بأنه سوف يرينا بعض الأشياء التي كانت مخفية، وعندما كنا نازلين وصلنا إلى الجانب الجنوبي من الكنيسة، القائمة قرب هيكل الرب، حيث كان في أيام الصليبيين هناك طريق يقود صعوداً ببعض الدرجات الحجرية، إلى باب عالي، من خلاله يدخل الانسان إلى تلك الكنيسة، وتسلقنا صاعدين إلى هذا الباب، فوق خرائب جدران، وقبلنا الجدار الذي فيه الباب، وذلك من أجل الغفرانات المطلقة، التي يمكن الحصول عليها هناك(++) .

وقد قيل يوجد هناك خمس عشرة درجة، تقود صعوداً إلى ذلك الجدار، وعليه صعدت العذراء مريم مع ابنها— الذي كان في الثالثة من عمره— بشكل اعجازي، إلى الهيكل من دون دليل، وحدث أنه على هذه الدرجات، كتب داوود خمسة عشر مزموراً، واسم هذه المزامير «مزامير الدرجات»، وقد زرنا هذا المكان بخوف وصمت، لأنه لو رأنا المسلمون، لأصبحنا بخطر، ولهذا اخترنا الوقت الذي يرتاحون فيه، ونزلنا من ذلك المكان نحو الأسفل أكثر، فوصلنا إلى سور قديم جداً، وكان فائق القوة، وقد بني من صخور كبيرة مربعة، وهذا السور مرتفع، مع أنه كان من قبل أعلى بكثير، وهذا يمكن مشاهدته من الخرائب، لأن المكان كان مليئاً بصخور مربعة موزعة هناك.

وقد قيل بأنه قام فوق هذا السور بيت غابة لبنان، الذي كان بيت الملك، وهو قد بني من قبل سليمان، فهذا ماقرأنا عنه في سفر الملوك الأول: ٧، حيث قال: «المجد» الخ، وقد أطلق على هذا البيت اسم بيت غابة لبنان، لأن الجزء الأعلى منه قد بني من الخشب الذي قطع من غابة لبنان، وقال مصنف كتاب Speculum Historiale، بأن هذا البيت قد بني من مادة مزدوجة، وكان الجزء الأول من الحجارة، وكان اسمه Nethota، أي موضع العطور، حيث خزنت فيه التوابل والعطور، من

أجل استخدامات الهيكل وبيت الملك، وذلك أنه بسبب (برودة) الأرض (وسماكة) الجدار، كان من الممكن حفظ هذه المواد، والحفاظ على سلامتها، وكان الجزء العلوي من الخشب، أي الخشب الذي جلب من لبنان، ولهذا أطلق على هذا القسم اسم بيت الغابة، أو بيت لبنان، أو بالحري بيت غابة لبنان، ويعتقد بعضهم بأنه عرف بهذا الاسم، لأنه زرع من حوله، من كل جانب أشجار، وحدائق للنزهة، وأنها نمت فصارت كثيفة مثل غابة لبنان، وجرى في القسم العلوي خزن الأسلحة، وذلك بسبب الخشب، الذي يحول دون لحاق الصدا بها، والذي خزن بها ليس أسلحة القتال، بل أيضاً أسلحة النظر والعرض للأبهة الملكية.

وهناك على كل حال في سفر الملوك الأول: ١/٧ - ٢، تمييز بين «بيت غابة لبنان» وبين «بيت الملك»، علماً بأن بعض الشراح يقول بأنها كانا بيتاً واحداً، هو البيت نفسه، وهذا ما اعتقده أنا نفسي، هذا وإن بيت الملك هذا، في هذا المكان، كما يبدو يتوافق بشكل جيد مع الكتابات المقدسة، التي غالباً ما قالت بأن ملوك القدس صعدوا إلى الهيكل من بيت الملك، ووضح من إرميا.... وهذا لا يمكن أن يحمل على محمل بأن بيت الملك والقصر على جبل صهيون، حيث سكن داوود وسليمان قبل بناء الهيكل، لأن جبل صهيون أعلى من الهيكل، والإنسان ينزل منه إلى موضع الهيكل، وعلى كل حال يصعد الإنسان دوماً من الساحة عبر درجات إلى الهيكل نفسه، لكن من البيت الذي نحن الآن فيه، هناك صعود كبير إلى الهيكل، وبناء عليه وقفنا هناك بدون حركة لبعض الوقت، وتعجبنا من الجدار الضخم، وتحدث أحدهما إلى الآخر حول هذه القضايا.

ويوجد على قمة هذا الجدار المدمر حجرة مربعة كبيرة، أزيحت من مكانها الاعتيادي ولذلك هي قائمة بشكل شاذ فوق قرنة الجدار، ولأن

هذه الحجرة الآن هي أعلى شيء في الجدار، وناتئة بشكل غريب منه، اخترع حولها حكاية أنها الحجرة التي ورد ذكرها في المزمور: ٢٢/١١٨، وفي متى: ٢١/٤٢ حيث قال: «الحجر الذي رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية»، وقال نيقولا دي ليرا، إنه عندما كان الهيكل قيد البناء، كانت هناك حجرة قدمت مراراً إلى أيدي المعماريين، لكنهم لم يجدوا مكاناً مناسباً لها لوضعها فيه، ولذلك رفضت، ولكن عندما كان أحد الجدران يتوجب وصله بجدار آخر بوساطة حجر زاوية عند رأسيهما معاً، لم يمكن العثور على حجر أكثر مواءمة لذلك الغرض من الحجرة المرفوضة تلك، والحكاية نفسها، حكيت حول جذع شجرة الصليب المقدس، التي رفضت أيضاً، أثناء القيام ببناء واحد من البيوت.

والذي بدا لي، أن هذه الحجرة لم تكن — على كل حال — حجر زاوية، ولأرأس الزاوية، لأنه من الواضح، أن هذا الجدار كان فيما مضى أعلى بكثير.

ولدى تفحصنا لهذا الجدار من الخارج، بقيادة اليهودي، تسلقنا فوق الخرائب إلى الجدار نفسه، فوجدنا أن بعض الحجرات المربعة الكبيرة، قد انتزعت بقوة شديدة من الجدار، وعلى هذا هناك ثغرة في الجدار إلى Nethotam ، وبناء عليه حيننا أنفسنا، وذهبنا واحداً بعد الآخر، وفي البداية لم يكن بإمكاننا رؤية أي شيء مطلقاً، وذلك بسبب طبيعة العين، فالذي يدخل إلى الظل من المكان الذي تعمه أشعة الشمس، لا يمكنه أن يرى شيئاً، لكن بعدما وقفنا دونها حركة لبعض الوقت أمكننا استرداد نظرنا ببعض الدرجات، ورأينا أبنية مقنطرة عظيمة، وكان يوجد هناك سبعة صفوف من الأعمدة، تدعم القناطر، والأبنية العلوية التي بنيت فوقهم في الأيام الخوالي، مع أنه يقوم في هذه الأيام فوقهم بستان زيتون، عند جهة الهيكل، ويقول كل من المسلمين

واليهود، بأن هذه القاعات كانت اسطبل خيول سليمان، لكن من الأفضل القول بأنه قد كان هنا الـ *Nethota*، أي بيت التوابل ومخزن العطور، كما تقدم لنا قول ذلك أعلاه، ذلك أنه أودع هنا التوابل الثمينة جداً، التي جلبتها ملكة سبأ، والتي عنها قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٠/١٠، كما علينا أن لانعتقد بأن سليمان قد حفظ الدواب في هذا البيت الجليل جداً، الذي عجبت منه نبية سبأ، خاصة عندما رأيته قريباً من الهيكل، ذلك أن وضع الخيول هناك كان فيه عدم احترام، ولذلك أمر ببناء مدن في أماكن أخرى، وذلك من أجل عرباته، وخيوله، وخيالاته، كما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٩/٩.

ويوجد الآن تحت هذه القناطر كثيراً من أكوام الحجارة قد جمعت هناك، وقد قال لنا عنها اليهودي الذي جلبنا إلى ذلك المكان، بأن اليهود قاموا بتكويم هذه الحجارة لشغل هذا المكان، ذلك أنهم يأملون أنهم سرعان ماسوف يتمكنون من سكنى الأرض المقدسة، وبذلك فإن حجاجهم الذين يأتون من بلدان بعيدة، سوف يستولون على بعض الأماكن، ففي هذه الأماكن يأملون أنهم سوف يسكنون بعد عودتهم.

ويوجد في الأعلى في القنطرة، مكان خرقت فيه فتحة كبيرة، منها يرمي المسلمون كناسة الهيكل والساحة، وكنا في حالة خوف عظيم هناك، لأنه لو عثر المسلمون علينا هناك، لعاملونا بالفعل بشكل سيء، ولولا أننا كنا خائفين، لتسلقنا فوق الفضلات إلى ساحة الهيكل، وهكذا بعدما رأينا جميع المشاهد المتقدم ذكرها، خرجنا من الفتحة التي دخلنا منها، وقمنا بجولة حول جبل موريا، الذي هو جبل الهيكل، وهو يمتد من أعلى الراية حتى سور المدينة المقدسة، وذلك امتداداً حتى الزاوية التي يتحد فيها السور الشرقي مع السور الجنوبي.

ورأيت في هذا السور حجارة هي أطول وأكبر مما رأيته قط في سور أي مدينة، لكن هذه الحجارة لم تكن جلييلة، كما تحدث

يوسفوس (الكتاب السادس — الفصل الثامن) وأخبرنا بوجودها في سور القدس، ويطل هذا السور باتجاه وادي شعفاط وجدول قدرون وذلك في مقابل جبل الزيتون، ومبني هناك في السور، على ارتفاع ستة أذرعة من الأرض، حجرة، بدت وكأنها قد كانت جزءاً من عمود رخامي، فبعضها داخل في السور، وبعضها الآخر بارز منه، بشكل أن انساناً واقفاً على ذلك الارتفاع، يمكنه أن يقف على الحجرة، وظهره مواجه للسور، أو يمكنه الجلوس عليها، كما يجلس انسان على ظهر حصان، وساقيه متدليتان نحو الأسفل.

ولدى المسلمين حكاية حول هذه الحجرة، تقول بأنه في يوم الحساب، عندما يجتمع الناس كلهم في وادي شعفاط، سوف يأتي محمد (ﷺ) ويجلس فوق هذه الحجرة ليحكم بين الناس، ولذلك يحترمون هذه الحجرة، على أساس أنها كرسي الحكم لمحمد (ﷺ)، وقبل سنوات قليلة مضت، قدم نبي مزيف من المسلمين إلى القدس، قدره الناس جميعاً واحترموه على أنه واحد من أولياء الله الصالحين، ودعا هذا الرجل في أحد الأيام جميع سكان المدينة إلى هذا المكان، قائلاً بأنه سوف يظهر لهم بعض الآيات، وسيتحدث إليهم، ويريهم طريقة الحكم في الدنيا، وذلك وفقاً للطريقة التي سيتعامل بها محمد (ﷺ) مع المسلمين في يوم الحساب الأخير.

وعندما كانوا جميعاً وقوفاً على جانب الرابية، لرؤية وسماع شكل الحساب، صعد ابن الشيطان هذا إلى الحجرة بوساطة سلم، وجلس عليها، جاعلاً ظهره نحو السور، ووجهه نحو الناس الذين وقفوا في الأسفل، وبدأ يتنبأ لهم، وحدث أنه وهو يتحدث إليهم بدأ يتحرك إلى هنا وهناك أكثر فأكثر، وبما أنه لم يلاحظ انحدار الحجرة، فجأة، مال على واحد من جنبيه، وسقط نحو الأسفل، فاندقت عنقه، وتمزق جسده إلى مزق، حيث شعر الناس التافهين بالحزني، وعادوا إلى المدينة، وذهب

كل إنسان إلى بيته، وهكذا أراهم النبي المزيّف على الرغم مما نواه، الحقيقة، لكن ليس بكلماته بل بأفعاله، وهنا يتفق المسلمون معنا، بأنه سوف يكون هناك حساب في يوم القيامة، لكن بالنسبة لمكان الحساب، هم على خلاف، ذلك أن المسلمين الذين يسكنون في القدس، وفي اليهودية، وفلسطين، يقولون مثلما نحن نقول، بأن جميع الأمم سوف يجري جمعها في وادي شعفاط، وهم يضعون هناك ثلاثة قضاة هم: الله، والمسيح، ومحمد (ﷺ)، فالله سوف يجلس فوق أعلى هيكل الرب، ويجلس المسيح على قمة جبل الزيتون، أما محمد (ﷺ) الذي سوف يكون مستشاراً لهما معاً، فسوف يجلس على الحجرة المتقدمة الذكر.

غير أن المسلمين الذين يسكنون في سورية، وفي بلاد الرافدين، وكبدوكية فيقولون بأن الحساب سوف يكون في دمشق، فوق قمم أبراج هناك، ويقول المسلمون العرب بأن ذلك سوف يكون في مكة حيث يوجد ضريح محمد (ﷺ)، أما المسلمون في مصر وليبيا فيقولون بأن ذلك سوف يكون في القاهرة، ويقول آخرون، لابل إن ذلك سوف يكون في القسطنطينية، وهكذا يخترع كل إنسان الذي يرضيه شخصياً، وبذلك يقدمون على حماقات لانهاية لها.

ووقفنا تحت الحجرة المتقدمة الذكر، وضحكنا نحو حماقة.... النبي المزيّف، ثم نزلنا من الجدار ووصلنا إلى (مقبرة) اليهود الموجودة على منحدر رابية فوق وادي شعفاط، وسخرنا هنا من اليهودي الذي كان دليلنا، وأخبرناه بأن اليهود كانوا عقلاء بوضعهم مقبرتهم في موضع الحساب، حتى يمكنهم الانبعاث من دون أن يتعبوا من الارتحال إلى هنا، حتى تتم ادانتهم بشكل أبدي.

ونزلنا من هذه المقبرة إلى الطريق العام، الذي عليه صعدنا إلى جبل صهيون حيث أماكنا، وعندما دخلنا إلى موضع إقامة السادة الحجاج، دعاني السادة الحجاج مع اثنين من الآباء الفرنسيّسكان، واثنين من

اليهود، وواحد مسلم، ومملوك واحد، لتناول العشاء معهم، وتناولنا العشاء بسرور مع بعضنا مع أننا كنا ذوي عقائد مختلفة وعادات متنوعة، وإنه بسبب التحادث والاجتماع مع غير المسيحيين، الانسان مرغم على الحصول على إذن من السيد البابا عندما يرغب بالقيام بالحج إلى القدس.

وفي اليوم الخامس، الذي كان يوم العيد المجيد لأبينا القديس دومينيك، بطريك الرهبان المبشرين، وبعد القداس، وكذلك بعد الفراغ من الغداء، جاء Sabathytanco أي كاليئوس الرئيس، وأخذ من كل حاج خمس دوقيات، كدفعة على الحساب بالنسبة للعقد المبرم، قائلاً إنه ليس لديه ما يكفي من مال بين يديه ليبدأ بعمل التحضيرات لأخذنا عبر الصحراء، وبناء عليه، ولكي لا يقول فيما بعد أننا كنا سبب التأخير الطويل، أعطيناه المال، وأخذ من كل واحد منا خمس دوقيات، وبعدما حصل على الذهب، بات أكثر بهجة، ووعدنا بأنه سوف يستجيب لكل طلب يمكن أن نطلبه منه، إذا كان يمكنه القيام به، ولذلك طلبنا منه أن يتدبر أخذنا إلى مكان ميلاد مريم العذراء المباركة، الذي لم نذهب إليه من قبل، فأجابنا: «ياسادتي الحجاج، هذه مسألة صعبة، التي سألتمونيها، لأنكم لايمكنكم الدخول إلى غرفة ميلاد العذراء مريم، إلا من خلال مسجد موقف لاستخدامات المسلمين، إليه ليس مسموحاً لكم بالدخول، ومادام المسلمون يتولون الحفاظ عليه، لايمكنني التجرؤ على أخذكم إلى هناك بأي شرط من الشروط، ولذلك عليكم الانتظار حتى المساء، فوقتها سوف أرسل ابني Abre إليكم، وهو سوف يقودكم من خلال ممرات سرية إلى المكان، وأنا سوف أتدبر دخولكم إليه، وفي الوقت نفسه سوف أبقى أنا شخصياً مع أصحاب السيادة الحكام، أنتظر فرصة لتأخيرهم حتى لايمكنهم رؤيتكم تزورون الذي تنوون زيارته».

وما أن قال هذا حتى تركنا، وعندما جاء المساء، انتظرنا حتى غياب الشمس تقريباً، ظانين بأن الرجل قد خدعنا، لكن فجأة جاء ابنه Abre الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، جاء إلينا على جبل صهيون مع واحد من الخدم، واقتادنا خلال أزقة سرية في القدس، إلى باب إفرام، الذي هو باب اسطفان، ووصلنا إلى الكنيسة التي هي الآن Mameria، وبعدما جرى فتحها، دخلنا إلى المسجد، وذهبنا من الكنيسة إلى الرواق، ويوجد إلى جانب الكنيسة نافذة فوق الأرض، مثل النوافذ العائدة إلى الغرف التي فيها عمل منسوج، أو مثل نوافذ السقوف التي خلالها يدخل النور والهواء، والطريق من خلال هذه النافذة إلى موضع ميلاد العذراء المباركة، لأن المسلمين قد أغلقوا باب الكهف الذي استخدم ليكون كنيسة، لأنهم لا يعبأون مطلقاً حول هذا المكان، وبناء عليه قام واحد من الحجاج بوضع قدميه خلال هذه النافذة، وترك نفسه يسقط إلى القبو، ووقف بعد ذلك تحت النافذة، وعمل بمثابة سلم لكل واحد من الآخرين، لأنه وضع يديه أمام الجدار، وكان على كل من رغب بالنزول، أن يضع أولاً قدميه فوق يدي الرجل، ثم يضع إحدى قدميه فوق رأسه أو كتفيه، ومن فوق كتفيه كان يقفز إلى الأرض، وهكذا نزلنا جميعاً إلى ذلك المكان، فوق الحاج، الذي كان فارساً من أسرة نبيلة، وأشعلنا شموعاً، لأن المكان كان مظلماً، وشرعنا نطوف فيه، ووصلنا إلى كهف، قيل فيه جرى أولاً دفن واكيم وحنة أبوي العذراء المباركة، وذهبنا من هناك إلى بيعة أخرى تحت الأرض كانت أكبر، وكانت فيما مضى مطلية بشكل جميل، ففيها من المعتقد بأن العذراء المباركة قد ولدت، وهنا بدأنا بأصوات مشرقة نغني الترانيم من أجل ولادة العذراء المباركة، وهي الترانيم المحددة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وقبلنا الأرض وفق طرائق الحجاج.

وهذا المكان قائم تحت سدة الكنيسة، وكان فيه الفراش الذي حملت عليه حنة بمريم العذراء المباركة، وذلك مثلما موضع ميلاد المسيح موجود تحت سدة الكنيسة في بيت لحم، وفي هذا دحض لما ورد في القرآن، الذي قال بأن العذراء مريم قد ولدت في مصر، وأنها كانت ابنة مريم، أخت هرون [كذا]، وهو ما كنت قد تحدثت عنه من قبل، وهكذا بعدما فرغنا من رؤية المكان، تمكن واحد من الحجاج بمساعدة الآخرين من الصعود من خلال النافذة إلى الرواق، ومد ذراعيه نحو الأسفل، وشد كل واحد ورفعته إليه، واحداً بعد الآخر، وسرنا حول الرواق، ورأينا القلايات في كل من الأعلى والأسفل، التي عملت بشكل ممتاز، لأن هذا المكان كان في أيام الصليبيين ديراً للراهبات، من طائفة القديس بينت.

ودخلنا إلى الكنيسة، التي هي مسجد الآن، وتفحصناها عن قرب، وقد لاحظنا بأن هذه الكنيسة قد كانت فيما مضى جميلة، ومزينة، لأن الجدران كانت مرسومة، غير أن المسلمين أفسدوا الصور بتغطيتهم بطلاء أبيض، وحدث أن الطلاء الأبيض قد وقع في كثير من الأماكن، وبذلك من الممكن رؤية الرسوم المسيحية ثانية، والذي كان مرسوماً حكاية الحمل بمريم العذراء المباركة، وولادتها، وكيف أن واكيم قد طرد من الهيكل بسبب أن زوجته كانت عاقراً، وكيف أنه أقام بالصحراء مع رعاته، وكيف ظهر الملاك له هناك، وكيف أنه اندفع تحت الباب الذهبي إلى ما بين ذراعي زوجته، وكيف حملت حنة بمريم.

وكنت قد قرأت في واحد من كتب الحج، كيف أن المسلمين شرحوا ماجاء بهذه الرسوم، على أنها تشير لمحمد (ﷺ)، وأنه جرت العادة أن كانت هناك امرأة عجوز سكنت قرب هذا المسجد الاسلامي، وكانت تخبر الناس، وهي تسكب دموعها بغزارة (٢٣٠-ظ) بأن هذه الصور تحكي حكاية محمد (ﷺ) في اللجنة، مضيئة معاني جسدية عليهم جميعاً،

وعندما رأينا هذه المشاهد كلها خرجنا من المسجد، وكنا منزعجين جداً، أن نرى كنيسة بهذا الجمال، وديراً بهذه الشهرة، فوق بقعة في غاية القداسة، قد صار ملكاً للمسلمين.

وقائم في مواجهة الكنيسة شجرة كبيرة، وقديمة جداً، قد قيل بأنها زرعت من قبل العذراء مريم المباركة، عندما كانت ماتزال طفلة، تحت رعاية والديها، اللذان من المعتقد أنهما سكنا فوق هذه البقعة، لأنه مع أن واكيم وحنة قد عاشا لسنوات طويلة في الناصرة، إنما عندما اقترب وقت الحمل بالعذراء وولادتها، جرى تحريضهما من قبل الروح القدس إلى الانتقال من الجليل إلى اليهودية ومن ثم إلى القدس، حتى يتمكن من إنهاء أيامهما هناك في عبادة الرب، على مقربة من هيكل الرب، غير عارفين بالسر الرباني العظيم الذي أبقاهما من دون أولاد، وعندما قدما من الناصرة إلى القدس، اشترى بيتاً على مقربة من الهيكل، فوق بركة الضأن، وفيه جرى الحمل بمريم العذراء المباركة، وفيه ولدت، فهذا ما ذكره يوحنا الدمشقي وشهد به بقوله: «ولدت العذراء مريم في بيت واكيم، الذي اسمه بيت الضأن، لأنه كان على مقربة من بركة الضأن»، ومع مرور الأيام، بنى المسيحيون كنيسة فوق موقع ذلك البيت المقدس، وبهذه الكنيسة جرى الحاق دير للراهبات من طائفة القديس بينت، اللائي كن سيدات ثريات جداً، وبقي الحال هكذا حتى نهاية سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، عندما جرى الاستيلاء على المدينة من قبل المسلمين، وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة عملوا هناك بالدير أعمالاً جديرة بعدم التذكر مطلقاً، هذا وذكر بعضهم بأن ذلك قد حدث في مكان آخر، أي في دير كليرز Clares



وفي اليوم السادس، الذي كان يوم تغيير الرب لشكله، التقينا على جبل صهيون في الصباح، وذهب معنا نصف رهبان جبل صهيون إلى

جبل الزيتون، وكنيسة صعود الرب مع كؤوس القربان وأشياء أخرى محتاج إليها، وغنينا هناك بشكل مهيب قداس تغيير شكل الرب، وكأننا كنا على جبل الطور، وكان هناك عدد كبير من المسيحيين الشرقيين [٢٣١] حضوراً في قداساتنا، لأنهم يعدون يوم تغيير شكل الرب بين أعيادهم الأكثر مهابة، ولهذا السبب يكرسون جميع كنائسهم تقريباً على شرف القديسة صوفيا، أي على تغيير شكل الرب، ومثلما نقوم نحن فرنس في كنائسنا الصلب ويوم الحساب الأخير، نجد أن الرسوم الرئيسية في الكنائس الشرقية تتعلق بتغيير شكل الرب مع موسى والياس، وثلاثة رسل متمددين على الأرض.

وبعدما فرغنا من قداساتنا، مشينا حول الكنيسة، وتسلقنا نحو قمتها بقدر ما استطعنا لمشاهدة المنطقة من حولها، لأنه منها يستطيع الانسان أن يرى بعيداً حتى البحر الميت وبالطول والعرض الأرض المقدسة، ويقوم في الكنيسة نفسها أعمدة رخامية مصقولة، بينها واحد يحتضنه المسيحيون الشرقيون بأذرعهم، وهم يضحكون لبعض الوقت، ويحاول كل واحد منهم أن يلمس باصبع يده الأولى اصبع اليد الثانية، ومالم يمتلك الانسان اصبعين طويلين، لا يمكنه أن يلامس بين يديه أثناء احتضانه للعمود، ويعتقد الشرقيون بشكل خرافي أن من يستطيع فعل ذلك سوف يكون أكثر حظاً من الآخرين، وأن ذلك علامة على شيء جيد جداً، ولقد وقفت في ذلك المكان لوقت لطويل أراقب فيه حماقاتهم، ولعبنا بعدهم نحن الغربيون اللعبة نفسها على سبيل المزاح، حيث قسنا إطار العمود، وقد كنت قادراً على وصل رأسي اصبعي الطويلين مع عملية ضم قوية وضغط، هذا وسلف لي أن قدمت وصفاً لهذه الكنيسة في ص ٦١٣.

وقمنا بعد هذا بجولة حول الجبل المقدس، وزرنا الأماكن المقدسة، ثم دخلنا إلى المدينة المقدسة من باب القديس اسطفان، وصعدنا لنقبل

بيت بيلاطوس، ولما علمنا بأن صاحب البيت ليس في المدينة، قرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول من قبل ابنتيه، وزرنا مواضع استشهاد المسيح، ولو كان صاحب البيت موجوداً ماكان ليسمح لنا بأي حال من الأحوال بالدخول، وماكان ليقنع بالسماح لنا لابلالاتماسات أو بالمال، وعلى كل حال، ظهرت ابنتاه الجيدتان لنا، واقتادتنا إلى المكان الذي يعتقد بأن الرب قد جلد فيه، وكان هذا المكان بيعة مستديرة مقنطرة، إلى جانبها هناك طريق نحو الجزء الأعلى من البيت، غير أنهم تركوا هذا المكان المقدس غير نظيف، وبدون احترام، لأن من المعتقد أنه المكان الذي تلقى فيه جميع أوساخ البيت، وعلى الرغم من هذه الأحوال نزلنا إلى ما بين الأوساخ، وقدمنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة، لكنني لأعرف فيما إذا كان الرب قد توج في المكان نفسه الذي صلب فيه، ويبدو من انجيلي متى ومرقس أنه جلد في مكان عام في الخارج، غير أنه توج في القاعة في الداخل، لكن في انجيل يوحنا: ٩، كان الجلد والتتويج معاً، ومن الصعب معرفة الحقيقة حول هذا بسبب هدم البيوت وإعادة عمارتها، ولذلك من المستحيل التعرف على الأماكن، وحول هذا البيت انظر ماتقدم في ص ٥٩٩.

ولقد دخلت إلى هناك مرتين، ومن المعتقد أنه شيء عظيم بالنسبة للحاج أن يكون في المكان المتقدم ذكره، ليس مرة واحدة بل ألف مرة إن استطاع، وعندما كنا خارجين أعطينا الفتاتين بعض القطع الفضية، وقد تسلمتا ذلك مع شكر عظيم، وأخبرتانا — من خلال المترجم — أنه مادام والدهما بعيداً [٢٣٢] سوف تكونان على استعداد للسماح لنا بالدخول إلى البيت، فقد كان أباً قاسياً نحو ابنتيه، وكذلك نحو جميع الشعب المسيحي، الذين كان لايتحمل النظر إليهم طويلاً، ولهذا السبب كان المسيحيون متعاطفين مع ابنتيه، ولأن الرجل كان قاسياً نحو ابنتيه، كانتا متعاطفتين معنا، وسمحتا للمسيحيين بالدخول إلى البيت على

الرغم من عدم موافقة أبيهما، وكانتا ابنتين لهما مظهر حسن، وكانتا طويلتين، وعندما دخلنا، وضعتا جانبا حجابيهما وتحدثتا إلينا بملامح مبتسمة، الأمر الذي لا تتجرآن على فعله مع المسلمين.

الحج الممتاز للراهب فيلكس فابري

في الأماكن التالية (جبل صهيون)

في اليوم السابع، تلوت قبل إشراق الشمس صلواتي الصباحية، وكنت واقفاً فوق الممشى العلوي لدير رهبان جبل صهيون عندما أشرقت الشمس، ولدى تحديقي بوادي جهنم تملكني شوق في أن أذهب في ذلك الصباح وأنزل إلى ذلك الوادي، وأن أتابع السير فيه إلى حد أكون فيه غير قادر على رؤية جبل صهيون، وأن استهدف جب عين روجل، وحجر الزاحفة، وهما قد ورد ذكرهما في سفر الملوك الأول: ٩/١، وأن أرى مكاني: توف، وتوفل، اللذان ذكرا في سفر إرميا: ٣١/٧-٣٢، وخلال جميع الاصحاح: ١٩ من سفر إرميا نفسه، وهذا المكان هو وادي بني هنوم، وهو أيضاً يعرف باسم وادي هنون، أو وادي يهنون أو جهنم (يشوع: ١٨ و٤، واسداراس: ١)، وذلك ليكون بامكاني متابعة السير نزولاً من هناك في الوادي، حتى أتمكن من رؤية هل جدول قدرون فيه مياه جارية، في الأرض المنخفضة، كما يعتقد كثيرون أن فيه، والحقيقة حول ذلك سوف أعرضها فيما يلي، وكنت آمل بعد هذا بتسلق جبل العدوان، الذي تصل حوافه حتى جيئنا، وقد قرأنا عن هذا الجبل في سفر الملوك الأول: ١١/٧، ولقد استهدفت رؤية هذه الأشياء وتفحصها واستخلاص النتائج لنفسي.

ولذلك غادرت المكان الذي كنت واقفاً فيه، لكي أذهب إلى الأب المسؤول، لألتمس منه اعطائي واحداً من الرهبان ليكون مرافقاً لي، حتى أتمكن بصحبته من رؤية الأماكن المتقدمة الذكر، لكنني لم أتجرأ

على إيقاظ ذلك الرجل المحترم، الذي كان مايزال نائماً، ولذلك شجعت نفسي، وبدأت هذه الرحلة الطويلة وحيداً، لأن الوقت كان مايزال باكراً، وكنت أعرف أن المسلمين لا ينهضون من فرشهم قبل إشراق الشمس، ونزلت من جبل صهيون، ودخلت إلى حديقة الملك، الملحقة ببلاط الملك، التي منها هرب الملك صدقياً وجميع رجاله المقاتلين، من وجه الآشوريين، كما قرأنا سفر الملوك الثاني: ٢٥ / ٤، ولقد وجدت في هذه الحديقة أروع أنواع التين الناضج، حيث تناولت طعام افطاري، وتابعت الأكل حتى لم يعد بإمكانني الأكل أكثر.

وبعد أمد نزلت من حديقة الملك إلى بركة استحمام سلوان، ثم إلى الصدع في الصخر الذي تنبع منه مياه سلوان، ودخلت هنا إلى الداخل وشربت من نبع المياه المقدسة، وغسلت عيني ووجهي، وأنا لم أر من قبل مياه هذا النبع تتدفق بمثل تلك الغزارة التي شهدتها تلك الساعة، لأن ذلك النبع لا يتدفق دوماً بالمياه، وليس بالحجم نفسه أيضاً، حسبما ذكرت من قبل في ص ٦٥٤، وبعدما أنعشت نفسي، وحصلت على غفرانات مطلقة(++) عند هذا الماء المقدس، تابعت سيري من مياه هذا النبع، ووصلت بنزولي إلى قعر الوادي، ثم إلى جدول قدرون، وهناك لم أر انساناً، وكانت الشمس قد أخذت تشرق، وأشعتها صارت بادية على قمم الجبال، إنما حيث كنت كانت ماتزال الدنيا شبه مظلمة، وندى الصباح مايزال يتساقط، ونزلت إلى وادي جهنم، وسرت مسرعاً على طول قعر الجدول الشديد الوعورة، وذلك إلى المكان الذي يستدير فيه الوادي، حيث لم يعد بإمكانني رؤية جبل صهيون، أو جبل الهيكل، وعندما غدت هذه الأماكن بعيدة عن ناظري، وقفت دونها حراك، وتفحصت أرض مجرى الجدول، فوجدتها جافة مثل الأماكن الأخرى العالية في القدس، كما أنني لم أستطع أن أشهد بأي شكل من الأشكال، كيف يمكن أن يوجد هناك مجرى ماء تحت الأرض، وذلك في واد

عميق جداً، وملئ بالصخور.

والذي حركني للقيام بعملية الفحص هذه، هو قراءتي لوصف للأرض المقدسة، فيه قرأت بأن جدول قدرون كان نهراً متدفقاً بالمياه، إنما بسبب الكثير مما تعرضت له المدينة المقدسة من تهديم، حيث رمت خرائبها وأسوارها في الوادي، فإن مجرى هذا النهر قد أغلق، لكن نظراً لصحة المثل الذي يقول: مامن انسان يمكنه ايقاف جدول صغير، فقد قالوا بأن النهر نفسه، الذين يسمونه جدولاً، ما يزال متمكناً لطبيعته ومجره غير المتوقف عن التدفق تحت الخرائب، حسبما تقدم القول في ص ٥٨٧، وفي صفحات أخرى كثيرة تلت بعد ذلك حتى ص ٦٤٧، غير أنني لاأستطيع الآن أن أرى كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لأنني كنت بعيداً جداً تحت خرائب القدس، ولم أستطع رؤية نقطة واحدة من الماء الجاري، علاوة على ذلك، سرت في مناسبة أخرى نزولاً في هذا الوادي نفسه، وصولاً حتى البحر الميت، كما سئرى ذلك في صفحة ٩٤٢ المقبلة كلها، ومع ذلك لم أشاهد أية مياه تجري هناك.

ومن الممكن، على كل حال، أنه كان هناك فيما مضى نهر، وهذا النهر لم يعد موجوداً الآن، كما وقع لنوميشوس Numicius، وهو نهر في منطقة اللورين وهو الذي صار مشهوراً من خلال أغنيات مارو Maro وشعراء لاتين آخرين، فقد قالوا في أشعارهم بأن انياس Aeneas التروجاني Trojan قد وقع فيه، وأنه من مياهه فقط اعتاد القدماء على صب التقدّمات أثناء عبادة الربة فيستا Vesta، وفي الواقع هذا النهر غير موجود في هذه الأيام، فقد تراجع وأخذ بالجفاف على مراحل، فقد تحول أولاً إلى نبع، وأخيراً النبع نفسه تعرض للجفاف وذلك كما جاء في رسالة بوكاشيوس «حول الأنهار»، هذا ولايمكن للانسان أن يستخلص من أقدم الكتابات المقدسة، بأن هذا النهر قد تدفق وجرى فوق مجراه الجاف، بل الذي توفر هو أنه في أيام الشتاء قد

جرت بعض المياه فيه، ونتجت هذه المياه عن الأمطار وعن ذوبان الثلوج، ويكفي ماقلناه عن هذا الموضوع.

ثم استدرت بعد هذا عائداً إلى القدس..... ومضيت أسير مسرعاً فوق المجرى الجاف حتى وصلت مكاناً بات بإمكانني منه رؤية المدينة المقدسة، التي يبعث منظرها الجميل روحاً جديدة من البهجة، ويطرد الخوف من نفسي، لأنني قبل قليل عندما كنت في الوادي المنخفض كنت خائفاً، لأن وادي جهنم مكان مرعب، لاسيما في الجزء المنخفض منه، لأنه يفتقر إلى ضياء المدينة المقدسة المشرقة عليه من الأعلى، وعندما كنت على طريقي في وادي جهنم، وصلت إلى المكان الذي يلتقي فيه وادي سلوان مع وادي صهيون، فهنا قد قيل انوجد جب روجل، ويقوم الآن هناك صهريج كبير وعميق، لكن من دون بئر، وكان فيما مضى إلى جانب هذا البئر كهوف، وكان هناك مكان للرعي، حيث اعتاد فيه الشباب على تجريب قوتهم وعرضها، وكان هنا صخرة زوحت، أي الصخرة الزاحفة، لأن الذي كان بإمكانه جرّ تلك الصخرة، كان رجلاً قوياً، وهكذا أنا لم أر هناك لالبئر ولا الصخرة، والذي رأيته فقط الصهريج مع كثير من الصخور.

وهنا انشغل أدوناي بإقامة حفلة وتآمر لجعل نفسه ملكاً، وهنا كانت أيضاً الكهوف وعبادة الصنم، وأعمال شريرة كثيرة، كانت تقترب في هذا الوادي، وادي عنون أو جهنم، ويطلق على هذا الوادي والمكان اسم «جهنم»، وذلك اشتقاقاً من عنون، الذي كان فيما مضى مالكهما، وجرت ترجمة كلمة «عنون» بأن معناها هو «طريق الموت» أو «بئر الأسى»، ومعنى هذا أن المجرمين سوف يساقون في يوم الحساب الأخير خلال ذلك الوادي إلى مكان الموت، حسبما تقدم في ص ٦٤٧، وفي الحقيقة، تبعث جميع أسماء ذلك الوادي الرعب في العقل، لأن اسمه (١) عنون أي طريق الموت، و(٢) جهنم، أي وادي الأسى، و(٣) هنون،

أي وادي القتل، و(٤) يهنم، أي أعماق الموت، و(٥) توف، أي عقوبة الحمقى، و(٦) توفت، أي عقوبة الحزن البعيدة المدى، و(٧) قدرون، أي الألم بدون فائدة، و(٨) شعله Chela، أي نار الرب، و(٩) كريناروس Chrinarus أي نار الحساب الملتهمة، وبالإضافة إلى هذه الأسماء، أطلق على هذا الوادي اسم وادي القتل (إرميا: ١٩)، ووادي الذبح (إرميا: ٧).

ومن الممكن من الإصحاحين المتقدم ذكرهما رؤية كم كان هذا الوادي مكروهاً وملعوناً، وكذلك في الإصحاح ٣٢ من سفر إرميا أيضاً، وكذلك ماتقدمت كتابته في ص ٦٤٧، ووردت في الكتابات المقدسة اشارات متكررة لأماكن توف المقدسة، في وادي عنون، التي لا بد من فهمها أنها عنت أنه في هذا الوادي العميق قامت مذابح عالية للأوثان، وهذا الوادي والجبل قد وصفا من قبل يشوع ذلك الملك الأعظم غير، الذي ألقى عليه الحرمان، وينال هذا الحرمان الذين يدخلون إليه، وقام بقتل جميع الكهنة في الوادي، كما جاء الخبر في سفر الملوك الثاني: ٢٣، لأنه مثلما كان وادي شعفاط مقدساً ومباركاً مع جبله، الذي هو جبل الزيتون، كذلك فإن وادي عنون مدنس وملعون مع جبله، الذي هو جبل العدوان، ولذلك فإنه من هذا الوادي نال اسمه، الذي هو جهنم، ليشير إلى وادي العذاب المستمر في الجحيم.

جبل العدوان للرب والصنم مولوك

بعدما فرغت من مشاهدة الوادي المتقدم الذكر، استدرت بنفسي نحو جانبه الشرقي، عند سفح جبل العدوان، وسرت نحو منحدراته ومن ثم نحو الجبل نفسه، الذي هو أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، الذي يقوم على كتفه، عند منحدراته الجنوبية، ووجدت على القمة هناك بيتاً كبيراً، لكنه كان فارغاً، الأمر الذي كنت نحوه راضياً تماماً، لأنه كان لن يرحب بي كضيف، من قبل مسلمين يسكنون هناك فيه، وكان سليمان

قد أقام على هذا الجبل مبنيين مدنسين هما: هيكل مولوك والبيت الخاص بمحظياته، وبذلك أغضب الرب كثيراً، ولذلك عرف الجبل باسم جبل العدوان، حسبما هو موجود في سفر الملوك الأول: ١١/٧.

وجرت عبادة الوثن مولوك بطقوس قبيحة جداً، ولذلك حرمت تحريماً تاماً (اللاويون: ٢/٢) تقديم القرابين إليه والتضحية له، ولم يقتنع سليمان بهذا ولم يرض به، فقام تحت وطأة تأثير امرأته، فأقام هيكلًا لمولوك على ذلك الجبل، وجلب الناس لعبادته، ودفع الأموال إلى كهنة هذا الوثن، وتضمنت طقوس عبادة هذا الوثن قتل الأطفال، وكان مولوك تمثالاً كبيراً لانسان، معمولاً من النحاس، ومفرغاً من الداخل، وشمل الافراغ جميع أعضائه، ووقف هذا الوثن فوق عمود في وسط الهيكل ماداً يديه وذراعيه، مثل أم حنون، التي تمد ذراعيها لأخذ طفلها، لأن ذراعي الوثن كانا معمولين وفق طريقة يمكن لطفل أن يرقد عليهما وكأنه بين ذراعي أمه، وفي أيام التضحية، وعندما كان واحد من الأطفال يقدم هناك قرباناً، وقتها اعتاد الكهنة على وضع فحم يحترق في داخل جسم الوثن، ويجعلونه يتوهج كالنار، ثم كانوا يأخذون طفلاً ذا صحة جيدة وبرئاً من أيدي والديه، اللذان كانا قد جلباه للتضحية به، ويضعونه على ذراعي الوثن، ولكي لا ينزعج أبوي الطفل مع الأصدقاء الذين وقفوا هناك، إلى أبعد الحدود بسبب صراخ الطفل، كان الكهنة يقفون متماسكين قرب الوثن، حيث كانوا يصدرون أصواتاً عالية وضجة بالطبول، والكوسات والأبواق، وبذلك لا يستطيع أبوي الطفل، الذي كان يحتضر، سماع صوته، ويتابعون العمل بهذه الأدوات، حتى يكون الطفل المحتضن بين ذراعي الوثن قد هلك احتراقاً.

وبعد احتراق الطفل، يقوم الكهنة، وجميع الحضور أثناء عملية التضحية بتقديم التهنئة للوالدين بملامح علاها السرور والبهجة، لأنهما كانا جديرين بأخذ ولديهما ليكون بصحبة الأرباب، ومنذ ذلك اليوم

كان الوثنيون ينظرون نظرة احترام إلى جميع تلك الأسرة، لأنها ارتقت إلى مكانة النبالة، وكانوا يعتقدون بأن جميع أقرباء الطفل الذين ضحي به، سوف يكونون سعداء في جميع الأيام المقبلة، وقد مورست طقوس مشابهة بين الأمم التي عبدت ساتورن Saturn، ومن المحتمل أن الرب الذي اسمه عند الاغريق ساتورن هو نفسه الذي كان اسمه عند العبريين مولوك، لأنه كان هناك تماثيل نحاسية لساتورن بأحجام مدهشة حيث كانت أيديها ممتدة حتى الأرض حولها بشكل أن انساناً إذا ما أرغم على الصعود إلى هذه الأوثان فإنه يسقط في حفرة كبيرة مليئة بالنار، وقد قرأنا عن هذا في مصنف كاسا Casa De Ev.spir — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن.

وكثير من الأوثان، أو بالحري شياطين على شكل أوثان، لا يمكن أن تهدأ إلا بموت الأبرياء، وكانت عادة ممارسة التضحية بالأطفال تجري لكثير من الأسباب، وذلك حسبما رأينا في مصنف كاسا — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن، وتوقفت ممارسة التضحية البشرية في أيام الامبراطور هدریان، وكانوا قد اعتادوا على ممارسة هذه الطقوس الوحشية جداً على هذا الجبل، وفي هذا الوادي، ولا شك أنهم بذلك أغضبوا الرب كثيراً، وورد ذكر وثن مولوك في إرميا: ٢٢/٢، وفي عاموس: ٥/٢٥ — ٢٦، وفي الأعمال: ٤٣/٧.

علاوة على ذلك، قد قيل بأن سليمان قد بنى على هذا الجبل بيتاً لمحظياته اللاتي كان عددهن كبيراً جداً، وحول ذلك نقرأ في نشيد الانشاد: «هن ستون ملكة، وثمانون سرية، وعذارى بلا عدد» (الاصحاح السادس)، وبناء عليه إذا ما جرى تطبيق هذا النص على سليمان بشكل حرفي، من دون أي تأويل باطني، لا بد أنه قد احتاج إلى كثير من البيوت لمثل هذا العدد الكبير من النساء، ولذلك بنى قلاعاً وقصوراً للملكات، وبنى هذا البيت للمحظيات، في حين أمن

اقامة العذراوات في بيوت والديه، لكن ابنة فرعون، التي — من المعتقد — أنه لها أنشد نشيد الانشاد، والتي عنها قد قال: «حامتي، غير الأليفة، جميلة» قد سكنت معه فوق جبل صهيون، هذا وإن البيت الذي كان هناك كان عظيم القداسة، لأن تابوت عهد الرب قد أقام هناك لبعض الوقت، وقد بنى هنا بيت ميلو، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول: ٢٤/٩، وذلك بقصد أن يكون بإمكانه أن يكون دوماً على مقربة منه.

وبعدما فرغت من مشاهدة هذا المكان، وهذا الجبل، نزلت إلى الوادي بخطوات سريعة، قاصداً نحو جبل الزيتون، ووصلت إلى قعر الوادي إلى جانب اهرام شعفاط، وتفحصت هذا الهرم بعناية كبرى، ودخلت إليه، وتسقلت إلى داخله من خلال النافذة، وقد قال بعضهم بأن هذا الهرم، هو العمود الذي بناه أبشالوم لنفسه، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ١٨/١٨ قوله: «وكان أبشالوم قد أخذ وأقام لنفسه وهو حي النصب الذي في وادي الملك» لأنه قال ليس لي ابن لأجل تذكير اسمي] ودعا النصب باسمه، وهو يدعى يد أبشالوم إلى هذا اليوم»، لكن يبدو أن هذا غير صحيح، لأننا لم نقرأ في أي مكان بأن وادي شعفاط وجدول قد عرفا باسم وادي الملك، هذا وقد قال مصنف كتاب Speculum Historiule، بأن هذا الوادي قائم على بعد غلوتين عن القدس، ثم إن هذا ليس عموداً، قد بني وعمّر، بل هو كما هو مرئي بناء قد نحت من الصخر الأصم، في حين كان عمود أبشالوم الحجري من رخام مصقول قد أقيم ونصب نحو الأعلى، وعندما فرغت من رؤية هذه الأشياء، عبرت جدول قدرون، ومضيت صاعداً إلى جبل صهيون، ووصلت وقت الغداء، وأنا مليء بالعرق، واحترق من شدة الحرارة، وعندما سمع الأب المسؤول والرهبان بأنني قد زرت جميع هذه الأماكن، دون التعرض للأذى اعترتهم الدهشة.

وفي اليوم الثامن، وقبل انتشار الضوء، نزلت مع بعض الرهبان إلى كهف آلام المسيح، الذي سلف أن تحدثت عنه في ص ٦٠١، وهناك عندما رأيت أنه كان اليوم السادس من الأسبوع، أقمنا هناك قداساً عن آلام الرب، وذهبنا بعد ذلك صاعدين إلى الجليل، هذا ويوجد على الجانب الشمالي من جبل الجليل، جبل مرتفع، كان بعيداً جداً، مسافة أربعة غلوات عن القدس، وكان سليمان قد بنى على هذا الجبل هيكلًا لكموش (الملوك الأول: ١١/٧)، الذي كان وثن المآبيين، وفي هذا المكان نفسه، جرى في أيام المكابيين، بناء قلعة حصينة، منها تضررت مدينة القدس كثيراً في أيام حكم الاغريق والرومان.

وتابعنا سيرنا من هناك، ونزلنا من ذلك المكان (الجليل) — إنما بالحقيقة، ليس بشكل مباشر — نحو المدينة، بل نحو الشمال، حيث وصلنا إلى واد جميل وخصب، مزروع بالأشجار، من خلاله يمر الطريق الذي يسير الانسان عليه من القدس إلى الناصرة، ووصلنا ونحن سائرون إلى القرية التي بحثت فيها العذراء المباركة ويوسف عن الطفل يسوع بين أقربائهما ومعارفهما، وعندما وجداه، لم يعودا ثانية إلى القدس، وذلك حسبما جاء عند لوقا: ١١/٤٥، ووصلنا في هذا الوادي إلى مكان ملء بالخرائب القديمة، حيث قامت فيما مضى قرية عناتا، التي منها جاء النبي أرميا، الذي تقدس، عندما كان في رحم أمه، وقد ولد من سلالة الكهنة، وبدأ بالتنبؤ وهو ما يزال طفلاً، وتنبأ، وشاهد بعينه دمار القدس، وذلك كما حدثنا جيروم في توطئته لأرميا، هذا وأطلق جيروم هذا نفسه في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» على هذه القرية اسم عربات Arabath وقال بأنها كانت قرية كهنة، لأن الكهنة امتلكوا قرى ومزارع في محيط القدس، حيث بناء على ذلك كانت جيسماني، وبيت فاجي، ونوب، وعناتا، كانت قرى كهنة، وهناك تولوا علف المواشي المقدمة لأول الانتاج، أو من أجل العشور، وهناك نبوءة خاصة

لكهنة عناتا، يمكن رؤيتها في إرميا: ٢١/١١، ٢٣، وبناء عليه رأينا عناتا على شكل خرائب، لذلك صعب علينا تمييزها، وبعد هذا عدنا راجعين إلى القدس، ودخلنا إليها من خلال باب اسطفان، وسرنا صاعدين إلى جبل صهيون، وقمنا ونحن على طريقنا بتقبيل الأماكن المقدسة في أرجاء المدينة.

وفي اليوم التاسع، الذي كان يوم سبت، وأمسيته أمسية عيد القديس لورانس، ذهبت في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وكان برفقتي بعض الرهبان، ودخلنا إلى وادي شعفاط نؤم كنيسة ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، حيث أقمنا قداساتنا، وفي الحقيقة كان الأب المسؤول يرسل كل سبت بعض الرهبان لإقامة قداس هناك، وغالباً ما اعتاد على الذهاب معهم، وبعد الفراغ من القداسات، صعدنا إلى جبل الزيتون، ونزلنا من طرفه الآخر إلى بيت عنيا، حيث شاهدنا الأماكن المقدسة وقبلناها، ومن ثم عدنا إلى جبل صهيون.

وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا جميع اللوردات والحجاج قد اجتمعوا معا في الدير ينتظرونني، من أجل إعطاء جواب لواحد من المماليك، الذي أمر بمشول جميع الحجاج بحضرته، وذلك من أجل مناقشة بعض المسائل معهم، لأنه قد سُمع في بلاط السيد السلطان في القاهرة، بأن بعض المسيحيين الحجاج من الغرب من الأعيان واللوردات النبلاء، هم في القدس، ولهذا أرسل من مصر هذا المملوك، الذي كان ترجمان المسيحيين في القاهرة، ليعرف من نحن، ومن أين قدمنا، وعلاوة على ذلك، إذا ما كنا من فرنسا، كان بين أوامره، حملنا معتقلين إلى القدس، لأي سبب أنا لا أعرفه، لكنه بعدما عرف من Sa-bathytanco ترجماننا، بأننا لم نقدم من فرنسا، قدم معه إلى جبل صهيون، وأمرنا جميعاً بالمشول بحضرته، وحيانا بطريقة صديقة بكل من اللاتينية والايطالية، وقال لنا: «إذا ماتفصلتم، يمكننا أن نسافر غداً،

وتنزلون معي غداً إلى مصر، عبر الطريق السلطاني العام، وفي عشرة أيام سوف تكونون في القاهرة، حيث منها سوف أرسلكم مع حراسة إلى العربية، أي إلى جبل سيناء، وعندما تعودون من هناك، يمكنكم الإقامة في بيتي، بقدر ما ترغبون»، وبهذه الكلمات والوعود الجيدة، التي عملها لنا، بات علينا بشكل مؤكد المغادرة معه، مهما كانت أوضاع خططنا وأحوال حقائبنا، وكنا حتى الآن لم نقوم بإعداد أي من الأشياء المحتاجة في هذه الرحلة، وقمنا على كل حال بشكره، لعرضه اللطيف، ورجوانه، أننا عندما نصل، بفضل الرب ونعمته إلى المطرية وحديقة البلسم، على طريقنا من جبل سيناء، أن يتلطف ويقودنا بسرعة من هناك إلى القاهرة، وأن يبعث بنا مباشرة عبر النيل من القاهرة إلى الاسكندرية حتى لانضيع السفن الموجودة في الاسكندرية، والذهابة إلى البندقية.

ووعدنا باخلاص بأنه سوف يفعل هذا كله، الأمر الذي أفرحنا كثيراً، علاوة على ذلك بقي علينا الحديث عن هذا الرجل، وعن مكانته، فلقد كان اسمه Tanquardinus، وقد جاء إلينا بثوب الحمل، لكنه كان في الواقع ذئباً مفترساً، كما سوف نرى فيما بعد، وبناء عليه بعدما عمل هذا الاتفاق معنا، غادر، وذهب عائداً إلى مصر، وبعد الغداء ذهبنا نحن الحجاج مع بعضنا إلى الحمام أو البيت الساخن، حيث استحمينَا وغسلنا أنفسنا مع المسلمين، وهذا الحمام الساخن مثل الحمام الموجود في الرملة، الذي سلف الحديث عنه في ص ٣٧٦، ودخلنا بعد استحمامنا إلى كنيسة الضريح المقدس.

الدخول الخامس للحجاج إلى كنيسة قيامة ربنا يسوع المسيح وإلى ضريح الرب

في أمسية اليوم العاشر، التي كانت موعد عيد القديس لورانس الشهيد، والأحد الحادي عشر بعد الثلاثين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وفق الطريقة التي تقدم ذكرها،

وسهرنا تلك الليلة إلى جانب الضريح المقدس، وقد طفنا حول الأماكن المقدسة، كما فعلنا من قبل، وأقمنا قداسات مابعد منتصف الليل، وغنينا قداساً في ضريح الرب بعد اشراق الشمس، وبعد ذلك أخرجنا المغاربة من الكنيسة، وكان معنا من الرهبان الفرنسيين سكان من دير جبل صهيون، بعض الشباب في كنيسة قيامة الرب، وقد رجوت هؤلاء الشباب بالنزول معي إلى وادي شعفاط، لأن الوقت كان ما يزال باكراً في الصباح، وكانوا راغبين تماماً بالقيام بذلك، شريطة تقديم الاعتذار عنهم إلى الأب المسؤول لعدم حصولهم على إذن منه، الأمر الذي وعدتهم بفعله، وقد فعلته.

وهكذا سرنا خلال المدينة، ونزلنا إلى شارع الطباخين، حيث اشترت من الطباخين للرهبان ولنفسى فطائر معمولة بالبيض، وبعض الكعك، وفطائر باللحم، ولحم مشوي، وعناقيد من العنب، وبعض التين، ومضينا مع هذه المؤن ونزلنا إلى الوادي، وعبرنا الجدول إلى مزرعة في جيساني، وهناك جلسنا في الظل تحت بعض أشجار الزيتون، وتناولنا معاً طعام الافطار بسرور، ولم يكن معنا شراب، لذلك مصصنا حبات العنب عوضاً عن الشراب، وكانت حبات العنب على درجة عالية من الحلاوة، وكانت ألوانها سوداء وبيضاء.

وبعدما فرغنا من طعام الافطار، وقبلنا أقرب الأماكن المقدسة، مضينا صاعدين جبل صهيون، وجلسنا لتناول طعام الغداء مع الرهبان، وبعد الغداء جاء السادة النبلاء من الحجاج إلى جبل صهيون، وسألوا الترجمان ورجوه أن يأخذنا إلى بيت لحم، وكانوا قد جمعوا واستأجروا حميراً وسائقين، وقدموا معهم إلينا، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا من القدس مع Sabathytanco المسلم، وعندما وصلنا إلى الراية، على الطريق إلى جبل جيون Gion ، مقابل جبل صهيون، قابلنا حشد من البداة العرب، كانوا قد سمعوا برحلتنا، ومع أنني لم أعرف من الذي

وشي بنا إليهم، فلقد قاموا بقطع الطريق أمامنا، مالم نقم بدفع خفارة ومالاً لهم، وكانوا قد طلبوا مبلغاً كبيراً من المال، ورفضنا أن ندفع لهم، وبعدما تجادلنا مع بعضنا لبعض الوقت، أرغمونا بالقوة على العودة إلى القدس.

رسالة حول الحج إلى البحر الميت

وبعدما عدنا إلى المدينة المقدسة سألنا الترجمان وكالينوس تزويدنا بحمير وبجواز مرور، حتى نتمكن من النزول إلى البحر الميت لرؤيته، وعندما سمع المسلمان بهذا، ألقيا بكثير من المصاعب الكبيرة في طريق الحجاج، وقدما كثيراً من الأسباب، من أجل اقناعنا للتخلي عن هذا الحج الذي اقترحنه، وكان السبب لاهوتيا بعض الشيء، ذلك أنهما احتجا بأننا قدمنا إلى هنا من بلاد من وراء البحر، حتى نتمكن من رؤية الأماكن المقدسة، التي باركها الرب، والتي قدسها مسيحننا، وليس من أجل رؤية الأماكن غير المقدسة، التي لعنها الرب مثل البحر الميت، الذي، المسلمون أنفسهم، يسمونه الملعون، والذين قالوا عنه بأنه يتوجب كراهيته ومقتته من قبل كل مؤمن بالكتابات المقدسة، وأخبرانا بأنه ينبغي أن نكون قانعين برؤيتنا للأردن المبارك.

وكان السبب الثاني لعدم رغبتهم بأخذنا إلى البحر الميت مرتبطاً بالبداة العرب والمدينين الذين سكنوا في تلك الصحارى، وكانوا يتجولون حول الطريق السلطاني العام من أجل النهب، ومن غير الممكن الدفاع بشكل جيد ضد هجماتهم، مالم يرغموا على الفرار، ويتعرضوا للجراحات بالسيوف والنشاب، لأنهم كانوا غير مسلحين وعرة، هذا ولم يرغب أدلاؤنا بتعريض هؤلاء القوم للأذى من أجل خاطرنا، وقالوا بأنهم يؤثرون أن نتعرض للنهب على أن يتعرضوا للأذى والجراحة، وفي الحقيقة كان هؤلاء البداة جياعاً إلى أبعد الحدود، وكانوا تعساء، إلى حد أنهم كانوا على استعداد لمهاجمة رجال مسلحين،

مع أنهم كانوا غير مسلحين، ولتعريض حياتهم للخطر من أجل الخبز، وكان السبب الثالث الذي قالوه، هو أنه كان هناك حول شاطئ ذلك البحر كثيراً من الحيوانات المؤذية والسامة، من الأنواع الكبيرة والصغيرة، من أمثال: الأسود، والديبة، والخنازير البرية، والأفاعي، والزواحف، وماشابه ذلك.

وكان السبب الرابع، هو أنهم قالوا، بأن الملك السلطان قد حرّم أخذ أية غرباء إلى هذا البحر، وكان ذلك بسبب وجود الأفعى الأعظم سمية، وفي الوقت نفسه الأعظم قدراً ونبالة، وأعني بذلك التر Tyr، وذلك خشية أن يحدث وتمسك من قبل الغرباء، ويجري حملها إلى خارج البلاد، لأن هذه الأفعى غير موجودة في أي بلد من بلدان العالم، إلا فقط على شواطئ البحر الميت، ولذلك حظر السلطان سكان تلك المنطقة ومنعهم من امساك هذه الأفاعي، ويبيعهم لأي انسان، وجلبهم فقط إليه في مصر، ومن فعل غير ذلك نال عقوبة الاعدام، وحدث على كل حال، أن خرق فقراء الناس هذا الحظر أحياناً وباعوا هذه الأفاعي إلى تجار مسيحيين، في دمشق وبירות، وكذلك في الاسكندرية والقاهرة، ومن هذه الأفاعي يجري صنع أقوى العقاقير وأغلاها، وهو الترياق، وليس هناك أي ترياق صحيح إلا المستخرج من هذه الأفاعي، ومنها نال هذا العقار اسمه، وقد قيل بأن شكل هذه الأفاعي هو كما يلي: طولها حوالي الشبر ونصف الشبر، وغلظها يقارب غلظ اصبع ابهام الانسان، ولونها هو أصفر مع شيء من التمازج بالأحمر، وتولد بالطبيعة عمياء وتبقى كذلك، وهي دوماً عدوانية بشكل خفيف، تنفض بسرعة رهية مع فحيح غاضب، ولا يعرف دواء ضد عضتها، إلا قطع العضو الذي تعرض للعض وتسمم مباشرة، وإلا فإن الجسد كله سيصبح بلاشك ملتهباً، ومتورماً، ومتفجراً وتهاجم هذه الأفعى جميع المخلوقات، ولذلك يكون هناك حيوانات كبيرة ميتة عند شاطئ البحر

الميت بسبب تسممها من قبل التمر.

وعندما تكون هذه الأفعى غاضبة، تمدّ نحو الأمام لسانها الملتهب، وتستدير بسرعة هائلة، ويغدو جسدها وهي مغضبة كله ملتهباً مثل حديدة محماة، ورأسها الصغير الذي هو بالعادة صغير، يتورم حتى يصبح أكبر من جسدها، ولها على وجهها هلب مثل هلب الخنزير البري، وهي إذا غضت فرساً، يصل السم إلى راجبها أيضاً ويموت، ولولا أن خالق الطبيعة قد حرم هذه المخلوقة من عينيها، مامن انسان كان يمكنه الاقتراب منها، كما كان من غير الممكن امساكها بأية طريقة من الطرق، لأن الأفعى مأكرة جداً.

ويتعامل الأطباء والصيادلة مع هذه الأفعى كما يلي في صناعة الترياق: يأخذون أفعى أمسكت وهي حية، ويضعونها في وعاء واسع وعميق، يمكنها أن تركض فيه نحو الأمام ونحو الخلف بحثاً عن طريق للخروج، لكن لايمكنها فعل ذلك، وفي تلك الأثناء، وهي تدور حول الوعاء، محاولة الخروج، يأخذون عصياً وإبراً، بها يلتقطونها، وبذلك يثيرون غضبها إلى أبعد الحدود، وعندما تشتعل غضباً وتتورم حنقاً، يتجمع السم، الذي كان منتشراً في الأحوال العادية في كل جسدها، في رأسها وذنبها، وعندها يقومون بضربة واحدة بسكين أو شفرة بقطع هذين الجزئين معاً، وإذا ماقتصر القطع إما على الرأس أو الذنب، فإن الجزء المتوسط يكون بلا فائدة، وتعلمت هذه المخلوقة بوساطة الطبيعة الاحتفاظ بسمها، وفقط يمكن بفن عظيم استخراج ذلك منها والتغلب عليها، وتباع هذه السموم بأسعار عظيمة، أكبر من أسعار الذهب والحجارة الكريمة.

وقد أودع السيد السلطان، ملك مصر، في خزانته، السلعتين الخاصتين التاليتين، اللتان تنتجان في ممالكه، وأعني بذلك: البلسم، وأفعى التمر، ولذلك لايسمح للحجاج بالدخول إلى بستان البلسم إلاّ

بحذر كبير، كما سنتحدث فيما بعد، كذلك لا يسمح لهم بالتجول حول شواطئ البحر الميت بسبب التز، وبسبب —حمر اليهود، الذي هو كذلك لا يمكن العثور عليه في أي مكان إلا هناك على شواطئ البحر الميت.

وكان السبب الخامس لمنعنا هو الرائحة البشعة والشريرة الصادرة من ذلك البحر، حيث أن الانسان غير المعتاد عليها، يصاب بالعدوى، ومن ثم يمرض ويموت.

وكان السبب السادس الذي قالوه، هو أنه لم يكن هناك شيئاً جميلاً ليروه، وأتينا لن نشاهد شيئاً مريحاً، بل سوف نبذل جهداً كبيراً، وننفق أموالاً بدون فائدة، وسنواجه مشاكل مزعجة كثيرة.

ولدى سماع بعض الحجاج بهذه المثبطات ومثبطات أخرى، انسحبوا وتراجعوا قائلين بأنهم لن ينزلوا إلى هناك، حتى ولو دفع لهم، لكن آخرين، على الرغم منهم، كانوا متشوقين للذهاب، وهكذا كنا منقسمين للمرة الثانية إلى فئتين، مثلما حدث لنا من قبل بشأن قضية الحج إلى الجليل والناصرة، الأمر الذي كنا قد أوضحناه من قبل، هذا وقد طالب الشطر الأكبر من الحجاج باقتيادهم ونزولهم إلى هناك، ورفضوا التخلي عن الفكرة، حتى ولو اقتضى الأمر التماس ذلك من السيد جانم الحاكم، والطلب منه الحصول على إذن وجواز مرور، ولدى سماع Sa-bathytanco بهذا، أرسل في اليوم نفسه إلى حامد Ameth ، والي بيت لحم، وكان مغريباً وشجاعاً ومخلصاً، وكان حليفاً للبداءة، ولم يكن يخاف منهم، وطلب منه القدوم في تلك الليلة من بيت لحم إلى جبل صهيون في القدس مع أربعة عشر بغلاً أو حماراً، وأن يأخذ الحجاج إلى البحر الميت وأن يعود بهم، مقابل مبلغ من المال يجري الاتفاق حوله معه، وقمنا نحن من جهتنا بإعداد طعام وشراب لمدة يومين وليلة واحدة لنحمله معنا أثناء تلك الرحلة.

الحج إلى البحر الميت

وفي اليوم الحادي عشر، وقبل انتشار الضوء، جاء حامد إلى جبل صهيون مع بغال وحمير، وعبيد، وقرعوا على باب الدير، وسألوا عن الحجاج، لكن مامن أحد منهم كان في الدير إلا أنا وحدي، وهكذا ركضت نازلاً في الظلام من صهيون إلى ميلو، إلى بيت الفحل، الذي أقام فيه السادة الحجاج، وهناك قرعت على الباب بحجرة، وأيقظتهم. والذين رغبوا بالذهاب والمشاركة في الحج، قدموا صاعدين معي، وامطينا دوابنا، ومضينا نازلين من جبل صهيون إلى وادي سلوان، وعندما وصلنا إلى بركة الاستحمام، نزلنا إلى أعماق توف، وجهنم، وسرنا خلال وادي جهنم المرعب، وكان الوقت مايزال مظلماً، علماً بأن الليالي لم تبد لي مظلمة في هذه المناطق من بلاد ماوراء البحر، مثلما في بلادنا، لأنه في هذه البلاد لا توجد غيوم، ولا ضباب، لحجب أنوار النجوم وأشعتها.

وأشرقت الشمس وفي الوقت نفسه تابعتنا تقدمنا نحو الأمام دون توقف، خلال واد ضيق، مع صخور منحدرية مطلة من على الطرفين، ولم نتوقف حتى كانت الشمس في كبد السماء، وكان هذا الوادي وعراً جداً، لأنه كان مليئاً بالصخور وبالْحجارة، من عليها انجرفت التربة بسبب اندفاع المياه، في أيام الفيضان، ففي تلك الأوقات تندفع المياه، نازلة هناك بقوة تبلغ حداً أنها تقتلع الصخور الكبيرة من أماكنها، ومن ثم تقذف بها خلال جريانها، والنهائية العلوية لهذا الوادي هي وادي شعفاط، وجدول قدرون، هذا ولم أستطع رؤية أي أثر هناك لاستمرار جريان المياه، من جدول قدرون، كما قلت من قبل وبينت.

وعندما كنا نسير منحدرين، ونحن على ظهور دوابنا، وبعدما قطعنا حوالي الميلين ألمانيين، بدأ الوادي يصبح أكثر انحداراً ووعورة، وعندما ضاق هناك، وصلنا إلى دير القديس سابا، الذي كان راعياً للدير، ولقد

جرى استقبالنا باحترام من قبل الرهبان الاغريق، أو الـ Caloyers، ووجدنا في الدير كثيراً من البداة العرب من أهل الصحراء، ومن الفلاحين، ومن قطاع الطرق، ولدى رؤيتنا لهم استولى علينا رعب شديد، وتوجسنا أن نكون قد تعرضنا للخيانة، وشككنا بدليلنا نفسه، المعلم حامد، في أنه قد تأمر ضدنا، وعندما لاحظ هذا جاء مع مقدم هؤلاء اللصوص من البداة العرب، إلى القاعة التي جلبنا إليها، وتعهدا معنا إلينا ووعدانا بأن نكون آمنين في أجسادنا وعلى سلعنا وحاجياتنا، إنما إذا قمنا، وتفضلنا بتقديم ضريبة أو هدية صغيرة لهما، فوقتها سوف يكونا في خدمتنا، وأنها سوف ينزلان معنا إلى البحر، ومن ثم يتوليان الدفاع عنا.

وبناء عليه أعطيناهما بعض الدراهم، وبتسلم ذلك كانا راضيين، وكنا نحن مطمئنين، وزالت المخاوف من نفوسنا، وأحضرنا نحن الآن جعبنا مع الأشياء التي تزودنا بها في القدس، وقوارير الخمرة، وأكلنا وشربنا، فضلاً عن هذا أعطينا بعض الحلوى إلى دليلنا وإلى البداة العرب، وأحضر الرهبان ماء بارداً لنغسل أقدامنا جميعاً، وللشرب، وبعد تناولنا للطعام وانعاشنا لأنفسنا ذهبنا إلى الكنيسة، حيث صلينا للرب، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، وعلاوة على ذلك ذهبنا إلى ضريح القديس سابا، وصلينا هناك، والذي اعتقده أن هذا الضريح فارغ، لأن جسد هذا القديس، راقد في البندقية، كما ذكرنا من قبل، وبعدما رأينا هذه المشاهد، تمدد السادة الحجاج على الأرض، وناموا، لكنني شخصياً لم أستطع النوم أو الجلوس بلا حراك بأي شكل من الأشكال، بل قمت بالتجول هناك وفي جميع أجزاء الدير، وفي الأسفل في الوادي وفي الأعلى، وتفحصت بكل دقة الكهوف والأكواخ التي كانت عائدة للرهبان القدماء مع اعجاب عظيم، ومع رعب وخوف من السقوط، عندما تسلقت صعوداً ونزولاً فوق الصخور والجروف،

وخرائب الأبنية القديمة.

علاوة على ذلك تعرضت إلى الخطر التالي أثناء تجولي الافرادي: فقد وصلت إلى ممر ضيق ملاصق لقلاية القديس سابا، حيث يقوم فوق الصخرة جدار على الطرف الأول، لكن لا يوجد على الطرف الآخر أي شيء سوى منحدر مفتوح مرعب، أو جرف معلق، وكان هناك خلال هذا الممر مايسمح لانسان واحد بالمرور فقط في وقت واحد، ولا أعني بهذا مرور انسان من هذا الاتجاه وآخر من اتجاه مقابل، بل انسان واحد فقط، عليه أن يكون حذراً خشية السقوط نحو الأسفل، وعندما كنت ماراً خلال هذا المكان، التقيت بمسيحي شرقي، لعله كان خادماً لذلك الدير، ولدى رؤية هذا الرجل لي تقدم نحوي، وبعدها خطا بعض الخطوات نحو الخلف، وعندما رأي خائفاً كثيراً، بدأ بالمزاح معي، وتظاهر بأنه مقبل على اسقاطي بالهوة.

وعندما رجوته بالاشارات بقدر ما استطعت، بأن يتركني أمر بسلام، رفض ذلك، وأشار لي بأنه سوف يلقي بي، ما لم أعطه بعض المال، ولدى سماعي ذلك، فتحت حافظة نقودي وأعطيته مندوساً واحداً، ولدى تسلمه له تركني أمر، ومن تلك الساعة فصاعداً صرت أمقت مرافقة مسيحيين من هذا النوع، أكثر من كراهيتي مرافقة المسلمين أو البداية العرب، وصرت أثق بهم أقل من سواهم، ومع أنه كان ربما لن يرميني من فوق الجرف، حتى لو لم أعطه شيئاً، لقد كان على الرغم من ذلك شريراً ليلعب مع انسان هو لم يره من قبل، في مكان بمثل هذه الخطورة، وأن يأخذ مالي ليتركني بسلام، ولو أن بدوياً قابلني وفعل بي مثل ذلك، لكنت مسروراً تجاه لعبه، ولعدده غير مسيحي جيد، لكنني أعتقد أن هذا التصرف غير لائق بالصدور عن مسيحي نحوي، ولقد حدثت بالقضية حامد، الذي كان المسؤول عنا، فوجه إليه اللوم بمرارة، وكان غاضباً منه كثيراً، وقد أخبرنا بأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين، هم

أدنى الناس الذين يمكن الوثوق بهم من قبل أي إنسان، وقد مكثنا في ذلك الدير حوالي الخمس ساعات، حتى خفت حدة حرارة الشمس.

ملاحظة حول دير الراعي القديس سابا

كان دير الراعي القديس سابا واحداً من أعجب الأشياء التي رأيتهما في جميع رحلاتي، لكنني غير متأكد فيما إذا كان هذا هو دير القديس سابا، الذي قرأنا عنه في «حياة الآباء»، حيث قرأنا بأن القديس سابا كان لديه دير في سورية، وأنه كان أباً ورئيساً فوق ثلاثة عشر ألف راهباً، في حين هذا الدير موجود في اليهودية، علماً بأن اليهودية نفسها هي جزء من سورية، ويقول الرهبان الذين يسكنون في هذا الدير هذه الأيام بأن القديس سابا كان راعي هذا الدير، ومؤسسه، والأب المشرف عليه، وكان لديه دوماً في ديريه أربعة عشر ألفاً من الرهبان، وهذا عندما يسمعه الإنسان يصعب عليه تصديقه، ولكنه عندما يشاهد المكان، فإنه يوافق على أنه وإن كان العدد مبالغاً فيه، فإن حشداً هائلاً من الرهبان لابد أنه كان يسكن هناك.

وكان هؤلاء الرهبان، وما زالوا الآن يتبعون أحكام القديس باسيل، أي هم أغريق، وهم بذلك مثلهم مثل الرهبان في دير القديس كاترين، تحت جبل سيناء، ونعجب نحن الرهبان الغربيون كثيراً من أين يمكن لمثل هذا الحشد من الرهبان الحصول على الطعام واللباس، لكن الذي يشهد عادات، وطعام، وثياب الرهبان المشاركة، لا يتعجب نحو ذلك، ذلك أن طعامنا أكثر وفرة وتنوعاً، وملابسنا طبقات كثيرة، وأعلى نفقة، وبيوتنا وديرنا متعددة الأنواع، ومعمولة بأناقة أكبر، وبسخاء أعظم، لكن ليس هناك شيئاً من هذا القبيل في هذه الأيام بين الرهبان الشرقيين، وصدقاً أعتقد أن نفقات دير واحد فيه عشرين راهباً من الرهبان الغربيين من الطوائف الكبيرة، هو أعظم من نفقات واحد من هذه الديره فيه أكثر من مائة من الرهبان الشرقيين، فهم ينفقون قليلاً

على الأبنية، لأن الذي لديهم مجرد أكواخ معمولة من النباتات العامة، فيها لا يمكن لانسان أن يقف دون أن يحني ظهره، وكناثسهم ليست أكثر سمواً من أكواخ الرهبان، فمثل هذه الأكواخ جذرانهم من هذه النباتات مغطاة بالطين، وهي فقط أعلى من أكواخ الرهبان، وفيما يتعلق بملابسهم لا يرى الانسان أي شيء عالي النفقات، حتى في هذه الأيام، علماً بأن الرهبان الشرقيين الحديثين قد ابتعدوا كثيراً عن كمال سلفهم، الذين تجولوا وهم يرتدون جلود الأغنام وجلود الماعز، وعليهم أردية منسوجة من سعف النخيل، في حين تحمل كثير منهم حرارة النهار وبرد الليل، وهم عراة لسنوات كثيرة، وليس لهم من مسكن سوى الكهوف في الصخور، كما أنهم لم يقيموا قط في مكان واحد، بل تجولوا في جوف القفار، ووضعوا أنفسهم بعيداً عن جميع البشر، غير عابئين لابطعاهم ولا بلباسهم، وفي الحقيقة إن طعام وشراب جميع الشرقيين، وبشكل خاص الرهبان قليل جداً، ويجري احتساء الخمرة كقاعدة، قليلاً جداً من قبل العلمانيين ولا تُشرب قط من قبل الرهبان، وهكذا فإنهم يعيشون بنفقات صغيرة، في حين على العكس منهم، يعيش الرهبان الغربيون وسط ترف كبير وانفاق عظيم، ولذلك حمل عليهم القديس جيروم وندد بهم بعنف في رسائله، قائلاً بأنهم يحشون أنفسهم بالأطعمة حتى يصبخوا مرضى، وبالنسبة لهذا القول، نحن الرهبان الغربيون نستحقه، وعندما سمع واحد من المقدسين من بين الرهبان الغربيين بقول القديس جيروم هذا، رد بأن القديس جيروم ندد بقوله هذا ببعض الرهبان الشرقيين النهمين، وقصد بأن قابلية الطعام التي امتلكها الغربيون بشكل طبيعي، أصبحت نهماً بين الشرقيين، وذلك حسبما يمكننا قراءة ذلك في Speculum Historiale — الكتاب الثامن عشر، الفصلان العاشر والثاني عشر، وقد علمنا أيضاً بأن بعضاً من الرهبان الغربيين ذهبوا مرة إلى قفار مصر، من أجل أن يتمكنوا من رؤية الرهبان الشرقيين، وذهب بعضهم إلى قلالية رجل مسن، وبعد

التوسل والتحريرض دعيوا إلى الغداء من قبل الرجل المسن، وعندما جلسوا إلى المائدة، وضع أمام خمسة من الرهبان نصف رغيف، وحزمة من الحشائش كانت تشبه النعنع، وهي مليئة بالأوراق وطعمها مثل العسل، وأكل واحد من الرهبان جميع هذه الوجبة، التي أعدت للخمسة جميعاً، ولم يشعر بالشبع أبداً.

وفي الحقيقة إن تكوين أجساد الشرقيين والغربيين مختلف، مشاهدين أنهم يتأثرون بمؤثرات مختلفة من قبل الأجرام السماوية، ولهذا من المؤكد أن أشياء كثيرة هي بالطبيعة ضرورية للغربيين، غير أنها بالنسبة للشرقيين ترف زائد فيه اقتراف للذنب، وينطبق هذا على الذين يمتلكون بيوتاً جيدة، وقصوراً للإقامة، وكذلك ثياباً، وطعاماً، وشراباً، علاوة على هذا اعتاد الرهبان في الأيام الخالية على فلاحه الأرض، وكانت الثمار الناتجة عن ذلك يُعطى شطر منها لكل انسان ليعمل بها حسبما يريد، وكان يتوفر لديهم نتاج كبير في الشرق، فلا يجدون فقراء لإطعامهم به، ولذلك أرغموا على ارسال القمح إلى بلدان فيما وراء البحار، من أجل اطعام الفقراء في الغرب، ومن هذا واضح أن عدداً كبيراً من الرهبان كان يمكنهم الإقامة مع بعضهم بالمئات وبآلاف في بعض الأوقات، مثلما هو الحال الآن في دير القديس سابا.

وفي عودة إلى موضوعي، إن ترتيب الدير المتقدم الذكر هو كما يلي: هو قد احتل شطراً طويلاً من وادي جهنم، والوادي هناك عميق وضيق، ومحاط على الطرفين بصخور منحدره، وعلى هذا فإن الوادي يطوقه بجدار يمتد لمسافة طويلة، وكان هذا الفراغ كله فيما مضى ديراً، والصخور على الطرفين هي كهوف، لكن غير منحوتة، بل معمولة ومفرغة بشكل طبيعي لتكون مساكن مناسبة للرهبان الذين يودون تكريس أنفسهم وابقافها على الصلاة وعلى التأمل وهذه الكهوف مسقوفة من الأعلى بواسطة صخور معلقة وبجروف متقدمة، هذا

وتلطف الخالق، فوجه عمل الطبيعة، بأن جعل هذه الكهوف تمتد بشكل طولاني ومنتظم واحدها بعد الآخر، لتكون على شكل قلايات، ويوجد في الأسفل عند سفح الصخور صف من الكهوف، وفي الأعلى هناك صف آخر فوقهم، كما هناك صف ثالث أعلى أيضاً فوق هؤلاء، في حين هناك على الحواف مساكن بنيت بالفن الانساني، على شكل أن الطرف الأول من الوادي يعرض أربعة طوابق من القلايات، ويتم الدخول إلى الصف الأول من القلايات أو الكهوف من قعر الوادي لأنه على المستوى نفسه، وهناك طريق يأخذ نحو الطوابق الأعلى، ويوجد في مواجهة القلايات هناك صخرة مطلة وممتدة في واجهة مداخل الكهوف، على شكل أنه هناك قبل مداخل الأبواب، ممر مفتوح، ومثل هذا موجود في الطابق الذي يعلو ذلك، هذا والكهوف في كل طابق مفصولة، مثل القلايات على أحد جوانب دير من الدير، وهي ليست مصنعة بعمل الانسان وبراعته، بل بنيت هكذا من قبل الطبيعة.

وفي الأماكن التي لم تسمح الطبيعة بها بعمل غرف كاملة، تمت مساعدتها بالعمل الانساني، ولدى توفر كهفين توفرت فتحة جدارية جزئية بينهما، أوقفت هذه الفتحة وأغلقت بجدار، أو إذا توفر كهف كبير، يقوم اثنان أو ثلاثة من السكان بعمل جدران فاصلة فيما بينهم، وفي الوقت نفسه إذا وجد أحيانا كهف ضيق جرى توسيعه بالنجر في الصخر، وكل واحد من الرهبان لم يتمكن من الحصول على كهف خاص به في الوادي نفسه، قام بنجر كهف لنفسه بالجدار هناك، أو في الصخور فوقه في القمة، ولهذا يوجد حتى هذا اليوم في كل من الوادي في الأسفل، وفوقه، كثيراً من الخرائب من الجدران، وكأنها كانت مدينة هناك، وماتزال بعض القلايات المبنية قائمة، وكذلك العديد من الأكواخ التي بنيت بحجارة جافة، فضلاً عن هذا يبدو أنه كان هناك

فيما مضى أبراجاً عالية، وغرفاً بهية، وبيوتاً عظيمة، فوق ظهر الصخرة، وفي الصخرة نفسها، وفوق الأرض بالأسفل، ومابرحت كنيسة المكان قائمة دونها أذى، وهي واسعة إلى حد ما، ومؤسسة فوق صخرة، وهي صخرة منجورة من الجزء الأعلى من جانب الوادي، وهي ليس لها أساسات، بل مفتوحة من جميع الجوانب، باستثناء المكان التي تخرج فيه من جانب الوادي.

ويوجد تحت الصخرة، حيث تقوم الكنيسة، فراغ كبير ومظلم، يقود عميقاً إلى داخل الجبل، حيث يتدفق جدول، غير أنه جدول صغير جداً، ومياهه للشرب، وبه يدعم الرهبان حياتهم، واسمه نبع القديس سابا، ويعجب الانسان لدى رؤيته الكنيسة والأبنية الأخرى قائمة فوق صخرة هي معلقة في الهواء من دون أية أساسات، وعلى مقربة من الكنيسة هناك قلاية القديس سابا المنحوتة من الصخر، إليها يذهب الانسان بوساطة الممر الملتوي، الذي تقدم لي ذكره.

وعلى الجانب الآخر من الكنيسة، يوجد أيضاً، فوق هذه الصخرة، قلايات الرهبان، الذين مايزالون يسكنون هناك، ويصل عددهم إلى الستة، وهم لا يستطيعون الإقامة هناك، لولا أنهم متحالفين مع البداة العرب، الذين يضمنونهم، ويحمونهم ضد المسلمين، ولذلك فإن المكان كما هو، هو قلعة مفتوحة للبداءة العرب، ومأوى وملاذ لهم، ولذلك هو ليس خلواً، دوماً، من قطاع الطرق من البداة.

وهناك فوق الوادي حقولاً واسعة مزروعة، اعتاد الرهبان في الأيام الخوالي على فلاحتها ليس لأنفسهم فقط، بل كانوا يجمعون من هذه الحقول الزيت والقمح، بوساطة عمل أيديهم، من أجل الفقراء في سورية وفلسطين، وطوال الوقت الذي كان فيه هذا الدير وبقية الأرض المقدسة في أيدي الصليبيين، فقد اتبع الرهبان النظام نفسه بالنسبة للخدمات الدينية، الذي كان مطبقاً في كنيسة الضريح المقدس، في كل

من الليل والنهار، فعندما كانت الأجراس تقرر في كنيسة الضريح المقدس وقيامه الرب، كان السادة من الكهنة النظاميين فوق جبل صهيون، يقومون أيضاً بقرع نواقيسهم، وبعدهم كان رهبان جبل الزيتون يتولون القرع في كنائسهم كلها، وعندما كان هذا يسمع في بيت عنيا، كان القرع يجري أيضاً في جميع كنائس ذلك المكان، وكانت أصوات النواقيس تصل بعيداً حتى دير القديس سابا، فقد كان الرهبان هناك يسمعون أصوات القرع من الأماكن من حولهم، ولهذا حافظوا على قاعدة أن صوت القرعة الأولى كان يصدر من كنيسة الضريح المقدس، فيسمع في الساعة نفسها في جميع أرجاء الأرض المقدسة كلها.

غير أن هذه الأشياء اختفت منذ أن أصبح الضريح المقدس في أيدي المسلمين، حيث أن جميع أدوات حمد الرب هي الآن صامتة، وآل أمر دير القديس سابا إلى لاشيء تقريباً، وقد أخبرنا الرهبان الذين يسكنون الآن هناك، وحدثونا كيف أنه كان ديراً عظيماً، وأصبح الآن منعزلاً.

وبعد فقدان الأرض المقدسة للمرة الأخيرة، دافع هؤلاء الرهبان عن أنفسهم ضد حملات المسلمين، وخاضوا حروباً قاسية مع غير المسيحيين، وأرغموهم مراراً على الفرار، وزحف بعد أمد السلطان الملك ضدهم، قادماً من القدس مع جيشه، وطلب منهم أن يصبحوا مسلمين، فبعثوا له برسالة، أنه إذا ماصار مسيحياً، فهم على استعداد لخدمته، إنما إذا لم يفعل ذلك فسوف يدافعون عن أنفسهم حتى الموت، ولدى سماع السلطان بهذا حرك قواته ضدهم، وبعد حرب طويلة، تغلب على الرهبان، واقتحم ديرهم وبعث بهم إلى اللجنة بوسائل تعذيب متنوعة، لكنه لم يلمس الكنيسة، مع أنه دمر جميع القلايات والطرق التي تقود إلى الكهوف، وحولها إلى الوضع الانعزالي المحزن التي هي عليه الآن، ومع ذلك أبقى هناك بعض الرهبان الذي أقسموا يمين الولاء له، وبذلك بقي الدير قائماً حتى هذا اليوم.

السفر من دير القديس سابا

وبناء عليه، عندما بدأ حرّ الشمس بالضعف، أخذنا جعبنا، وحميرنا، وسرنا نازلين عبر الممر الخطر تحت الجروف في الوادي، ونحن نقود حميرنا، ومضينا نازلين ونحن على ظهور دوابنا إلى الأجزاء المنخفضة من وادي جهنم، وارتحلنا في وسط قعر الوادي الوعر، ونحن محاصرون من كل جانب بجدران شديدة الانحدار من الصخور، وكان تحت أقدامنا طريق في غاية الوعورة، كله حجارة، وهو غير مطروق من قبل، وتابعنا على هذا المنوال ببطء وتعب، لعدة ساعات، وقد أردت المضي في وادي جهنم حتى البحر الميت، حتى أتمكن من رؤية جدول قدرون وهو يصب في البحر الميت، لكن دليلنا كان لديه رأي آخر، لأننا بعدما قطعنا مسافة طويلة نزولاً، عبرنا إلى واد آخر، كان أكثر سعة، ووادياً جميلاً، وخصباً، لو توفر له من يتولى فلاحته، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وذلك مثلما يمتد وادي جهنم من الشرق إلى الغرب، وهذان الواديان متضادان، ويعاكس أحدهما الآخر، في الوضع، وفي الأحوال، وفي الاسم، ففي الوضع، قد وضح بأن هذا الوادي غير متصل أبداً بالبحر الميت، بل هو يفصل الجبال المقدسة، وفي جميع الأحوال، فإننا بقدر ما أن نجد الأول أجرداً، كثير الأحجار، ومظلماً بعض الشيء، وهكذا دواليك، نجد هذا الثاني، غنياً، معشوشباً، وواسعاً، ومشرقاً، علاوة على ذلك، هما مختلفان بالاسم، لأن الأول اسمه وادي جهنم، ووادي اللعنة، في حين اسم هذا الوادي، وادي البركة، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢٠/٢٦، وأنه نال اسمه هذا من حمد الرب، الذي قدمه يهوشا فاط — ملك القدس — وشعب اليهودية، هناك، بعد إلحاق الهزيمة بأعدائهم.

ورأينا في هذا الوادي خرائب أبنية قديمة، ولدى متابعتنا سيرنا نحو الأمام، وصلنا إلى أحد الأماكن، الذي فيه مالا يحصى عدده من الحفر

والجحور للأفاعي والثعابين، من كل من الصغير والكبير، لكننا لم نر فيها ولا حيوان، لأنهم يخرجون فقط في الليل، وأخبرنا دليلنا حامد أنه يوجد في هذا المكان ثعابين غليظة بقدر ذراع الانسان، وطول كل منها بقدر طول الرمح.

وبعدما سرنا باتجاه الشمال خلال وادي البركة لمدة طويلة، تركنا ذلك الوادي، وتوجهنا نؤم جهة الشرق، وانحدرنا عبر جبال بلا ممرات، وإلى جانب هضاب منحدرية، وجروف، وبذلك صار البحر أمام أعيننا، ورأيناه بشكل كامل، مع أنه كان ما يزال بعيداً عنا مسافة طويلة، ولهذا أسرعنا بخطانا، ونزلنا بسرعة أعظم، لأن الشمس كانت قد أشرفت على الغياب، وهكذا وصلنا أخيراً إلى أرض سدوم، وإلى شاطئ البحر الميت، وذلك عند الرأس، الذي يأخذ فيه نهر الأردن بين فكيه.

وبقي الآن دليلنا حامد، والمغاربة، وخدمه، بعيداً جداً عن البحر، لأنهم يمجونه، ويمقتون النزول إلى مياهه الملعونة، لكننا سرنا حتى الماء، حيث أوقفنا حميرنا، وترجلنا، ورأينا من الخرائب، أنه لا بد قد كان هناك بيت مربع كبير، بني بعضه فوق اليابسة وبعضه الآخر في البحر، وكانت هناك أحجار كبيرة من تلك الخرائب مرمية على الساحل، غير مغطاة بالماء، مع أنها ممددة في الماء، وسرنا على هذه الأحجار حوالي الاثنتي عشرة خطوة في البحر، ورأينا المياه، ولمسناها، وتذوقناها، وهي المياه التي سمعنا عنها أعاجيب كثيرة، وهذه المياه نقية، لكنها مالحة جداً، وكثيفة، ولهذا أطلق عليه أحياناً في الكتابات المقدسة البحر الأكثر ملوحة، ولذلك عندما يأخذ أي انسان بعضاً من هذا الماء ويضعه في فمه، يصبح بسبب ملوحته العالية جداً، داخل فمه محترقاً، وكأنه صب فيه ماء يغلي، وقد جربت أنا هذا شخصياً، علاوة على ذلك، بما أن هذه المياه كثيفة ومالحة جداً، فإن الذي يضعها في يده، يشعر بوخز في يديه، وكأنهما امتلئتا بالذباب والقمل، ويرغم بذلك على حكهم وكأن هناك

عرّ بهما، ويستمر معانيا من هذا لساعات كثيرة، ثم إنه لا يمكن بسهولة مسح هذه المياه من اليد، بل الحال كأن انسانا غمس يديه في الزيت، كذلك هناك رائحة ننته تصدر من الماء، تثير النفس وتسبب الغثيان، ولذلك لا يمكن للحجاج الإقامة هناك طويلاً، والأحجار الراقدة في المياه مع جزء منها فوق الماء، قد بدت وكأنها كلها مغطاة بالجليد، ولون الشاطئ كله قرب الماء أبيض، وكأنه مغطى بثلج جديد، مع أنه لا يوجد جليد ولا ثلج، بل الموجود عبارة عن ملح مر، مذاقه حاد جداً، وأعتقد أن ملعقة واحدة من هذا الملح هي أكثر ملوحة من عشر ملاعق من ملحنا.

وبدت بقية الأرض غير المغطاة أو المبللة بالملح، وهي قريبة من الماء، سوداء، وكأنها قد احترقت بوساطة نار ملتهمة، وهي دليل على شرور شعب سدوم، كما سوف نبين بوضوح أكثر فيما بعد.

ويقول العامة من الناس، بأن الجدران المدمرة، التي سرنا عليها إلى داخل البحر، هي بقايا بيت لوط، ابن أخي ابراهيم، الذي سكن في سدوم، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٣، ولدى وقوفنا لبعض الوقت إلى جانب هذا البحر، قام أدلاؤنا، وحامد ورجاله، الذين وقفوا على أرض مرتفعة فوقنا، بالصراخ لنا بأصوات مرتفعة حتى نبتعد، وفي الحقيقة كنا على عجلة من أمرنا لكي نغادر المكان، لأننا لم نكن مسرورين بالبقاء هناك، بل كنا نشعر بالغثيان والخوف، وكأننا كنا واقفين في بؤرة أجساد ميتة، بسبب الرائحة الكريهة، أو في مكان، فيه محاكمة قاسية لحشد واسع من الناس، قد حكم عليهم بالموت مع أشد العذاب وأكثره فظاعة، وقد خشينا من غضب الرب القدير، وخفنا أن يشملنا مع المذنبين، بالعقاب الذي نزل على شعب سدوم، فضلاً عن هذا، كان النهار قد شارف على الانتهاء، واقترب غياب الشمس، ولذلك صعدنا مبتعدين عن البحر، نحو أدلائنا، ودوابنا، وبتنا

مستعدين للمغادرة، لكن قبل أن نغادر هناك شيء مايتوجب قوله حول هذا البحر.

وادي سدوم المشهور حيث البحر الميت الآن

يحدثنا الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن أصل البحر الميت، ذلك أنه لم يكن هنا بحر من بداية الخليقة، كما لم تكن هنا بحيرة أو ماء متجمع بدون حركة، بل جرى نهر الأردن في مجراه، وكان يسقي الوادي وجميع المنطقة حول هذا الوادي كانت مزدهرة وخصبة، مثل حديقة الرب، ومثل أرض مصر، كما قيل في سفر التكوين: ١٣، ولهذا أطلق عليه اسم الوادي الشهير (التكوين: ١٢)، لأنه كان مليئاً بالأشياء الجيدة، ومثل هذا أطلق عليه اسم وادي الغابة، لأنه امتلأ بالأشجار وبأوراقها بكثافة، لأنه توفرت هناك أشجار فواكه، وبساتين مثل غابة، ومخزن كبير من الفواكه والأخشاب، وعن هذا حُددنا في سفر التكوين: ١٤.

وأطلق عليه أيضاً اسم وادي السهل، لأنه امتلك على الطرف الأول من الأردن أشجاراً، وكان هناك على الطرف الآخر سهولاً مزروعة، ولذلك دعي بالاسمين معاً: وادي الغابة ووادي السهل، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الاسفلت، أو وادي الزفت، وهذين الاسمين هما الشيء نفسه، لأنه يوجد فيه كثيراً من آبار القار، عنها نقرأ في سفر التكوين: ١٠، وهم يستخدمون القار عوضاً عن الملاط، ومنه بنيت جدران قوية جداً، وعثر في رمال ذلك الوادي على أحجار كريمة، مثل الزفير ومايشابهه، وكذلك عثر على الذهب في الأراضي هناك، وذلك حسبما جاء في سفر أيوب: ٣٣، فهناك بدا وكأنه يتحدث عن هذا الوادي، وكان في هذا الوادي الشهير والجليل خمس مدن كبيرة هي: سدوم، وعاموره، ودوم، وصبويم، وبالع التي هي ساعور، وقد وردت هذه الأسماء في سفر التكوين: ١٤ / ٢، ولهذا دعيّت هذه المنطقة

من قبل الاغريق، باسم البنتابولس، لأن معنى «بنتا» هو «خمس»، ومعنى «بولس» «مدينة»، وجاءت هذه التسمية بسبب وجود المدن الجلييلة الخمس، التي كانت سدوم هي الرئيسية بينهن.

وكان سكان هذه المدن أشراً جداً، وقد أذنبوا بشكل مريع أمام الرب (التكوين: ١٨)، ومارسوا حياة مهينة، خارج حدود العقل، مثل عميان، وحيوانات بلا عقل، ولذلك جرت ترجمة اسم سدوم إلى «عمى»، هذا وكان في هذه المدن حشداً كبيراً من الناس، وكانوا جميعاً مذنبين، إلى درجة أنه لم يوجد في أي منهن رجلين صالحين، لأنه لو وجد مثل هذين، لما دمر الرب تلك البلاد، كما جاء في سفر التكوين: ١٨، وكانت الذنوب الرئيسية لهؤلاء القوم عددها ستة، حسبما وردت في حزقيال: ١٦، وكان الذنب الأول هو الكبرياء، الذي هو أصل جميع الشرور، حيث كانوا يتكبرون في أنفسهم ويحتقرون الآخرين، وكان الذنب الثاني، هو الشبع من الخبز، لأنهم عاشوا باضطراب، وكانوا دوماً سكارى، ومليئين من الخبز، وكان الذنب الثالث هو الوفرة، لأنهم أثروا بثروات حصلوا عليها بشكل سيء، وكان الذنب الرابع هو الكسل، لأن أولادهم وبناتهم، وشيوخهم وشبابهم كانوا جميعاً كسالى، وصاروا أغنياء بلا عمل، وبسبب جودة الأرض، وكان الذنب الخامس هو أنهم لم يمدوا أيديهم قط للفقراء والمحتاجين، لأن قلوبهم كانت قاسية، وكانوا لا يقدمون مأوى لأي غريب، كما قرأنا في سفر التكوين: ١٩، وأنه لم يكن هناك مكان للغرباء حتى يقيموا به، إلا في الشارع العام.

وفي الحقيقة قضوا في إحدى شرائعهم بعدم اعطاء أي غريب مأوى في بيت من بيوتهم، لأن البلاد كانت بلاد وفرة، وقد حمل كثير من الفقراء أنفسهم إلى هذا الوادي قادمين من مناطق غريبة، لأن الحياة كانت سهلة، غير أنهم اعتقدوا أن الفقراء حمل ثقل، ولذلك قضوا بوجوب طرد الناس الفقراء والغرباء، وعلى هذا الأساس قتلوا فتاة

بطريقة شنيعة، لأنها أبدت مواساتها وأعطت خبزاً لواحد من الفقراء استجداها.

وجاء بعد هذه الذنوب الخمسة الذنب السادس، الذي كان أعظم الشرور مقتاً لسدوم، وقد صرخت الذنوب الخمسة إلى السماء، فوصل واحد منها، ولذلك قال الرب في (التكوين: ١٨ و ١٩): «إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر»، وهكذا إلى آخره، ولم يوجد هناك رجل واحد صالح لم يكن قد تلوّث بالاثم، غير لوط، وعندما اقتيد خارجاً من قبل الملاك، أمطر الرب ناراً وحجارة محترقة فوق تلك البلاد، وقد احترق كل شيء حتى جوف الأرض، وذلك بنزول تلك النار المربعة من السماء، وتحولت المنطقة إلى مكان أجرد من الملح والرائحة المقيئة حتى هذا اليوم.

وعندما توقفت النار، قام الأردن والجداول الأخرى التي تجري في ذلك المكان المحترق فملأت بالطول وبالعرض تلك الحفرة الكبيرة التي خلفتها النار عندما احترقت الأرض، وهكذا عملت بحيرة الملح، هذا ومع أن الأردن والجداول الأخرى تجلب مياهها حلوة إلى ذلك المكان، فإنها تصبح على الفور في غاية الملوحة، وأكثر ملوحة من ملوحة ماء أي بحار أخرى، لأنها تمتلك سبباً رباعياً للملوحتها، وهو سبب طبيعي، وسبب منطقي، وسبب كاثوليكي، وسبب رباني.

والسبب الأول للملوحة هذا البحر، هو سبب طبيعي، وهو السبب نفسه الذي يجعل البحار الأخرى مالحة، كما سلف وبيننا من قبل، وقد عالج هذا الموضوع أرسطو في مصنفة «الفضائيات»، الكتاب الثاني، وقدم كثيراً من الحجج، وهناك قدم بشكل واضح إشارة إلى هذا البحر، وإلى ملوحته الفائقة.

والسبب الثاني الذي يظهر هذا البحر أعظم ملوحة من البحار

الأخرى، هو سبب منطقي قائم على الايمان، وهو ماقد يوافق عليه الانسان أو لا يوافق، فنحن قد رأينا بأن النار من السماء قد أحرقت تلك الأرض حتى الأعماق، وقد بقي قعر الهوة يحترق بشكل دائم، مثل حديدية محماة في النار، هذا وإن الماء الذي يصب هناك غير قادر على إطفاء تلك النار، بل تحول الحرارة المياه إلى حد الغليان، وتجعلها سميكة، وتغليها حتى تصير مالحة، ولهذا السبب نجد هذه المياه، أكثر دفئا، وملوحة من أية مياه أخرى، وتتصاعد الأبخرة منها بشكل دائم.

والسبب الثالث مستخرج من الإيوان الكاثوليكي، الذي نعتقد بموجبه أن الحساب الأخير سوف يكون في وادي شعفاط، وأن المدانين سوف يساقون عبر نهر النار نزولاً في وادي جهنم حتى هذا المكان، حيث سيغرقون في أعماق الجحيم، وذلك حسبما بينا في ص ٥٨٧، لأن من الواضح أن فم الجحيم موجود هنا، وهذا بالنسبة لنا نحن المسيحيين لأننا نعتقد بأن الجحيم موجودة في وسط الأرض، والمدينة المقدسة قائمة على جبال فوقها في وسط الأرض، وذلك مثلما قالت الأمم وقال الشعراء بأن جزيرة كريت هي وسط العالم، وأن الجحيم موجود تحتها، وبناء عليه فإن الدموع النازلة من الوثن المقام فوق جبل إيدا Ida تجري نحو الجحيم، كما ستحدث في ص ١٧ من القسم الثاني.

ويتعلق السبب الرابع بإظهار الرب عدم رضاه الخاص، وكراهيته، ومقته للاثم اللعين وهو ممارسة السدومية، ولذلك جعل المكان كله يعيش أبداً وسط المرارة والجذب، ولهذا السبب جاء ذكر هذا المكان في كثير من المواضع في الكتابات المقدسة، فقد أطلق عليه اسم البحر الميت (يشوع: ٣) لأن الرب ألقى بالمذنبين هناك ليموتوا موتاً أبدياً، وذلك بابتلاعهم بسرعة وبموت مخيف، أو لعله دعي بالميت، لأن ما من شيء يعيش هناك فيه، ولا يمكن للأسماك أن تكون هناك فيه، حسبما قرأنا في «فضائيات» أرسطو — الكتاب الثاني —، وفي Speculum

Historiale ، وليس فقط لاتوجد حياة فيه، بل كل شيء حي يلقي فيه لا يغرق، بل يقذفه ثانية، وبذلك فإن الأشياء الحية لايجري ابتلاعها مباشرة.

وقد برهن على صحة هذا الامبراطور تيتوس، عندما عسكر أمام أريحا، وكان بعض جنود جيشه قد أودعوا السجن، وتقرر اعدامهم، فأمر بربطهم ومن ثم بإلقائهم وهم أحياء في هذا البحر، وقد سبحوا وأيديهم وأقدامهم مربوطة على وجه الماء وكان من غير الممكن غرقهم، وقد ذكر يوسفوس هذا في «حروب اليهود» — الكتاب الخامس، الفصل التاسع، علاوة على ذلك قال مصنف الـ Speculum Historiale بأن القوارب الفارغة أو المحملة بأشياء غير حية، تغرق هناك مباشرة، لكن القوارب التي فيها أناس أو حيوانات حية لا تغرق، ولكن إذا أُلقيت وهي مشتعلة، فإنها تستمر بالسباحة طالما النار مستمرة بالاحتراق، وهناك قصص أخرى كثيرة مشابهة قد رويت فيما يتعلق بهذا البحر، وعن هذه الحكايات قال يوسفوس بأن الحكايات الزائفة متفوقة على الصحيحة فيما يتعلق بالبحر الميت.

علاوة على ذلك جرى الحديث عن هذا البحر في الكتابات المقدسة على أنه مالح جداً، في سفر العدد: ٣٤، وفي سفر يشوع: ١٢، ولهذا السبب جرى الحديث عنه في الكتابات المقدسة على أنه متفوق بملوحته، لأن مامن بحر في الدنيا أكثر ملوحة منه، ولا يمكن لماء عذب أن يتملح بملحنا ويبلغ درجة ملوحته ومرارته.

ومثل هذا أطلق عليه اسم بحر المالح في سفر التكوين: ١٤، لأن المالح موجود هناك بوفرة، والمياه التي تنضح من هذا البحر، ثم توضع في الشمس، تصبح ملحاً على الفور، وقد دعي في بعض الأحيان باسم بحر أحواض المالح، لأنه كان هناك فيما مضى كثيراً من أحواض المالح، ومن الممكن وجود بعضها الآن، فضلاً عن هذا هناك جبال من المالح

إلى جانب هذا البحر، وحجارتها ملحية إذا ما كسرت، ورأينا في بلاد مآب في مواجهتنا جبلاً صخوره بيضاء، وعناصره كلها من الملح، وحجارتها المكسرة هي من أفضل الملح، وكذلك الرمل الناجم عنها، وعلى هذا يؤخذ هذا الملح من الأرض، التي تصح تسميتها بملح الأرض، وبها شبه الرب تلاميذه (متى: ٥) بقوله: «أنتم ملح الأرض»، وهو في كل مكان يعدّ أفضل الملح، وأعلى ثمناً من الملح المصنوع من الماء، والذي يأتي نتيجة الغليان، مثل ملحنا، أو الملح الذي يصنع بوساطة حرارة الشمس في أحواض الملح، كما رأيته غالباً يعمل على شاطئ بحرنا، وفي الحقيقة هناك أنواع مختلفة من الملح، يمكن العثور عليها في العالم، ففي صقلية هناك ملح يصبح قاسياً عندما تضعه في الماء، ولكنه يذوب عندما يوضع على مقربة من النار.

ويستخرج من تحت الرمال في سيرينيا *Cyrcnia* — خاصة عندما يكون القمر بديراً ثم عندما يضعف نوره — ملح عطري، هو ثمين جداً، ويوجد في بعض البلاد جبال من الملح القاسي جداً، منه يجري استخراج الملح بالحك بوساطة أدوات حديدية، وقد بنيت جدران عظيمة وبيوت من حجارة ملحية، كما هو الحال في بانونيا *Pannonia*، ونجد أيضاً ملحاً أسود، وملحاً فضياً، وأصفر، أو ملحاً أحمر، أو ملحاً مشعاً بياضه.

وكذلك يعرف هذا البحر باسم بحر الاسفلت، فهو كان يعرف قبل خراب المدن المتقدمة الذكر باسم وادي الاسفلت، أو الحمر، لأنه حتى هذه الأيام هناك آباراً من الحمر على شاطئه، قد حفرت وبيع نتاجها، لأن الحمر ملاط قوي جداً من أجل بناء الجدران، وقد بني إلى جانب هذه الآبار هرم طويل، وهناك يوجد الحمر أيضاً، حيث تقذف به الرياح إلى شاطئ البحر، ويتمسك بقوة مع بعضه، ولا يمكن اذابته إلا بدماء الطمس، ويطلق عليه اسم حمر اليهود، وهو يستخدم كدواء،

وكعلاج ضد الرمل والحصا في المشانة، ومثل هذا يقذف هذا البحر بعض الكتل من الحمر المغطاة بتربة سوداء، وهي جميعها برهان على النار التي تحترق بداخلها، وهي بوضعها هكذا رغبة القدر الذي يغلي بالأسفل .

وإلى جانب هذه الأسماء، لقد دعي أحياناً في الكتابات المقدسة باسم بحر القفار، كما جاء في سفر يشوع: ٢، لأن جميع الأراضي من حوله هي صحراء، وهي تمتد لسانها حتى برية فاران، التي تفصل الأرض المقدسة عن القفار الواسعة التي عبرها بنو إسرائيل، واسمه أيضاً البحر الشرقي، قياساً على البحر الكبير، الذي اسمه البحر الغربي، لأن الأرض المقدسة يحددها هذين البحرين، وهي بعمقها محاطة بهما.

ودعي في بعض الأحيان باسم البحر الجديد، لأنه لم يكن موجوداً في بداية الخليقة، ولكنه عمل في أيام ابراهيم، أخيراً وبعد جميع البحار، لأن البحار الأخرى قد خلقت قبل هذا البحر بـ ٢٧٢, ٣ سنة ولذلك هو أحدث البحار وجديدها، ودعي هذا البحر في كثير من الأحيان باسم بحر سدوم، اشتقاقاً من اسم الحاضرة سدوم، التي غمرت بهذا البحر، بعد اقتراف ذنب السدومية، الذي لاقى هنا عقوبته، كما أنه دعي في بعض الأحيان باسم بحر الشياطين بسبب فتن الشياطين وقوتهم في هذا المكان، ولهذا نجد أن المنطقة كلها حول هذا البحر قفار، لأنها مشغولة من قبل الشياطين، ومن مختلف أعمال الخداع السحرية، وفي الحقيقة، هناك — بإذن من الرب — أشياء كثيرة، قد عملت هناك بوسائط الشياطين، من مثل الريش، عندما يرمى في البحر، يغرق مباشرة نحو القعر، في حين يطفو الحديد على الوجه، فهذا ما قالوا بأنه قد وقع هناك.

ودعي أيضاً باسم البحر الملعون، وقد صار كذلك بسبب لعنة المذنبين، ولا يوجد مكان في الدنيا قد تفجر غضب الرب فيه بوضوح

ضد المذنبين مثل هذا المكان، وعرف أيضاً باسم بحر جهنم لأن الطريق من القدس إلى هاهنا، يمرّ عبر وادي جهنم، كما أن جدول جهنم يصب فيه، وذلك كما بينا مراراً من قبل، وأخيراً عرف باسم بحر الجحيم، وذلك بسبب أن المدانين، بعد اقتيادهم خلال الجدول الناري لوادي جهنم يلقون في أعماق هذه الهوة، لأن الجحيم سوف يفغر فاه واسعاً، حتى يأخذ جميع الذين سوف يقول لهم: «ابتعدوا عني، أيها الملعونين» الخ، ودليلنا على ذلك أن الدخان يتصاعد دوماً من هذا البحر، وكأنه مدخنة الجحيم، وكل مكان يصله الدخان يتسمم، ويتحول إلى مكان قاحل على طرفي البحر، وكل ما ينمو هناك هو بدون فائدة.

وفي الحقيقة رأينا هناك التفاح الذي تحدث عنه يوسفوس، وكذلك مصنف *Speculum Historiale*، وينمو هذا التفاح على شجيرات قصيرة، وقد بدت هذه الشجيرات لي بأنها شجيرات عمرها سنة واحدة، لأنها تجف في الشتاء وتنمو ثانية في الصيف وتصير بطول نبات الجريس لدينا، فعن جذعها تتفرع عدة أغصان، تحمل كمية كبيرة من التفاح، ذات الحجم الكبير، مثل حجم مقبض اليد، وهذه التفاحات جميلة جداً أن ننظر إليها، وتثير شهية الذي يتطلع إليها حيث يرغب بأكلها، وبالنسبة للونها، هي خضراء بنفسها، لكن من الجانب الذي تضربه الشمس هي صفراء مشوبة بالحمرة، وهذه التفاحات ناعمة، وكأنها ناضجة للأكل، وعندما يقوم انسان بقطع تفاحة، فإنها تنقسم مفتوحة، وسيجد على الفور في داخلها مادة قدرة لها رائحة مقبحة، تلوث يديه، وتثير المعدة نحو الغثيان، وعندما تصبح هذه التفاحات قاسية، يصبح لونها رمادياً، وتتحول المادة التي في داخلهن إلى رماد وغبار.

إلى جانب هذا، يقولون بأن هذا البحر يقذف بحصا على درجة عالية من الجمال، وإذا ما التقطهم انسان، فإن يديه تغدوان قذرتين ولهما رائحة

بشعة لمدة ثلاثة أيام، ويقال بأنه عميق جداً في الوسط إلى حد لا يمكن الوصول إلى القعر بإلقاء دليل بوساطة أطول الحبال، وعرضة ستة فراسخ، وهو ممتد من الغرب إلى الشرق، في حين يصل طوله من الشمال إلى الجنوب إلى مسافة تسعة أميال ألمانية، هذا وكنت قد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل، ويتضخم حجم هذا البحر أحياناً، ويمتلئ بشكل غريب، ومع ذلك لا يفيض مطلقاً على أطرافه.

وفي الحقيقة تصب مياه كثيرة، وأنهار وجداول فيه، مثل نهر الأردن، الذي هو الرئيس بينهم، والذي تتجمع فيه أيام الأمطار والثلوج كميات كبيرة من المياه، تتدفق من جبل لبنان ومن جبلي جلبوع وجلعاد، وبذلك يغدو أكبر بهذه الزيادة، ويصب في البحر، ووفق الطريقة نفسها تصب الجداول فيه من كلا الجانبين، مثل جداول: قدرون، ويوق، وعرنون، وكرت Careth وسيول أخرى كثيرة، وفيما يتعلق بالتصريف، فإن جميع فضلات الأرض المقدسة تقريباً تحملها هذه الجداول إلى البحر الميت، وهذا البحر حسبها كان دوماً هو المصب لمنطقتين تحدانه على الطرفين، وذلك مثلما سوف يتلقى الجحيم جميع فضلات العالم، وعلى هذا فإن هذا البحر هو بالوعة جميع البلاد.

ولهذا فكر بعضهم بأن هذا البحر لا بد أنه يمتلك فتحة في أحد الأطراف، منها تجري المياه نحو هوة، أو ربما تصب في الجحيم، لأنه—كما قلنا—مهما كانت كميات المياه التي تصب فيه، فإنها لا تذهب إلى أي مكان آخر، والبحر نفسه، وإن بدا متضخماً في بعض الأحيان، لم يفيض مطلقاً على تخومه، هذا ويعتقد بعضهم بأنه متصل بقناة خفية بمياه ماره، التي جرى الحديث عنها في سفر الخروج: ١٥، حسبما تقدم الكلام حول ذلك، وهانحن قد قدمنا عرضاً حول البحر الميت، استقيناه وجمعناه من الأسماء المعطاة له.

قفار القديس جيروم وديره فيها

وبعدما فرغنا من مشاهدة البحر الميت، المدة التي رغبتا فيها، مضينا مبتعدين بسرعة عنه، لأنه الشمس كانت الآن على وشك المغيب، وسرنا باتجاه الشمال إلى ماوراء بداية البحر الميت، غير بعيدين عن المكان الذي يصب نهر الأردن فيه، ووصلنا بعد هذا إلى قفار جرداء تماماً من قفار الأردن، لم يكن فيها شيئاً أخضر، ولا حشائش ولا أعشاب بل الأرض رملية، قد شويت بحرارة الشمس، وهي مليئة بأكوام من الرمال تجمعت بوساطة الرياح، وسرنا خلال هذه الأكوام والروابي الصغيرة، مما جلب الانهاك إلينا وإلى دوابنا، وكنا كأننا نشق طريقنا خلال ثلج عميق وكثيف، ووجدنا في الرمال آثار كثير من الحمير، ولهذا استنفرتنا وأخذنا حيطتنا، خشية أن نقع بين بعض فئات البداءة العرب، أو أن هؤلاء البداءة في المكان الذي نوبنا أن نرقد فيه تلك الليلة، ولذلك وقفنا بلا حراك، غير عارفين ماذا نفعل، وكرهنا أن نحمل أنفسنا إلى المنطقة التلية الاسرائيلية، بل رغبتنا — كما أظهرنا فيما بعد — بزيارة إحدى البقاع في هذه القفار، التي نحوها رأينا قطعاً من الحمير متجها إليها.

ولدى رؤية دليلنا حامد لهذا، قفز على الفور من على ظهر حصانه، ومثله فعل خادمه، وتناولوا سيفيهما وقوسيهما، ثم ركضا مثل وعلين فوق الرمال نحو القطيع، قاصدين الحصول على بعض الأسلاب إذا تمكنا، لأنه في هذه البلاد مامن انسان معصوم من المهاجمة، بل يطارد القوي الضعيف، وينتزع سلاحه منه وثيابه، إذا ماتمكّن من الامساك به، ولذلك يستعدان ضد بعضهما، وهما على مسافة كبيرة تفصل بينهما، وإما أن يهرب فريق منهما، أو أن يصطف كلا الفريقين، ويجهزان أنفسهما ضد بعضهما، للقتال ليس في سبيل حياتهما، بل في سبيل أسلأبهما وأسلحتهما.

وبعدما قام حامد ورجاله بمطاردة هذا القطيع لمسافة طويلة، وجدوا أنه لم يكن قطعاً من الحمير الأليفة بل من الحمير الوحشية، لم يستطيعوا

أبدأ الإمساك بها، لأنها كانت حيوانات سريعة جداً، نظراً لكونها حمير وحشية، ولهذا عادوا إلينا خالي الوفاض.

وبناء عليه تابعنا سيرنا وتقدمنا على طريقنا، ووصلنا في القفار إلى المكان الذي استهدفناه وذلك حيث اعتكف القديس جيروم، المعترف المجيد، لمدة أربع سنوات، قبل أن يذهب إلى بيت لحم، وذلك حسبما قرأنا في اسطورته، ويوجد في هذه الأيام هنا كنيسة جميلة جداً، مع دير ملحق بها، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام المذبح، وحصلنا على غفرانات(++) مطلقة، ثم نهضنا من صلواتنا، وقمنا بمشاهدة الكنيسة والدير، والكنيسة مشعثة من قبل البداة العرب والمسلمين، ومذابحها محطمة، وأعمالها الخشبية مهددة بالسقوط سريعاً، وكان الدير فارغاً ليس فيه رهبان، والجزء الأعظم منه مهدوم، وفي الغرف التي أقاموا فيها، هناك معالف للدواب، حيث تمتعوا هناك بالظل أثناء حرّ النهار، ولذلك هو نوع من أنواع الخانات الآن.

والذي استطعت استخلاصه من أوصاف الأرض المقدسة، ومن الخرائط التي عليها رسم شكل الأرض المقدسة، أن هذا المكان هو بيت حجلة، حيث بكى بنو إسرائيل على يعقوب أبيهم، الذي جلبوا جسده من مصر، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الأخير من سفر التكوين، وأطلق جيروم على المكان في كتابه « حول المسافات بين الأماكن»، اسم قريات Areaat ، وهي على بعد فرسخ واحد من الأردن، وأنا لأعتقد أن قفار اعتكاف جيروم كانت هنا، لأنه سكن في إحدى القفار في سورية، ومع ذلك صدوراً عن الاحترام لهذا القديس، فإن المعاصرين يقدمون الاحترام لهذا المكان، على أنه مكان سكنه، وفي الوقت نفسه لم ترد إشارة إلى هذا المكان في كتب الحج القديمة، إلا تحت اسم بيت حجلة، وقد تسلقنا فوق الدير، وجلسنا حوله مع خوف وخطر، لأن البناء كان يهتز تحت أقدامنا، وكأنه آيل للسقوط.

ورأينا هنا صوراً جميلة لآلام المسيح مرسومة على جدران الكنيسة، وأن بعض قلايات الرهبان مائتزال سليمة، ولاحظنا أنه قبل بضع سنوات كان هنا دير للرهبان، وقال بعضهم بأن هذا الدير قد بني في أيام القديس جيروم، وأنه ظل مسكوناً بشكل دائم حتى أيامنا غير السعيدة، أي أنه قبل أن يذهب إلى بيت لحم، كان لديه دير ديني هنا، وأن معجزة الأسد لم تصنع في بيت لحم بل هنا، وهذا هو المكان الذي تحدث فيه القديس جيروم عن نفسه في رسالته إلى يوستوخيوم، بأنه تعرض لإغواءات كثيرة، حيث قال: «كلما كنت في القفار، والمكان الأجرد المنعزل، محترق بحرارة الشمس، التي تقدم مسكناً لقرود شعناء، اعتدت أن أتصور نفسي في وسط رفاه روما مع حشد من الفتيات الراقصات»، وفي هذا المكان بكى ذلك الرجل المبارك من دون توقف، وأخضع جسده بالصوم وباللطم على صدره ليلاً ونهاراً، وفي غضبه من نفسه، والتزامه الدقيق بالنظام، دخل إلى القفار وتسامر مع الحيوانات المفترسة والعقارب.

وكنا عندما خرجنا من القدس في الصباح، اتفقنا على تمضية الليل في هذا المكان المقدس، إنما بعد تجولنا حول الأبنية والخرائب، لم نجد مكاناً يمكننا أن نستريح به، كما كان لا يمكننا الإقامة في الحقول خارج الجدران، بسبب عدم نظافة المكان، لأننا رأينا أعداداً لا تحصى من الخفافيش الكبيرة وهي تطير إلى هنا وهناك، لأن الشمس كانت قد غابت وكان الوقت وقت الشفق، وقد أخبرونا بأن هناك كثيراً من الخفافيش من نوع آخر، وهو من جميع الجوانب مثل الحمام، وهذا النوع لا يطير إلا في الظلام الدامس، ويكمن منتظراً الرجال بشكل خاص، فهذه الخفافيش تنقض بشكل حاد على وجه الإنسان، فتمسك أنفه بفمها المفتوح، وتقطع الأنف بطرفة عين من الزمن، وتطير مبتعدة مع صيدها، وكان الرجال من ذوي الأنوف الطويلة عرضة للخطر، أكثر

من سواهم.

وعندما سمعنا هذا، احترزنا من أجل أنفسنا، وغطينا أنوفنا بأيدينا، كما وسمعنا فحيح عدد كبير من الأفاعي، وهن يخرجن من جحورهن للأكل، فضلاً عن هذا كان المكان خارج الأسوار الذي توقفنا فيه لإنزال أثقالنا مليئاً بالحفر التي عملتها الأفاعي والعقارب، وإلى جانب هذا كله، كانت هناك الرائحة المقيئة المعتادة، الصادرة عن البحر الميت، وكانت قريبة منا، وقد بدت لنا أكبر مما نستطيع شمه طوال الليل، وكذلك خفنا من البداة العرب ومن المدينيين، وخشنا من أن يهاجمونا ليلاً ويزعجوننا.

وعاودنا لهذه الأسباب ركوب حميرنا، وأدرنا ظهورنا إلى البحر الميت، وسرنا خلال الظلام نحو المنطقة التالية لإسرائيل، وذلك فوق منبسطات واسعة وباهتة، لم نرغب في الإقامة بها، بل بادرنا مسرعين نحو التلال، وعندما وصلنا إلى سفح الجبال، دخلنا إلى واد ظليل، وصعدنا إلى القمة، ووصلنا إلى مكان آمن تماماً، هو عين الجدي، وكان ذلك قبل منتصف الليل بقليل، ووجدنا هنا مكاناً مناسباً، فأعطينا دوابنا إلى خدمنا، وجلسنا أرضاً، وجلبنا ما كان قد بقي في جعبنا، وتمددنا بأنفسنا، وذلك حيث جلس كل انسان ليأكل، فهناك رقد لينام، ونمنا هناك حتى الصباح بملابسنا، سوى أننا خلعنا واقيات أرجلنا وأحذيتنا.

صعود الحجاج إلى جبال عين الجدي والحادث المضحك الذي وقع للراهب فيلكس فابري

وعند اشراق الشمس في اليوم الثاني عشر، نهضنا من فوق الأرض حيث كنا راقدين، وذلك بعدما نمنا نوماً حلواً وهادئاً، لأننا كنا مرهقين، وكنا جميعاً في مكان آمن ونظيف، وعندما شاهد دليلنا حامد، بأن النهار كان مشرقاً، صرخ لنا بصوت مرتفع، وحثنا بأن نتسلق إلى

الجبال بسرعة، قبل أن تصبح الشمس حارة، ولذلك أعددتنا أنفسنا بسرعة، وعندما كنا نستعد من أجل رحلتنا، وقع لي حادث عرضي تافه ولا أهمية له، ومع ذلك كان عبثاً مضحكاً، وقد اخترت أن أضعه في كتاب رحلاتي وجولاتي، لأنني كما وعدت في مطلع كتابي، أثناء الانطلاق برحلاتي، وقررت أن أخبركم ليس فقط عن المسائل الجادة الوقورة، بل أيضاً عن الأشياء العابثة والتافهة.

فقد جلست، وبذلت جهداً للبس حذائي، وقد كان حذائي ضيق تماماً، ولذلك كنت أجد صعوبة لدى خلعه وكان ذلك لا يتم من دون بذل كثير من الجهد والطاقة، وكان حذائي مصنوعاً من جلد غالي الثمن، وأصفر اللون، وناعماً، ووصل حتى ركبتني، مثل واقية، وانتعل الفرسان الآخرون أحذية من النوع نفسه، واستخدمنا هذا النوع من الأحذية عوضاً عن نعل وواقية، وهكذا وضعت فردة حذائي اليميني فوق قدمي، وأعطيتها شدة قاسية مفاجئة، لكن عندما صارت قدمي فيها شعرت بوجود شيء تحت النعل رطب ونصف قاسي، واندعشت تجاه ذلك، وخشيت من أن يكون قد دخل إلى حذائي عقرب، أو علجوم أو أفعى ملتفة، وازداد هذا خاصة عندما بدا لي أنني أشعر بحركة الحيوان وهو يلتوي تحت قدمي، ومع أنني خشيت أن تكون قدمي قد تسممت، لم أسحبها من الحذاء، لأن البقية كانوا قد امتطوا حميرهم، وكانوا يصعدون فوق الممر، وقد خفت من البقاء خلفهم لوحدي، وقمت على كل حال بدفع قدمي بشدة فوق حجرة، حتى أتمكن من قتل المخلوق، وهكذا ركبت بغلي لكن ليس دون الخوف من التسمم، وعندما كنا صاعدين للجبال، وصلنا إلى ممر منحدر وضيق، توجب علينا أن نصعد عليه واحداً تلو الآخر بسبب خطر سقوط الحيوانات، ثم إنه لم يكن بإمكاننا السير والتقدم جميعاً واحداً تلو الآخر، بل توجب على الذين كانوا بالأسفل الانتظار حتى يكون الذي سار

أولاً قد صعد الطريق كله.

وترجلت في هذا المكان من على بغلي، وجلست أرضاً، وخلعت حذائي، الذي خيل إلي أنني سأجد فيه واحداً من الهوام قد سحق، وعندما وضعت يدي فيه، وجدت شيئاً مارطباً، ومن خلال الشم عرفت ماهو، وتبين لي مالم أعرفه لابلانظر ولاباللمس، وأنه لم يكن هناك لاعقرب، ولاعلجوم، ولاأفعى، بل غائط بشري، ولدى معرفتي بذلك، لبست حذائي ثانية وأنا شديد الانزعاج، وعاودت امتطاء بغلي، وأنا مرتبك ومتضايق، وسرت خلف الآخرين، وأنا آسف، أتساءل في نفسي، من الذي أبدى نحوي قلة الاحترام هذه ومزح معي هذه المزحة الشنيعة، ومن الذي من بين الفرسان كان قليل الاحترام إلى هذه الدرجة حتى وضع غائطاً في حذاء حاج وكاهن:

وبدأت أتشكك بواحد من أعظم النبلاء، الذي كان لطيفاً وودوداً جداً معي، وظننت أنه بسبب رفعه للكلفة معي أقدم على هذه الفعلة، وأزعجتني هذه المسألة كثيراً، لذلك قررت، وأقسمت في قرارة نفسي، وقطعت على نفسي عهداً بأنني لن أسافر مسافة أخرى مع هذه الجماعة سواء في البرأو في البحر، وتخلت نفسي عن الحج إلى جبل سينا، لكنني لم أخبر أحداً بماوقع لي، بل قضيت على طريقي صامتاً، وكأنني كنت أصلي، والذي حدث هو أنني أخطأت بحق اللورد الذي شككت فيه، وبجميع رفاقي، ووجدت فاعل هذه الفعلة، وذلك بدون أدنى شك، فعندما قمت بالقدس بخلع حذائي في قلايتي حتى أتمكن من تنظيفه وتنظيف يدي وقدمي، واخراج الغائط الذي كان به، وجدت في داخله خنفسة سوداء كبيرة، ولدى رؤيتها للوهلة الأولى كنت خائفاً، حيث ظننت أنها عقر، كنت قد سحقته مع الغائط، ولكن عندما رأيته أنها كانت خنفسة، كنت مسروراً، لأنني عرفت الآن بشكل أكيد، أن مامن أحد وضع الغائط في حذائي غير هذه الخنفسة، وفي الحقيقة الخنافس في

هذه المناطق — بالألمانية Rosksafer — [خنفسة حسان] كبار جداً، ويفقس من روث الخيول، وهن يطنن ويزحفن حول الطرق، وهن يجمعن مواداً مناسبة، وعندما يفرغن من جمعها يعملن منها كتلة، أو كرة بحجم بيضة، ويدفعن هذه البيضة بأقدامهن الخلفية، ويرحن أقدامهن الأمامية على الأرض، وبذلك يدفعن الكرة خلفهن، ويسرن مثل سرطان إلى أي مكان تقودهن غريزتهن إليه.

وعندما كن يصلن إلى المكان الذي سترقد الكرة فيه، كانت الخنفسة تضع نفسها في الكرة، جاعلة إياها بيتها وطعامها، وعملت هذه الكرات دوماً من مواد قذرة، أو من روث بعض الدواب، وغالباً ماوقفت شخصياً دونها حراك على الطريق، حتى أتمكن من مراقبة هذه الخنافس وهن يدفعن على طول الطريق كرات ضعفهن أنفسهن بالحجم، الشيء الذي لم أره قط في بلادنا، مع أن كثيراً منهن نشأن هناك من روث الخيول على الطرقات، وعلى هذا كان الذي حدث في قضيتي أن خنفسة وجدت بعض الروث، فعملته على شكل كرة مستديرة، ودفعتها إلى حذائي، وقصدت أن تكون ضيفي، وغالباً ماقلت بعد ذلك بإخبار السادة اللوردات الحجاج حول ذلك، وكيف أنني انزعجت جداً، وشككت بهم.

وأطلق يوسسيوس في مصنفه Praeparatio Evangelica — الكتاب الثالث، الفصل الثاني، على هذه الخنفسة اسم الجعل، حيث اعتاد المصريون القدماء على القول بأنها مخلوق مقيت بالنسبة لغير المتفقهين باللاهوت، لكن هي بالنسبة للمتفقهين تستحق أعلى احترام على أساس أنها نموذج حي للشمس، وكل فرد منها هو ذكر من حيث الجنس، وهي تضع بيوضها داخل الروث، ثم تعمل هذا الروث على شكل كرة، ثم تحتضن الكرة بين قدميها مثلما تحتضن الشمس السموات، وتنتظر الشهر القمري، ولسوف يجري شرح هذا في القسم

الثاني ص ١٣٧ ظ.

المناطق التي شاهدناها من جبال عين الجدي

وفي عودة إلى الموضوع الذي ابتعدت عنه، أقول: بعدما أمضينا الليل على سفح جبل عين الجدي — كما قلت من قبل — وعندما أشرقت الشمس، ارتحلنا صعوداً نحو الجزء الأعلى من الجبال، ووصلنا في أعلى القمم إلى مكان، حيث وجدنا أكواماً من الحجارة مكومة، وقد عملت من قبل المسلمين، تكريماً لموسى، لسبب سوف أتولى شرحه بعد قليل، وبناء عليه توقعنا علناً نستطيع أن نشاهد المنطقة، لأننا كلما كنا في منطقة أعلى، كان يمكننا أن نرى أبعد وأعرض فوق المناطق على كل من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر للأردن، وجميع منطقة سدوم كلها تقريباً، وأرغب في هذا المكان بتقديم وصف مختصر لأجناس الناس، وللمناطق والأماكن التي رأيناها، وكنت قد قدمت لها وصفاً جزئياً، أثناء حديثي عن جبل القرنطل.

وألقينا قبل كل شيء بأبصارنا نحو الشرق، فرأينا جبال العربية، وكان الجبل الرئيسي بينها هو جبل تريمونيوس Trimonius، الذي يعرف في أجزائه المنخفضة باسم عبريم، وفي وسطه باسم نيبو Nebo، وعلى حوافه باسم فسغه، وكان ذلك هو الجبل الذي أمر الرب موسى بصعوده، حتى يمكنه من هناك رؤية الأرض المقدسة، التي إليها لا يمكنه الدخول، كما جاء الخبر في سفر التثنية: ٣٤.

ويوجد تحت هذا الجبل واد عميق وكبير، يطلق عليه اسم عربات مآب Galmoab، كما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التثنية، ويقول بعضهم بأنه عندما كان موسى على قمة جبل فسغة أمكنه وهو ينظر نحو الأرض المقدسة أن يرى جميع أسرار قداسات المسيح، وتجسده، وولادته، وحياته، وآلامه، وموته، وعندما كان منشغلاً بهذه التأملات

الحلوة جداً مات على الجبل، ودفنه الرب، وأخفاه في الوادي، خشية من الناس، الذين كانوا يميلون إلى الوثنية، أن يقوموا بتقديس جسده إذا أمكنهم العثور عليه، ولذلك حاول الشيطان، الذي رغب في جلب الوثنية، أن يريهم موسى المقدس، لكن ميكائيل أوقفه ومنعه من فعل ذلك، كما قرأنا في رسالة يود Jude العامة: ٩.

غير أن جيروم في تعليقاته على عاموس، بدا وكأنه يرى بأن موسى قد رفع بشكل إعجازي إلى السماء مثلما وقع لإينوخ ولإيليا، لأنه قال: «لقد بنى مصعده، وصعد مع إيليا، ومع موسى، الذي لا يمكن العثور على قبره، لأنه صعد إلى السماء»، وفي هذا الوادي، الذي قيل فيه دفن الرب موسى، قام النبي بإخفاء النار المقدسة، وتابوه الرب، ومذبح تقديسات الحرق، وخيمة العهد، وذلك حسبما جاء في سفر المكابيين الثاني: ٥-٦.

ورأينا وادي عربات مآب المقدس هذا، واقع على مسافة بعيدة، وذلك على الجانب الأقصى للبحر الميت، ورأينا فسغة، والقمة العالية لجبال عبريم، ويوجد من قمة هذا الجبل مشهد يمتد حتى أرض مدين، ومن الممكن من هذه القمة أن يرى الانسان أيضاً سيناء وحوريب، ورأينا أيضاً منطقة مآب السهلية، وفوقها الجبل الذي من عليه حاول النبي بلعام أن يلعن بني اسرائيل، وكان بلعام قد اكتراه ملك مآب، وقد قال جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، بأن اسم ذلك المكان كان أغريسبكيولا Agrispecula ، وكان بلعام قد تولى مباركة الناس الذين في السهل تحت، عوضاً عن لعنهم، وذلك كما قرأنا في سفر العدد: ٢٣.

وقمنا الآن بتحويل أبصارنا عن الشرق إلى الجنوب، إلى ماوراء البحر الميت، حيث رأينا بلاد قفار البتراء، لكن البتراء في القفار نفسها لم نستطع رؤيتها، وكانت هذه البتراء في القفار، في الأيام الخالية، قلعة في

غاية الحصانة في بلاد مآب، التي فيها ولدت راعوث، المآبية الفاضلة، والتي عنها قيل في الاصحاح الثالث من سفر راعوث: «إن جميع أبواب شعبي تعلم أنك امرأة فاضلة»، وكانت راعوث هذه زوجة بوعز، ومنها قُدِّر في سلسلة النسب وجوب ولادة المسيح، ولهذا دعا النبي إشعيا في الاصحاح السادس عشر نفسه بأن يرسل المسيح من البتراء في القفار إلى القدس وقال: «أرسلوا الحمل، يارب، يا حاكم الأرض، من بتراء القفار إلى جبل ابنة صهيون، أي إلى القدس»، فهنا سأل النبي من أجل استمرار النسب من خلال السيدة التي ولدت في البتراء في الصحراء، ولهذا ورد في سفر نسب المسيح اسم راعوث بشكل واضح، وقال جيروم في رسالته إلى بولينوس: «حققت راعوث المآبية نبوءة إشعيا، في قوله: أرسلوا الحمل» الخ، وقال نفسه في رسالته إلى باولا: «راعوث الغريبة، التي من نسلها ولد المسيح»، وتحدث أيضاً في رسالته إلى روفوس عن راعوث، بأنها «أخذت من الأمم لتكون حصتهم في المسيح»، هذا ويمكن من دون تقدير لهذا المعنى الخفي، يمكننا أن نقول بأن النبي قد رأى مدينة القدس في مضائق عظيمة، وأنها في قبضة الأمم، فسأل من أجل إرسال حاكم لها من بتراء القفار، لأن البتراء كانت قلعة حصينة جداً، لا يمكن الاستيلاء عليها، وكانت أمماً كثيرة خاضعة لسيدها، وعلى هذا سأل أن يرسل صاحب البتراء في الفيا في للدفاع عن ابنة صهيون، التي هي القدس، لأنه عندما سيرسل مامن انسان سوف يحاول إلحاق أي أذى بالقدس.

وقام بلدوين الثاني، الملك اللاتيني للقدس بتحسين هذه القلعة (الكرك) بقوة بلغت حداً أن العالم كله لم يكن قادراً على الاستيلاء عليها، فقد بنى ثلاثة أسوار من حولها، ففي إطار السور الأول، كانت هناك صخرة مرتفعة جداً، ذات شكل مستدير، قامت على حافتها أبنية طويلة تشرف بعيداً على البلاد، وكان في الأسفل، عند سفح هذه

الصخرة ثلاثة ينابيع تتدفق بمياه صحية عذبة، تزودت القلعة منها بوفرة، ومنها أيضاً كانت تتم سقاية جميع الأرض الواقعة دون القلعة، وكان يوجد في داخل السور الثاني كروم جميلة، من ثمارها كانت تصنع كميات كبيرة من الخمرة، وكان في إطار السور الثالث حقول وبساتين، استخدمت لانتاج كميات عظيمة من القمح، والزيت، والأشياء الأخرى المحتاجة.

ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على هذه القلعة الجليلة، لولا أنه تمت خيانتها وسلمت إليهم من قبل مسيحي مزيف، وعندما جرى الاستيلاء عليها، وضع فيها سلطان ذلك الوقت أسن أولاده، حتى يكون سيد تلك القلعة مع قفار البتراء، فضلاً عن هذا أودع فيها جميع ثرواته، عاداً إياها أكثر الأماكن أماناً لديه، وهي في هذه الأيام مستودع خزانة السلطان ملك مصر.

وتدعى هذه القلعة من قبل اللاتين باسم بتراء القفار، ومن قبل المسلمين باسم الكرك، ومن قبل الاغريق الشوبك Schabat، وعندما حددنا بها بشكل كامل ركعنا باتجاه ذلك المكان، وحمدنا الرب الذي بعث إلينا من البتراء في القفار المسيح من خلال راعوث، المسيح الذي هو سيد الدنيا، وصلينا للرب من أجل أن تعود هذه القلعة إلى أيدي المسيحيين، وأن لا تبقى القدس مدة أطول بالأسر.

وهناك في هذه المنطقة نفسها مدينة اسمها أريوبولس، وهي تعرف أيضاً باسم البتراء أو البتريا، وكانت هذه فيما مضى المدينة الرئيسية في جميع العربية.

وليس بعيداً عن هناك توجد أيضاً مدينة أخرى حصينة الدفاعات جداً، اسمها ربه، فأمام هذه المدينة سقط أوريا الحثي بتدبير داوود، وعندما كانت على وشك السقوط، جاء داوود واستولى عليها، وانتزع

التاج من على رأس ملكون، ملك ربه، وكان فيه جواهر ثمينة، ورطل من الذهب Talent، وقد أذابه داوود، وعمل منه تاجاً لنفسه، ووضع في وسطه الحجارة الكريمة من الجزع الذي لامثيل له، ووضعها على رأسه، وقد وردت أخبار هذا كله في سفر صموئيل الثاني: ١٢/ ٣٠-٣١، وسفر أخبار الأيام الأول: ٢٠/ ٢.

وبعد المناطق المتقدمة الذكر على شاطئ البحر الميت، توجد أرض أدوم، التي فيها يوجد الطريق من أرض اسرائيل إلى أرض مآب وعمون، وتمضي من حول البحر الميت، وهي قفار جرداء لاماء فيها، وفيها كاد أن يهلك فيما مضى ثلاثة ملوك مع جيوشهم بسبب الحاجة إلى الماء، لكن الرب أعطاهم الماء بمعجزة، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الثاني: ٣، وعندما حصلوا على الماء، ووصلوا إلى بلاد مآب، دمروها بشكل في غاية الوحشية، وذلك حسبما ورد في الاصحاح نفسه.

وصرفنا أعيننا مجدداً، وحولناها عن هذه الأماكن، فرأينا على هذا الجانب من الأردن والبحر الميت المكان الذي اسمه بيت حجلة، حيث أقام بنو اسرائيل مناحة عظيمة على جسد البطريك يعقوب، أباهم المتوفى، الذي كانوا قد جلبوه من مصر ليدفنوه في حبرون، في الكهف المزدوج، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأخير من سفر التكوين، وعرفت بيت حجلة باسم قرىات لدى جيروم «حول المسافات بين الأماكن»، وهي تبعد مسافة فرسخ واحد عن الأردن، وكان هناك قبل وقتنا بقليل دير للرهبان الاغريق، علاوة على ذلك رأينا في تلك البلاد مدينة أغريبا Agrippa، التي أطلقوا عليها في Historia Ecclesiastica — الكتاب الثاني، الفصل الرابع اسم ييلا (فحل)، وكانت الكنيسة المقدسة قد انتقلت إلى هذه المدينة من القدس، حيث تلقت انذاراً من الروح القدس، لأن تهرب بذاتها قبل حصار القدس من قبل تيتوس وفاسبسيان، وذلك خشية أن تشارك في المأساة الكبيرة.

وعلى مقربة من هذا المكان، عبر الأردن ، هناك بيت عنيا أخرى، فيها قام يوحنا بالتعميد أولاً، وفيها أقام الرب يسوع بعض الوقت عندما هرب من اليهودية، وذلك حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ٤، وذكر بعضهم أن اسم المدينة التي إليها هرب الرب افرام، وإليها التجأ مع تلاميذه، فهذا ماورد في انجيل يوحنا: ١١، وكانت قرية من القفار، عبر الأردن، وبشكل عام، هرب الذين وقعوا في مشاكل من اليهودية، إلى عبر الأردن، مثلما حدث مع داوود، فعندما حدثت له مشاكل مع شاول، أحضر والده وأمه إلى ملك مآب، حسبما ورد الخبر في سفر صموئيل الأول: ٢٢، هذا وقال القديس جيروم المبارك في كتابه « حول المسافات بين الأماكن » بأن المدينة التي اسمها إفرام، والتي إليها هرب الرب يسوع للالتجاء، كانت في ديار سبط يهوذا، ولم يكن لسبط يهوذا حصّة عبر الأردن، وقال خريسوستوم بأن إفرام هي إفراتا، وإفراتا هي بيت لحم، وواضح هنا أن البيروتوس موافق على هذا، في تعليقاته على يوحنا، لأنه قال بأن الرب قد جاء إلى افرام لأنه امتلك هناك اصدقاء ومعارف، لكن هذا أيضاً لايتوافق مع النص، الذي قال بأن افرام كانت على مقربة من القفار، في حين ليست بيت لحم قرية من القفار، مالم يختار الانسان القول بأن المقصود هو الأماكن الصحراوية لسدوم، التي تمتد حتى جبل بيت لحم، وأنها هي التي قصدها الانجيلي (يوحنا: ١١)، ورأينا أماكن أخرى كثيرة عبر الأردن، في بلاد جلعاد، وعبر البحر الميت، في أرض عمون ومآب، وبعد رؤيتهم حولنا أنفسنا للتحديق بالأماكن التي كانت أقرب إلينا.

الأماكن حول البحر الميت من جهته الغربية

وأكثر من ذلك حوله نفسه

وبعدما فرغنا من رؤية الأماكن الواقعة على الجانب الآخر من البحر الميت، ومن الأردن، ثبتنا أنظارنا على البحر نفسه، وتعجبنا نحو الدخان

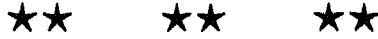
هناك، لأنه مثلما حدث مع ابراهيم بعدما صعد على الجبل في الصباح الباكر، ونظر نحو سدوم، وعموره، ونحو جميع أرض السهل، وتطلع وإذا فجأة قد تصاعد دخان المنطقة مثل دخان أتون، حسبما جاء الخبر في سفر التكوين: ١٩، حدث مثل هذا معنا نحن، فلدى تطلعنا نحو تلك المنطقة، رأينا غيمة صاعدة، لكن ليس من النار، بل من الماء، مثل الدخان الصاعد من أتون، وجميع الأماكن التي بللها ذلك الضباب وتلك الغيمة قد تسممت، وتحولت إلى قاحلة وبلا فائدة، بالطول وبالعرض حول حدود ذلك البحر، وذلك كعلامة دائمة على الغضب الرباني الدائم، ضد أهل سدوم الذين كانوا أكثر الناس ضرراً.



وبعدما نظرنا إلى البحر الميت، رأينا على الشاطئ هناك، على الطرف القريب، وذلك باتجاه النهاية الجنوبية، المكان الذي اعتاد أن يقف فيه تمثال الملح الذي تحولت إليه ميلاسيدا، زوجة لوط، لأنها نظرت نحو الخلف، على الرغم من أن الملاك حذر عليها فعل ذلك، وكان هذا وقت احتراق أرض أولئك القوم الأشرار، وكان هذا التمثال يقف فيما بين صوغر والبحر، وكان هذا التمثال حجرياً من الرخام الأبيض، وقد قيل بأنه ما يزال قائماً هناك، لكنه الآن مغطى بالبحر، وعندما كان قائماً على الشاطئ اعتادت الحيوانات على أن تحتشد حوله، وتقوم بلحس الملح من عليه.

وإلى جانب هذا التمثال، يوجد في تلك المنطقة كثيراً من الصخور الرملية والحجارة، وقد ورد الحديث عن تمثال ميلاسيدا في سفر التكوين: ١٩، وقال يوسفوس بأنه قد رآه، ونحن في الحقيقة رأينا المكان الذي كان فيه، في منتصف الطريق فيما بين البحر وبين جبل صوغر، لكن التمثال نفسه لم نستطع رؤيته، ثم إننا لم نكن واقفين على مسافة قريبة كافية، حتى نميز بين الصخور حجم إنسان، ومع ذلك رأيناه من

خلال عين الايمان الثابت، لأننا نؤمن بالكتابات المقدسة التي تحدثت عنه، ولقد نظرنا نحو المكان باهتمام كبير، وتعجبنا نحو معجزة هذا التمثال المدهش والمثير للاستغراب.



ورأينا فوق مكان هذا التمثال المتقدم ذكره، صخرة كانت بوضعها كما هي مشرفة على البحر، فعلى هذه الصخرة قام فيما مضى مدينة صوغر، التي كانت احدى المدن الخمسة للسدوميين، وقد عرفت هذه المدينة باسم آخر هو بالع، وذلك حسبما ورد في سفر التكوين: ١٤، وإلى هذه المدينة كان لوط قد صعد، عندما كانت المنطقة تحت تحترق، ومن أجله استثنيت من الاحتراق، وكان عندما رأى المنطقة كلها تحترق ولحقها الدمار، صار خائفاً، وهرب مباشرة إلى قمم الجبال، وحدث على كل حال أنه عندما ابتعد عن صوغر، تهدمت بوساطة هزة أرضية، وسقطت مع جميع الذين سكنوا فيها، واحترقت مع سدوم.

وفوق صوغر هناك جبل مرتفع، إليه صعد لوط مع ابنتيه، خشية الاحتراق بالنار..... وهنا حملت ابنته الكبرى بولد، كان اسمه مآب، وحملت ابنته الصغرى بولد أطلق عليه اسم عمون، ومن ابنتي لوط هاتين انحدر شعبان عظيمان، عنهما نقرأ في سفر التكوين، وغالبا ماورد الحديث عنهما في أسفار الكتابات المقدسة، وكان هذا الجبل إلى جانبنا، وبسرور حدثت السادة الحجاج بحكاية لوط وابنتيه، وكان على جانبنا الآخر جبال القرنطل وقفار أدوميم، وقد تقدم لنا وصفهما من قبل.

وبعد مشاهدتنا للأماكن المتقدمة الذكر، ألقينا بأبصارنا على المكان الذي وقفنا فيه، حيث رأينا كوماً كثيرة من الحجارة، جمعت من قبل المسلمين، كما سلف لي الحديث من قبل، وقام المسلمون بتكويم هذه الحجارة تشريفاً لموسى، لأنه من هذا المكان يستطيع الانسان أن يرى

بوضوح جبال عبريم، وقمة جبل فسغة، التي منها رأى موسى ميراث الرب، كما سلف لنا وتحدثنا من قبل، ولهذا يقوم المسلمون، عندما يقدمون إلى هذا المكان بعمل كوم من الحجارة، ويصلون وهم يتطلعون نحو الجبل، على ركبهم المنحنية، ومثل هذا يفعل المسيحيون لأنهم عندما يرون من مكان بعيد أي مكان يمكن الحصول عليه على غفرانات، ينصبون أيضاً صلباناً، وكوماً من الحجارة، وليس بعيداً، عن هذه الأكوام رأينا هرماً عالياً قد بني حديثاً، تحته يقول المسلمون بشكل زائف بأن موسى قد دفن، وهذا معارض لشريعة الكتاب المقدس حسبما ورد في الاصحاح الأخير من سفر العدد.

وهكذا يفعلون بالنسبة إلى جميع القضايا الأخرى، فهم يتبعون التوراه عندما يرغبون، لكن عندما لا يرغبون بذلك، يعارضونها بكل عناد، على الرغم من صدقها.

وكان اسم الجبل الذي وقفنا عليه، جبل عين الجدي، وكذلك نجد أن اسم الجبال المتصلة به في سفر التكوين: ١٤، وفي سفر أخبار الأيام الثاني: ٢٠، هو «حصون تامار»، كما كانت فيما مضى بلاد العموريين، وقال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، بأن عين الجدي موجودة في ديار سبط يهوذا، وذلك في القفار الموجودة في الوادي فوق البحر الميت، وقال بأنها كانت في أيامها هناك بلدة كبيرة جداً، وإلى موضع عين الجدي هذا كان داوود قد هرب من وجه شأؤول، لكي يكون هناك آمناً، في حصن منيع، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الأول: ٢٤.

وفي الحقيقة هذه الجبال عالية ووعرة، يتخللها عدد كبير من الكهوف، ومليئة بالجروف، وكان بين هذه الكهوف، كهفاً عميقاً، وكبيراً ومظلماً، وكان موجوداً في واد كثير الأشجار، وذلك على جانب صخرة عالية جداً، وكان له مدخل عريض، يشرف على صخور

منحدرة كثيراً، ومن المناسب تسمية هذا الكهف باسم مدرسة رحمت داوود، لأنه في هذا الكهف التجأ داوود ورجاله المسلحون، وأخفوا أنفسهم في أقصى أماكنه الداخلية، وذلك عندما سمعوا بأن الملك شاول كان يزحف مع ثلاثة آلاف رجل فوق هذه الصخور المنحدرة جداً، التي يمكن عبورها فقط من قبل الوعول أو تيوس الجبل، وقد دفعته الغيرة إلى هذه الأماكن التي لا يمكن الوصول إليها، بسبب أنه لم يكن بإمكانه تحمل غناء الناس، الأغاني التي اعتادوا على غنائها بشكل جماعي، وفيها أعطي المدح إلى داوود أثناء الغناء أكثر مما أعطي له في قولهم: «قتل شاول آلافه، لكن داوود قتل عشرات الآلاف»، وهكذا جاء شاول نازلاً مع رجاله إلى كهف داوود، والذي حدث هناك يمكن القراءة عنه في سفر صموئيل الأول: ٢٤.

★★ ★★ ★★

كرم عين الجدي

علاوة على ذلك، قام فوق هذه الجبال هناك فيما مضى كرم عين الجدي الواسع الشهرة، حيث نما هناك البلسم الذي لا يقدر بثمن، وقد زرع هذا الكرم في موضع عين الجدي من قبل الملك سليمان، وقال مصنف Speculum Historiale على لسان يوسفوس بأن ملكة سبأ، التي قدمت إلى القدس من أطراف الأرض من أجل الاستماع إلى حكمة سليمان، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الأول: ١٠، جلبت معها هدايا ثمينة كثيرة، كان من بينها جذور البلسم بمثابة هدية لا يقدر ثمنها، وقد زرع الملك هذه الجذور على جبل عين الجدي، وقد نمت على شكل كرم هناك [٢٤٧]، وقد ورد ذكر هذا الكرم في نشيد انشاد سليمان حيث قال «محبوبي مثل عنقود كافور في كروم عين الجدي»، وهذا الكرم موجود الآن في مصر، ولسوف أذكر في المستقبل من الذي اقتلعه ونقله، وفضائل البلسم والكافور، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم إلى

الأرض المقدسة، بأن بعض الحجاج قاموا بالتجول فوق هذه الجبال، وهم يبحثون بعناية، وأنهم وجدوا في أحد الأماكن غرسات من البلسم إنما دون أغصان، ونما فيما مضى على هذه الجبال كروم عنب ممتازة، من خمرتها، يعتقد أن ابتي لوط قد أسكرتا ابيهما، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٩، ولو أن هذه الجبال امتلكت في هذه الأيام أية مزارعين، لأنتجت ثمار ثمينة بوفرة.

عودة إلى القدس

وعندما فرغنا من رؤية المناظر المتقدمة الذكر، تحولنا مبتعدين عن الشرق، وذهبنا صاعدين التلال نحو القدس، وفي واحد من الطرق المقعرة، بدأ البغل الذي امتطيته يعدو مسرعاً — لسبب لم أعرفه — محاولاً سبق الآخرين، وعندما حاولت كبحة بوساطة المقود، رماني أرضاً، وعانيت من وقعة ثقيلة، وعندما رأى دليلنا حامد هذا قفز من فوق ظهر حصانه، والتقطني ورفعني من حيث كنت متمددًا، وضرب على أطرافي، وحرك مفاصلي، ثم أمر واحداً من خدمه بجلب بغلي، الذي كان يعدو فاراً هناك، وفي الحقيقة أبدى هذا المغربي غير المسيحي نحوي كثيراً من اللطف أثناء اضطرابي، بقدر يعادل أعظم ما يستطيع أن يفعله مسيحي رقيق القلب، وبعدما انتعشت كثيراً، رفعوني إلى ظهر البغل، لأنني لم أستطع أن أعين نفسي بذراعي، هذا ولم ينكسر أي من أطرافي الأمر الذي أدهش حامد وأبهجه، لأنني سقطت — والبغل يعدو — بشدة كبيرة على الصخور، ودعوت إلى الرب أن يضيفي رحمته على ذلك المسلم، مثلما أضفى رحمته عليّ، وبناء عليه أسرعنا أنا وحامد وراء رفاقي، الذين كانوا قد قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ومثلهم سرنا صاعدين في وادي جهنم، وعندما كنا مانزال في قلب الوادي، ونظرنا نحو الأعلى، أمكننا أن نرى مدينة القدس المقدسة، وهي تلمع عالياً، وتأثرنا بهذا المشهد مثلما حدث لنا من قبل، وعندما وصلنا إلى

المدينة المقدسة، حدثنا إخواننا، الذين مكثوا خلفنا عن كل الذي شاهدناه، وعن كل الذي وقع لنا ونحن على الطريق.

قلق الحجاج من أجل الانطلاق إلى جبل سيناء

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان يوم عيد القديس هبولايت Hip-polyte ورفاقه، بعد سماعنا قداساً على جبل سيناء في الصباح الباكر، ذهب السادة الحجاج إلى مكاتهم، وأخذنا نتشاور حول مغادرتنا التي كنا متشوقين إليها، وبدا لنا أن كاليينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، كان يؤخر مغادرتنا وسفرنا من القدس، وأن أي تأخير أطول سوف يكون مؤذياً لنا، ولم يكن ذلك — في الحقيقة — لأننا كنا قد مللنا من الإقامة في المدينة المقدسة، التي أقمنا بها ونحن راغبين كثيراً، وكنا سعداء، بل الذي كنا نخشاه هو أن نضيع مواعيد سفن التجار في الاسكندرية، التي أعددنا أنفسنا للابحار على متونها إلى إيطاليا، ولكي لانرغم على امضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سيكون مؤذياً لنا إلى أبعد الحدود، ولذلك ذهبنا كلنا إلى بيت السيد جانم، حاكم القدس، حيث وجدنا معه السيد فكاردينوس Vacardinus وأدخلنا إلى حضرته، وبعدما سمعنا ماقلناه، أمرا باستدعاء ترجماننا Sabbathytanco ، وأمره بالانطلاق بنا بكل سرعة، وبعد نقاش فيما بينهم، أخبرونا أنه لا بد من إقامتنا في القدس مدة عشرة أيام أخرى، بعدها سوف نبدأ من دون أي تأخير سفرنا في القفار، وقالوا لنا: «أعدوا أنفسكم في هذه الأيام وجهزوها بجميع الأشياء المحتاجة للرحلة من بقسماط وتين يابس، وخمرة، وهكذا دواليك»، وبهذه الكلمات سمحوا لنا بالمغادرة إلى أماكننا.

وشرعنا في ذلك اليوم نفسه باعداد أنفسنا، ودفع كل واحد منا دوقيتين إلى غازيلوس حتى يعطينا إذنا لشراء خمرة من كل من المسيحيين واليهود، وكان غازيلوس مسيحياً من ذوي الزنار، وهو

يشغل وظيفة تابعة للسلطان، وكانت المسألة التي هي في إطار سلطته: أن لا يسمح لمسيحي بشراء خمرة، من دون أن يدفع ضريبة له، وإذا ما جرى خرق هذا القانون، وعرف هو ذلك، كان يقوم باقتحام الأماكن التي إليها جلبت الخمرة التي شريت، ويصادرها شخصياً، أو يقوم بكسر القوارير، ويترك الخمرة تجري فوق الأرض، ومن هذا اليوم حتى يوم مغادرتنا، عانينا من اضطرابات كثيرة وعملنا جاهدين لتجهيز أنفسنا بكل ما كنا بحاجة إليه للسفر خلال القفار، وحملنا معنا جميع الأشياء التي جهزناها إلى جبل صهيون، إلى دير الرهبان هناك، ووضعناها في بيعة القديس فرانسيس، تحت الكنيسة، وخلال بضعة أيام ملأنا البيعة كلياً بالقسماط، وبالحقائب، وبالقوارير الزجاجية، والقذور، وعملنا كومة كبيرة، بين فئتنا الثلاثة، وفي ذلك اليوم نفسه، ذهبت عند المساء أنا واثني من الفرسان إلى وادي شعفاط، للقيام ببعض الأعمال، وعندما أنهيناها، زرنا الأماكن المقدسة على جبل الزيتون، وعندما كنا على القمة هناك، في كنيسة صعود الرب، غابت الشمس، وبات من غير الممكن لنا دخول المدينة، إذا أمسكنا الظلام، ولذلك سرنا خلال شوارع المدينة بخوف عظيم، فضلاً عن هذا أضعنا طريقنا، وذهبنا إلى هنا وهناك حتى وصلنا أخيراً إلى شارع كنا نعرفه، ووصلنا إلى أماكن سكننا بسلام.

كيف جرى الاحتفال بعيد صعود العذراء في القدس

وفي اليوم الرابع عشر، الذي كان عشية عيد الصعود، صعود مريم العذراء الأعظم مباركة، وبعد مضي نصف النهار، بدأنا بالاستعداد للاحتفال بعيد اليوم التالي كما يلي: فقد دخلنا غرفة ذخائر الرهبان، وأخرجنا منها قطعة عريضة من قماش الكتان، وحملناها إلى المكان الذي حملت منه العذراء المباركة، ورفعت، هذا وكنا قد وصفنا هذا المكان من قبل، ومددنا قطعة القماش هذه فوق المكان على شكل خيمة، مع أعمدة

وحبال، وعلقنا زرابي حولها عوضاً عن الجدران، وبذلك عملنا بيعة جميلة، وغطينا المذبح الموجود في ذلك المكان بقطع أقمشة ثمينة، وزيناه بصور وتماثيل، وأوعية قرايين مقدسة، وشمعدانات فيها شمع، علاوة على ذلك جلبنا إلى هناك غصنا من الزيتون فيه أوراق، وسعف نخيل، ونشرنا حول المكان أعشاباً وزهوراً، وبذلك صنعنا كهفاً مقدساً جميلاً.

وعند حلول المساء، ارتدى الأب المسؤول ثوباً ثميناً، ووشاحين، وحامل صليب، وحامل بخور، وكان القندلفتات جميعاً في أرديتهم المقدسة، وقد احتلوا أماكنهم في كنيسة الرهبان، وعندما بات الجميع جاهزين، سرنا بوقار عظيم، ومشينا بمسيرة منتظمة من كنيسة جبل صهيون، إلى موضع انتقال العذراء المقدسة، ونحن نغني ترنيمة «Et ibo mihi ad montem myrrhae» الخ، وبعد الفراغ من هذه الترنيمة، غنينا أغاني العشاء وترانيم العيد بأصوات مرتفعة، في البيعة التي عملناها، ولم نتعرض للازعاج بأي شكل من الأشكال من قبل المسلمين، بل الذي حدث أنهم عندما سمعوا غناءنا، جاءوا إلى المكان، ووقفوا فاغرين أفواههم.

وفي الوقت نفسه تجمع عدد كبير من المسيحيين الشرقيين مع بعضهم، وقاموا بعد الفراغ من قداسنا، فدخلوا إلى البيعة مع كهنتهم، وشرعوا بأعمالهم التعبدية، وأقاموا في تلك الليلة قداسات هناك وفقاً لطقوسهم، هذا وقد دخلنا إلى الدير وعملنا وجبة بسيطة، بشكل تناسب الذين كانوا صياماً، وبعدما تناولنا العشاء نزلنا جميعاً من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، ومضينا إلى كنيسة ضريح العذراء المباركة، واقتدنا معنا حماراً محملاً، حمل زيتنا وأشياء أخرى محتاجة من أجل تزيين المكان، ومن أجل إقامة القداسات، وعندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مليئة بالمسيحيين الشرقيين من كل من الرجال والنساء، ولذلك ابتعدنا عنهم إلى زاويتنا الخاصة، حيث كان المذبح اللاتيني،

وأبعدنا من هناك المسيحيين الشرقيين الآخرين، الذين قدموا إلى هناك قبلنا، وأشعلنا مصابيح، لأن ذلك المكان يفتقر إلى الاضاءة الطبيعية، ويمكن أن يضاء فقط بالمصابيح.

وعلقنا زربية حول موضعنا، وزينا المذبح، وأشعلنا عدداً كبيراً من الشموع، وغنينا قداساً خاصاً بشكل جماعي، ولدى وصولنا إلى «Salve Regina» مشينا من موضعنا في مسيرة عظيمة، ودرنا خلال ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، ومن ثم عدنا إلى موضعنا، وبعد «Salve» كرسنا أنفسنا للسهر خلال الليل عند ضريح العذراء المجيدة، والذين لم يكن بإمكانهم السهر جلسوا سائدين رؤوسهم إلى الجدار، لكننا نلنا راحة قليلة لأن المسيحيين الآخرين كانوا ينبحون في أماكنهم المتعددة أثناء تأديتهم لقداساتهم طوال الليل، ومامن مكان كان مزيّن بشكل جميل أكثر من مكاننا، كما لم يكن أي غناء أكثر وقاراً من غنائنا، لأن المسيحيين الشرقيين يحتفلون قليلاً في قداساتهم، ويبعدون وكأنهم يولولون ولا يغنون، ومن أجل وصف هذه الكنيسة، وشكلها وترتيبات أماكنها المقدسة، إنظر ماتقدم في ص ٥٨٩، وهكذا مضت تلك الليلة.

عيد الصعود المجيد لمريم العذراء المباركة

عند منتصف الليل، في اليوم الخامس عشر، شرعنا بقداس ما بعد منتصف الليل، وبعدما غنينا بوقار هذا القداس، احتفلنا بإقامة عدة قداسات خاصة في ضريح العذراء المباركة، وكان ذلك بقدر المستطاع، عندما تمكنا من الحصول على مكان هناك، لكن الذين لم يجدوا مكاناً هناك، أقاموا القداس عند مذبح اللاتين، وعندما اقترب حلول الفجر، غنينا قداساً في مكاننا بأصوات مرتفعة، ولقد غنينا بأصوات مرتفعة إلى حد أن نباح المسيحيين الشرقيين الآخرين لم يعد مسموعاً، وعند الفراغ من هذه القداسات، رفعنا جميع الزينة وبعثنا بها قبلنا إلى جبل صهيون،

في حين قمنا نحن بزيارة الأماكن المقدسة على جبل الزيتون، حيث حصلنا على غفرانات، وذهبنا بعد هذا إلى جبل صهيون، وتناولنا طعام الغداء هناك، وبعد الغداء تمددنا للاستراحة بسبب السهر الذي قمنا به.

الحج الانفرادي للراهب فيليكس فابري إلى بيت لحم وإلى بعض الأماكن الأخرى

وسألت في بعد ظهر يوم صعود العذراء الأب المسؤول لمنحي إذنا للذهاب إلى بيت لحم، وأن يبعث معي واحداً يرافقني على الطريق، لأنني امتلكت رغبة لأن أكون وحيداً في بيت لحم بعيداً عن حشد الحجاج، وأعطاني الأب المسؤول راهبين جيدين ليرافقاني، وتركني أذهب، وبناء عليه انطلقنا معاً من القدس بشكل سري، وبدون علم أحد، وذلك خشية أن يكون معنا المزيد من المرافقين، وارتحلنا رحلة طيبة على الطريق الذي كنت قد تحدثت عنه منذ ص ٦٦٨، وهكذا وصلنا إلى قبراتا حيث يوجد قبر راحيل، وإلى جانبه رأينا قرية بازق، التي نقرأ عنها في سفر القضاة: ١، حيث قتل بنو اسرائيل عشرة آلاف رجل، ووجدوا هناك أدوني بازق، ملك القدس، فقطعوا يديه وقدميه، مثلما كان هو قد فعل شخصياً بسبعين ملكاً زحفوا تحت مائدته، وكانوا يلتقطون طعامهم بأفواههم، وقد رغبت بدخول هذه القرية، وأن أرى المكان، لأنني وبقدر ما استطعت لم أمر بمكان معروف بالنسبة لي من خلال الكتابات المقدسة القانونية، من دون أن أزوره، وبناء عليه انعطفنا نحو اليمين خروجاً على الطريق العام، إلى قرية بازق، ومررنا من خلالها، وهي كبيرة، وغير مسكونة من قبل المسلمين، بل من قبل المسيحيين الشرقيين فقط، ولم يملكها المسلمون قط، وحدث على كل حال في هذه الأيام أن قام واحد من أهل هذه القرية بالاعلان عن تخلية عن الديانة المسيحية، وختانه واعتناقه للإسلام، وهو ساكن هناك في هذه الأيام ذنباً بين شياهم، ويصنع في هذه القرية خمره رائعة ومتفوقة في

قوتها، وهي عندما تشربها صرفة، مع أنها لا تؤذي الرأس، تجدها تمتلك قوة تحرق الجوف والأمعاء، ولذلك يتوجب على الانسان مزجها بكثير من الماء، وأنا لا أتذكر أنني شربت خمرة أفضل منها.

وتابعنا سفرنا من بازق، فوصلنا إلى بيت لحم، حيث جرى الترحيب بنا بلطف من قبل الأب المسؤول والرهبان، وعملنا عشاءً جيداً، وبعد العشاء أخذت إلى قلاية للاستراحة لكن وأنا أقوم بالاستراحة هناك، هرب النوم من عيني، وتمددت فوق فراشي لبعض الوقت وأنا مستيقظ تماماً، ثم للملي من الرقاد، نهضت، وودت أنني لو كنت في الكهف المقدس لميلاد المسيح، لكنني لم امتلك أملاً بالتمكن من الدخول قبل منتصف الليل، لعلمي بأن جميع الأبواب كانت مغلقة، ومع ذلك خرجت بهدوء من قلايتي، ودخلت إلى بيعة القديس نيقولا، التي كان الرهبان فيها يتلون صلواتهم الساعية، وفي هذه البيعة كان هناك باب سري خاص من خلال ممر ضيق إلى الكهف المقدس، وهو باب يسعى الرهبان غاية جهدهم لإبقائه سرياً، خوفاً منهم من المسلمين والمسيحيين الشرقيين الذين ماكانوا ليسمحون بذلك، كما تقدم لي وتحدثت عن ذلك، ومضيت من خلال هذا الباب دونما أي أمل، لكنني وجدته مفتوحاً، ودخلت بسرور عظيم، وأخذت طريقي خلال ممر منجور في الصخر، ووجدت الباب في النهاية الأخرى أيضاً مفتوحاً، من خلاله عبرت إلى الكهف الأعظم قداسة، الذي وجدته مضاء بعدد كبير من المصابيح، ووجدت البابين اللذين يمر الانسان من خلالها ويذهب إلى الكنيسة مغلقين بشدة، ولدى ايجادي نفسي وحيداً في الكهف المقدس، قلت وأنا مسرور: «مبارك هو الرب، ومباركة هي جميع المعينات لنومي واستراحتي، حيث بذلك أمكنني البقاء في هذه العزلة التعبدية الأعظم سروراً إلى جانب مهد المسيح الجميل»، ولذلك أخذت نفسي للقيام بسهر مقدس، وأمضيت الساعات وفق أحسن ما استطعت وما عرفت،

لأن هذا المكان في الحقيقة في غاية العذوبة، ويدفع نحو التقوى، كما قلت من قبل، ومن السهل والممتع البقاء بدون نوم إلى جانبه.

زيارات إلى الأماكن التالية التي كقاعدة لا يؤخذ الحجاج إليها

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس عشر، احتفلنا بقداس في الكهف الأعظم قداسة، وبعد القداس صعدنا إلى موضع الرعاة، الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وغنينا هناك Gloria In excelsis مع الملائكة، وبعد هذا صعدنا ثانية إلى بلدة بيت لحم، فتفحصناها عن قرب، ثم ذهبنا إلى الدير لتناول الغداء مع الرهبان، وقبل أن نتناول طعامنا ذهبنا إلى مدفن الدير، حيث كانت هناك قبور الرجال الثلاثة الذين قاموا مع يوسبيوس وعادوا من الموت، حسبما جاء في رسالة سيرل أسقف القدس إلى أوغسطين، وبعد الغداء قلنا وداعاً إلى الأب المسؤول، وذهبنا إلى بيت في بلدة بيت لحم، عائد لواحد مسيحي إغريقي، كان معروفاً إلى واحد من الراهبين اللذين كانا برفقتي، وعندما سمع هذا الرجل عن المكان الذي نود زيارته، أعطانا أربعة حمير، ثلاثة لنا أنفسنا، وواحد لابنه، الذي أرسله معنا ليكون خادماً، وليعتني بالدواب، وركبنا الآن ومضينا نازلين من جبل بيت لحم، باتجاه الجنوب، على طول مجرى الماء الذي يحمل الماء إلى القدس، ووصلنا إلى قرية اسمها بيت عير Bethyr، التي على مقربة منها ريف جميل، أنا لم أر شبيهاً له في جميع الأرض المقدسة، لأن الوادي كله القائم تحت القرية كان مليئاً بكثافة بأشجار الفواكه، مع أشجار من مختلف الأنواع مثل غابة، وهم يعتقدون بأن هذه الحدائق قد غرست من قبل سليمان، وأنه هنا كانت حديقة البهجة، التي عنها قال في سفر الجامعة: ٢/٥-٦: «عملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع ثمر»، وإلى هذه الحديقة اعتاد سليمان أن يسوق عربته الذهبية، مرافقاً بشباب مسلحين، وذلك كلما أراد أن يخلد إلى

السرور، وذلك حسبما حدثنا يوسفوس في مصنفه « التواريخ القديمة لليهود » — الكتاب الثامن — الفصل الثالث، وغالباً ما قام بدعوة طائره مع أغاني حب قائلاً: « قد دخلت جنتي يا أختي وياعروسي »، (نشيد الانشاد: ١/٥)، فضلاً عن ذلك لقد رغب بريح مناسبة (نشيد الانشاد: ١٦/٤) بقوله: « استيقظي ياريح الشمال، وتعال ياريح الجنوب، هبي على جنتي فتقطر أطياها »، وقد اعتاد سليمان على امضاء كثير من وقته في هذه الحديقة، إلى حد أنهم عندما كانوا لا يعرفون أين كان، اعتادوا على أن يبحثوا عنه فيجدونه في الحديقة، وبناء عليه عندما سألت بنات القدس العروس « إلى أين توجه حبيبك » أجابتهن « حبيبي نزل إلى جنته إلى خوائل الطيب ليرعى في الجنات ويجمع السوسن » (نشيد الانشاد: ٦)، لأنه زرع في تلك الحديقة حشائش حملت توابل وثماراً جيدة، مثل الكافور، والزعفران، والناردين، والوج، والبلسم، والقرفة، مع جميع أخشاب لبنان، والمر، والألوة، وجميع أنواع التوابل الرئيسية حسبما قرأنا في نشيد الانشاد: ٤، وكانت هناك الأعناب، وأشجار الجوز، وفي هذه الأيام لم يعد هناك توابل، والذي بقي أشجار تحمل البرتقال، والرمان، والتين، والزيتون، والتوت، والجوز، والتفاح، مثل حديقة البهجة، التي يبدو أنها تتوافق مع بيت الشعر في نشيد الانشاد: ٣/٤: « أغراسك فردوس رمان مع أثمار نفيسة فاغية وناردين ».

برك الملك سليمان

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الحداثق البهيجة، صعدنا منهن وسرنا على طول شاطئ جدول صغير، من مياهه تسقى هذه الحداثق، بطريقة أن مجرى الماء الذي به تجري المياه إلى القدس كان على يميننا، وكانت القناة التي تجري بها المياه التي تسقي الحديقة، على يسارنا، وهكذا سرنا فيما بينهما، ووصلنا إلى ثلاث برك كبيرة، قائمات احداهن تحت الأخرى، وهذه البرك، التي — كما قالوا — تحدث عنهن سليمان في الجامعة

بقوله: «عملت لنفسي برك مياه لتسقى بها المغارس المنبتة الشجر»، وهذه المغارس هي التي قد أعطت أشجار الحديقة المتقدمة الذكر، التي إليها تساق المياه خلال قناة من البرك الثلاثة.

وهذه البرك كبيرة جداً، وقد عملت نتيجة جهود عمل عظيمة بوساطة أدوات حديدية حادة، التي بها حفرت أقصى الصخور والحجارة ونجرت بالطريقة الطولانية والعرضانية في وسط الوادي، الذي تطل عليه من على الجانبين جبال عالية ووعدة، وهذه البرك معمولة وفق طريقة أن المياه الجارية العذبة تصب في البركة الأولى التي هي الأعلى، وتملأها، والماء بعد هذا يجري إلى الثانية، القائمة تحتها، وبعد هذا تجري المياه من هذه البركة الثانية إلى البركة الثالثة، ومن هذه البركة تجري المياه خلال مجرى ماء إلى حديقة البهجة، ويوجد من هذه البركة مجرى ماء آخر ينقل الماء حتى القدس، حتى جانب الهيكل، حيث تتدفق كما سلف وتحدث من قبل، هذا وتجري المياه، التي تسيل وراء الحدائق في الوادي، حيث تقوم المدينة، إلى سدوم، وخلال قفار تقوع، التي يحدها من الجانب الجنوبي قفار مَّان Maon.

وهنا يوجد جبل الكرمل، الذي كان ملكاً لنابال Nabal، الذي إليه أرسل داوود — عندما كان فاراً من وجهه شاول — يطلب منه خبزاً وماء، غير أنه رفض مع اهانة، ولذلك غضب داوود، وزحف ضده وضد جميع أهل بيته، ولولا أن تدخلت أبيجايل، زوجة نابال، وتوسطت من أجله، لقام بتقطيعهم جميعاً، كما قرأنا في سفر صموئيل الأول: ٢٥، ورأينا فوق هذه البرك من الجهة المقابلة أكثر من ستمائة مسلم يحفرون ويعملون، لجلب مياه جديدة إلى البرك القديمة ومن ثم إلى القدس، لأنه تمّ العثور على الماء بين الجبال العائدة للقفار، وذلك ليس بعيداً عن حبرون، على مسافة بعيدة عن هذه البرك، ويبدل السلطان جهده لنقل هذه المياه إلى القدس، مقابل نفقات كبيرة وتعب

عظيم، وهذا كله ضمن عمل حكيم واختراعات كثيرة ذكية وبارعة، حيث تجري قيادة مجرى الماء خلال ممرات محفورة في الجبال، بواسطة القطع في الصخر وتنظيف الحجارة، لمسافة ثمانية أميال ألمانية، عبر منحدرات عملت بقياسات وفق تقسيمات صحيحة، فضلاً عن هذا إنه يقوم الآن بتنظيف مجاري المياه القديمة، ويعمل كثيراً من الصهاريج من أجل تخزين مياه الأمطار، ولم يترك وسيلة لم يجربها لتأمين الماء لمدينة القدس المقدسة، وهو بذلك لم يوفر نفقة، ولم يدخر جهداً.

وهنا يستحق السلطان الملك مديحاً كثيراً، لأن سليمان عندما كان في الالهيات: ١٧/٤٨ يمتدح الأعمال الجبارة للرجال المشهورين، امتدح الملك حزقيال، لأنه جلب الماء إلى وسط مدينة القدس، لأنه حفر الصخر الأصم بالحديد، وعمل آباراً للمياه، ولعمله هذا تلقى الملك حزقيال هذا نفسه المديح في سفر الملوك الثاني: ٢٠/٢٠، وفي سفر أخبار الأيام الثاني: ٣٢/٣٠.

ومع ذلك لم يكن عمل حزقيال مثل عمل السلطان قايتباي، الذي لم يكتف بالحفر بالصخر حتى يتمكن من جلب المياه من نبع جيحون الأعلى إلى المدينة، بل هو يقوم الآن بشق الجبال من مسافة بعيدة، حتى يتمكن من جرّ المياه إلى هناك، هذا وسلف لنا الحديث عن هذا السلطان من قبل، ويتساءل المسلمون والمسيحيون واليهود، ما الذي يريد السلطان أن يعمل من القدس، حتى أقدم على صرف الكثير، وعمل الكثير ليزودها بالماء، ويعتقد المسلمون أنه ينوي أن ينقل مقر الحكومة من بابلون مصر إلى القدس، ويأمل اليهود أنه عندما يعاد بناء القدس سوف يعطيها لهم، أما موقف المسيحيين، فهو أنه ربما هو مقبل على استئناف الايمان بالمسيحية، الذي كان قد تخلّى عنه، وأنه سوف يعيد إليهم مدينة القدس، وكنيسة الضريح المقدس، لعل الرب القدير يضع ذلك في قلبه، وأن يجعله يفعل ذلك، الأمر الذي ينبغي عدم التوقف

عن الدعاء إلى الرب من أجله .

إنما إذا ما اختار البقاء على غدره وردته، يتوجب مع ذلك على المسيحيين الصلاة للرب من أجله ولطول حياته، مادام صاحب الضريح المقدس، ومملك الأرض المقدسة، ويتعامل بلطف ورحمة مع الحجاج المسيحيين، فمثل هذا عمل بطارقة العصور القديمة عندما كانوا في السبي البابلي، فقد صلوا وقدموا الأضاحي من أجل حياة الملك نبوخذنصر، وذلك على الرغم من أنه جلبهم إلى السبي، وأحرق الهيكل، وهدم القدس، وهذا واضح في سفر باروخ: ١.

ومثل هذا أمرنا الرسول (١ - ثيمو: ٢) بإقامة الصلوات والابتهالات في الكنائس من أجل ملوك الأمم، ومن أجل جميع الذين في السلطة، حتى يتمكن المؤمنون من العيش بحياة هادئة وأمنة في ظلهم، ومثل هذا أمروا في اسدراس الأول: ٦/ ٣١ بالقيام بالصلوات وبتقديم القرابين من أجل حياة الملك داريوس وأولاده.

وهذا العمل الذي يقوم به السلطان الآن، كان قد شرع به من قبل بيلاطوس، حاكم اليهودية، وكان قد أنفق جميع أموال القربان، أي أموال الخزانة المقدسة العائدة للهيكل، في سبيل جلب الماء من مسافة ألفي فرلنغ، وعندما ثار اليهود ضد هذا العمل بسبب تبديد أموال الخزانة غضب بيلاطوس، فقتل حشداً كبيراً من اليهود، واستمر في عمله، لكن مع ذلك لم يهدأ اليهود، فتخلى خوفاً من الامبراطور، وحول هذا الموضوع يمكننا أن نعود إلى يوسفوس «التاريخ القديم» (٨/ ٨ وإلى «حرب اليهود» (٢/ ٣).

وعندما صعدنا حتى البركة الوسطى، رأينا إلى جانبها سرادقات وخياماً، فيها سكن البناءون والمحاسبون المسؤولون عن الأعمال، والمراقبون، والمعلمون الذين يرتبون كيف ينبغي حفر المجاري المائية

خلال الجبال، وكان حول هذه السراقات أعداد كبيرة من المغاربة والمسلمين كانوا يركضون نحو الأمام ونحو الخلف، يلعب أحدهم مع الآخر، وخفنا من هؤلاء خوفاً شديداً خشية الزحف ضدنا وإزعاجنا، وكان هناك خوف خاص عليّ، لأنني كنت الحاج الوحيد الحامل لعلامة الصليب، ولأحمل جواز سفر، والذي حدث هو أنه مامن أحد قدم للاختلاط بنا، بل صعدنا بسلام على طول حدود البرك الثلاث، وبعد مضي بعض الوقت ودعنا البرك الثلاث، واستدرنا نحو اليمين، وتسقلنا سفح رابية، ووصلنا إلى منطقة منبسطة مليئة بالحقول، حيث كان قمح تلك السنة قد جرى حصاده.

وكان بين نخوم هذا السهل بدوياً يتجول، وهو مسلح بسيف ورمح، وقد واجهنا، ووقف في وجهنا في الممر، مانعاً إيانا من المرور ما لم ندفع له الخفارة التي يستحقها، لأن البداية يقولون بأن جميع المسافرين مدانين لهم، ويتوجب أن يدفعوا الخفارات إليهم، وقال له واحد من الراهبين اللذان كانا معي، وخاطبه باللسان العربي بأننا كنا رجالاً فقراء، وليس علينا أن ندفع أي شيء إلى أي انسان، لكن البدوي قال وهو يشير إليّ باصبعه: «أنتما يمكن أن تكونا رجلين فقيرين، لكن هذا الرجل مع الصليب هو حاج، وغريب في البلاد، ويتوجب عليه أن يدفع جزية إليّ»، وركض نحوي وهو يقول هذا، وانتزع مقود حماري، قاصداً ارغامي على الدفع، لكن ذلك الراهب تجادل معه بشدة، وهدده أنه إذا لم يدعني أمضي، سوف ينزل إلى الوادي إلى السادة الذين كانوا مسؤولين عن الأعمال، ويشتكى لهم، وعندما سمع البدوي هذا، تركني أذهب، وابتعد عنا هارباً.

ورأينا الآن كنيسة في وسط هذا السهل، نحوها أسرعنا، وكانت هذه كنيسة القديس جرجس الشهيد، ودخلنا إليها، وتلونا صلواتنا فيها، وحصلنا على غفرانات (+) لمدة سبع سنوات، وكان إلى جانب هذه

الكنيسة فيما مضى ديراً جميلاً وكبيراً للرهبان الاغريق، ولكنه الآن مهدم، والذي بقي هناك زريبة صغيرة، قائمة في مواجهة الكنيسة، يسكن فيها اثنان من الرهبان الاغريق، وفي هذا المكان جرى اعتقال القديس جرجس الشهيد، ووضع في الأغلال بسبب الايمان بالمسيح، ذلك أنه قدم من كبدوكيا إلى سورية، حيث قتل التين قرب بيروت، وارتحل من ذلك المكان إلى اليهودية هنا، حيث جرى اعتقاله، ومن ثم جرى نقله إلى اللد حيث استشهد، كما سلف لنا الحديث عن ذلك في ص ٣٦٨.

ويوجد على مقربة من الكنيسة مكان وعرة، حيث هناك صخرة قاسية جداً وعريضة، أرانا فيها هذان الراهبان علامات حوافر فرس، وكأن الصخرة كانت قديماً ناعمة وقد تلقت علامات فرس عابر فوقها، وقد قالاً بأن هذه العلامات قد انطبعت بشكل اعجازي على الصخرة من قبل فرس القديس جرجس، وبعدما رأينا هذه العلامات عدنا ثانية إلى الكنيسة، وجلسنا في الظل، وجلب لنا هذان الراهبان سلسلة، أعلننا أنه بهذه السلسلة جرى غل القديس جرجس، وقبلنا هذه السلسلة، ووضعناها حول أعناقنا من أجل التقوى، ويحترم المسلمون أيضاً هذه السلسلة، مثلما يحترمون أيضاً علامات حوافر الفرس على الصخرة، ويسترد أحياناً بعض المسلمين المرضى صحتهم بلمس هذه السلسلة، وفي الحقيقة لدى جميع الشرقيين احترام خاص للقديس جرجس، وهم يحترمونه أكثر من القديسين الآخرين، ويمكن للانسان أن يقول بأن جميع كنائس المنشقين مكرسة له، وجلب لنا الراهبان بقسماً طاً، وماء، وملحاً، وصنعنا وجبة معهم، وقد أعطينا بدون مقابل، كل ماكانا قادرين عليه، مع أنها كانا منشقين، وبناء عليه أكلنا وشربنا في تلك الكنيسة، وانتعشنا بشكل جيد، وقد مكثنا هناك لمدة تقارب الساعتين وتفحصنا بدقة خرائب الدير.

الماء الذي جرى تعميد الخصي به

وغادرنا بعد هذا، هذا المكان، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى طرف رابية، منها يتدفق الماء العذب من عدة أماكن، وهذا أمر غير اعتيادي في البلدان الشرقية، ورأينا فوقنا في الأعالي بقايا قلعة مهدامة، كانت تعرف في الأيام الخوالي باسم بيت سورا، وكانت قلعة حصينة جداً، عنها كنت قد تحدثت من قبل، وتابعنا من هناك سيرنا نحو واد عظيم الخصوبة ليس بعيداً عن بيت زكريا، الذي كنا أيضاً قد تحدثنا عنه من قبل، ورأينا في هذا الوادي كثيراً من البيوت وبساتين مزروعة بأشجار التين، وبالكروم، والزيتون، وأخيراً وصلنا إلى ضفة جدول ماء عذب، ينبع من الرابية، ويجري بشدة نازلاً إلى الوادي على طول الطريق، وبناء عليه صعدنا على الطريق إلى المكان الذي ينبع منه، حيث وجدنا بقايا كثيرة لكنيسة مهدامة، كانت قائمة هناك في أيام المسيحيين، لأن هذا هو المكان الذي عمّد فيه فيليب الخصي الحبشي العائد للمملكة كنداكة، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل: ٨، وكانت كنداكة ملكة الحبشة، وهي مملكة حكمت دوماً من قبل نساء، وأطلق على جميع ملكاتها اسم كنداكة، وذلك مثلما أطلق على جميع ملوك مصر اسم فرعون، ومثلما أطلق على جميع أباطرة روما اسم قيصر، ويقول بعضهم بأنها كانت ملكة كل من مصر والعربية، لأنه عندما سقطت اسرة الفراعنة في مصر، خلفتها أسرة كنداكة، وذلك حسبما قرأنا في كتاب بوكاكوس Boccacius حول النساء الشهيرات»، الفصل: ٤١، وكانت هذه الملكة امرأة تقيّة، وقد أرسلت خصيها الحبشي، الذي كان مسؤولاً عن خزائنها، مع هدايا كثيرة، وتقديرات إلى الهيكل في القدس وذلك حتى يتمكن من الصلاة هناك وتقديم الهدايا.

وبعدما فعل هذا، عاد فركب عربته، حتى يتمكن من العودة إلى بلاده، وكان متشوقاً كثيراً حول الأشياء اللاهوتية، إلى حد أنه عندما

كان يجلس في العربة كان يقرأ حول الأنبياء وجاء فيليب إليه بناء على أمر من الروح القدس، وعلمه وعمّده في هذا المكان، وبناء عليه جثونا هنا على ركبنا وتفوهنا بصلواتنا، وحصلنا على غفرانات (+)، وجلسنا بعد ذلك إلى جانب النبع، وأحضرنا من مزاولنا الطعام الذي كنا قد شربناه من القدس، وأكلنا خبزاً، وشربنا من الماء، الذي كان صافياً، وبارداً، ومنعشاً، وصحياً، وهذا النبع مشهور جداً حتى أن الأغنياء وأعيان الناس يأتون إلى هنا من القدس، من أجل المتعة والترويح عن النفس.

وعندما كنا جالسين على هذه الصورة إلى جانب النبع، مرّ بنا عدد كبير من المسلمين، بسبب الطريق العام الذي يقود إلى غزة، أي إلى أفريقيا، حسبما جاء في الشرح حول الممرات، وأيضاً من قبل كاتب الـ *Speculum Historiale*، وعلى كل حال لم يلحق بنا أي أذى من قبل أي إنسان، وأعطينا الذين وقفوا إلى جانب النبع وشربوا بعضاً من خبزنا، وقد جلس كل مسلم معنا، وجاء أخيراً واحد مع سلة مليئة بأحسن العنب وأكثره حلاوة، وله أرينا مزاولنا وقد امتلأت بالخبز، وقد سره كثيراً التبادل معنا، وهكذا أكلنا وشربنا في ذلك المكان معهم حتى اقتراب موعد غياب الشمس.

وعن هذا المكان قال بيد في تعليقاته على أعمال الرسل: «بيت سارو، أو بيت سورا في ديار يهوذا، على الطريق من إيلياء إلى حبرون — أي من القدس إلى حبرون — وذلك على بعد عشرين ميلاً، حيث على مقربة منها هناك نبع عند سفح الجبل، وهو يتدفق منه نفسه، ثم تبتلعه الأرض نفسها التي ينبع منها، ففي هذه المياه عمّد فيليب الخصي».

وبعدما أنعشنا أنفسنا بشكل جيد في هذا المكان، امتطينا دوابنا، وجرينا مسرعين نحو القدس، ذلك أننا كنا نأمل أن يسمح لنا في تلك الليلة نفسها بالدخول إلى ضريح الرب، ولولا أنه توفر لدينا هذا

الأمل، لبقينا مع الرهبان في بيت لحم لعدة أيام، أو كنا أمضينا الليل في صحراء القديس يوحنا المعمدان، التي تقدم لنا ذكرها في ص ٧٧٠، وهو أمر كنا نحب كثيراً أن نفعله، لأنه بدا أمراً عظيماً السرور جداً، رؤية الكهوف التي سكن بها يوحنا وهو طفل صغير، والإقامة بها، لكن شوقنا للدخول إلى الضريح المقدس كان أقوى لدينا، وتخلينا أثناء سفرنا عن زيارتنا لقفار القديس يوحنا، وإلى بيت زكريا، وإلى كنيسة الصليب المقدس، وإلى بيت سمعان، وهي أماكن تقدم لنا الحديث عنها جميعاً، وأسرعنا باتجاه القدس.

ولدى اقترابنا من الكروم الموجودة على جبل جيحون، وعندما صارت المدينة المقدسة أمام أعيننا، فجأة، تجمعت بعض النساء اللاتي عملن في الكروم، ووقفن مع بعضهن في الطريق مع حجارة، ليمنعنا من المرور، ما لم ندفع خفارة لهن، وقمنا بسؤالهن عما إذا كن بدويات أم مسلمات، وعندما أجبتنا بأنهن مسلمات، شققنا طريقنا بالقوة بينهن، وأخبرناهن باستخفاف بأن الخفارة حق للبداءة وليس للمسلمين، وبغضب شديد رمين بالحجارة خلفنا، وتولين شتมนา.

وعندما صرنا ملاصقين للمدينة، التقانا هناك واحد من كبار سادة المسلمين، كان معه عدد كبير من الأتباع، وجماعة كبيرة من الرجال المسلحين على الخيول وعلى البغال، وأخبرنا الذين مشوا أمام هذا الحشد، بأن أميراً كان قادماً خلفهم، ولدى سماعنا بهذا قفزنا على الفور عن ظهور حميرنا ووقفنا على جانب الطريق حتى عبروا جميعاً، وفي الحقيقة، لو أننا لم نترجل من على ظهور دوابنا لألقونا أرضاً بغضب وإهانة، لأن عادة هذه البلاد تقضي بوجوب افساح الطريق من قبل الفقراء، والفلاحين، والحجاج، والناس البسطاء، إلى النبلاء، والرجال الأغنياء، عندما يقابلونهم، لذلك فور رؤية الانسان البسيط أو الغريب رجلاً نبيلاً مقبلاً نحوه، عليه الترجل من على دابته، حتى يمر ذلك

السيد، وحاشيته، وإذا لم يترجل، يقوم خدم ذلك السيد برميّه على وجهه.

وإذا ماتواجه رجلاً غنيان، يقوم الأقل ثروة، وهو يريد أن يختلف عن الآخرين، ليس بالترجل، بل ينسحب إلى جانب الطريق مع دوابه، حتى يعبر الآخر، لكن إذا ماتواجه واحد من أعيان أهل المدينة مع نبيل مسلح، أي على سبيل المثال إذا ماتواجه مسلم مع مملوك، فوقتها يكون التشريف الذي يريه الرجل الغني للنبيل، أن ينسحب إلى جانب الطريق، ويرفع قدميه من الركابات، ويتركها متدليتان، وإذا لم يفعل ذلك، فإن الرجل المسلح يقوم برميّه من على ظهر حصانه.

وبناء عليه، قمنا بعد عبور ذلك السيد، فعاودنا امتطاء ظهور حميرنا، ودخلنا إلى المدينة المقدسة، إلى جبل صهيون، وعندما وصلنا إلى هناك علمنا بأن الحجاج لن يسمح لهم بالدخول إلى كنيسة الضريح المقدس، وأسفنا إننا لم نبق في بيت لحم ليومين أو ثلاثة أيام.

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان الأحد الثاني عشر بعد التثليث، في اليوم الثامن بعد عيد صعود العذراء، توفرت لدي رغبة بإقامة قداس في الموضع الذي توفيت فيه مريم العذراء الأعظم مباركة، وحملت إلى هناك جميع الأشياء المحتاجة، وزينت مذبحاً مع راهب يقوم بمساعدتي، وحدث وأنا واقف عند المذبح في الهواء الطلق، أن تساقطت كميات كبيرة من الندى، بللت الـ *Corporale*، وقطعة الكتان الممتازة المنشورة فوق المذبح، وبللت أيضاً الأعمدة، والكتاب، وعملت عجينة القربان مائعة مثل فطيرة غير مخبوزة، ولذلك لم يكن بإمكانني بأية وسيلة رفعها، ووقعت بإرباك عظيم في ذلك القداس، ونادراً ما تمطر في هذه البلاد، خاصة في أيام الصيف، حيث تبقى السماء صافية، ولكن دوماً عند اشراق الشمس تساقط كميات كبيرة من الندى من السموات، بها تبقى خضروات الأرض حية، وبعد الغداء اجتمع الحجاج مع بعضهم

للتشاور حول رحلتنا خلال القفار.

وفي اليوم الثامن عشر، نزلت قبل شروق الشمس إلى نبع سلوان، لكن لدى سماعي بعض الأصوات العالية فيه، وقد صدرت عن القصارين أو الدباغين من المسلمين الذي كانوا هناك، ابتعدت عن النبع المقدس، ولم امتلك الجرأة للذهاب إلى هناك، ومع ذلك غسلت وجهي وعيني في الجدول الذي كان يجري منه، ومن هناك نزلت إلى وسط بركة قدرون، حيث سرت فوق أرضها الجافة والوعرة حتى كنيسة ضريح وصعود مريم العذراء المباركة، التي وجدتها مفتوحة، وقد سررت تجاه ذلك، ونزلت بوساطة الدرجات إلى الكنيسة، فوجدتها مليئة بمسيحيين روم أرثوذكس، كانوا يقيمون قداساً بمناسبة ذلك اليوم، وكانوا ينشدون مديح مريم المقدسة، ووقفت لبعض الوقت عند قداسهم، أرقب طقوسهم وعاداتهم.

ثم صعدت من هناك ثانية وغادرت الكنيسة، ودخلت إلى كهف آلام ربنا يسوع المسيح حيث وجدت فرقة من الأرمن، تقيم قداساً هناك، وتمدح الرب بغنائها الفوضوي، ومكثت مع الأرمن لبعض الوقت، وعجبت نحو طريقتهم في أداء القداسات الربانية، وبعدما خرجت من الكهف، صعدت إلى الجليل، وسرت من هناك على طول حافة جبل الزيتون، فوصلت إلى كنيسة صعود الرب، التي دخلت إليها، فوجدت فيها فرقة من اليعاقبة يقومون بمدح الرب مع موسيقى كانت غريبة بالنسبة إليّ، علاوة على ذلك قدم مثلهم إلى هناك سود أو هنود لإقامة قداساتهم هناك، وكان هناك نوبيون ينتظرون للغرض نفسه، وفي الحقيقة كان جبل الزيتون كله مكتظاً في ذلك اليوم بالمسيحيين الشرقيين، لكن ماهو السبب الذي جعل المسيحيين الشرقيين، يجتمعون في ذلك اليوم؟ أنا لا أعرفه، وتجولت هناك وكنت المسيحي اللاتيني الوحيد بين هؤلاء الشرقيين، فلم أتعرض للأذى من أي واحد منهم، كما لم يبعدني أحد.

عن قداساتهم بل إنهم عجبوا لوجودي، ونظروا إليّ باستغراب، وإلى ثيابي، وطرائقي، وهؤلاء المسيحيين الشرقيين المتقدم ذكرهم، بشكل عام سود، ويختلفون عنا باللون، واللباس، واللغة، والطقوس، والعادات.

ونزلت من موضع صعود الرب إلى جيسماني، وبحثت بعناية وفتشت عن الصخرة التي تحمل علامات جسد المسيح، وهي الصخرة التي تلقت هذه العلامات عندما اعتقل المسيح هناك، لكن لم أستطع العثور عليها بأية وسيلة من الوسائل، ومن أجل وصف هذه الصخرة انظر ماتقدم في ص ٦٠١، ومضيت بعد هذا عائداً إلى جبل صهيون، لتناول الغداء.

وفي اليوم التاسع عشر حصلت على إذن من الأب المسؤول لزيارة قلعة عمواس، ورجوته أن يرسل معي من يراه، حتى يكون رفيقي على الطريق، وكان الأب المسؤول كارها لأن يتركني أذهب، وأعلن بأن الطريق كان خطراً، لكن بسبب إلحاحي أعطاني الإذن، وأمر اثنين من الرهبان ومسلماً واحداً بمرافقتي، وخرجنا من القدس معاً، وسرنا على الطريق الذي سار عليه الرسولان كليوباس ولوقا في يوم قيامة الرب، وذلك عندما ظهر الرب يسوع لهما على شكل مسافر، واحترق قلباهما في داخلهما وهو يتحدث إليهما، حسبما قرأنا في إنجيل لوقا: ٢٤، ووصلنا على كل حال، بسلام إلى عمواس، وهناك قبلنا البقاع التي إليها اشتقنا، وكنت قد تحدثت عن ذلك في ص ٣٩٠، وشاهدنا خرائب هذه البلدة بخوف، لأنه بما أنها على الطريق الذي يقود من القدس إلى البحر، إنها نادراً ماخلت من قطاع الطرق، الذين يضربون العابرين، وقال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، بأنها كانت فيما مضى بلدة جميلة، الأمر الذي تبرهن عليه خرائبها.

ومن هناك ذهبنا إلى جبل شيلوه، الذي كنت قد تحدثت عنه في ص ٣٨٩، حيث رغبتنا في رؤية الأماكن المقدسة وزيارتها، ولكن قبل أن

نصل إلى هناك، قام المسلمون الذين يمتلكون بيوتا فوق القمة بمواجهتنا، وطرّدونا بالحجارة، وعندما نزلنا وأصبحنا في الوادي، ذهبنا إلى سفح جبل آخر، وتسلقنا إلى قمته، واسم هذا الجبل، جبل الشهداء، لأن أسداً قد دفن هناك جثث ثلاثين ألف شهيد، كان كسرى ملك الفرس قد قتلهم، من أجل إيمانهم بالمسيح، وذلك حسبما قرأنا في «التاريخ اللاهوتي»، وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا راجعين إلى القدس بسلام من خلال وادي البطم Terebinth ، وهكذا مضى ذلك النهار.

وفي اليوم العشرين، في الصباح الباكر، جاء أربعة من رهبان الدير إلى قلايتي، وسألوني الذهاب معهم إلى بيت عنيا، وهكذا انطلقنا، وعندما كنا في وادي شعفاط رأينا سادتي اللوردات والحجاج الآخرين نازلين من جبل صهيون، حاملين معهم كل ما هو محتاج لإقامة قداس، وعندما وصلوا إلينا، قالوا بأنهم أيضاً يرغبون بالذهاب إلى بيت عنيا، وهكذا مضينا مع بعضنا صاعدين جبل الزيتون، ونازلين من جانبه الآخر إلى بيت عنيا، وأقمنا هناك قداساً في كنيسة القديس لعازر، وذلك فوق قبر ذلك القديس، إنما مع خوف عظيم، لأن أطفال المسلمين وقفوا من حولنا، ولم نخف من هؤلاء، وأبعدناهم عن القداس، وقد بقيوا ينظرون نحو أيدي، وأوجه، وأعين الكهنة، الذين كانوا يتولون تكريس العناصر، وقد خفنا أن يحدث لواحد منهم، ما وقع لواحد من الرهبان الفرنسيين عندما كان يقوم بقداس في بيت لحم، لأنه عندما كان مشغولاً بأعمال القداس، وكان قد فرغ بوساطة صلواته المقدسة، من تحويل الخبز إلى جسد، والخمرة إلى دم، فجأة ركض واحد من الشباب المسلمين نحو المذبح، واختطف كأس القربان مع الخمرة المكرسة وشربها، وبعد هذا ركض راجعاً نحو جماعته، وهو يضحك بصوت مرتفع:

أيها الجاهل الملعون، أيها الأعمى المظلم، أيها الأحقق بلا عقل، أيها التسافه الطائش، كم هو مؤلم ومزعجاً وعدوانياً الذي أقدمت عليه! والذي حدث أنه بحماية الرب، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل لنا في هذا المكان، لأننا أنهيينا قداساتنا كلها بسلام، وبعدما زرنا الأماكن المقدسة في بيت عنيا وفوق جبل الزيتون، عدنا إلى القدس.

وفي اليوم الحادي والعشرين، في الصباح الباكر، مضيت نازلاً إلى كنيسة قيامة الرب، وتفوهت بقداسي أمام الباب، علاوة على ذلك نظرت إلى أبدة الرب من خلال الفتحة بالباب، وجاء في تلك الساعة نفسها مسلحون مغاربة، بالقسي والرماح، وكانوا جالين معهم، مع كثير من الضجة رجلين، كانوا قد اعتقلوهم، وقد ألقوا بهما في السجن الذي قام أمام باب كنيسة الضريح المقدس، وكنت قد تحدثت عن هذا السجن من قبل في ص ٤٧٤.

ولذلك وقفت أمام الباب مع خوف عظيم، فقد كنت أخشى أن يصرفوا غضبهم ضدي أيضاً ووقفت منتظراً، وأنا ممسك بالباب، حتى انصرفوا من السجن، ذلك أنه لم يكن بإمكانني الخروج من الساحة، من دون المرور على مقربة منهم، ولقد مكثت هناك لمدة تزيد على الساعتين، ثم صعدت إلى جبل صهيون، من أجل الصلاة.

وبعد الغداء، اجتمعنا نحن الحجاج جميعاً على جبل صهيون، ووزعنا الأشياء التي اشتريناها إلى حزم ذوات وزن واحد، وبعدما فعلنا هذا، نزلت معهم، وعندما وصلنا إلى برج داوود، الذي كنت قد أشرت له من قبل في ص ٤٤٥، وقفنا دوننا حراك، ونظرنا إلى القلعة، وعندما رأنا ابن حاكم القلعة واقفين هناك، عمل شارة بيده، بأننا إذا مارغبنا يمكننا اللحاق به، ورؤية البرج من الداخل، وبناء عليه لحقنا بذلك الشاب، وعبرنا فوق الجسر المقام على الخندق، الذي يمكن رفعه وانزاله، واقتادنا من خلال بابين حديديين إلى ساحة القلعة، حيث كانت هناك نساء

يخيطن (٢٥٣) وحالما رأينا، غطين وجوهن، وأخفين أنفسهن، واقتادنا الشاب إلى أعلى الأسوار والأبراج، وإلى جميع الغرف المنتشرة هناك، ودهشنا تجاه سماء الأسوار، وعدد الأبراج حول إطار دائرة الأسوار.

وبني هذا المكان وفق طريقة بناء القلاع الألمانية الحصينة، مع أسوار، وشرافات وطلاقات كثيرة من أجل إطلاق الآلات الحربية من خلالها، وهي قائمة فوق صخرة مشرفة على الجهة الغربية من جبل صهيون، ولها على جانبها الجنوبي واد عميق، هو الذي يفصل جبل صهيون عن جبل جيحون، وهو يمتد من جدول قدرون إلى حقل القصار، ولها على جانبها الغربي أيضاً واد، كان فيما مضى هوة عميقة، لكنه الآن قد امتلأ تقريباً، وكان لها فيما مضى خندق عميق كان معمولاً من حولها، لكن بما أن هذا الخندق لم ينظف أبداً، هو الآن ممتلئ، وقد زرع الحاكم الآن بستان مطبخ هناك في الجهة الشرقية، لكن على الرغم من هذا كله لا يوجد مكان قوي وجيد التحصين مثل هذه القلعة في القدس.

لكن هل هذه القلعة هلى التي ورد اسمها في الكتابات المقدسة باسم حصن صهيون، أو حصن مدينة داوود، الاختصاصيون غير متفقين على هذا، وكل الذي نعرفه هو أن داوود حصن جبل صهيون الذي ورد الحديث عنه أحياناً أيضاً باسم حصن داوود، كما ورد في سفر صموئيل الثاني: ٥، هذا وقد قمت بعد تدقيق خاص، فسجلت ثلاثة أماكن قامت فيها فيما مضى أبراج وأسوار قوية فوق جبل صهيون، والأول بينها موجود على الجانب الشرقي، حيث يقوم الآن دير الرهبان، ومما لاشك فيه أنه كان هنا هيكل داوود، حيث وضع فيه تابوه الرب، وهنا كان مسكنه، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ١٧، وكان المكان الثاني على الجانب الغربي من جبل صهيون، حيث قامت هذه القلعة التي عنها نتكلم الآن، والمكان الثالث لم يكن على جبل صهيون، بل في مواجهة هذه القلعة وذلك باتجاه الغرب، فوق مدينة القدس، قرب باب

التجار في حقل القصار، ويوجد في هذا المكان خرائب كبيرة، يقولون بأنها بقايا برج داوود، ولو أن هناك حصناً في هذه الأيام، لكان من الممكن حماية المدينة بوساطته، والذي اعتقده أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، قبل أيام الامبراطور إليوس هدريانوس، الذي وسع المدينة، وأنه بعد توسيع المدينة جرى بناء حصن هناك، وقد جرى تدميره منذ وقت طويل مضى وهكذا بعدما رأينا هذه القلعة، عدنا راجعين إلى موضعنا.

وذهبت عند غروب الشمس مع بعض الرهبان، إلى سدة الكنيسة على جبل صهيون، وهو ما كنت قد تحدثت عنه في ص ٤١٠، وسجلت بأن ارتفاع جبل صهيون، كان أعلى من جميع الجبال من حوله، لأن جبال العربية عبر الأردن، والبحر الميت، والتي هي عالية جداً، قد بدت منخفضة بالنسبة لجبل صهيون، فالشمس تشرق على رأس جبل صهيون قبل البقية، وتسحب أشعتها من عليه بعد البقية، وهذا غالباً ما رأيته، وفي الحقيقة إن الانحدار من جبل صهيون نحو الشرق هو انحدار مستمر، وهو يساوي خمسة أميال ألمانية إلى البحر الميت، ومثل هذا باتجاه الغرب، الأرض منحدره ونازلة لأميال كثيرة حتى منطقة فلسطين، وهكذا فإن جبل صهيون له التفوق على جميع الجبال، كما تحدثنا من قبل في ص ٤٥٧.

جمع الحضا والأشواك في الأماكن المقدسة صدوراً عن التقوى

واستيقظت في اليوم الثاني والعشرين قبل اشراق الشمس، وبعدما قلت صلواتي لما بعد منتصف الليل، تسللت من الدير وحيداً، وتجولت حول الأماكن المقدسة على جبل صهيون، وفي وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، والتقطت في كل واحد من هذه الأماكن بعض الحضا، وعلمتهم، ووضعتهم في حقيبة حملتها معي لأجل هذه الغاية، علاوة على ذلك جمعت بعض الأشواك التي تنمو على التخوم على جانب جبل الزيتون وجبل صهيون، وعملت حزماً منهم، وعلى الطريق نسجت منهم تاجاً، وذلك من الأشواك التي أعتقد بأن الرب يسوع قد توج بها، (انظر ص ٤٧٥) وأمضيت ذلك اليوم كله في جمع الحضا، وقطع أغصان الأشواك، واشترت سلة مستطيلة، وضعت فيها أغصان الشوك هذه، والحضا التي التقطتها من الأماكن المقدسة، وجلبت الجميع معي إلى الوطن، أي إلى أولم.

ولا يظن أحد أنه عمل بلا فائدة، أو تصرف طفولي صدر عني، باحضار حضا إلى بلادنا معي من الأماكن المقدسة، لأنني قرأت بأن رجالاتاً مقدسين من العصور القديمة فعلوا مثل هذا، ففي سفر الملوك الثاني: ١٧/٥، قرأنا بأن نعمان السوري، سأل النبي الإشع أن يدعه ينقل من الأرض المقدسة، بقدر ما يستطيع بغلان حملة، وأن يجلب ذلك إلى أرضه، حتى يتمكن من أن يبني هناك مذبحاً من الحجارة، عليه يقوم بالتضحية لرب السماء، وإذا كان — بناء عليه — عدّ هذه البلاد ثمينة جداً بسبب الهيكل الذي بني هناك، وبسبب الأنبياء الذين سكنوا، وبسبب المعجزات التي عملت هناك، كم أكثر ينبغي أن تكون ثمينة بالنسبة لنا، وذلك بسبب هذه الأشياء التي قيلت من قبل، وأيضاً بسبب طبعات أقدام المسيح، الثمينة جداً، وكذلك طبعات أقدام مريم العذراء المباركة، وكذلك بسبب ما يتعلق بالرسل وبالشهداء، وبسبب دم المسيح

الذي لا يقدر بثمن، الذي هدر هناك فيها، وبسبب صليبه وضريحه،
ولأنه قدسها بروعة قيامته المجيدة، وبنار روح قدسه.

وبناء عليه لا يجوز مطلقاً، ولا بشكل من الأشكال تستحق قطع
وشظايا من الحجارة جلبت من تلك الأرض الرائعة، أن يستخف بها،
أو أن ترمى، بل تستحق أن تجمع بتقوى عظيمة، وأن توضع بين الآثار
المقدسة الرئيسية للكنائس، وليست فقط التربة نفسها، والحصى أو شظايا
الحجارة، بل أيضاً الحبوب، والمسابع، والخواتم، والتماثيل في المسابح،
التي لمست الأماكن المقدسة، هي مقدسة من النوع نفسه، وصارت
لذلك أكثر تبجيلاً ومكانة، وذلك حسبما بينت من قبل في ص ١٩٨،
ولا يقتصر فعل هذا علينا نحن المسيحيين الغربيين بل، يقوم المسيحيون
الشرقيون من أقصى بقاع الشرق، بجمع هذه الحصى في الأرض المقدسة
ويحملونها معهم وكأنهم ذاهبون إلى أبواب الجنة، على أنها من أعظم
الآثار المقدسة مكانة .

ولقد سمعت وقرأت ماهو أعجب من هذا، من ذلك أن مسيحيين
شرقيين يقومون بالحج إلى روما، لقطع شظايا من كنيسة القديس
بطرس والقديس بولص، ويحملونها معهم — ليكونوا آثراً مقدسة —
حتى المحيط الشرقي، ويقوم بعضهم بعبور الألب، ويبحرون بالراين
حتى كولون لكي يتمكنوا من رؤية كنيسة وأضرحة الملوك الثلاثة، من
أهل بلادهم، ويتدبرون إعطائهم شظايا من هذه الكنيسة والأضرحة،
أو يحصلون عليهم بأنفسهم، إن استطاعوا، وهذه الشظايا، يضعونها في
ذهب أو فضة، بين الأحجار الثمينة، وذلك بعد عودتهم إلى بلادهم،
ويلبسونها خواتم أو معلقات، على أصابعهم، أو حول رقابهم، وأما
بالنسبة للخواتم أو المجوهرات التي لمست الأضرحة، فإنهم يحتفظون
بهم مع عناية كبيرة، بمثابة آثار مقدسة ثمينة، ويقدمون احتراماً عجباً
إلى الحجاج الذين تجولوا وطافوا من الشرق إلى كولون، وذلك لدى

عودتهم، وينظرون إليهم على أنهم أعظم الفرسان شجاعة.

ولا يمكن أن يكون هناك شك في أن الشرقيين لو استطاعوا تحمل برد بلادنا، مثلما يمكننا تحمل حرّ الشرق، فإن كولوننا لن تكون قط خالية من حجاج شرقيين، لأننا نرى حجم الحشود التي يأتي بها الهنغاريون إلى كولون، عندما يجري عرض الآثار المقدسة في كولون وآخن، علاوة على ذلك لقد حدث في بعض الأحيان أن فيه حجاجاً من بلدان الملوك الثلاثة كانوا يقدمون حاشدين إلى القدس في الوقت الذي يزورها حجاجنا من الغرب، وعندها كانوا يسألون من خلال المترجم عما إذا كان يوجد أي رجل من بلاد كولون، وإذا ما وجدوا واحداً، كانوا يشترون منه جميع الأشياء التي يمكنهم الحصول عليها منه، وبشكل خاص الأشياء التي صنعت في مدينة كولون، وذلك مثل: حافظات النقود، والأشرطة والأربطة والقبعات، والأحذية، وأية ملابس حتى القمصان، وكانوا يدفعون لهذه الأشياء ثمناً مضاعفاً، ويحملونهم معهم إلى الشرق بمثابة آثار مقدسة.

وإذا ما اختار أي إنسان بيعهم أية جواهر أو خواتم لمست أجساد الملوك الثلاثة المقدسين، كان سيتلقى ضعف أسعارهم، وإذا كان لدى أي إنسان شظايا من الكنيسة أو من أضرحة الملوك الثلاثة، واختار بيعهم، فإنه كان سيتلقى مقايضة لهم ما يتلقاه مقابل أحجار كريمة، وذهب، وفضة، علاوة على ذلك، كانوا يسألون بالحاح حجاجنا من خلال المترجم، عن أوضاع بلاد كولون، وحجم المدينة، والكنيسة الكاتدرائية، وأضرحة الملوك الثلاثة، ويكتبون بتقوى ويدونون ماسمعه جواباً، كلمة كلمة، في كتب مذكراتهم، وذلك مثلما فعل نحن في كتابة أحوال الأرض المقدسة، وأوضاع القدس، وكنيسة الضريح المقدس.

وغالباً ما يشكل عدد كبير من الشرقيين جماعات وفرق للقيام بالحج

إلى الغرب، إنما ما أن يصلوا إلى بلادنا حتى يغمى عليهم ويموتون، لكن إذا مانجح بعضهم بالحج إلى الغرب وعادوا ثانية إلى بلادهم، فإنهم ينظرون إليهم نظرة احترام عالية، وإذا كان — على هذا — الشرقيون يقدمون مثل هذا الاحترام إلى بلاد الملوك الثلاثة، حيث أوأبدهم موجودة، فأى عجب إذا أظهرنا نحن الغربيون الاحترام إلى أرض ضريح الرب ملك جميع الملوك؟

وهكذا أمضيت هذا اليوم مع كثير من التعرق والتعب، ألتقط الحجارة الصغيرة من الأماكن المقدسة، واشترت في ذلك اليوم نفسه ثلاث قطع أقمشة ثمينة لغرفة المقدسات، من أجل تغطية كأس القربان، أثناء حملها من قبل الشماس الأدنى، وعندما يحمل القاعدة عالياً، وكانت القطعة الأولى من هذه الأقمشة بيضاء، والثانية زرقاء، والثالثة صفراء، وقد حملت هذه الأقمشة إلى جميع الأماكن المقدسة، وغالباً مانشرتهم فوق ضريح الرب، وفوق صخرة الصليب، وفوق ضريح العذراء المباركة، وفوق مزود الرب، وفي الأماكن الأخرى، من أجل أنهم بلمس هذه الأماكن المقدسة، يمكن أنفسهم أن يصبحوا مقدسين، وبالتالي أعلى ثمناً.

الحج العام والأخير حول الأماكن المقدسة

في الصباح الباكر من اليوم الثالث والعشرين، وقبل اشراق الشمس، التقى جميع الحجاج، بناء على اتفاق، في ساحة كنيسة الضريح المقدس للقيام بحج واحد وأخير حول جميع الأماكن المقدسة في القدس وأحوازها، وبناء عليه، زرنا بعد بذل جهد كبير، المدينة المقدسة، والأماكن المقدسة في وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، وكان ذلك قبل الغداء، وقمنا بعد الغداء بالطواف حول الأماكن المقدسة في وادي سلوان، وجبل جيحون، وجبل صهيون، في الأعلى وفي الأسفل، وعندما كانت الدنيا مظلمة، أخذنا إلى كنيسة الضريح المقدس، حيث

عملنا المسيرة المعتادة إلى الأماكن المقدسة، وسهرنا تلك الليلة إلى جانب أبدة الرب.

الدخول السادس والأخير والسهر في الضريح المقدس

في Anastasis أي كنيسة قيامه الرب

في مساء اليوم الرابع والعشرين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة قيامة الرب، وجاء ذلك بناء على طلب من الحجاج، وزرنا خلال تلك الليلة الأماكن المقدسة، بخشوع أكبر، ومرات أكثر مما عملناه قط من قبل، لاقتراب موعد مغادرتنا، وفراقنا لهم، وعند اقتراب حلول الفجر، كان اليوم هو الأحد الثالث عشر بعد الثلاث، وعيد القديس بارثلميو الرسول، وقد غنينا قداساً في ضريح الرب، وقد عينت لغناء القداس، ولذلك وقفت مرتدياً ثيابي المقدسة في الكهف الداخلي للضريح المقدس، إلى جانب القبر الأعظم قداسة، الذي عمل وجهاز ليكون بمثابة مذبح، وقد غنيت بصوت مرتفع وبهيج، في حين وقف أعضاء الدير والحجاج في الخارج ورددوا معي، وكان بهيجاً وممتعاً جداً أنني غنيت هذا القداس، وبدأ لي أن صوتي كان أوضح وأعلى مما كانه قط من قبل، وقد تجليت كثيراً، وأقول جاداً، إنه بالنسبة لهذا القداس، وبقدر ما أعتقد، إنه منذ سنوات طوال، وربما لم يحدث، أي أنه لم يتمكن قط واحد من الرهبان المبشرين من غناء قداس في ضريح الرب، باستثنائي أنا وحدي، ولقد ابتهجيت في هذا اليوم لحصولي على مثل هذه النعمة العظيمة التي حفظت بشكل خاص لي، وإنني أصلي أن تجعلني مقبولاً لديه، وهو الذي قام من الموت في هذا المكان.

ولدى الفراغ من القداس، سعينا إلى هنا وإلى هناك وطفنا حول الأماكن المقدسة في هيكل الرب، وقلنا لهم وداعاً مع الدموع، لأنه كان من الصعب بالنسبة لنا مغادرة هذه الأماكن الحلوة والمحبوبة جداً لدينا،

بسبب المسرات الكثيرة التي تلقيناها في هذه الأماكن المقدسة، من خلال تقبيلها، ولدى فراغنا من تقبيل الأماكن المقدسة، أخذنا ننتظر قدوم السادة المغاربة، ومن ثم اخراجنا من الكنيسة، مثلما فعلوا دوماً من قبل، لكنهم تأخروا لبعض الوقت، وقد تعجبنا تجاه ذلك، وتساءلنا لماذا لم يتم اخراجنا، وخشنا أن يكونوا قد قصدوا الاحتفاظ بنا سجناء هناك، وأنهم قد تدبروا تهمة ملفقه ماضدنا، وقدم في الوقت نفسه عبيد الرئيس كالينوس ووصلوا إلى باب الكنيسة، وأخبرونا من خلال فتحة الباب هناك بأن المعلم كالينوس، أي ترجماننا كان جاهزاً، وأنه كان منتظراً مع الحمير والجمال لإخراجنا بسبب سجننا الطويل الأمد، وفي حوالي منتصف النهار، جاء السادة المغاربة الذين احتفظوا بمفاتيح ضريح الرب، وتركونا نخرج، وذهبنا مباشرة إلى أماكننا، وتغدينا بسرعة، واستعدنا للمغادرة، وفق الطريقة المشروحة بعد تاريخ الهيكلين وتاريخ مدينة القدس.

هنا نهاية الحج كله إلى القدس.

مع أنه مما تقدم وقيل، من الممكن جمع رواية متفرقة عن مدينة القدس، مع ذلك سوف أقوم في هذا المكان بشكل خاص بوصفها، ووصف أوضاعها الحالية، دون أن اتحدث عما كانت في الأيام الخالية، بل سأتحدث عن وضعها الحالي، وكثير من الأوصاف لهذه المدينة يمكن الوقوف عليها، وهي تتحدث عن أوضاعها القديمة، من ذلك مصنف يوسفوس «حرب اليهود» — الكتاب السادس، الفصل الثامن، يضاف إلى ذلك لدى مصنف Speculum Historiale — الكتاب: ٢٦، الفصل: ١٠٣، وأيضاً لدى المعلم أنطونيوس، في تواريخه — القسم الثاني — المجلد: ١٦، الفصلان: ١٣ و ٦، وكذلك في ذيل التواريخ — الكتاب الثامن، ص ١٥، ولدى الراهب بوركارد، الذي كان من طائفة القديس دومينيك، في كتابه الصغير الذي وصف فيه الأرض المقدسة،

وقدم به رواية صحيحة.

وقام بعض من كل من القدماء ومن المعاصرين برسمها على الورق، وهكذا صار من الممكن رؤية مظهر هذه المدينة المرغوبة كتابة ورسمًا، وبناء عليه، سوف أبذل أنا شخصياً جهدي لتقديم رواية عنها، فإذا نسيك يا قدس، لتنس يدي اليمنى براعتها، وليلتصق لساني في سقف حلقي، إذا لم أتذكرك، ومن أجل أن أكون قادراً على فعل هذا بوضوح أكثر أضفت إلى روايتي عن المدينة المقدسة، رواية عن هيكل الرب، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان ، وكذلك عن هيكل كنيسة الضريح المقدس، الذي يسمونه القيامة، لأنه من دون وصف هذين الهيكلين، من غير الممكن عرض أوضاع المدينة المقدسة، مشاهداً أن جميع أبنيتها القائمة، وجميع أبنيتها المهدامة، وكل قداستها وكل شرورها، تعتمد عليهما، علاوة على ذلك يحتل هذان الهيكلان مع ساحتيهما شطراً كبيراً من المدينة، ولذلك لا بد من أن يكون لهما نصيبهما في أعمال الوصف.

وصف مدينة القدس المقدسة في وضعها المعاصر، وهذا هو الفصل السادس والأخير من الشطر الأول

من كتاب الجولات والرحلات

[٢٥٥] بدأ وجود مدينة القدس الحاضرة الأعظم جلالاً وقدماً في سنة ٢٢٤٢، من خلق العالم، أي ٩٥٧، سنة قبل تجسيد الكلمة، وقد بنيت إثر طوفان نوح مباشرة، من قبل ابنه الكبير سام، وعاش سام هذا تبعاً لروايات الحكماء حتى أيام إبراهيم، وكان هو ملك صادق ملك سالم، وذلك حسبما جاء الخبر في رسالة جيروم إلى إيفاجيوس -Eva-grius، وكذلك حسب رواية مصنف الـ Speculum Historiale، ورواية يوسفوس في الكتاب الأول ص ١٧٨.

فبعد الطوفان، جاء بتوجيه من الرب إلى هذا المكان، وبنى الهيكل هناك، الذي أطلق عليه اسم «سالم» ومعنى هذه التسمية وترجمتها «عدل» أو «سلام» أو «استنفاد الكمال»، أو «ذاك الذي يبعد الموت»، لأن ملكيصادق كان أول كاهن، وكاهن أعلى للرب العلي الأعلى، وكان يقدم الخبز والخمرة في الهيكل الذي بناه على جبل أكر (الجمجمة)، ومنه رأى إبراهيم، البطريك العظيم القداسة، أنه جدير أن يتلقى مباركة منه، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٤، وكنت قد تحدثت عن هذا الكاهن من قبل في ص ٥١٥، ولتعرف كم كان عظيماً، اقرأ الرسالة إلى العبرانيين: ٧.

وقام هذا الرجل بتكريس وتقديس هذا للرب، ولذلك كانت هذه المدينة مقدسة منذ أيامه حتى هذا اليوم، ولم يسمح الرب قط للمذنبين بالإقامة فيها طويلاً بسلام، كما هو واضح للإنسان الذي يقرأ التاريخ التوراتي كله، والتواريخ، والأخبار.

غير أن العقل يحتاج أنه حتى في أيام أبونا الأول آدم، كان هناك

نوعاً من أنواع الخلوات فوق موضع الجمجمة على جبل المدينة المقدسة، بسبب أن آدم قد كشف له عن مخلص الجنس البشري، وطريقة الخلاص ووقته، وإليه كُشف أيضاً عن مكان الخلاص، وبما أنه — وقتذاك — لم يكن بإمكانه رؤية المخلص في أيام حياته، كما لم يكن باستطاعته البقاء حياً حتى أيام المسيح، قام بتشريف مكان الخلاص بشكل رائع، وغالباً مازاره وصلى فيه، هو وأولاده، وأخيراً عندما رأى أن موعد موته بات وشيكاً، انتقل من الخليل، حيث كان يسكن، وصعد إلى موضع الجمجمة، وسدد دين الموت، لأنه عرف بأن المسيح، الذي هو آدم الثاني، سوف يذهب في هذا المكان بالموت الذي جلبه إلى العالم، وحمل أولاده جسده إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وذلك باستثناء رأسه، الذي بقي في موضع الجمجمة، ولذلك عامل أولاده ذلك المكان باحترام.

ويمكننا أن نعتقد أيضاً أن سام بن نوح، امتلك هيكلاً هنا بعد الطوفان، ومع ذلك كان هنا خلوة أو مصلى قبل الطوفان، وهنا أيضاً قدم إبراهيم كبشاً ضحية عوضاً عن ابنه، وقد حدثنا عن هذا، الأخبار العبرية، وكذلك أمبروز وخريسوستوم، وجيروم، والأخباريون ومع ان التعليقات على متى: ٢٧، قد قالت بأن الذين يؤكدون بأن آدم قد دفن في الجمجمة لم يقولوا الصدق، إن هذا لا يتعارض مع ما قلناه، لأننا نقرّ بأن جسده قد دفن في الخليل، حسبما جاء الخبر في يشوع: ١٤، لكن رأسه بقي على جبل الجمجمة، فقد قرر الرب هذا، وعندما كان آدم يموت، رجا أولاده أن يفعلوا ذلك، وأستخلص من هذا كله أنه حتى الطوفان قد كان هناك على الأقل خلوة أو مصلى، وهيكل فوق موقع مدينة القدس، من دون وجود سكان بشريين، ولم ينظر إلى موضع الجمجمة على أنه مقدس بشكل خاص حتى أيام الرومان، الذين لكراهيتهم لليهود جعلوا منه موضعاً لتعذيب المجرمين ولإعدامهم، إنما

بصلب المسيح ردت جميع القداسة إلى المكان، ولسوف يبقى هكذا إلى الأبد، ومن أجل هذا المكان نفسه انظر ص ٤٨٨، ٥٤٠.

★★ ★★ ★★

وتبعاً لاختلاف الأشخاص والأزمان، تلقت هذه المدينة أسماء مختلفة، فقد دُعيت باسم «سالم» في سفر التكوين: ١٤/ ١٨، ودُعيت أحيانا من قبل الشعراء باسم «سوليا»، وجاء اسمها «يوس» في يشوع: ٨/ ١٥، وأورشليم، في سفر القضاة: ١٩/ ١٠، وباسم «هيروسوليا» في متى: ٢، وفي لوقا، وباسم «بيدر أرنان» في سفر أخبار الأيام الأول: ٢١/ ١٨، وكذلك ورد اسمها لدى جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، وباسم «أريئيل» في سفر إشعيا: ٢٩، و«ابنة صهيون»، في سفر زكريا: ٩/ ١١، و«المدينة الدموية» في سفر حزقيال: ٢٢/ ٢، و«المطلوبة المدينة غير المهجورة» في إشعيا: ٦٢/ ١٢، و«مدينة قوية» في سفر إشعيا: ٢٦/ ١، و«مدينة الرب» في المزمور: ٧٦، و«كرسي الرب» في إرميا: ٣/ ١٧، و«السيدة في البلدان» في مراثي إرميا: ١/ ١، و«العظيمة بين الأمم» في مراثي إرميا: ١/ ١، و«وادي الرؤيا» في إشعيا: ٢٢/ ١، وحول هذا النص انظر شروح دي ليرا، و«سدوم» في رؤيا يوحنا: ٢، و«البرج» في متى: ٢١/ ٣٣، و«إيلياء» نسبة إلى الامبراطور إيلْيوس هديرانوس، علاوة على ذلك غالباً مادعاها جيروم— ومن الممكن للانسان أن يقول دوماً— باسم هاليا Halia، وفي هذه الأيام يدعوها الاغريق باسم هاليا، وكابيتوليا، وذلك مثلما فعل بطليموس، ومثل هذا دُعيت من قبل يوسسيوس باسم «الجريزا» Algariza أي «الجبل العالي جداً» ويطلق عليها المسلمون اسم الأقصى، لكن اللاتين يسمونها إما أورشليم أو ييروسوليا Jer- usolyma أو المدينة المقدسة، أو يطلقون على المدينة كلها اسم جزء منها، وبذلك يسمونها «الضريح المقدس».

وكانت هذه المدينة دوماً أدنى من أكبر المدن، وأكبر من أصغرها، وهي في هذه الأيام بمثل هذا الحجم حيث لم تتوسع إلى الحجم الكبير، ولم تقلص فتصبح صغيرة، ذلك أنها ليست أصغر من مدينتنا أوغزبورغ Augsburg في سوابيا، وكنت قد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل، وطول أسوارها التي تحيط بها الآن هي نفسها كما تركها الامبراطور ايليوس هدريانوس، وهذا مأسوف نبرهن عليه فيما بعد، علماً بأننا كنا قد تحدثنا عن حجمها من قبل.

وكان هناك في العصور القديمة أبواباً كثيرة تقود إلى هذه المدينة، والذي يمكننا استخلاصه من الكتابات المقدسة أنه قد كان هناك ثمانية أبواب رئيسية، وإذا قرأنا أنه هناك أكثر من ذلك، فمرد ذلك إما لأن الباب الواحد له أكثر من اسم، أو لوجود أبواب فرعية صغيرة إلى جانب الأبواب الرئيسية، التي إليها انتمت أسماء هذه الأبواب الفرعية، ولم أستطع في العصر الحديث الوقوف على أكثر من خمسة أبواب، فباتجاه الشرق هناك الباب الذهبي، وهو مغلق الآن، وكنا قد تحدثنا عنه من قبل، ويوجد بين الشرق والجنوب باب الدمن (القاذورات)، وهو أيضاً تقدم وصفه من قبل، ويوجد في الجهة الجنوبية باب النبع، الذي من خلاله يذهب الانسان إلى نبع سلوان، ويوجد في الجهة الغربية باب نتجار، أو باب السمك، وكنا أيضاً قد تحدثنا عنه من قبل، وهناك في الشمال باب إفرايم، الذي يسمى أيضاً باب القديس اسطفان، وهناك مسافة كبيرة بين باب السمك، وباب القديس اسطفان، لأن باب السمك قائم قرب الزاوية حيث يتصل السور الجنوبي بالسور الغربي، وليس هناك على طول السور الغربي باب آخر حتى يصل الانسان إلى باب القديس اسطفان القائم في السور الشمالي، قرب الزاوية التي يتصل بها بالسور الشرقي، وكان القديس يوحنا قد رأى في سفر الرؤيا— الاصحاح: ٢١، اثني عشر باباً في القدس السماوية وهو رقم لم تملكه

هذه المدينة قط.

وكان فيما مضى على طول إطار الأسوار والشرافات، أبراج، من الممكن لنا تعقب خرائبها، وكان المسلمون قد رموا هذه الأبراج أرضاً، وبنوا أبراجاً أخرى داخل المدينة، على مقربة من المساجد، لاستخدامهم في شعائرهم، ذلك أنهم لا يهتمون كثيراً، ولا يتعبون أنفسهم بشأن تحصين المدن، لكنهم يراقبون بدقة الدخول إلى البلاد، وكان فيما مضى قياس السور والشرافات ثلاثة وثلاثين غلوة، وذلك يشمل كامل الاستدارة، فهذا ماحدثنا به يوسف في الكتاب الخامس، الفصل الثامن، وكانت الأسوار في الماضي القديم قوية، ومزدوجة، كما سلف لنا وبيننا ذلك، وللمدينة خنادق من جانبي الغرب والشمال، وهناك من الجهة الشرقية وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب وادي صهيون.

وفي الداخل، هذه المدينة تلية، وغير مستوية، لأنها بنيت فوق أماكن عالية، وجبل صهيون هو الأعلى من البقية، ويقوم على السفوح الشمالية لجبل صهيون جزء كبير من المدينة، ويقوم على كتف جبل صهيون جبل الجمجمة، وهو الذي يدعم كنيسة الضريح المقدس مع جزء كبير من المدينة، وهناك أيضاً جبل موريا، الذي فوقه يقف هيكل الرب، مع الجزء الأساسي من المدينة، وعلى هذا يصعد الانسان وينزل في كل مكان خلال المدينة، وهذه الجبال لا تمتد إلى قمم عالية، بل هي نفسها قمم عريضة وواسعة للرابية الرئيسية التي تقوم عليها المدينة، وهذا ما جعل المدينة غير مستوية، وهذه الرابية كلها قد ورد ذكرها في المزمور الثامن والعشرين قوله: «وأدخلهم في تخوم قدسه هذا الجبل الذي اقتنته يمينه»، ومثلما مدينة بازل تلية، كذلك هذه المدينة، ففي بازل تماثل هضبة القديس ليونارد، جبل صهيون في القدس، وهضبة القديس بطرس تماثل جبل الجمجمة، وهضبة القديس مارتن جبل موريا، وهناك على كل حال فوارق كبيرة بالشكل والتركيب بين هضبة وأخرى.

وكما قلنا من قبل، ان شطراً كبيراً من المدينة مشغول من قبل هذين المعبدتين المشهورين اللذان غالباً ما يرد ذكرهما، وهما هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان، وهيكل الضريح المقدس، وذلك مع ساحتيهما الواسعتين، والأبنية المتصلة بهما، وبالإضافة إلى هذين، هناك موزع في المدينة كثير من البيع للهراقة، وعدد كبير من مساجد المسلمين، وكنس اليهود، ومعابد السامرة، والشوارع الرئيسية مغطاة بسقوف معقودة، ويقف تحت هذه السقوف المعقودة حوانيت التجار من على الجانبين، ومطابخ الطباخين، ويقطن في الشوارع الأخرى الأناس العاملين.

وكقاعدة بيوت المدينة مبنية بجدران حجرية، مع أن أكواخ الناس الفقراء معمولة من الطين، ولقد رأيت هناك في المدينة بعض البيوت الكبيرة الجيدة، لكن الجزء الأكبر من المدينة مشعث، والبيوت قائمة غربة من دون أي سكان، ولهذا السبب لا تحمل جثث الجمال الميتة والخيول، والحمير، والكلاب وماشابه ذلك إلى خارج الأسوار، بل تلقى في الأماكن المهملة في داخل الأسوار، بين البيوت المهدامة، ومع ذلك يوجد في الأماكن والأجزاء المسكونة أعداد كبيرة من الناس اجتمعت من كل أمة تحت قبة السماء، كما جاء في أعمال الرسل: ٥/٢، وفي الحقيقة هناك أكثر من خمسمائة يهودي، وأكثر من ألف مسيحي من كل طائفة وبلد، إنما أقلهم جميعاً هم من أتباع الطقوس اللاتينية.

وليس فيها ماء، إلا ما يسقط من السماء، أو ما يجلبونه إليها بشكل فني، خلال مجاري مائية، كما سلف لي وتحدثت، ويوجد في المدينة أماكن كثيرة لخزن الماء، في برك، وخزانات وصهاريج، وأعداد كبيرة، من الصهاريج والأقنية، ولذلك هناك في المدينة ما يكفيها من مياه، وملك مصر، الذي هو السلطان، هو السيد هناك، وقد عين ولاية لحكم شعب البلاد، وتراجمة لحكم الغرباء والحجاج من كل من المسيحيين واليهود، وعين ممالك لحكم رجال الحرب، وهكذا نجده يحكم الناس بقوة مدنية

هي سلطة مطلقة.

والذي يقرأ الكتابات المقدسة، وكتب التاريخ يعرف أن هذه المدينة قد تعرضت منذ بدايتها حتى الآن لكثير من المصائب، وغالباً ماأحرقت، واستولت أمة عليها وطردت منها أمة أخرى، وكثيراً ماتعرضت للدمار، وشملها الدمار حتى أساساتها، فقد تعرضت للتشيعث من قبل نبوخذ نصر، ملك البابليين، وبعد ذلك من قبل أسوبيوس Asobeus ملك المصريين، ثم من قبل أنطيوخوس، وبعده من قبل بومبي، وبعد هؤلاء استولى على البلدة هيرود الكبير، وسوسيوس Sosius، إنما من دون أن يؤذيها.

وبعد ذلك، أي بعد آلام الرب، دمرها تيتوس دماراً تاماً، وسواها بالأرض، وحطم أساساتها، ومع ذلك ترك بعض الأبراج القوية قائمة وكذلك السور الغربي، حتى ترى الأجيال التالية، كم كانت المدينة حصينة، ومع ذلك استولى عليها الرومان الشجعان، وقد ترك هذه الأماكن الحصينة لتستخدم كقلعة للذين قرر تركهم هناك، كحامية للبلاد.

وبهذا التهديم كان شقاء المدينة مع أبنائها هائلاً إلى درجة أن مامن انسان يقرأ الرواية التي قدمها يوسفوس، دون أن يبكي ويحزن، وكان سبب هذه الفاجعة العظيمة هو وحشية المراقب العام فلورس Florus، الذي أنزل باليهود في القدس مصائب وعذبهم بلا حدود، حتى وصل بهم الغضب إلى التجمع للعصيان ضد الرومان، وخرجوا بثورة وقتلوا كثيراً من الرومان، وطردوا كستيوس Cestius، حاكم سورية، خارج البلاد، وكان اليهود أنفسهم في داخل المدينة عدة أحزاب، فقد كانوا منقسمين إلى ثلاث فئات، وقبل أن يقدم الرومان قتل أحدهم الآخر في المدينة بشكل وحشي، وافتعلوا الحرائق، وتصارع أحدهم مع الآخر نهاراً وليلاً، صراعاً لايمكن إيقافه، وكان السبب الحاسم لهذه

المشاكل كلها هو اعدام يوحنا المعمدان، وصلب المسيح الناصري، ومقتل جيمس الرسول، وهذه أمور عرضها مطولاً وبشكل مؤلم في كتابه حول «حرب اليهود».

وبعد تهديم المدينة الذي وقع في السنة الثانية والأربعين بعد آلام الرب، أصبح المكان وكرّاً للصوص وللقنلة لسنين طويلة، وذلك حتى أيام الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي سمع عن الفوضى في ذلك المكان، فقدم إليه في سنة ١٢٤م فهدم الجزء الذي أعيدت عمارته من المدينة، وطرد وقتل مقترفي الآثام، ثم كان أن استقر رأيه على وجوب قيام مدينة هناك، فعاد مجدداً سنة ١٣٩م، وأعاد بناء المدينة ووسّعها، وجعل في داخل الأسوار أماكن آلام الرب وقيامته، الأمر الذي سوف نتولى شرحه فيما بعد بوضوح أكبر، وعمل مدينة جديدة، سماها ايلياء، اشتقاقاً من اسمه.

وبعد إعادة البناء هذه، لم نقرأ بأنها دمرت دماراً كلياً، بل تعرضت لدمار جزئي، واقتيد سكانها إلى السبي، كما أنها لم تنقل قط من مكانها، فهذا واضح مما أعلنه غريغوري في عظته حول نص «بكى يسوع عندما رأى المدينة»، لكن المدينة توسّعت، كما ستحدث عن ذلك الآن، وكما سلف وتحدثنا عن ذلك من قبل.

والآن مع أن هذه المدينة قد تأثرت بكثير من الفواجع التي لا مثيل لها، لم يجر نسيان بدايتها ولا أوضاعها، مطلقاً بل هي باقية بشكل دائم، بمثابة شاهد أبدي بين أمم الأرض، وهي بذلك تختلف اختلافاً كلياً عن أحوال أعظم المدن شهرة في العالم، من أمثال: روما وطرودة، ذلك أنه مامن انسان يمكنه أن يعرف بشكل مؤكد من الذي كان المؤسس لروما، بسبب عدم الوفاق بين الذين عالجوا موضوع أصلها، وكما حدثنا كاتب «عجائب الدنيا» فقد قال سالوست Sallust بأنها قد بنيت من قبل تروجان Trojans وقال يوسبيوس بأنها قد بنيت من قبل

رومولوس، وقال كتاب آخرون بأنها قد بنيت من قبل آخرين ، في حين يمكننا البرهنة على مؤسس القدس المقدسة وتاريخ تأسيسها من الكتابات المقدسة، كما تقدم القول، ومع الاقرار بأن رومولوس قاتل أبيه قد أسس روما بالسلب والنهب، كما تحدث أوسوس عنه، فقد جاء تأسيسها بعد زمن طويل من تأسيس القدس، في أيام حزقيا، ملك اليهودية، أي بعد ألفين ومائتين وثلاثين سنة من تأسيس مدينة القدس، وسبعمائة واحد وخمسين سنة قبل ميلاد المسيح، وذلك في سنة ٤٤٨٤ من خلق الدنيا، وإنه لأمر مثير للدهشة أن يكون أصل مدينة بمثل هذه الشهرة غير واضح، وألمح جيروم في رسالته إلى بولينوس إلى هذا بقوله: « جلب هذا العصر أمراً عجباً، و لم يسمع انسان فيما مضى من أيام، أن يبحث أناس قد دخلوا إلى مثل هذه المدينة العظيمة عن شيء ماهو ليس موجود فيها»، وكانت طروادة، تبعا لهومر (الالياذة: ٤ / ٤٤) أعظم المدن تحت الشمس، وتحت قبة السماء المليئة بالنجوم، ومع ذلك دمرت بشكل جعلت أوفيد Ovid يقول: « حقول قمح تتماوج الآن حيث قامت طروادة فيما مضى»، وأكثر من هذا هو أن مامن انسان يمكنه أن يقول أين قامت طروادة، فطروادة العظيمة التي كانت حاضرة آسيا كلها، قد تهدمت كلياً، وأصبحت نسياً منسياً حتى أنه من غير الممكن رؤية جسدها أو أثرها، فضلاً عن هذا، فإنهم يقولون بأن المكان الموجود إلى جانب البوسفور، حيث من المفترض لدى بعضهم أن طروادة قد قامت فيه، هو من جميع الجوانب ضيق جداً لاستيعاب مدينة مشهورة، لكن هذا ليس هو الحال بالنسبة لقدسنا، التي تأسست قبل طروادة بأربعمائة وثلاث وثمانين سنة، وهي مدينة مشهورة حتى هذه الأيام، وكانت طروادة قد تأسست في أيام أجوث Ajoth (إهود Ehad؟) القاضي في بني اسرائيل (الملوك: ٣)، ويقول بعضهم بأنها قد بنيت إلى جانب البوسفور، ويقول بعضهم في الدردنيل من قبل واحد اسمه تروس Tros وقد دمرت في سنة مائتين وخمس عشرة سنة بعد

تأسيسها، وذلك في الأيام التي كان فيها عبدون قاضي اسرائيل، وبشأن هذا القاضي، انظر سفر القضاة: ١٢، وأيضاً من أجل الاطلاع على بيان عن طروادة انظر القسم الثاني ص ١٧٤.

ووضح لدينا الآن مما قيل بأن القدس هي واحدة من أعظم المدن قدماً في العالم، ذلك أنها أقدم من تريفس Treves بألف سنة وثمانين سنوات، ومن طروادة بألف سنة وأربعمئة وثلاث وثمانين سنة، وهي قائمة مستمرة حتى هذا اليوم، لأن الرب قد اختارها، ولهذا قيل في المزمور: «لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكناً له، هذه هي راحتي إلى الأبد ههنا أسكن لأنني اشتيتها» (المزامير: ١٣٢/١٣ - ١٤)، وكذلك في سفر أخبار الأيام الثاني: ٦/٥ قوله: «منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم أختَر مدينة من جميع أسباط اسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولا اخترت رجلاً ليس رئيساً لشعبي اسرائيل. بل اخترت اورشليم ليكون اسمي فيها».

ولكن قد يقول انسان ما: «إنني أقر بأن القدس قد جرى اختيارها، وكانت مدينة مقدسة قبل موت الرب، لكن بعد اقرار مثل هذه الجريمة العظمى فيها، لم تعد تستحق تسميتها مقدسة، بل بالحري مدنية، وغير نظيفة»، وقد أجاب على هذا جيروم في رسالته إلى هاديبوس Haedibius حول موضوع صراخ الرب على الصليب، حيث قال: «ينبغي أن لا يظن انسان أنه أمر غريب بعد موت المخلص، دعوة القدس باسم المدينة المقدسة، لأنه حتى وقت خرابها، اعتاد الرسل دوماً على دخول الهيكل وإقامة القداسات الشرعية من أجل اليهود المؤمنين، فقد أحب القدس كثيراً، وبكى عليها وناح، وعندما كان معلقاً على الصليب قال: اغفر لي يا أبي»، هذا وعلاوة على ذلك تناول جيروم هذه المسألة في رسالته إلى باولا، ويوستوخيوم في رسالته إلى مرسيليا، ولقد بحث جيروم في هذه المسألة مطولاً، وقال الشيء الكثير في إطرء

الأرض المقدسة ومدينة القدس.

★★

★★

★★

هيكل الرب الذي يدعى باسم هيكل سليمان، والأقصى وبيت إيل

صارت مدينة القدس مدينة مجيدة ومقدسة بهيكلها، حيث إليهما، تدين إلى حد بعيد، بحجمها، لأنه لو جرى نقل الهيكلين والبيع المتصلة بها والمساجد، لكان المتبقي منها قرية بائسة، ومن الممكن مشاهدة هذا الشيء في مدننا أيضاً، فلو أنه جرى نقل الكنائس، والديرة، والبيع، مع جميع الأبنية المتعلقة بها، من كولون، ل بقي منها بلدة صغيرة فقط، ومثل هذا يتعلق بالبندقية، فلو جرى نقل الديرة، والكنائس، لكان المتبقي ليس أكثر من بلدة.

وبما أنني سأحدثكم الآن عن هيكل القدس، لا بد من أن أحدثكم أولاً عن الهيكل الأقدم، فنحن نعرف من الكتابات المقدسة، أنه عندما وعد الرب باعطاء أرض كنعان إلى آبائنا، ألمح إليهم أنه هناك في تلك البلاد مكان هو سوف يختاره ليكون هيكلًا، وليكون من أجل الأضاحي، وهو سوف يبنيه لهم في الوقت الذي سوف يختاره، وعلى هذا نقرأ في (سفر التثنية: ١٢) قوله: «عندما ستصلون إلى الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تقيمون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشاخنة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريتهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لاتفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم

وعشوركم، ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم، وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم» ولم يعلن الرب عن مكان هذا الموضع حتى أيام الملك داوود، الذي أراه الملاك أرض بيدر أرونا اليبوسي على جبل موريا وكان أرونا هذا من الأمم، وكان يبوسيا، كما أنه كان غنيا امتلك شطراً كبيراً من المدينة، وهكذا اشترى داوود منه أرض البيدر، التي أريت له، وهناك أقام مذبحاً، بناء على أمر من أحد الملائكة، وكلف ابنه سليمان ببناء هيكل في ذلك المكان نفسه، ومن أجل هذا الموضوع، انظر سفر صموئيل الثاني: ٢٤، وسفر أخبار الأيام الأول: ٢١، وبشكل خاص سفر أخبار الأيام الثاني: ٣.

★★ ★★ ★★

وبناء عليه بدأ سليمان في السنة الرابعة من ملكه ببناء ذلك الهيكل، الذي كان مشهوراً في جميع أنحاء الدنيا، وانتهى في السنة الثامنة، كما جاء في أخبار الأيام الثاني: ٢، فقد بني هذا الهيكل في سنة ٤١٦٩ بعد خلق الدنيا، و١٠٣٣ قبل ميلاد المسيح، و١٤٨٠ سنة بعد مجيء بني اسرائيل من مصر، وكان طول الهيكل ستين ذراعاً هندسياً، وعرضه عشرين، وارتفاعه ستائة وعشرين، وأمر بتذهيب داخله كله بصفائح الذهب، وبتبليطه برخام ثمين، فضلاً عن هذا، كان هناك مذبحاً نحاسياً طوله عشرين ذراعاً، وانظر حول وصف جميل لهذا الهيكل لدى كوسا، حول ★ ★ ★ (١) الكتاب التاسع — الاصحاح الرابع.

١ — كذا بالأصل، وقيمة المعلومات المقدمة أنها تعبر عن العقلية الأوربية الدينية التي آمنت آنذاك بالأسطورة، ذلك أن الحفريات الأثرية والدراسات الموثقة نفت بناء — أو وجود — هيكل أول أو غير ذلك من الهياكل، وأن تكون القدس قد عرفت ملكاً اسمه سليمان، وعلينا أن نميز بين النبي سليمان الذي لانعرف متى ولا أين عاش، وبين الملك الوهمي المخترع الذي اسمه سليمان ووردت أخباره في أسفار العهد القديم.

وصنعت الأواني التي احتيجت من أجل الطقوس في الهيكل، كلها من أفضل أنواع الذهب، علاوة على ذلك، جلب سليمان ووضع في الهيكل كثيراً من الذهب والفضة، كان داوود قد كرسها له، وبعد الانتهاء من كل شيء كما ينبغي كرس الهيكل إلى الرب بطقوس فخمة، وجلب إليه تابوه عهد الرب، الذي كان فيه لוחي العهد فقط، ووعاء المن، وعصا هرون، ولم يسمح منذ ذلك الحين بتقديم قرايين في أي مكان إلا في هذا الهيكل، ومع ذلك بقي الناس بعد ذلك لوقت طويل معتادين على تقديم قرايينهم فوق الأماكن العالية، وهو ذنب غالباً ما أقدم ملوك القدس على لومهم عليه، أي أنه طالما الهيكل موجود هم لم يقلعوا عن استخدام الأماكن العالية.

وحدث أنه بعد مرور أربعمئة واثنين وأربعين سنة على بناء الهيكل، رأى النبي إرميا أن النهاية قد اقتربت، وباتت وشيكة، فأخرج من الهيكل تابوه العهد، وحمله عبر الأردن إلى الوادي الموجود تحت جبل عبريم، الذي عرف باسم عربات مآب، كما سلف وذكرنا ذلك، وبدعائه هناك تسبب باخفائه في الصخر، حيث كتب باصبعه على الصخر، وطبع هناك اسم الرب بأربعة حروف، وعمل ختماً مثل الختم الذي يطبع بالحديد، واسم الرب هذا مخفي بشكل محكم بغيمة، بحيث لا يستطيع انسان من الخارج العثور على المكان، كما لن يتمكن أي انسان من قراءة ذلك الاسم حتى هذا اليوم، ولن يتمكن أحد من فعل ذلك حتى نهاية الحياة، ولن يستطيع أي انسان اخراج التابوه من هناك، باستثناء موسى فقط وهرون، وورد خبر هذا في سفر المكابيين الثاني: ٢، وفي الـ *Speculum Historiale*، قبل نهاية حكاية توبت، وبعد أخذ التابوه الذي كان مجد الهيكل، وابعاده، جاء نبوخد نصر واستولى على القدس، وأحرقها مع صدقيا الملك، وأحرق أيضاً هيكل ربنا، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ٤، واقتاد السكان أسرى وأخذهم إلى بابل،

وبقي بعد ذلك موضع المدينة والهيكل مهجوراً لمدة سبعين سنة، أي حتى أيام داريوس، ملك الفرس، الذي سمح لليهود بإعادة بناء هيكلهم، وهو عمل انتهى في أيام حكم قورش، أي بعد ست وأربعين سنة، كما قرأنا في يوحنا: ٢/٢٠، لكن هذا الهيكل لم يكن مثل الهيكل الأول في العظمة والفخامة، ولذلك بكى اليهود الذين رأوا الهيكل الأول، حسبما قرأنا في عزرا: ٣/١٢، والآن، إن هذه القواعد قد أرسيت في أيام الأميرين: زربابل وشالتئيل، خمسمائة سنة وخمس وعشرين سنة قبل ميلاد المسيح.

وتعرض الهيكل — على كل حال — مراراً للنهب وانتهاك الحرمه من قبل الأمم، وتعرض شطر من أخشابه للحريق، ومع ذلك بقي متماسكاً حتى هذا العصر الذهبي لربنا يسوع المسيح الذي وعظ فيه بشكل رائع، وعمل فيه معجزات، حسبما حدثنا التاريخ المقدس للإنجيل، وواضح من إنجيل مرقس: ١٣/١-٢، الخ، بأن هذا الهيكل كان بناءً فخماً منتصباً فوق صخور ضخمة، وقد بقي قائماً لمدة اثنتين وأربعين سنة بعد آلام المسيح.

وحسبت السنوات، منذ السنة الثانية لحكم قورش — ملك فارس — حينما أرسيت أساسات الهيكل حتى تخريبه من قبل تيتوس بخمسمائة وتسعين سنة، وحسبت السنوات منذ تأسيس الهيكل أيام سليمان حتى تهديمه من قبل تيتوس بألف ومائة سنة وستين.

وبالنسبة لتفاصيل حساب هذه السنوات، كان هناك أولاً: من آدم إلى الطوفان ألفي سنة ومئتين واثنين وأربعين سنة، ومن الطوفان إلى إبراهيم كان تسعمائة سنة واثنين وأربعين سنة، وكان من إبراهيم إلى موسى، الذي أخرج بني إسرائيل من مصر، خمسمائة سنة، ومن موسى، والبناء الأول للهيكل خمسمائة سنة واثنين وعشرة سنة، ومن داريوس إلى أيام وعظ المسيح في الهيكل في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر

تايبيروس، خمسمائة سنة وثمان وأربعين، ومجموع هذه السنوات حتى تاريخ وعظ المسيح خمسة آلاف سنة ومائتين وثمان عشرة سنة.

وقال اسدوروس Isidorus : عندما انتهت المملكة والكهانة اليهودية، ولد المسيح في بيت لحم، في السنة الثانية والأربعين من حكم القيصر أغسطس، الذي على هذا كان قد بقي من حكمه خمس عشرة سنة إذا كان قد حكم سبعاً وخمسين سنة، وحكم من بعده تايبيروس لمدة اثنتين وعشرين سنة، وفي سنة حكمه الخامسة عشرة جرى تعميد المسيح حيث كان في الثلاثين من عمره، وجرى صلب المسيح في السنة التاسعة عشرة من حكم تايبيروس، وقال أمبروزيسوس Am-brosius : «كان من خلق العالم إلى تأسيس القدس أربعة آلاف سنة وأربعمائة وثمان وأربعين سنة، ومن تأسيس روما إلى ميلاد المسيح سبعمائة وخمس عشرة سنة».

وعندما حاصر تيتوس القدس، أحرق أولاً الهيكل، وبعد ذلك المدينة كلها، وهدم جدران الهيكل حتى أساساتهم، وأمر بقطع الجبل الذي وقف عليه، وأمر بالركام فرمي في وادي قدرون، وطم الخنادق التي كانت هناك، وسواها مع الأرض، وذلك حسبما قرأنا في «حرب اليهود» — الكتاب السابع، الفصل: ١٦، وفي أماكن أخرى كثيرة منه.

وقال يوسفوس بأنه بعملية الدمار الكلي هذه للمدينة هلك مائة ألف وعشرة آلاف يهودي بالجوع وبالسيوف، وأن مائة ألف أخرى من الأسرى قد بيعت بشكل علني واسترقت لأن المدينة كانت مليئة باليهود الذين تجمعوا هناك للاحتفال بعيد الفصح، وما من مسيحي كان حاضراً أثناء هذه الفواجع، كما قرأنا في مصنف يوسيبوس القيساري «التاريخ اللاهوتي» — الكتاب الثالث، الفصل الرابع حتى نهايته، وكانت الكنيسة التي اجتمعت مع بعضها في القدس قد تحبأت بفعل صوت الرب الذي طلب منها مغادرة تلك المدينة، والانتقال إلى

بلدة اسمها فحل، التي تقدم ذكرها معنا، والواقعة خلف الأردن، وكانت الغاية من ذلك، أن يكون الرجال المستقيمين والمقدسین الذين انتقلوا من القدس إلى هناك، قادرين على مشاهدة الانتقام الرباني كاملاً، وهو الذي أنزل على كل من الذين دنسوا حرمة المدينة وعلى غير الأتقياء من الناس، وذلك بطردهم من بلادهم وبتدميرها.

وعندما غادر الرومان مدينة القدس، بعدما سووها مع الأرض، عاد اليهود الذين كانوا متخفين في المخابىء إليها، وبنوا أكواخاً، وأقاموا مصلى منخفض في المكان الذي قام عليه الهيكل فيما مضى، وعادت الكنيسة إلى هناك أيضاً من فحل، لتقوم بعبادة الرب هناك، لكن اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطمت بما فيه الكفاية، أثاروا الاضطرابات، واذوا بشكل يومي الأناس المؤمنين وأفراد الأمم، الذين كانوا يسكنون هناك، لأنهم كانوا متوحشين إلى أقصى الدرجات، وقتلة، سفكوا دماء جديدة فوق القدس، التي كانت الآن مسواة بالأرض، وملطخة بالدماء.

وبقي المكان بهذه الحالة البائسة لحوالي ست وسبعين سنة، أي إلى أن صار ايلیوس هادریانوس امبراطوراً في سنة ١١٩، لتجسيد ربنا، حيث سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرك ثانية، فعبّر البحار بسرعة، وقدم إلى هناك، فوجد هناك كثيراً من الناس من كل من المسيحيين واليهود، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر، بسبب الخلاف بين دياناتهم، وكان هناك بالوقت نفسه أناس من الأمم ووثنيين يكرهون الديانتين معاً وبناء عليه وضع في المكان الذي بنى فيه اليهود مصلاهم، وذلك حيث أقام تابوه الرب فيما مضى تمثلاً لشخصه، حتى يجعل المكان ممقوتاً من قبل اليهود، ونصب في الوقت نفسه في موضع صخرة الجمجمة، حيث وقعت حادثة الصليب، تمثلاً لفينوس، وفي كهف ضريح الرب تمثال جوبيتر، حتى يجعل هذين المكانين مكروهين

من قبل المسيحيين.

أما بالنسبة للقتلة واللصوص الذين وجدهم، فقد عرضهم جميعاً على السيف، وطردهم وباع كثيراً منهم رقيقاً، واقتحم الحصون والأسوار التي تركت واقفة منذ أيام تهديم المدينة، وهدم كل شيء، ثم غادر، مخلفاً وراءه هناك والياً للمقاطعة، وعندما أدار هؤلاء القوم ظهورهم يتجولون في المنطقة، حتى يتمكنوا من العودة إلى القدس مع جيشهم، وقتها جمع اليهود أنفسهم واحتشدوا في المكان الذي قامت فيه القدس، وتشاوروا فيما بينهم، فدمروا عمود القصر الذي حمل تمثاله، وهدموا الهيكل، وعندما علم الامبراطور بهذا كان مغضباً، فوضع جانباً جميع أعماله الأخرى، وعاد إلى القدس مسرعاً، فقتل اليهود الذين وجدهم هناك، وباع كثيراً منهم عبيداً، وطردهم جميعاً إلى خارج حدود الأرض المقدسة، ومنع بموجب قرار حظر دخول أي يهودي إلى تلك البلاد، وعندما رأى أن المكان مناسباً لإقامة مدينة، صار أكثر لطفاً في عواطفه، وعطوفاً نحو المسيحيين، لكنه ظل أكثر قسوة وحدة ضد اليهود، وقام بتنظيف الموقع، وأمر بالأسوار المخربة في الجهة الغربية فرميت بالخندق، وسوى الأرض، وأدخل موضع الصلب وصخرة الضريح المقدس داخل الأسوار التي بناها حول المدينة، وأمر بإعادة بناء هيكل فينوس وجوبيتر هناك، وأقام فوق باب السمك، أو باب التجار خنزيراً منحوتاً من الرخام، من أجل ازعاج اليهود، حتى لا يحاول أحد منهم الدخول من هناك.

وبقيت المدينة على هذا الوضع لحوالي مائة وثمانين سنة، وبما أن موضع هيكل الرب تحول إلى موضع مكروه وغريب، بالنسبة للذين لا يعبدون الأوثان، بسبب وجود تمثال قيصر، وكذلك كان الوضع بالنسبة لمكان صلب الرب، وقيامته، وقد نسيت هذه الأماكن إلى أبعد الحدود، إنما في سنة ٣٨ (كذا) عندما عمل قسطنطين الكبير نفسه

امبراطوراً، وأصبح مسيحياً، وجدت أمه هيلانه الصليب، وهدمت الأصنام، وبنت هيكلًا فوق الأماكن المقدسة.

وتحسنت الآن أوضاع المسيحيين، في حين ازدادت أوضاع اليهود سوءاً كل يوم، وبناء عليه عبد المسيحيون الرب في القدس بسلام كبير لمدة ستين سنة، ففي سنة ٣٦٣، اضطربت أوضاع المؤمنين، حيث كان يوليان قد وصل إلى العرش، فقد كان مرتدًا عن الايمان الصحيح، وعن الإيمان بالديانة، وعندما سمع أنه يوجد في القدس كنيسة فخمة وتجمع كبير للمسيحيين، ذهب إلى هناك، وانتهاز فرصة مناسبة لاطهار كراهيته للمسيحيين، فقد ألقى القبض على القديس سيراك Cyriack، أسقف مدينة القدس المقدسة، وهو الذي كان قد عثر على الصليب المقدس، وقام بصلبه لأنه عمل موعظة حول مجد الصليب، وعندما سمع اليهود بهذا، قدموا محتشدين فرحين مسرورين، فحصلوا على حظوة القيصر، بوساطة كثير من الهدايا، وجعلوا المسيحيين موضع كراهية أكبر في بلاطه، وبعدما فكر كيف يمكنه إيذاء المسيحيين، قرر الرفع من شأن اليهود، فاستدعى إلى حضرته القيايين والأعيان بين اليهود، وسأهم لماذا لا يقدمون قرايين لربهم، لمعرفته أن شريعتهم تأمرهم أن يفعلوا ذلك، فخیل إليهم أنهم قد وجدوا الوقت المناسب فأجابوه قائلين: «نحن لانستطيع تقديم أضحية وفقاً لشريعتنا إلا في هيكل القدس، وليس هنا وهناك، ولذلك نرجو منكم ومن مراحكم منحنا إذنًا ببناء هيكل في المكان الصحيح، وهناك سوف نقدم أضحية من أجل سلامتك وسلامة الامبراطورية».

وعندما حصل اليهود على الاذن ببناء الهيكل، هاجوا إلى حد الجنون، ونشروا في كل مكان بأن جوليان — ذلك المرتد الشرير — كان النبي الذي وعدوا به في شريعتهم، ولذلك تقاطر اليهود من جميع الأماكن والبلدان، وشرعوا بالعمل فوق المكان الذي أحرق عليه الهيكل،

ومنحهم الامبراطور موظفاً من بلاطه ليتولى مراقبة انجاز البناء، وقد منح مالاً خاصاً وعاماً من أجل البناء، وجرت متابعة العمل بكل نشاط، وبدأ اليهود في الوقت نفسه بإهانة قومنا وكأن أيام مملكتهم قد عادت مجدداً، وقد هددوا المسيحيين بقسوة، وتعاملوا بوحشية معهم، وكانوا جميعاً قد امتلأوا بالعجرفة والتكبر.

وكانت الكنيسة تدار في ذلك الوقت من قبل الأسقف سيرل، وكان رجلاً مقدساً، وحدث أنهم عندما كشفوا عن الأساسات، أن أحضروا إلى هناك، حجارة كبيرة، وكلساً، وملاطاً، وخشباً، وبتاتوا لايحتاجون شيئاً لكي يقوموا في اليوم التالي برمي الأساسات القديمة، وارساء أساسات جديدة، غير أن الأسقف سيرل، قد أعلن، بعد تقدير دقيق للأمر، من خلال ماقرأه في نبوءات دانيال، حول هذه الأيام، أو من خلال ماتنبأ الرب به في الانجيل، أعلن بكل تأكيد، أنه من غير الممكن أن يتمكن اليهود من إرساء حجر فوق أخرى في ذلك المكان، وبات الجميع قلقاً حول التوقعات، وكان الضعفاء من المسيحيين مرعوبين، وكان الأقوياء منهم ليس لديهم من شك بأن اليهود سوف ينفذون خططهم، وفجأة حدثت معجزة، ففي الليلة التي بقيت على الشروع بالعمل، وقعت زلزلة عظيمة، ولم يقتصر أثرها على بعشرة حجارة الأساسات بالقرب والبعد، بل سويت جميع الأبنية التي كانت مقامة هناك، مع الأرض، ولحق الخراب بالبيوت التي سكنها اليهود مع العمال، وسحق الذين كانوا فيها وماتوا.

وعند حلول الفجر كان من المعتقد أنهم نجوا من هذه الكارثة لكن الذي حدث كان غير ذلك، لذلك جاء بقية الناس يركضون للبحث عن الذين سحقوا، وكانت البيوت قد غرقت في الأجزاء السفلى من الهيكل، كما كانت هناك أروقة معقدة، وكلها سقطت، وهناك كانوا قد احتفظوا بالأدوات الحديدية، والأشياء الأخرى المحتاجة للعمل، كما أنه

فجأة انبعثت من هذا المكان كرة من النار، وشرعت تسعى نزولاً في الشارع، وهي تحرق وتقتل اليهود الذين التقت بهم، وكانت تتحرك نحو الأمام ونحو الخلف، وكررت فعل هذا، مرة ثم مرة أخرى في جميع أرجاء المدينة، خلال ذلك اليوم كله، وأوقفت بلهيبها الانتقامي المحاولات الطائشة التي قام بها العنيدون من الناس، ثم إنه بسبب الخوف الهائل ولإرتجاف جميع الذين كانوا حضوراً، فقد أرغموا بوساطة رعبهم على الاعتراف بأن المسيح هو الرب الحقيقي الوحيد، ولكي لا يظهروا أنهم غير صادقين، ظهر في الليلة التالية على ملابس جميع اليهود، وبوضوح تام، علامة الصليب، حتى أن غير المؤمنين حاولوا غسل هذه العلامة وإزالتها، لكنهم لم ينجحوا بأية طريقة من الطرق، وبهذا صار اليهود وغير اليهود خائفين، ولذلك غادروا المكان، وتحلوا عن العمل الذي شرعوا به، وذهبوا عائدين إلى أوطانهم وهم مربكين تماماً، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يتجرأ اليهود على محاولة إقامة أي بناء، فوق موقع الهيكل، ولهذا بقي الموقع من دون هيكل لوقت طويل.

أما بالنسبة لمسألة متى بني هذا الهيكل ومن قبل من فإن كثيراً من الناس يتساءلون، والمقصود هو الهيكل المقام الآن فوق أرض بيدر أرونا المقدسة، وقال كاتب *Speculum Historiale* لدى حديثه عن إعادة بناء الهيكل بعد احتراقه: «ما من إنسان يعرف من الذي بنى هيكل الرب، الذي سمي الآن بيت إيل»، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل هيلانه، بعد العشور على الصليب، بنته مع كنيسة الضريح المقدس، ويقول بعضهم الآخر بأنه بني من قبل هرقل عندما أعاد الصليب وهو متصر من بلاد فارس، ويقول آخرون بأنه بني من قبل جستنيان، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل ملك مصر تشريفاً للأقصى *Halachibis*، أي الرب العلي الأعلى (كذا) وهذا هو الصحيح، ودليلي على ذلك أنني

وجدت في «تاريخ أنطونيوس» (الفلورنسي ١٣٨٩-١٤٥٩) القسم الثاني - العنوان: ١٣، الفصل ٤، الفقرة: ٤، أنه في سنة ٦١٩ لتجسيد الرب، وبعد مائتين وثلاث وأربعين سنة بعد يولييان، جلب الامبراطور هرقل حكمه إلى نهاية سيئة، وذلك بعدما حكم الامبراطورية وأدارها بشكل مزدهر لسنوات طوال، فقد انغمس بهرطقة الإرادة الواحدة، وبعد وفاة زوجته دنس نفسه بالزواج من ذوي القربى، ولذلك دخل عمر خليفة محمد ﷺ إلى سورية وفلسطين مع قوات لا تحصى من العرب، وانتزع كل شيء من أيدي المسيحيين، وفي سنين الفوضى هذه، استولى المسلمون على مدينة القدس المقدسة، وجعل السكان المسيحيين فيها رعية له، وفي أثناء إقامة عمر في القدس صار صفرونيوس على معرفة به، وتطورت العلاقات إلى حد أن عمر دخل إلى كنيسة الضريح المقدس معه لرؤية زينتها، وعندما كان عمر يتحدث مع الأسقف، سأله عمر عن المكان الذي قام فيه فيما مضى الهيكل، الذي دمر مع المدينة من قبل تيتوس أمير الرومان، واقتاده الأسقف إلى أرض بيدر أرونا، الذي كان مغطى وقتها ببيوت عادية، وحدد له مكان هيكل الرب بوساطة بعض آثار البناء القديم التي كانت باقية.

وأعطى عمر أوامر بوجوب تنظيف موضع أرض البيدر، ورصد مبلغاً من المال لنفقات ذلك، ووضع عمالاً لإعادة بناء الهيكل، لكن عندما أرسيت الأساسات غطست على الفور واختفت عن النظر، ولم يكن بالإمكان رفع الجدران، وعندما كان عمر يتعجب من هذا ويفكر به، أخبره أحد المتنبيين، أنه مادام أحد الصليبان قد بقي مرفوعاً وعالياً فوق جبل الزيتون في مواجهة الهيكل، فإن البناء لن يتناسك، لكن إذا ما أزيح ذلك الصليب وأزيل، يمكن للهيكل أن يقوم، وكان المسيحيون قد نصبوا صليباً عالياً على جبل الزيتون فوق في مواجهة المدينة، وغالباً ما كانوا يصلون تحته، وكانت صلواتهم بقوة فضائل الصليب فعالة إلى

حد أن المسلمين لم يكونوا قادرين على بناء الهيكل بقوة غدرهم، إلا عندما أزيل الصليب وتوقفت الصلوات.

ولو كان المسيحيون شجعاناً بما فيه الكفاية لحفظ ذلك الصليب، لما استطاع المسلمون قط بناء الهيكل، لأنني أعتقد أن الصليب قد أقيم من قبل القديسين كعلامة على حماية مدينة القدس، وخشية إقامة هيكل لعبادة غريبة فيها، ويمكنني أن أعلن بجرأة، لو أن هذا الهيكل لم يعمر، لما فقد المسيحيون قط القدس وكنيستهم، والمسلمون مغرمون جداً بهذا الهيكل الذي هو ملكهم، ولذلك طالما هو قائم لن يملك المسيحيون أي سلام في القدس، ولذلك يبدو أن من الأفضل تدميره، وإزالته من أساساته. بدلاً من تكريسه لاسم المسيح، كما حدث مراراً، وورد وصف الصليب المتقدم الذكر.... والرواية عن الهيكل تتبع.

وهكذا أنهى عمر بناء هذا الهيكل في مدة ليست طويلة، وأضفى عليه ممتلكات كثيرة، وما زال واقفاً منذ أكثر من ثمانمائة سنة، ولم يخرب من قبل أحد، وكان أولاً مصلى للمسلمين، وفيما بعد عندما استولى الصليبيون على البلاد، كرسوا الهيكل للمسيح، وكان الأفضل هو أن يقوموا بطحنه إلى مسحوق ناعم وإزالته كلياً، مشاهدين أنه المعبد الذي سبب فقدان مدينة القدس وخسارتها، ومجدداً عندما استرد المسلمون المدينة، أعادوا الهيكل لاستخدامات عباداتهم، وعلى هذا تنقلت ملكية الهيكل من وقت لآخر من أيدي فئة إلى أيدي فئة أخرى، وهو في هذه الأيام يحتل لدى المسلمين مكانة عالية من الاحترام، كما سوف نرى، وعلى هذا بني هذا الهيكل من قبل المسلمين، ومع ذلك غالباً ما قرأت في كتب حجاج صغيرة بأنه قد بني من قبل هيلانة المباركة، إنما عندما أنظر عن قرب إلى الهيكل [٢٦٠] أرى أن هذا غير صحيح، لأنه قد بني كلياً وفق طرائق المسلمين، وليس له شكل كنيسة مسيحية، لأن بابه الرئيسي يفتح من الشرق، وهو شيء لم أره قط في كنائس المسيح.

فيما يلي الوصف المعاصر لهيكل الرب

إن هيكل الرب الذي بني من قبل عمر ملك مصر، على أرض بيدر أرونا اليبوسي، وذلك حيث كان سليمان قد بنى بيت الرب، هو بناء ليس مساوياً لأشهر منشآت سليمان القديمة، ويطلق المسلمون عليه اسم الأقصى، في حين يسميه المسيحيون المتعلمون بيت ايل، بينما اسمه لدى المسيحيين غير المتعلمين هيكل سليمان، وهو بناء فخم، نفقات انشائه عالية، وكبير ومستدير، على شكل برج عظيم وواسع، ويوجد في داخل الجزء الدائري جدار آخر بني فوق الأرض، وهو جدار يحيط بالهيكل كله، ويوجد بينه وبين الهيكل ساحة واسعة، ويدعم هذا الجدار من الجانب الأول سقف مقنطر معقود، يغطي الدائرة كلها، ومن الجانب الآخر يستند السقف المقنطر على جدار الهيكل نفسه، أو بالحري على رواق من الأعمدة، الذي منه ينتصب الجزء الأعلى من الهيكل، لأن في داخله هناك دائرة من الأعمدة الرخامية، تمتد القناطر فوق رؤوسها حول الدائرة كلها، وقد بني فوق القناطر جدار مرتفع حول الدائرة كلها، ويوجد في داخل الجدار الخارجي الذي يحيط بالأعمدة، بمثل ارتفاع الأعمدة نفسها وانطلاقاً منها— كما قلت— قناطر معقودة فوق الأعمدة، ويوجد حول اطار الجدار الخارجي نوافذ مستطيلة كبيرة مزججة، مثل النوافذ التي في الكنائس، والمسافة ما بين نافذة وأخرى هي كبيرة بقدر النافذة نفسها.

والفراغ في الخارج مزين بأعمال الفسيفساء، بطريقة باهظة النفقات، ولهذا يشع حقل كل صورة من الصور بالذهب، في حين تتألف الصورة نفسها من رسوم أشجار النخيل، وأشجار الزيتون، أو صور الكروبيين، ذلك أنهم لا يسمحون بصور أخرى أو منحوتات في مساجدهم، والجزء الأعلى من الهيكل، الصاعد من الأعمدة، الواقفة في الداخل، قد بني عالياً حتى أنه مشرع في الهواء، وهو منبثق من الممشى المتقدم الذكر،

الذي هو عريض ومحيط، ويوجد في القسم الأعلى نوافذ متوالية كلها مستديرة، وكل واحدة منها تلامس الأخرى، لكن هذه النوافذ أقصر وأصغر من النوافذ الموجودة في الصف الأدنى، وله فوق أعلاه سقف (جملون) مقنطر معقود مغطى بالرصاص، وهو الذي كان مذهباً فيما مضى، وهو ما يمكن مشاهدته بوضوح في الوقت الحالي.

ويقوم منتصباً فوق أعلى السقف هلال كبير بقرنين عاليين جداً، وذلك حسبما يضع المسلمون فوق جميع مساجدهم، ذلك أنهم يضعون على أعلى مكان في مساجدهم أهلة على ظهورها مثل قوارب، وأحد التفسيرات، هو أن المسلمين حاولوا أن يسيروا في طريق وسط، وأن لا يظهروا مثل المسيحيين أو اليهود، ومع ذلك أن يكون لهم بعض الارتباط بهما ما، ولا يضع اليهود شيئاً خاصاً فوق كنسهم، ولم نقرأ بأن هكل سليمان قد كان له أي شيء في أعلاه، ولكن المسيحيين نصبوا من البداية صلباً مع دكة منتصبة فوق كنائسهم، وقام المسلمون حتى يميزوا عن كل من المسيحيين واليهود برمي الصلبان جانباً واحتفظوا بالديكة في أعلى أبنيتهم من دون صلبان، غير أنهم مع ذلك، مع الاحتفاظ بالديكة ظهروا أنهم يقلدون المسيحيين، ولذلك استبدلوا الديك بهلال مستند على ظهره، وهو تغيير سهل، لأن الديك برأسه وذيله المنتصب له شكل هلال مستند على ظهره، ولذلك حيثما وجدت دكة فوق المساجد، يقولون بأنها أهلة.

وفعلوا مثل هذا في جميع شعائرهم، حيث عملوا بعض التغييرات، حتى لا يكونوا مشابهي لنا، وهناك سبب آخر متعلق بمحمد ﷺ..... على أساس أن القمر يؤثر بالناس أكثر من جميع النجوم الأخرى، وبما أن طبيعته رطبة، ولذلك فإن المد والجزر في البحر يتحركان وفقاً لتحركات القمر، هذا وهناك أسباب أخرى، من الممكن استخراجها من شرائع محمد ﷺ، من ذلك على سبيل المثال، لقد أعطاهم الله القمر على

ظهره كعلامة، لأن شريعتهم فارغة في أجزائها العلوية، مثلما القمر وهو على ظهره، فارغ في الأجزاء العلوية وبدون فائدة، وهكذا دواليك، فهو يبتعد عن الشمس، ودائماً فارغ، ومظلم، وخاوي، وهو يبعد أشعة الشمس عنا، لأنه يقف بيننا وبين الشمس، وهو الأكثر تجوالاً بين الكواكب، ففي وئام أوضاع السماء هو مشهور بأنه الأعمق، وهو يتجول ويتخذ طريقاً غير مؤكداً بين النجوم الجواله، وفلكه هو الأصغر بين الجميع، وهو يحب الحيوانات الليلية المفترسة، وجميع هذه النقاط تتوافق مع شريعة محمد ﷺ التي لا عقل في أجزائها العلوية، بل تبقى مظلمة لأنها أبعدت عن ضوء المسيح، ومع ذلك لها ضوء على الجانب الآخر، ففي كثير من الجوانب هناك في شريعة القرآن كثيراً من جوانب الصديق الرائعة، وخاصة فيما يتعلق بمريم العذراء المباركة، فهم يدعون المسيح باسم «روح الله»، الذي معناه «كلمة الله»، و«نفس الله» أو «روح الله»، وهي كلمات عندما تترجم بتقوى، نجدها مليئة بقداسة رهيبة.

★★

★★

★★

ويوجد فوق السقف المعقود (الجلّمون) الذي يمتد حول الهيكل كله، وتحت الصف الأعلى من النوافذ، هناك ممشى حول الدائرة كلها، عليه يقف خدمهم العاملون في المسجد، وهم الذين يتولون الدعوة إلى الصلاة طوال ساعات النهار والليل، ويعلقون مصابيح مضاءة في ساعات محددة، ولقد رأيت هذه الأشياء كلها بوضوح وتميز من خارج الهيكل، عندما نظرت إليه من خلال مسجد السلطان الجديد.

وصحن الهيكل، وجميع المنطقة المفتوحة من حوله، مبلطة برخام أبيض مصقول، وهو نظيف إلى حد أنه عندما يقف إنسان فوق جبل الزيتون وينظر نحو الهيكل، يبدو له وكأنه قائم في بركة من الماء النقي جداً، وفي النهاية الجنوبية من الساحة، عند نهاية البلاط، هناك حديقة

بديعة من أشجار الزيتون، قد زرعت لتزويد مصابيح الهيكل بالزيت، حيث هناك أكثر من سبعمائة مصباح معلقة في الهيكل، ورأيت جميع هذه الأشياء بعيني من الخارج، لكنني لم أر شكله من الداخل، علماً بأنني كنت قادراً على أن أخمن مع شيء كبير من الصحة، من الشكل الخارجي للهيكل، ومن المساجد الأخرى التي دخلت إليها، فهو لا يوجد في داخله قدس أقداً لحفظ آثارهم المقدسة، أو من الممكن أن يوضع فيها القربان أو الآثار المقدسة، لأنه ليس لديهم لاقربان ولا آثار مقدسة، هذا وكنت قد قرأت في أحد التواريخ أن قدمي وذراعي محمد ﷺ محفوظين هناك ولا يوجد مذبح في هذا الهيكل المندس، ولا تماثيل سواء مرسومة أو محفورة منحوتة، ولا كراسي خشب، ولا مقاعد، أو مساند، بل الأرض كلها مغطاة برخام مصقول منوع، فهذا الذي يمكن رؤيته في كل مكان، والجدران مزينة من الداخل بأعمال الفسيفساء مثلما هم من الخارج، وعلى هذا ليس هناك شيئاً قائماً في مواجهة جدران هذا الهيكل في محيطه كله، ولا يوجد شيء في داخله، سوى المصابيح المضاءة، المعلقة من القناطر في الأعلى، هذا ويقول بعضهم أنه يوجد في وسط الهيكل هناك صخرة منبعثة من الأرض، وهذه الصخرة مطوقة من جميع جوانبها بشباك حديدية، وأن مامن مسلم أو غير مسلم يتجرأ على الاقتراب منها، هذا ويقدم المسلمون من بلدان نائية للزيارة، وهم يرغبون بخشوع برؤية تلك الصخرة، وبسبب هذه الصخرة تراههم في كلامهم العام يطلقون على هذا الهيكل اسم «الصخرة المقدسة».

وهم يقولون بأن أشياء كثيرة عظيمة قد عملت فوق هذه الصخرة، ففي المقام الأول فوقها قدم ملكيصادق خبزاً وخمرة (التكوين: ١٤)، وهناك نام البطريك يعقوب، وهذه الصخرة تحت رأسه، ومن عليها رأى في منامه السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون عليه، وفي الصباح دهنها بالزيت (التكوين: ٢٨)، علاوة على

ذلك، على هذه الصخرة رأى داوود الملاك واقفاً مع سيفه المشهور، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢١، هذا وعندما كان الكهنة قد اعتادوا على وضع تقديرات الحرق فوق تلك الصخرة، كانت النار المقدسة تنزل على الفور وتلتهم ما كان قد وضع هناك، ويقولون أيضاً أنه عندما رأى النبي إرميا بأن دمار المدينة والهيكل بات وشيكاً، أخفى تابوه الرب في هذه الصخرة، فهي قد انفتحت بشكل اعجازي، وأخذت التابوه، وبناء عليه هم يعتقدون بأن التابوه مخبأ داخل الصخرة، وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح في اليوم الأربعين، عندما أخذه سمعان بين ذراعيه (لوقا: ٢)، وعندما كان يسوع في الثانية عشرة من عمره جلس على هذه الصخرة في وسط اللاهوتيين (لوقا: ٢)، وعندما كان في الثلاثين من عمره غالباً ماتولى الوعظ وهو جالس فوق تلك الصخرة، فهذا مايقوله المسلمون حول تلك الصخرة، هذا وإن بعض الأشياء التي تقدم لي قولها من قبل لاتتوافق تماماً مع أقوالهم هذه، من ذلك على سبيل المثال مايتعلق بملكيصادق، وحول يعقوب، وبشأن حادثة إرميا.

وقداسة هذا المكان — ولأقول: هذا الهيكل — قد تبرهن عليها في كثير من نصوص الكتابات المقدسة، فهذا هو المكان الذي اختاره الرب وآثره على جميع الأماكن الأخرى، الأمر الذي كنا قد بيناه من قبل، وهنا ظهر مجد الرب في دخان كثيف، وملأت السحابة البيت إلى حد أن الكهنة لم يكونوا قادرين على الإقامة في الهيكل (الملوك الأول: ٨/ ١٠ — ١١)، وعندما أراد عزيا أن يقدم بخوراً هناك، ولأنه لم يكن كاهناً أصيب بالجذام (أخبار الأيام الثاني: ٢٦/ ١٩)، وعندما بُعث هيلودوروس لسلب الهيكل جرى ضربه بشكل فظيع (المكابيون الثاني: ٣/ ٢٦)، وعندما مدّ نيكانور بطيش يده نحو الهيكل، فقد يديه ورأسه (المكابيون الأول: ٧، المكابيون الثاني: ١٤)، وعندما بادر الملك

أنطيوخوس مسرعاً لنهب هذا الهيكل مات ميتة شنيعة في الجبال (المكايون الثاني: ٩)، والأمبراطور بومبي الذي كان حتى ذلك الحين منتصراً، بعد أن دنس هذا المكان، ووضع خيوله فيه، لم يمتلك حظاً جيداً ثانية، وفي هذا المكان أطعمت العذراء المباركة، وهنا ظهر جبرائيل — ملاك الرب — إلى زكريا، وهنا أورقت عصا يوسف.

ومن الهيكل الذي بني فوق هذا المكان، قام الرب يسوع عدة مرات بطرد الذين باعوا والذين اشتروا، وهنا كتب على الأرض باصبعه (يوحنا: ٨)، ووعظ في هذا المكان كثيراً وعمل معجزات عظيمة، وبعد ماجرى تدمير الهيكل، لم يكن اليهود قادرين على بناء أي شيء هناك وهذا ما كنا قد تحدثنا عنه من قبل، كما أن المسلمين لم يكونوا قادرين على بناء مسجد على هذه البقعة حتى دمروا الصليب، كما قلنا من قبل، وعندما بني المسجد أخيراً وضح أن الرب كان غاضباً أن تجري العبادات المحمدية فوق هذا المكان العظيم القداسة، ولهذا جلب شعب الغرب إلى هذا المكان، وكان غاضباً على المسلمين.

وكرس المسيحيون مسجد محمد ﷺ وحولوه إلى كنيسة، وعن هذا الهيكل تحدث برنارد في قداسه إلى فرسان الداوية (الفصل الخامس) قائلاً: «يوجد هيكل في القدس، فيه يسكن الفرسان مع بعضهم، وهو ليس مساوياً للهيكل القديم ولا بفخامة هيكل سليمان، ولكنه ليس أدنى أهمية، لأن جميع فخامة الهيكل الأول كانت تعتمد على الأشياء الفانية مثل الذهب والفضة، والحجارة المنحوتة، ومختلف أنواع الأخشاب، لكن جميع جمال ومجد هذا الهيكل، وجميع زيتته موجودة في الحماسة التقوية والغيرة على الدين، والمحادثات الخاشعة بين الذين يسكنون فيه، فقد كان الأول متميزاً لألوانه المتنوعة، وأما الثاني فلأنه محترم لفضائل متنوعة ولأفعال مقدسة. وفي الحقيقة القداسة هي التي جعلت بيت الرب، الذي لا يسر كثيراً بالرخام المصقول كما يسر بثقافة الأخلاق

السامية، وبحب العقول النقية أكثر من الجدران المذهبة، ومظهر هذا الهيكل مشرق مسرور بالأسلحة، وليس بمجوهرات تيجان الذهب القديمة، والجدران مغطاة هناك بترسة معلقة عليها عوضاً عن حاملات الشموع، والمباخر، والأباريق، والبيت كله مطوق بالأعنة والرماح، ذلك أن فرسان المسيح يتحرقون بالحماسة نفسها، تجاه بيت الرب، التي تحرق بها الرب عندما طرد مع الضرب الذين باعوا فيه واشتروا، وقد رأى أنه أمر غير تقوي ولا يمكن احتماله أن تتلوث الأماكن المقدسة من قبل الكفار، ومثله بالسوء تلويثه من قبل التجار.

وهم يسكنون في البيت المقدس مع خيولهم وأسلحتهم، من أجل أن يبعدوا عنه وعن الأماكن الأخرى المقدسة جميع الدنس وكل طغيان الكفار، ولكي يشغلوا أنفسهم في الليل والنهار في أعمال مفيدة، أثناء تنافس أحدهم مع الآخر، من أجل تشريف هيكل الرب مع أعمال تعبديّة قلبية دائمة، ودوماً يقدمون النذور والتعهدات هناك، وليس أجساد الحيات كما كان في القديم، بل قرابين صحيحة، وسلام، ومحبة أخوية، وخضوع تقوي، وفقر تطوعي».

هذا ما فعله الرجال في القدس في أيام القديس برنارد، وقد تحرك العالم أجمع نحو التقوى يحذون حذوهم، لكن عندما شاخ حماس فرسان هذا الهيكل، لم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن الناس الحمقى، الذين كانوا قد طردوا، من العودة ثانية، فتمكنوا من طرد فاتري العزيمة والشهوانيين من أتباع الصليب، وهم مجللين بالعار، وللمرة الثانية خرقوا حرمة هيكل المسيح المقدس باتخاذهم مسجداً منه.

وهكذا، يالأسف آل الهيكل إلى المسلمين الذين يعرفون قداسة المكان، والأعمال العظيمة التي عملت هناك، فهم يعاملون الهيكل باحترام عظيم، وبسرور عظيم يقومون بحفظه نظيفاً، ومنظماً بكل وسائل العناية، حيث يغسلونه يومياً من الداخل ومن الخارج، وهو كله

مصقول بشكل فخم، ولذلك إنه لمدesh أن تنظر إليه، ولا يدخل المسلمون إلى هذا الهيكل إلا بعد أن يكونوا قد طهروا أنفسهم، بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقار ولياقة، ليس بشكل حاشد، بل يمشي كل انسان لوحده، وكأنه سيد عظيم، ولا يتكلم أحدهم مع الآخر، ولا يجلبون الأطفال أو الكلاب معهم، وبذلك لا ينزعج إنسان أثناء صلاته.

وللنساء باب خاص بهن، منه يدخلن إلى الهيكل وإلى الساحة هناك، ولهن جناحهن الخاص في الهيكل، فيه يصلين منعزلات عن الرجال، ومعهن النساء اللاتي حسب عادة النساء يمكنن في بيوتهن، ولا يسمح لهن مطلقاً بالاقتراب من الهيكل، ويخلع الرجال أحذيتهم قبل الدخول إلى الساحة، ويركعون مراراً ويبدون الاحترام والتقوى قبل الساحة أمام الهيكل، وبذلك يدخلون إليه بوقار.

وعندما يكون الملك السلطان في القدس، ويرغب بدخول الهيكل، يقومون بغسل البلاط والجدران العائدة للهيكل بماء الورد قبل وصوله، لاظهار التشريف لعظمة الهيكل والملك.

ومكانه هذا الهيكل عالية جداً بين المسلمين، وطالما هو بأيديهم لايهتمون كثيراً فيها إذا امتلك المسيحيون بقية المدينة، ولهذا عندما كان شعبنا يحاصر دمياط في سنة ١٢١٩، لتجسيد ربنا، ودمياط مدينة في مصر، وعندما رأى السلطان أن الموقع سوف يجري الاستيلاء عليه، أرسل سفارة مهيبة إلى معسكرنا، يلتمس السلام، ويرجو رفع الحصار، وأخذ القدس وتملكها كلها بشكل دائم، باستثناء هيكل الرب، الذي قصد الاحتفاظ به لنفسه، وبالإضافة إلى هذا عرض بأن يتولى إعادة بناء أسوار القدس على نفقته الخاصة، وهي الأسوار التي كان المعظم عيسى ملك دمشق قد دمرها، وذلك باستثناء هيكل الرب في القدس، وكان الفرنسيون والألمان على استعداد ورضا بالقبول بهذا العرض، لكن لم

يوافق عليه بيلاغوس، الذي كان الكاردينال والنائب البابوي، ولا الايطاليون، ولا المسيحيون الشرقيون، ولذلك لم يستقبلوا رسل السلطان، والذي حدث أنهم وإن استولوا على دمياط بعد عدة أيام، لقد فقدوها مجدداً، وفقدوا جميع الأماكن في الشرق وفي الأرض المقدسة، إلى حد أنهم لم يعودوا يمتلكون حجراً واحداً في القدس، ونزل هذا بهم، بالقضاء العادل للرب، كعقوبة على شرور الايطاليين، وشرهم، لأن دمياط كانت موائمة لأعمالهم التجارية، ويفضلونها على القدس وعلى الأرض المقدسة، وخيل إليهم أنهم سوف يستولون عليهم جميعاً، وفي الحقيقة كان المسلمون راضين بالتخلي عن اليهودية كلها، وعن فلسطين، وعن الجليل، للمسيحيين، لو أنهم سمحوا لهم بالاحتفاظ بالهيكل في القدس، لكن برفضهم الموافقة على ذلك، خسرنا كل شيء، وهم حتى هذا اليوم يمتلكون الأرض المقدسة، والمدينة المقدسة، والهيكل، وهم لا يسمحون لأي انسان، ليس من أتباع شريعة محمد ﷺ بالدخول إلى الهيكل، وكل يهودي أو مسيحي يدخل إلى هناك، ويكتشف، إما يرغمونه على التخلي عن إيمانه، أو يقتلونه مع التعذيب، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الخطر، غامر عدد من المسيحيين، وتمكنوا بمختلف السبل والطرق من الدخول إلى هناك، لأن أوفيد قال:

«لأننا نتشوق إلى المحظور علينا

نتوق إلى الذي ليس لدى الكثيرين»

ويتخيل المسيحيون، أن الهيكل لا بد أن يكون شيئاً رائعاً أن تنظر إليه من الداخل، مشاهدين أنه معمول بشكل رفيع، وجميل جداً من الخارج، وإنه لأمر مفاجيء أنه لا يمتلك زينة من الداخل، وليس فيه مذابح، ولاصور، ولا تماثيل، بل هو صالة كبيرة مشرقة مبلطة ومكسوة برخام من مختلف الألوان، ومضاءة في الليل بعدد كبير من المصابيح المعلقة من السقف المقنطر، لأنهم يقولون بأن هناك سبعمئة مصباح مشتعلة بشكل

دائم فيه، ولا يوجد في هذا الهيكل كله لاشيء سوى على الجانب الشمالي هناك ما يشبه ضريح محمد ﷺ، وهو ضريح مرتفع معمول من الرخام يمثل ضريح محمد ﷺ في مكة (المدينة) الذي يحترمون به إلى أعلى الدرجات، حتى أنهم يتعبدون به مثلما يتعبدون في جميع الكنائس، وحول ضريح محمد ﷺ هذا، انظر ص ٤٠ من القسم الثاني، ولسوف تجد كثيراً حول مكة في ص ٦٢.

وعلى هذا لا يوجد في هذا الهيكل زينة فخمة، للنظر إليها ومشاهدتها، كما لا يوجد فيه قداسات أو قرايين يقوم بتنظيمها الكهنة أو رجال الدين، وحول هذا الموضوع، انظر القسم الثاني ص ٩٤ وص ١٠٠، ولا يوجد لدى المسلمين خلاص ولا عفاء من الذنوب، ولا طهارة أو تحقق بالنسبة للذنوب، ومثل هذا ليس في الهيكل قداسات، ولا رسامة كهنة، ولا زينة، ولا كهانة، ولا قداسات أو قرايين، ومع ذلك فإنه على الرغم من قراغ الهيكل فإن الحجاج المسيحيين — كما تقدم وأخبرتكم — يتحرقون رغبة لرؤية داخل هذا الهيكل، وبعضهم يخاطر أحياناً بمواجهة الموت ليقوم بذلك.

وهنا بات كما يبدو المكان المناسب لمعالجة السؤال الذي أثير من قبل أنطونيوس في الجزء الثالث من تاريخه — العنوان: ٢٤، الفصل: ٩، الفقرة: ١٧: «هل يعدّ المسيحي مقترفاً للذنوب بالدخول إلى مساجد المسلمين؟» ويبدو أنه لا يعدّ مذنباً، لأن معابدهم قد أمر بأن تكون مغلقة (في وجه المسيحيين) وممنوعة، يعاقب فاعل ذلك بفقدان حياته وممتلكاته (انظر كوسا: «حول الكفار والمسلمين ومعابدهم» — الكتاب الأول والثاني)، وبسبب أنه بالنسبة لمنع الدخول، هم تماماً مثل اليهود....، وعلى هذا أجاب بأنه يمكن للمسيحي أن يدخل معبداً أو مسجداً للمسلمين لأربعة أسباب، هي: إما لحمد الرب أو للتبشير بانجيل المسيح، ولرؤية الهيكل، ولتقديم بعض الاحسانات للهيكل،

أو ليرى ويقدر كيف يمكن صيانة الهيكل، هذا ولا يجوز لمسيحي الدخول إلى كنيسة مدنسة، أو مسجد ليصلي للرب، أو ليحمده، خشية أن يظهر أنه يشارك في آثام هؤلاء الناس، مشاهدين أن المسلمين لم يقوموا قط بمدح الرب من دون تجديف خوؤون بحق المخلص، وثناء عظيم على النبي محمد ﷺ، وعن مثل هذه الأماديح ينبغي على المسيحي، بكل وسيلة من الوسائل أن يقف نائياً، وعلى هذا، وخشية أن يظهر أنه من تلاميذ محمد ﷺ عليه أن يتجنب الأماكن التي خصصت لمدحه، مع أن هذه الأماكن أماكن مقدسة، كما لا يمكنه هناك أن يمدح الرب بالطريقة المناسبة، لأن أعمال الناس تعتمد كثيراً على ظروف المكان التي فيها تفنذ، ومنع الرسول (كورنثا الأولى: ٨/ ١٠) المؤمنين من الجلوس إلى مائدة في مكان يقدم فيه لحم للأكل مما قدم للأوثان، خشية من أنه إذا ما رآه أخوه، أن يفضل، معتقداً أنه يعمل ذلك صدوراً عن الاحترام للوثن، ومثل هذا من المحظور على المسيحيين الجثو للصلاة في مكان تجري فيه عبادة الأوثان، وإذا فعل ذلك، يكون قد اقترف إثماً عظيماً، مع أنه لم يقصد عبادة الوثن.

وبناء عليه، عندما أقام الامبراطور ايليوس هدريانوس هيكل فينوس وتمثال جوبيتر، هجر المسيحيون ذلك المكان الأعظم قداسة، بسبب ذلك الهيكل المذنس، وعدّوا أي انسان دخل إليه وثنياً، حتى لو كان ذلك من أجل عبادة المكان المقدس، ومثل هذا كنائس الهراقة والمنشقين، هي ممنوعة على المسيحيين، الذين لا يجوز لهم الصلاة بها، خشية اسهامهم في الانشقاق، وأكثر من هذا — بناء عليه — هياكل الأوثان، وكنس اليهود، ومساجد المسلمين، ينبغي عدم زيارتها بأي شكل من الأشكال، ولالسبب من الأسباب.

وعلى هذا سوف ياثم الناس إثماً عظيماً ضد العقيدة، إذا ما قاموا بعبادة الرب الحقيقي في هيكل الأوثان، وسيكون أي انسان مثل هذا آثماً

إنّما عظيماً — إن لم يكن أكثر — إذا مادخل إلى حرم للمسلمين أو مسجد، ليتفوه بصلواته، لأنه، وإن كان المسلمون المحمديون ليسوا وثنيين، إنهم أسوأ من الوثنيين الحقيقيين، كما برهنا على ذلك في الصفحة: ٩٨ من القسم الثاني، وإذا كان الرب (متى: ٦) قد منع شعبه من الصلاة عند زوايا الطرقات، حتى لا يشاهدوا من قبل الناس، ويعبدوا مقدسين، إنه أكثر من هذا محرم الوقوف في هيكل اسلامي والصلاة فيه، خشية أن يروا من قبل الناس، ويظن أنهم أناس أشرار، أو مشركين، وبناء على ذلك، إنه لمن الواضح أنه لا يجوز لمسيحي الدخول إلى مسجد لعبادة المسيح فيه، لأن ذلك لن يكون من دون ذنب.

ثانياً: هل يمكنه الدخول إلى المسجد للتبشير بالايان الحقيقي فيه؟ يبدو أن هذا لا يجوز، لأن الذي يدخل هكذا يعرض نفسه إلى خطر الموت، على أساس أنه تماشياً مع شريعة القرآن، ينبغي قتل مثل هذا الانسان مباشرة، وبذلك يقتل نفسه بدون ثمار، ومن الممكن، من جهة أخرى، لكثير من الناس، ممثلين بالحماس للايمان، أن يدخلوا إلى معابد المسلمين ويبشروا فيها مع ثمار، دون أن يقتلوا، من ذلك على سبيل المثال فنستوس Vincentius المقدس، الذي كان من طائفة الدومينيكان، الذي تمكن من تحويل آلاف كثيرة من المسلمين إلى الايمان الحقيقي، وبناء عليه إنه لا يمكن اعتماد، أنك إذا ماقلت أو فعلت الذي يسبب لك القتل من قبل الآخرين، تكون بذلك مجرمًا بقتلك نفسك، لأن القديسين أنفسهم، اعتنقوا الايمان الكاثوليكي، حتى عندما كانوا عارفين بدون شك، أنهم بهذا الاعتناق، سوف يجري اعدامهم من قبل الطغاة، ونحن الآن نتعبد لهم كشهداء للرب.

ونقرأ فعل مثل هذا عن الراهب ليفينوس Levinus الذي كان من طائفة القديس دومينيك، ذلك أنه عندما رأى المسلمين قد اجتمعوا

مع بعضهم في واحد من مساجدهم، دخل إليه، وبما أنه كان ممتلئاً بالحماس من أجل إنقاذ أرواحهم، صرخ بجرأة واستمرار بأن صلواتهم كانت عابثة، وأنهم مالم يؤمنوا بالمسيح، لسوف يذهبون إلى عذاب أبدي، وأن شرائع محمد ﷺ كانت غير صحيحة، ومخادعة، وخيالية وزائفة، وعندما كان يعظ على هذه الصورة، وقع المسلمون عليه، وقتلوه.

وعدّ هذا الراهب بين القديسين، من قبل أنطونيوس في الصفحة المتقدمة نفسها، لأنه بدا بأنه قد ذهب إلى هناك، ليس بدوافع أوهامه الذاتية، بل توجه تحت قيادة الروح القدس، وإذا ما وجدوا أي إنسان أثير بحماس طائش أو بغضب، للدخول والصراخ ضدهم، ومن ثم قتل، وقتها يحكم عليه بأنه فضولي، وليس شهيداً، وهذا ما عمل لبعض المسيحيين الإغريق، فقد دخل اثنان منهم — كانا في القدس قبل بضع سنوات إلى الهيكل وهما في حالة غضب شديد، وهناك اختطفوا كتبهم، ومزقوها إلى قطع، وداسا عليها بأقدامهما، وهما يقولان بأنها جميعا مخترعة وزائفة، وأمسك المسلمون على الفور هذين الرجلين، وأعدموهما بعد تعريضهما إلى عذاب شديد، بتمزيقهما إلى مزق.

ثالثاً: هل يمكن لمسيحي أن يدخل مسجداً، ويكون غير مذنب، بعد اقدامه فيه على توجيه الإهانات وقيامه بحركات ساخرة منه، أو بتدمير الكتب، أو النوافذ، أو المصاييح، أو بعد إدخاله إليه الطين أو القاذورات؟ يبدو لي — مع كل الاحترام للذين هم أقدر مني على الحكم — إنه لا يمكن أن يكون إلا مذنباً بسبب أن مثل هذه الإهانات وأعمال السخرية، لا تبدو بأنها ناتجة عن الاحسان، بل بالحرى عن الغضب، والكرهية، أو الضغينة، أو عن الكبرياء، وبمثل هذه الأعمال لا يجري تمجيد الرب، بل التجديف ضد المسيح، وإثارة الغضب بين المسلمين، من دون أي ضمان لحياتهم، وهكذا فإن الذين يفعلون مثل

هذه الأعمال يغامرون بحياتهم من دون ثمار.

وفي الحقيقة يعتقد الناس البسطاء أنهم يتعبدون الرب عند قيامهم ببعض أعمال السخرية في مساجد المسلمين، أو في كنس اليهود، لكن ليس في ذلك عبادة للرب، لأن أئمة الكنيسة تتساهل تجاه الكنس اليهودية، ولا تقوم بتدميرها مع أنها يمكنها ذلك، وبناء عليه ينبغي على أبناء الكنيسة عدم تدنيس الذي تتحمله أمهم، وتنطبق الحجج نفسها على المساجد، وبناء عليه، اقترف أحد الفرسان وكان رفيقاً لي أثناء حجي، خطأ، وكان ذلك عندما كنا في منطقة فلسطين نمضي ليلة في نزل، كان بجواره مسجد، وكان الوضع أنه بإمكاننا النزول من السقف المقبب للبيت الذي كنا مقيمين فيه، إلى السقف المقبب المجاور والعائد للمسجد، وكان في قمة سقف هذا المسجد فتحة، كان بإمكاننا من خلالها النظر إلى المسجد، الأمر الذي فعلناه، وقام الفارس المتقدم الذكر أثناء الليل، وتسلق إلى السقف المقبب للمسجد، ولوثة من خلال الفتحة، الأمر الذي جعلنا نضحك كثيراً، لأننا جميعاً دهشنا لدى رؤيتنا له، لكنني لم أر أية فضيلة بالذي فعله، كما أنه مامن فائدة كانت ستنتج عن ذلك، بل الكثير من الشرور، لأنه لو عرف المسلمون بذلك، لما كنا غادرنا البلاد أحياء.

ومع أن الرب لا يعبد بشكل صحيح بالمساجد، هي بالأصل بنيت تشريفاً للرب الحقيقي، من الممكن تكريسها، وتحويلها إلى كنائس مسيحية، كما حدث كثيراً لدى استيلاء المسيحيين على أية بلدة، وانتزاعها من أيدي المسلمين أو الأتراك، وهم مثل ذلك يعملون بالطريقة نفسها، مساجد من كنائسنا، وبناء عليه، إنه بسبب هذا التملك، وليس بسبب أي احترام لشؤونهم التعبدية، على الإنسان الاحتفاظ ببعض الاحترام لهياكل الأمم، عارفين بأن الرسل أنفسهم لم يدمروا الهياكل، بل أزاحوا الأوثان منهم، وحولوهم إلى كنائس

مسيحية، وغالباً ماقرأنا أنه حتى الذين لوثوا هياكل الأوثان، تعرضوا للعقوبة، كما هو واضح من حكاية ميدوسا Medusa ابنة فوركوس Phorcus ، التي كانت امرأة فائقة الجمال، وكان من بين محاسنها شعرها الذي لم يكن مجرد أصفر، بل ذهبياً.

وانجذب بلمعانه نبتون Neptune ، فاضطجع معها في هيكل مينيرفا، ومن ذلك ولد الحصان بيغاسوس Pegasus ، وبات مينيرفا مغضبة تجاه هذا، وقررت أن لاتمر الإهانة التي تعرضت لها في هيكلها من دون انتقام، فحولت شعر ميدوسا إلى ثعبان، وهكذا بعدما كانت جميلة، غدت مخلوقاً مرعباً Monster.

وصار الذي نزل ببومبي، وماأصابه من سوء طالع بعد ماربط خيوله في الهيكل في القدس يعرفه كل انسان، إلا الذين لم يقرأوا قط شيئاً، وكنت قد مررت بذكر المآسي التي جلبها على نفسيهما نيكانور وأنطيوخوس، بسلبهما الهياكل وبجلدهما هيلودوروس Helio-dorus.

رابعاً: ويبقى إن علينا وجوب أن نرى هل يمكن لمسيحي الدخول إلى مسجد دونما ذنب، وذلك ليس للصلاة، وليس لتخريب أي جزء منه، وليس لتقديم أي إهانة إليه، ولاللعب أية خداعات به، بل فقط لرؤية المسجد، والشعائر به، وأعتقد أنه إذا أمكنه الدخول دونما خطر ودون أن يلاحظ، هو بذلك لا يكون مقترفاً لذنوب عظيم، ومع ذلك سوف يبدو محباً للبحث إن لم نقل فضولياً فقط، وليست التقوى هي التي أحضرته إلى هناك، وإذا كان المسجد قائماً في أي موضع مقدس، ويمكن لمسيحي أن يدخل إليه بشكل سري ودون أن يلاحظ، وبدون أي خطر، يمكنه وقت ذاك الدخول بجدارة، وتقبيل الأرض، وتلاوة صلواته، مثلما فعلنا في المسجد القائم فوق ضريح داوود، الذي من أجله انظر ص ٤١٣، وكنا راغبين بفعل الشيء نفسه في المسجد في

حبرون، الذي هو قائم فوق الكهف المزدوج، كما سوف نتحدث عن ذلك في القسم الثاني — الصفحة الثامنة.

لكن إذا كان الدخول لا يمكن الحصول عليه دون مخاطرة، أو مقابل أجر كبير، فإن الذي يدخل مثل هذا المكان يعمل بشكل غير حكيم، وإنني أعرف فارساً مازال حياً، كانت قد اقتادته رغبته لرؤية الهيكل، ولذلك تحدثت مع أحد المماليك، وعملت معه صفقة في أن يضع عليه ملابس مسلم وأن يأخذه إلى داخله، وهكذا أخذ هذا المملوك العجوز رفيقنا وهو لابس لثياب انسان شرقي، حتى ساحة الهيكل، لكن عندما باتا هناك، وأراد الدخول إلى الهيكل، استبدّ رعب شديد بالفارس، إلى حد أنه لم يعد بإمكانه الوقوف لأنه كان يرتجف، ولم يتجرأ على الدخول، بل أدار ظهره وعاد إلينا، وهو مسرور لأنه تخلى عن فكرته، وفي الحقيقة ليس عجباً أنه ارتعب وخاف على حياته، لأنه لم يكن متأكداً بأن دليله كان صادقاً.

ومع أنني شخصياً مغرم برؤية الأشياء الغريبة والمناظر غير الاعتيادية، لم أحاول قط الدخول إلى الهيكل، بل كنت قانعاً بالنظر إليه عن بعد، وهنا اعترف بأنني غالباً ما كنت منزعجاً وشغرت بالأسى عندما قارنت نظافة الهيكل، وجماله، وترتيبه الممتاز مع كنائسنا، التي هي — وباللعار — مثل اسطبلات دواب الرهبان، وكنائسنا هي دائماً قذرة مع الناس يمشون خلالها، وكأنهم يمشون في داخل خان، وهي ملوثة بالقاذورات الأمر الذي يربكنا كثيراً، ويزعجنا وهو يسبب كراهية القديسات ونقدها، وإنه لمزعج جداً ومهين أن ترى في القدس كنيسة قيامة المسيح، وهي قائمة بدون زينة تقريباً مثل خان طلي بالدخان، وأن ترى مسجد محمد ﷺ مرتباً ونظيفاً، مثل قصر الملك (تلا هذا مقارنة مقدعة بين النبي محمد ﷺ والسيد المسيح، وشملت بضعة أسطر، قمت بحذفها، وانتهت هذه المقارنة بقوله:) ومع ذلك فإن هيكل المسيح

ملعون، ومرزول، وممقوت، بينما هيكल محمد ﷺ مبجل، وجميل، وممجد.
لكن ماهو وجه الغرابة أن يحدث هذا في القدس، بين المغاربة
والمسلمين، وهو يحدث بين المسيحيين والكاثوليك؟ انظروا أرجوكم إلى
أعظم الكنائس في العالم أجمع — أي كنيسة القديس يوحنا في
اللاتيران — التي هي رأس جميع الكنائس في داخل مدينة روما وفي
جميع أرجاء العالم، كما تبرهن من قبل الفارز Alvarez في مصنفه « بكاء
على الكنيسة » الكتاب الثاني، الفصل الثاني، الخ، والذي يظهر في أية
حال هي فيما يتعلق بكل من الزينة والنظافة، وإنني أصلي إلى الرب أن
تنجو من الخراب، وهناك تقوم كنيسة المخلص، وقدس أقداسنا مع
كنزها الذي لا مثيل له، من الآثار المقدسة، ومع ذلك يبدو المكان وكأنه
مهجور، ومنعزل، ومن الصعب أن يجد الإنسان فيه الأشياء المحتاجة
من أجل قداس قربان، فساحتها قذرة، والبيع المتصلة بها مدنسة،
ومذابحها ملوثة، وأماكنها مدمرة، والرهبان الذين عبدوا فيما مضى
الرب هناك، قد جرى طردهم، ووضع آخرون في محلهم، وكل شيء في
ظل حكم هؤلاء آيل إلى الدمار، وهناك أجزاء كثيرة قد لحقها الدمار،
ليس بسبب وجود الترك والمسلمين، بل بسبب غياب
المسيحيين.

ومثل هذا أيضاً كنيسة القديس بطرس، هي تحتاج كثيراً إلى كل شيء
مناسب لمثلها ككنيسة كبيرة، وإذا كانت مثل هذه الأشياء قد حدثت في
الكنيستين الرئيسيتين في العالم، وفي المدينة التي هي عاصمة الكاثوليكية،
ومركز الإيمان، فكيف لا تحدث في كنائس أخرى في أرجاء ذلك الكون؟
حيث الكنائس قذرة، يساء استخدامها، وهي مهملة في المباني، والأواني،
والكتب، وبالملايس، وبأغطية المذابح، وبالساحات، وبأراضي الدفن،
وبالأبنية الخارجية، وإنه لأمر مخز أن تفكر حولها، ومهين أن تقول
ذلك، وليست القضية قضية كنيسة واحدة بل جميع الكنائس، حيث

المذابح، وأغطية المذابح، وأغطية الآثار المقدسة، وأغطية القربان، وغطاء كأس القربان، والثياب الكهنوتية، والأكتافيات، كلها قدرة إلى درجة أن كاهن الكنيسة لقرفه، لا يسمح بوضعهم فوق منصدته، لابل أكثر من ذلك، أنه لا يمكنه أن يتحمل أن تكون سراويله بهذه الدرجة من القذارة والاهمال، فالثياب الكهنوتية ملوثة مثل السخام، والأكتافيات قدرات من التعرق، وكل شيء محتاج إليه من أجل القداس متعفن بالقذارة المتناهية، إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحمل وجودهم في موضع سكنه.

أيها الأخ الانسان، حبذا لو رأيت في القدس مدى الاحترام المقدم لهيكل محمد ﷺ، وكم ممتع الاقتراب منه، وكنت قد حدثتك من قبل وشرحت لك كم هي نظيفة وهادئة ساحته، وكم هو مشرق ومنظم كل شيء فيه، وبينت لك مدى الخشوع الذي يظهره المتعبدون لدى الدخول إليه، وكذلك عن الوقار العظيم الذي يلزمون به أنفسهم أثناء الصلاة، وأيضاً عن تواضع النساء هناك، حيث وجوههن مغطاة بشكل دائم، وكيف أن الرجال يصلون بصمت بعزلة عنهن، ولو أنك رأيت ذلك لصدمت بشكل عميق، ولغضبت غضباً عظيماً من الاهمال ومن عدم الاحترام الذي يبديه المؤمنون في كنائسنا.

ومع ذلك، لربما يمكن تأويل عدم الاحترام هذا، بشعور طيب، على أساس أننا نمتلك القداسات الحقيقية، التي تكمن قوتها الحقيقية في نيل الرحمة للميت، وفي شفاء النفوس، ولذلك نولي قليلاً من الاهتمام للزينة الخارجية لمعابدنا بينما لا يسعى غيرنا وراء النقاء الداخلي للقلب، بل يسعون أكثر خلف النظافة الخارجية، لكن إذا سمح المسيحيون ببقاء هذه القذارة من خلال عدم الاحترام والاهمال، فهذه إهانة هائلة، حسبما برهن هوغو Hugo، الذي وضع ابداء عدم الاحترام نحو المذبح بين «ذنوب الدير» الاثني عشر.

هيكل مريم العذراء المباركة فوق أرض بيدر أومان

وعلى الجهة الجنوبية من بيت إيل، والهيكل الذي يسمونه هيكل سليمان، وفي أرض بيدر أرونا اليبوسي نفسها، هناك هيكل كبير، وكنيسة جميلة جداً، بنيت من جميع الجوانب وفق طريقة كنائسنا، وهي أكبر من هيكل سليمان بسبب طول صحنها، وهي مسقوفة بالرصاص، وهي تضاء بالنهار بعدد كبير من النوافذ المنتشرة حولها، لكن في الليل فإنها تضاء بثمانمائة مصباح مشتعل بها، بسبب أنها مسجد فائق القداسة عند المسلمين، وأنا غير قادر تماماً على العثور على أية رواية، كتبها أي إنسان، حول من الذي بنى هذا الهيكل، ومتى بني، هذا وليس لدي شك في ذهني بأن المسيحيين قد بنوه بعد استرداد المدينة المقدسة، في أيام الملوك اللاتين، لأن نموذج البناء وسماته تظهر أنه بني من قبل مسيحيين، ومثلما يبرهن شكل ما يسمى هيكل سليمان أنه قد بني من المسلمين، ما من مسيحي عاقل يمكنه أن يصدق الذي اعتادوا على أخبار الحجاج به، من أن ذلك الهيكل نفسه قد بني من قبل هيلانه كما أوضحنا من قبل، كذلك هذا الهيكل الذي أنا أتحدث عنه، لم يعمّر من قبل أي قوم غير المسيحيين، لأنهم عندما استولوا على الأرض المقدسة، رغبوا بوجود كنيسة باسم العذراء المباركة، قرب هيكل الرب، وهكذا بنوا هذه الكنيسة تشريفاً لها، وكرسوها لها، صدوراً عن احترام تطهيرها في الهيكل، ولذلك يدعو بعضهم هذه الكنيسة باسم كنيسة تطهير مريم، ويدعوها آخرون باسم هيكل سمعان، ويميز آخرون فيما بين هيكل سليمان وهيكل الرب، ويقولون بأن هذا هو هيكل الرب، والآخر هو هيكل سليمان، ويدعوه آخرون باسم رواق سليمان، في حين يدعوه آخرون باسم هيكل زكريا، وهذه التسمية أقرب إلى الصحة، لأن العذراء المباركة عندما كانت طفلة قدمت هناك إلى زكريا، والد يوحنا المعمدان.

واعتماد الداوية على اقامة قداساتهم في هذه الكنيسة، لكن جعل المسلمون منها مسجداً، وأبعدت عن استخدامات الديانة المسيحية، مثلما حدث لهيكل سليمان، ويوجد تحت هذه الكنيسة بناء تحت الأرض سقفه مقنطر وهو متميز وواسع، يمكن فيه ربط ستائة فرس بدون مصاعب، وكنت قد حدثتكم من قبل بأنني دخلت شخصياً إلى هذا البناء، وأن هناك مسجد آخر قيد البناء قرب هذين الهيكلين، وذلك بأمر من السلطان وهو مسجد كبير، وعالي النفقات، قائم خارج الساحة، وأرض بيدر أرونا، ويوجد فيه ثمانية وثمانين مصباحاً مشتعلاً، وكنت قد تحدثت عنه من قبل.

أول كنيسة مسيحية في القدس، المعتقد أنها كانت على جبل
صهيون قبل بناء هيكل ضريح الرب،
وهي التي فيها بدأت معجزة نار الفصح

الوصف الكلي لمدينة القدس المقدسة مرتبط جميعه تقريباً بهذين الهيكلين، أي هيكل بيت إيل، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان، والقيامة، التي هي كنيسة قيامة الرب، وإلى هذين الهيكلين يعود الفضل بكل شيء جيد يعزى إلى المدينة، كما شهد على ذلك خريسوستوم عندما قال بأن كل شيء جيد، وكل شيء شرير انصب على الناس من هيكل الرب، وذلك حسبما جاء في مصنفه « بكاء على الكنيسة » - الكتاب الأول، المادة ٦١٦، لأن دمار مدينة القدس حدث كثيراً من المرات، وكذلك إعادة عمارتها حدثت مرات كثيرة، ومجدها وتمجيدها، وعارها وانحدارها، جاء من هياكلها في أيام كل من العهدين القديم والجديد.

ولن يعبأ المسيحيون إلا قليلاً في هذه الأيام، حول مباشرة المسلمين الحكم في القدس، شريطة أن نمنح حرية الدخول والخروج من هيكلنا، هيكل ضريح الرب، وذلك بدون خوف، وبدون ازعاج، ومغالاة بالمدفوعات، وكذلك لن يهتم المسلمون لو أننا كنا سادة المدينة المقدسة، إذا ما ابتعدنا عن هيكلهم وتخلينا لهم عنه، ولكن بما أن المسيحيين والمسلمين لا يمكنهم الاتفاق حول هذه المسألة، عانت القدس غير السعيدة، وهي تعاني الآن، ولسوف تعاني فيما بعد من الحصارات ومن التدمير، ومن الرعب أكثر من سواها من مدن العالم الأخرى، وعلى هذا يمكن القول: « الغيرة على بيتك قد أكلتني »، وفي الحقيقة الغيرة على هذين الهيكلين، قد أكلت القدس وقد التهمتها، وقد سحقتها.

ولنعد إلى الخلف بعيداً مع المسألة هذه، فالرومان ماكانوا ليحولوا المدينة إلى أشلاء بشكل وحشي هائل ودموي، لولا أن اليهود قد قاتلوا

بالدفاع عن هيكلمهم بغيرة وعناد منقطع النظير، ولذلك أغضبوا الجيش الروماني، وحرصوه وأوصلوه إلى كراهية مدمرة ضد المدينة المقدسة والهيكلم، وعندما جرى تدمير المدينة والهيكلم من قبل الرومان، من المعتقد أنه جرى الاحتفاظ بمدينة داوود على جبل صهيون لتكون قلعة وحصناً.

وفي مدينة داوود هذه نفسها، امتلك المؤمنون كنيسة، كانت قد بنيت في أيام الرسل في موضع عليّة عشاء الرب، حيث أقاموا قداساً هناك، وعملوا اجتماعاً وانتخاباً، ونشروا أحكاماً تتعلق بقضايا الايمان، وكان هذا قبل افتراقهم عن بعضهم، وهنا من المعتقد أن مريم العذراء الأعظم مباركة كان مسكنها، وفي هذه الكنيسة شغل القديس اسطفان منصب الشماس، وفيها دفن بعد استشهاده، وهذه الكنيسة فوق جبل صهيون لم تهدم تماماً في أيام تيتوس أو ايلوس هدريانوس، ولا في أيام المسلمين، بل بقيت من أيام الرسل حتى هذه الأيام، إنما باستثناء سنوات قليلة فقط، عندما كان غضب الرومان حامياً ضد اليهود، وذلك لدى استيلائهم على القدس، ففي ذلك الوقت جرى انذار المؤمنين مقدماً من قبل الروح القدس، فغادروا القدس، خشية المشاركة في فناء اليهود، إنما ما أن غادر الرومان حتى عادوا وصعدوا إلى الرابية وإلى كنيسة صهيون، هذا ومن المعتقد أن النار المعجزة المتميزة لعيد الفصح، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل، قد بدأت في هذه الكنيسة، كنيسة جبل صهيون، لكن في أي وقت، هذا ما لم أقرأ عنه في أي مكان، سوى أنه في سنة ١٩٢ لتجسيد الرب، وقبل قسطنطين وهيلانه، وقبل اكتشاف الصليب المقدس، عندما كان نرسيس أسقف القدس، ذاهباً لإقامة قداس في أمسية الفصح، أخبر من قبل خدمه أنه لا يوجد زيت لافي الجرة، ولا في المصابيح، وعندما سمع الرجل المقدس والمؤمن بهذا، ولأنه كان ممتلئاً بالايمان أمر خدمه أن ينضحوا ماء

ويجلبوه إليه.

وعندما جلب الماء إليه، صلى وبارك الماء، وأمر تلاميذه بصبه بالمصابيح، ثم حدث أنه بقوة مدهشة لم يسمع بمثلها في أي جيل من الأجيال، تحول الماء إلى زيت، وصارت له دسامة الزيت، واشتعل من السماء، وجعلت شعلة السماء المصابيح أكثر اضاءة واشعاعاً مما هو معتاد، وعملت هذه المعجزة في أيام الكفار، في ظل حكم الامبراطور فكتور، والامبراطور سيفيروس، اللذان حكما قبل قسطنطين بهائتين واحدى عشرة سنة، ووجد في القدس بعد نرسيس عدد كبير من الاساقفة القديسين، ولم تكن حشود المسيحيين بلا كنيسة قط، هذا ولم تكن كنيسة الضريح المقدس قد بنيت بعد، وبناء عليه جرت جميع القداسات ونفذت بمهابة على جبل صهيون، حتى بناء كنيسة الضريح المقدس، التي عن بداياتها سوف أحدثكم الآن [٢٦٤ظ].

بداية هيكل ضريح الرب

كان مكان صلب يسوع ودفنه خارج باب مدينة القدس، كما برهن على ذلك انجيل يوحنا: ١٨، والرسالة إلى العبرانيين: ١٣، وعدّ هذا المكان مشهوراً منذ بداية خلق الجنس البشري، ولقد قالوا أيضاً بأن آدم، أبونا الأول، قد دفن فيه، وأن جسد هذا البطريرك قد نقل كله من هناك، وذلك باستثناء رأسه، وكان نقله إلى الكهف المزدوج، الموجود في حبرون، وهناك دفن، ولهذا السبب تطورت عادة بين الرسامين، برسم رأس آدم تحت قدمي المصلوب، ولهذا السبب أيضاً اعتاد أبناء آدم لمدة طويلة على معاملة هذا المكان باحترام، ومن المحتمل أن يكونوا قد بنوا مصلى هناك تشريفاً لأبويهم، وأن هذا المصلى قد عاش حتى طوفان نوح، فبعد الطوفان، سكن سام بن نوح، الذي هو ملكيصادق، فوق جبل أكر (الجمجمة) والتقى بابراهيم وهو يحمل خبزاً وخمرة، وباركه.

وفيما بعد، كان ابراهيم على وشك التضحية بابنه اسحق في هذا المكان نفسه، وذلك بناء على أمر من الله، وهنا نُصب أفعوان من البرونز، كان الناس يقدمون له الأضاحي، وفي الحقيقة كان الرئيس بين الأماكن المرتفعة التي أزالها فيما بعد حزقيا (الملوك الثاني: ١٨ / ٤)، ولهذا يبدي اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، علاوة على ذلك، اعتادت الأمم، وكذلك الفلاسفة على زيارة هذا المكان، بسبب وسط الدنيا، الذي برهنوا أنه هنا، كما تحدثت عن ذلك في ص ٤٩٧، وجرى وصف هذا المكان وشكله في ص ٤٩٧ نفسها وكذلك في ص ٤٨٨، واستمر هذا المكان يحظى بالتشريف حتى أيام أمم الاغريق، الذين قاموا بسبب كراهيتهم لليهود بتهديم ذلك المصلى وتشتيت بقاياها، وعينوا المكان ليكون الموضع الذي يجري فيه اعدام مقترفي الشرور، وبذلك تحول المكان المقدس لدى اليهود، إلى موضع ممقوت لديهم، هذا ومن المعتقد أن الرب يسوع، غالباً ما قام، اثناء حياته بزيارة هذا الموضع على الجبل، مع مكان دفنه، موضحاً بذلك قداسة ذلك المكان، الذي تكرست قداسته بموته، وبدفنه، وبقيامته المجيدة جداً، فلقد كرس هذا المكان وجعله مقدساً لجميع الدنيا.

وبعد صعود الرب اعتادت مريم العذراء الأعظم قداسة، والرسل، وبقية المؤمنين على زيارة المكان يومياً، وتقبيل طبعات اقدم الرب يسوع، كما سلف وذكرنا في ص ٦٤٣، ويذكر بعضهم أن القديس جيمس الأصغر، الذي رسمه الرسل، أول أسقف للقدس، قد اتخذ كرسيه، ومقر اقامته في مكان قيامة ربه، وأقام هناك القداسات وأعمال التعبد الدينية، فضلاً عن هذا، كان هو مصنف بنود العقيدة، أي أنه أعلن بأن الرب «قد تألم أيام بنتوس بيلاطوس، وصلب، ومات، ودفن» وبعد استشهاد القديس جيمس، وفي السنة الثانية والأربعين، أو— كما يقول بعضهم— في السنة الخامسة والأربعين بعد آلام الرب، سببت

ذنوب اليهود تعرض القدس إلى دمار كلي، وذلك باستثناء مدينة داوود، والصور الغربي المواجه لصخرة الجمجمة، وحديقة ضريح الرب، حيث سمحوا ببقاء هذه الأماكن من أجل امتلاك حراس تلك البلاد مكاناً حصيناً، وبعد ذهاب الرومان، رجع المسيحيون — كما قلنا من قبل — إلى القدس، واعتادوا على زيارة موضع الجلجلة مع جميع الخشوع الذي اعتادوا عليه، ومع ذلك لم يعمروا هناك أية كنيسة أو هيكل، بسبب خوفهم من الحرس الروماني، ولعدم رغبتهم في تغيير شكل المكان عما كان عليه في أيام صلب المسيح، وقيامته، وهو شكل كره القديس جيمس أيضاً تغييره، لأن تذكر ماكان قد حدث يمكن أن يكون أكثر تأثيراً، وأنا كان بودي عدم بناء أية كنيسة هناك، فوقتها كان بالامكان فهم معاني الأناجيل بشكل أوضح، وذلك لدى حديثهم عن آلام الرب وقيامته، وأعتقد بشكل مؤكد أن المسيحيين ماكانوا ليقدموا على تغيير شكل المكان، لولا أن الامبراطور هدریان فعل ذلك.

وقدم هذا القيصر إلى القدس في سنة ١١٩، وفي ذلك الوقت كانت قد أعيدت عمارتها بشكل ما من قبل المسيحيين واليهود، وقام للمرة الثانية بقتل اليهود، وباعهم رقيقاً، وأخرجهم مطرودين من البلاد، وبنى مدينة القدس الجديدة، حيث هدم المدينة القديمة ووسعها، وطم الخنادق بين المدينة وبين مكان آلام المسيح وحديقة الضريح، ورفع هذه الخنادق إلى مستوى بقية الأرض، وبنى سوراً حول المدينة، أدخل في إطاره هذا المكان، لأنه سمع بأن المكان كان مقدساً، وكان مبجلاً من قبل المسيحيين.

ونظراً لكونه كافراً ووثنياً، فقد رغب بتشريف آلهته هناك، وقد بنى هيكلًا عظيمًا ضم كل من صخرة الجمجمة، وكهف ضريح الرب، ونصب على صخرة الجمجمة — حيث أقيم فيها مضى الصليب المقدس — نصب فينوس العاهرة بلاحياء، ووضع في كهف ضريح

الرب تمثال جوبيتر الشرير جداً، وهكذا صار المكان الذي كان المسيحيون يزورونه من قبل بشكل متواصل مكروها جداً من قبلهم، وبقي المكان في هذه الحالة الشريرة لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى أيام قسطنطين الكبير، والقديسة هيلانة، وقد عرفنا هذا من رسالة القديس جيروم إلى بولينوس، وهي التي افتتحها بكلمتي Bonus home، وهذه الرسالة موجودة في الكتاب الثالث، في صفحة: ٢١٠.

وفي سنة ٣١٣ لتجسيد الرب، تحول قسطنطين وهيلانة إلى عقيدتنا، وبعدما صارت هيلانة عابدة للصليب، جاءت إلى القدس، وهنا وجدت موضع موت الرب وقيامته في هيكل مدنس وغير نظيف إلى أبعد الحدود، وبما أنها كانت ممتلئة بالحماس للرب، ألقت أرضاً بالأوثان، ودمرت الهيكل، ولحق الدمار حتى أساساته نفسها، ونظفت صخرة الجمجمة وحجرة ضريح الرب، وأمرت رجالاً بالحفر عميقاً بالأرض، وقد بذلوا كثيراً من الجهد في تعزيل الأرض ورمي التربة، وذلك في المكان الذي وجدت فيه الخشبة الثمينة للصليب المقدس، مع الرموز الأخرى لآلام المسيح، كما سلف وتحدثت في ص ٤٨٢ و٤٨٨، وعندما أعلمت بذلك ابنها قسطنطين، أرسل لها على الفور مبلغاً من المال لتغطي به نفقاتها، وأصدر أوامر إلى مكسيموس Maximius، الذي كان آنذاك أسقف القدس، بأن يبني كنيسة فخمة في ذلك المكان المقدس، تبعاً لأوامر أمه هيلانة، وهكذا بدأ العمل في هذا المشروع العظيم، وبعد ذلك انتهى بسرعة، وبني هيكلًا عظيماً مع تزيينات باهظة النفقات، إلى حد أن العالم أجمع لم يكن به مثله، واعتقد كثيرون بأن هذا الهيكل كان أعلى بنفقاته من الهيكل السالف الذي دمره تيتوس والذي قام فوق أرض بيدر أرونا.

وفي ذلك الوقت لم يكن فوق أرض البيدر هذه هيكلًا، ولا حتى مصلًى، بل بعض المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أي

تشریف، ونقل الآن مقر الأسقف من صهيون إلى الهيكل الجديد، وقطن رجال الدين والبلاط كله هناك، علاوة على ذلك، جرى هناك تجديد المعجزة التي تحدثت عنها في الورقة المتقدمة، والمتعلقة بالنار المقدسة للفصح، فعندما يجري اطفاء الأنوار جميعاً، في الأُمسية المقدسة لعيد الفصح، في جميع أرجاء الكنيسة، أثناء انشغال رجال الدين والناس بالصلاة، يحدث فجأة، نزول شعلة من السماء تقوم باشعال شموع الفصح، وجميع الشموع والمصابيح، وتحدث هذه المعجزة كل سنة في هذه الكنيسة عشية عيد الفصح، وطوال ظهور هذه المعجزة لا تتلقى الكنيسة أي أذى على أيدي غير المسيحيين.

وكانت العادة آنذاك، أنه عندما يحل السبت المقدس، يجري اطفاء كل نار في جميع أرجاء القدس، ولا يتجرأ انسان على اشعال أية نار بأية واسطة من الوسائط، إلا من النار التي تقدمها الكنيسة، وبناء عليه يبقى الناس جميعاً، في كل من الكنيسة وفي بيوتهم بصلوات مستمرة من أجل النار السماوية، التي ينظرون إليها على أنها العلامة الأكثر تأكيداً على رضى الرب عليهم، وعندما تنزل النار من السماء، كانوا يقومون جميعاً باشعال مصابيحهم، وبحمل النار إلى الكنائس الأخرى قريباً وبعيداً، وإلى هذه الأيام يجري حمل الزيت المكرس هناك، وجلبه أيضاً إلى البيوت الخاصة للناس، حيث اعتادوا على ابقائه مشتعلاً طوال السنة.

★★

★★

★★

وحدث في سنة ٣٢٣ لتجسيد ربنا، بعد وفاة مكسيموس، أسقف القدس، أن بدأ الآريوسيون بالحملة على كنيسة الضريح المقدس تحت سلطتهم، وقد عزلوا كونراد أسقف القدس الكاثوليكي والمعين بشكل شرعي، وعينوا رئيس شمامسة فيها، وبدلوا النظام المحدد من قبل كنيسة روما، وتحكموا لسنوات كثيرة بالكنيسة المقدسة في الجلجلة، التي دنسوها بهرطقتهم، وفي تلك الآونة، أثناء استيلاء الهراطقة الآريوسيين

على كنيسة الضريح المقدس، جرى عقد مجمع نيقيا، وقدم بعد هذا قسطنطين إلى القدس، واستمع إلى الآريوسيين إلى حد أنه اقتنع من قبلهم بالنزول إلى الأردن، وتلقي تعميد ثاني على أيدي الآريوسيين، وكأن تعميد القديس سلفستر له كان بلا تأثير، وقد وجدت هذا مدوناً في كتاب تاريخ حول قسطنطين، والذي اعتقده ان الحكاية كلها قد اخترعت من قبل الآريوسيين، من أجل أن يمتنوا حزبهم باهانة مثل هذا الامبراطور العظيم.

هذا ومن الممكن، انه نزل مع رجال الدين والشعب إلى الاردن، واغتسل فيه صدوراً عن التقوى، مثلما يفعل الحجاج دوماً، وبذلك أعطى إلى الآريوسيين فرصة للقول بأن الامبراطور قد تعمد للمرة الثانية، وطوال المدة التي سيطر فيها الآريوسيين على الكنيسة، توقفت النار من السماء عن النزول في عشية عيد الفصح، مثلما اعتادت على النزول في ظل سيطرة الكاثوليك، وفي الحقيقة لقد تبرهن بتجارب صحيحة، أنه في كل مرة يكون هناك انشقاق وانقسام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، في ذلك الوقت بالذات يجري دوماً انتزاع الضريح المقدس من الكاثوليك، ويعطى إلى الهراطقة، والمنشقين، أو المسلمين، وأنا اعتقد بشكل أكيد، أن الكنيسة الغربية لو كانت متحدة مع نفسها، لأمكننا من دون سيف ومن دون حرب تملك ضريح الرب.

وفي الوقت الذي كان فيه الآريوسيون يتحكمون بالكنيسة، طردوا الكاثوليك منها، ومن كل جهة، ولم يسمحوا للحجاج بالدخول إلى ضريح الرب، ولذلك وقعت أعمال القتل يوميا، وكانت هناك مشاجرات مرعبة بين الآريوسيين والكاثوليك، وأقول إنه في ذلك الحين اتحد المسلمون، وانقضوا على نوعي المسيحيين وطردهم من الكنيسة، وشتتوا جميع هؤلاء المتخاصمين، سواء أكانوا هراطقة أم كاثوليك، وأبعدوهم عن القدس، و..... دمروا كنيسة الضريح القدس،

غير أنها لم تبقى معزولة لمدة طويلة، لأن جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، مع جميع المؤمنين الآخرين، تجمعوا في سنة ٣٧١ لتجسيد الرب، وذهبوا إلى القدس، وطرّدوا المسلمين والآريوسيين، وأعادوا عمارة مبنى كنيسة الضريح المقدس، وأرجعوها إلى الإيثار الحقيقي للكنيسة الكاثوليكية، وتصاحب هذا مع كثير من التعب، لأن الآريوسيين كانوا قد أصبحوا قوة هائلة في جميع أرجاء العالم، وكانوا يتمتعون بالخطوة لدى الأساقفة، ورجال الدين، والملوك والأمراء، وقامت هذه الهرطقة اللعينة وصدرت عن آريوس، الذي كان قس الاسكندرية، وكان بالاسكندرية، احمقاً إلى حد محاولة زرع الخلاف في الإيثار القويم، كما حاول أيضاً أن يفصل الابن عن الجوهر الدائم، والذي لا يتغير للأب، وذلك حسبما حدثنا غراشيان Gratian في لاهوتيته الرابعة والعشرين — الفصل الأول.

وبعد تنظيف الكنيسة في القدس من تلك الهرطقة، سيطرت القداسة بشكل رائع بين كل من رجال الدين والعلمانيين، في جميع أنحاء العالم، حتى أيام الامبراطور هرقل.

وفي الحقيقة ازدهر بين أيام الامبراطور قسطنطين، الذي حكم في سنة ٣١٣، وهرقل الذي حكم في سنة ٦١١، رجال نالوا شهرة عظيمة وكانوا متنورين، ومعهم تراجعت الهرطقة الآريوسية كثيراً، وهي الهرطقة الخطيرة التي كان آريوس رئيسها، وكان هذا العصر مقدساً وخطيراً، فلقد كان مقدساً، بسبب القديسين الذين عاشوا في تلك الآونة، ودون الحديث عن الجميع، لقد كان هناك بين هذين الامبراطورين، قد ازدهر، أربعة حكماء مشهورين في الكنيسة، هم: أمبروز، وأوغسطين، وجيروم، وغريغوري، وفي الوقت نفسه كان من بين القديسين، نيقولا، وأنطوني الكبير، وزينو أسقف فيرونا، وبولص، أول النساك، وبولنيوس أوف تريفيس Treves ، ويوسيبيوس،

وهيلاري، وأثناسيوس، ومكاريوس، ومريم المصرية، وكان هناك وقتذاك كثيراً من النساك في قفار مصر، والعربية، وفلسطين وليبيا، وفي كل سنة تدفقت حشود من الأتقياء المسيحيين مع بعضهم من جميع أجزاء العالم إلى فلسطين، لإقامة عيد الفصح الكبير، وجاء كثيرون ليس فقط من أجل يسوع، بل لكي يتمكنوا من رؤية معجزة النار السماوية في أمسية الفصح، والمعجزة على جبل الزيتون في يوم عيد الصعود، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل في ص ٤٩٠، و ٥٩٥.

ولم تتوقف القدرة الالهية، في ذلك الوقت أيضاً عن تمجيد هذا المكان، بوساطة كثير من العلامات، وهكذا رأى في سنة ٦٢٠ لتجسيد الرب، راهب اسمه برنارد، هو ليس برنارد أوف كليرفو، بل رجل مقدس آخر، رأى النار المتقدمة الذكر نازلة من السماء إلى هيكل ضريح الرب، وقد كتب كثيراً حولها في كتاب حجه، وفي ذلك الوقت قدر المسيحيين كثيراً بسبب نار الفصح، وفي ذلك الوقت أيضاً جرى عرض الصليب المقدس والآثار المقدسة الأخرى، التي وضعتها هناك القديسة هيلانة، وهكذا نقراً، بأن القديسة مريم المصرية، عندما كانت ماتزال مذنبة، قدمت إلى القدس مع آخرين كثر لرؤية الصليب المقدس، غير أنه لم يسمح لها بالدخول لرؤيته قبل أن تعهدت بتقويم حياتها، حسبما ورد في اسطورتها.

وبين الامبراطورين المتقدمي الذكر، أي قسطنطين وهرقل، تسلم يوليان المرتد زمام السلطة في سنة ٣٦٣، وكان هذا الرجل يغار من مجد المسيح والمسيحيين، ولذلك حشد جميع اليهود مع بعضهم، وبعث بهم إلى القدس على نفقته، من أجل أن يتمكنوا من بناء هيكل فوق أرض بيدر أرونا، لخفض وايداء مجد هيكل ضريح الرب، الذي كان آنذاك ممجداً في جميع أنحاء العالم، وكنا قد تحدثنا من قبل عن الاضطراب الذي أرغمهم على التخلي عن العمل.

وبعدما طردت الهرطقة الأريوسية من كنيسة القدس، وعندما كانت كتلة الناس المؤمنين تتقاطر كلها على شكل حشود إلى ضريح الرب، وعندما كان السلام مع القداسة مزدهران، وفي الوقت الذي كان فيه جيروم المبارك ساكناً في بيت لحم، انبعث شر آخر في الكنيسة في القدس، وهو الانشقاق حول السلطان القضائي، لأنه عندما جاء ايبيفانوس Epiphanius أسقف سالاميس Salamis في قبرص، إلى القدس، وكان يناظر في هيكل الضريح المقدس ضد هرطقة أورجين Origen ، منعه يوحنا أسقف القدس ومعه اكليروسه كلهم، فلقد منع بغضب الرجل المقدس، وأمره أن يلزم الصمت حول هذا الموضوع، وفيما بعد عندما رجع إلى مكانه، أمر يوحنا بعدم عبد الذين رسمهم ايبيفانوس كهنة، وحرم كنسياً جميع الرجال المقدسين للفتة الأخرى، وعلى هذا كان الذي حدث الآن هو أن الهرطقة سمح لهم بالدخول إلى ضريح الرب وبتقيل الصليب المقدس، ونقرأ عن هذه المسألة في كتاب جيروم الذي وجه إلى باماخوس Pammachus ضد يوحنا، أسقف القدس المنشق، وبعد مضي سنوات طوال، عندما جلس القديس غريغوري على عرش بطرس، في سنة ٥٨٤ لتجسيد ربنا، تم العثور على رداء ربنا الذي لا مثيل له، في صندوق رخامي في مصفت Masphat قرب القدس، وقد جلب مع البكاء والصوم إلى القدس من قبل القديس غريغوري، أسقف أنطاكية، وهونوريوس أسقف القدس، ويوحنا أسقف القسطنطينية ووضع في كنيسة الجلجلة، من أجل بهجة الناس وتقواهم.

وفي سنة ٦٠٩، قام في الشرق، كسرى ذلك المتوحش المتميز، والذي كان ملك فارس، فقد حشد جيشاً من الكفار، وشعث واستباح مصر، وسورية، وفلسطين، وناهض الحكم الروماني في كل مكان وبكل السبل، وبعدما استولى على كثير من المدن، دخل إلى اليهودية وحاصر

مدينة القدس المقدسة، التي كانت مليئة بمسيحيين أتقياء، واستولى عليها، وقتل فيها ثلاثين ألفاً من الناس، الذين أمر بأجسادهم فرميت خارج المدينة، في جدول قدرون، لكن الرب بعث أسداً كبيراً، جاء وحمل أجساد المسيحيين، ودفنهم فوق جبل الشهداء، قرب القدس، كما قرأنا في «التاريخ اللاهوتي» وكما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

وقد اعتقل بعضاً من الأعيان، وجعلهم أسرى لديه، وكان بينهم زكريا، أسقف القدس، الذي أودعه السجن، وبعد تهديمه سور المدينة المقدسة، دخل إلى هيكل الضريح المقدس، عازماً على نهبه، ثم تدميره، لكنه بعدما استولى على الصليب المقدس، الذي وضعته هيلانه هناك، وكان مغلفاً بأغلفة من ذهب، وأراد أن يمدّ يده من أجل تدمير الهيكل، أشعت القدرة الربانية من ضريح الرب، بشكل أنه ورجاله ارتجفوا رعباً، وتوقفوا عن أعمال التدمير التي كانوا قد شرعوا فيها، وعاد مع أسلابه، ومع الصليب المقدس، ومع الأسرى إلى بلاد فارس، ونهب بعد هذا كنائس الشرق، وأرسل ابنه إلى الأجزاء الشمالية من سورية، بقصد قهر الشعوب في تلك المناطق، ونهب كنائسهم، وقد عبر كثيراً من البلدان، ووقف أخيراً عند الدانوب، حيث كان الامبراطور هرقل قد زحف ضده وهزمه، حسبما أخبرنا في عظة يوم تمجيد الصليب المقدس (١٤ - ايلول).

وعندما هزم، قُتل أبوه، وجرى استرداد الممالك الضائعة، وأرجع هرقل إلى القدس الصليب المقدس، والأسقف زكريا، وجميع الأسرى والأسلاب، وقام بترميم الأجزاء المهدمة من الهيكل والمدينة، وأعاد إلى المسيحيين رسوم كنائسهم وفقاً للاستخدامات اللاهوتية، وفي الحقيقة كانت المدينة المقدسة قد بقيت مقفرة وتعيسة لمدة عشر سنوات، لكن هرقل استردها، وعاد إلى القسطنطينية، حيث أخذ يمارس حياة شريرة.

وفي هذا الوقت انضم إلى محمد ﷺ.... (١) عدد كبير من المناطق والممالك المسيحية ولدى رؤية هرقل لهذا الوضع، خاف من دخوله ﷺ إلى القدس، وتدميره لهيكل ضريح الرب، وظهره عدم الاحترام نحو الصليب المقدس، ولذلك حال بين محمد ﷺ وبين ذلك فأخذ الصليب المقدس وكل شيء آخر غالي وثمان، وأخرجه من الهيكل ونقله إلى القسطنطينية، لأنه يئس من قدرته على مواجهة محمد ﷺ، وحدث نقل الصليب المقدس في سنة ٦٢٣ لتجسيد الرب.

وبعد وفاة محمد ﷺ استولى عمر بن الخطاب، الخليفة الثالث (اقرأ: الثاني) على مدينة القدس في سنة ٦٣٤، وبنى هناك مسجداً كبيراً للمسلمين ولأتباع محمد ﷺ فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى هيكل سليمان، وهو أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان عندما استولى على المدينة، قد نوى أن يعمل مسجداً من هيكل الضريح المقدس وأن يعده من أجل الشعائر الاسلامية، لكنه عندما دخل إلى الهيكل ارتعب بالقدرة الإلهية إلى حد أنه تراجع عن نيته، وتعامل بشكل لطيف مع المسيحيين، بسبب تقوى صفرونيوس الأسقف المسيحي، الذي اعتمد بكياسة على رأيه بشأن بنا الهيكل الجديد.

وواضح مما قيل بأن هيكل ضريح الرب، كان قائماً قبل ثلاثمائة وأربع سنوات قبل الهيكل الذي يسمونه هيكل سليمان، وأذن عمر للمسيحيين بعبادة الرب في هيكلهم، وأجبر المسلمين على مدح محمد ﷺ في هيكل آخر، لأن غير المسيحيين لم يكونوا قد اعتادوا بعد على شعائر محمد ﷺ، ولذلك كانوا يساقون بالقوة، ومع مرور الأيام تفجر خصام في القدس بين المسلمين والمسيحيين، وفرض المسلمون على المسيحيين كثيراً من المكوس، وغالباً ما جرى تحريرهم منها والتفريج عنهم من قبل

١- جرى حذف عدد من الأسطر لما تضمنته من شتائم مقذعة بحق النبي ﷺ، يضاف إلى ذلك أن التواريخ التي قدمها فابري غير دقيقة.

الأباطرة، من ذلك على سبيل المثال أنه في سنة ٦٧٠، قام قسطنطين الثالث — على الرغم من أنه كان رجلاً سيئاً — بتحرير المدينة المقدسة والضريح المقدس، سبع مرات من ظلم المسلمين، وبعده عمل قسطنطين الرابع شروراً كثيرة للمسلمين في كل من القدس وأماكن أخرى، وحيثما كانوا يقاتلون ضد المسيحيين، ومع ذلك استمر المسلمون يحكمون القدس، ولم يتمكن أباطرتنا من تحرير المدينة وتخليصها من تحت نير الاغريق (الروم الأرثوذكس). وفي سنة ٨٠٣ لتجسيد ربنا، في أيام حكم شارلمان، الامبراطور العظيم، كان المسيحيون في القدس وفي جميع الشرق في وضع مرهق تحت سلطة المسلمين، وقاموا وهم في أوضاعهم التعيسة بالتوسل من أجل المساعدة من قسطنطين — السادس بهذا الاسم — امبراطور القسطنطينية، ومن أمه إيرين، لكن بما أن قدرة الإغريق وقوتهم كانت قد تراجعت كثيراً، لم يكن باستطاعته هذا الامبراطور تقديم المساعدة لهؤلاء اليائسين، بوساطة قواته الخاصة.

وقام في ذلك الحين ليو، الذي كان البابا الثالث بهذا الاسم، صدوراً على الفضائل العظيمة لشارل الكبير، ملك الفرنجة، فمجده بترقيته إلى مرتبة امبراطور الرومان، وهو لقب كان قبل حوالي خمسمائة سنة مضت قد زال من قبل قسطنطين الكبير، وفي أيام شارلمان كان تقريباً قد أصبح منسياً من خلال الأيام، وقد أعاد الآن امبراطورية الغرب إليه.

وتبنى شارل، الذي لقبه أغسطس، الاسم الامبراطوري، وفخاره، وحكم لمدة أربع عشرة سنة، وقد عمل أعمالاً مجيدة في جميع أنحاء العالم، وجلب المجد والفخار لشعبه الألماني، ولهذا كان شارل تيوتونيا، حسبها مبرهن بشكل واضح بالاعلان في.....المراسيم، حيث جاء سياق النص كما يلي: «نقل الكرسي الرسولي الامبراطورية الرومانية من الاغريق إلى الألمان، في شخص شارل المجيد»، وجاء في أبّا Appa: ٢ الشيء نفسه، فضلاً عن هذا نقرأ في كتب التاريخ أنه عندما تعرضت

الكنيسة الرومانية للتسلط الهنغاري، طلب البابا المساعدة من امبراطوري القسطنطينية: قسطنطين، وابنه ليو، ولأنهما لم يتوليا الدفاع عن الكنيسة الرومانية، نقل حكم الامبراطورية الرومانية إلى شارل الكبير، ابن بيبين، الذي هو نفسه وضعه في مكان لويس ملك فرنسا، الذي خلعه.

وحدث نقل الامبراطورية من الاغريق إلى الالمان في سنة ٧٧٦، وفي أيام حكم شارل سمعت شهرته في القدس، ولذلك بعث إليه بطريرك القدس بمفاتيح الضريح المقدس وموضع الجمجمة، ومفاتيح أبواب المدينة، وجبل صهيون، وأعلاماً للمباركة، وكعلامة على الخضوع كما يمكن الاطلاع على ذلك في تاريخ أنطونيوس - القسم الثاني، العنوان: ١٤، الفصل: ٤، الفقرة: ٢.

وليس بعد مدة طويلة من هذا قام غير المسيحيون بثورة ضد يوحنا بطريرك القدس، وطرده مع جميع اكليروسه إلى خارج المدينة، وذهب إلى القسطنطينية، وطلب المساعدة من الامبراطور قسطنطين، وعندما كان الامبراطور مشغولاً حول هذه المسألة، رأى في منامه رؤيا، تعلم خلالها، بأنه ليس هو، بل شارل الكبير، هو الذي سوف يحرر القدس، ويعيد ضريح الرب إلى المسيحيين.

وبناء عليه ارسل امبراطور القسطنطينية، على أيدي رجال دين الضريح المقدس، إلى شارل الكبير المفاتيح، ورسالة أوضح فيها الشدائد والمصاعب التي آل إليها وضع الضريح المقدس والمسيحيين، وعندما قرأ شارل هذه الرسالة، بكى وعلى الفور حشد حشداً كبيراً من الألمان والفرنجة، وجلبهم عبر البحر، وأنقذ المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وأعاد الضريح المقدس، إلى المسيحيين، وبذلك أقام سلاماً كاملاً بين المسيحيين والمسلمين، وهو أمر لم نسمع به من قبل.

وهو لم يقيم بقتل المسلمين، ولا بطردهم من القدس، بل جعلهم يتفقون مع المسيحيين على شروط محددة، ولقد قيل بأنه توفر هناك وئام عظيم فيما بينهم لسنوات طوال، إلى حد لو أن دابة أي مسافر هلكت على الطريق، كانوا يضعون الحمل على جانب الطريق، ويذهبون إلى القرية الأقرب للحصول على دابة أخرى، وذلك من دون البضائع التي خلفوها ورائهم، دون المعاناة من أية خسائر، أو سرقة، أو سلب، وهكذا بعدما أعيد السلام، واسترد النظام إلى الكنيسة، عاد شارل المشهور جداً إلى بلاده، وعلى طريقه زار القسطنطينية، حيث استقبل استقبالاً فخماً.

وتعويضاً على جهوده منحوه أعطيات ثمينة جداً، وذهباً، وفضة، وأحجاراً كريمة، وأشياء أخرى غالية، وقد رفض أخذها قائلاً إنه سيكون أمراً مؤذياً بالنسبة له أن يأخذ إيجاراً على عمله الذي عمله لمحبة الرب فقط، وعندما ترجوه بأن يأخذ هدية ما، طلب أن يعطى آثاراً مقدسة، ولهذا فتحوا كنوزهم، وأعطوه بعض الشوك من تاج الرب، وواحداً من مسامير الصليب المقدس، وقطعة كبيرة من الصليب نفسه، ومنديل الرب، وقميص العذراء المباركة وأقمشة القماط التي لف بها الطفل يسوع، وقطعة من مزود الرب، وسنان الرمح الذي طعن به جنب الرب، وذراع القديس سمعان، وأشياء أخرى كثيرة، تسلمها ذلك الرجل اللامع مع خشوع عظيم، وقد وقعت معجزات كثيرة في هذه المناسبة، كما جاء الخبر في *Speculum Historiale* — الكتاب: ٢٥، الفصل: ٥، وقد جلبهم معه إلى بلاده ألمانيا، وإلى مدينة إكس لاشابيل، حيث وضعهم في كنيسة العذراء التي بناها، وهذه الأشياء محفوظة باجلال حتى هذا اليوم، ويجري عرضها كل سبع سنوات، حيث تجتمع في تلك الآونة حشود لا تحصى من المؤمنين، ولا سيما الهنغار الذين يأتون من بلادهم في جماعات كبيرة ويجتمعون في

إكس، وأنا شخصياً رأيت هذه الآثار في سنة ١٤٦٨.

واحتفظ شارلمان ببعض الآثار في بلاطه، وجعلهم ملكاً لبلاط
الامبراطور، ولذلك وضعهم مع الذخائر الثمينة جداً العائلة
للإمبراطورية في محل خاص في البلاط، وهم محفوظون في هذه الأيام في
سيغودنوم Segodunum، أي نوريمبيرغ nuremberg، حيث يجري
عرضهم في يوم الجمعة بعد Quasimodo، ووقتها يجتمع حشد
كبير من الناس لرؤيتهم.

وإذا مازار أي أمير نوريمبيرغ في وقت غير الوقت المحدد، فإنهم
يجلبونهم ويعرضونهم عليه، وبناء عليه، في سنة ١٤٦٨، في يوم الأحد
الذي اسمه Cantate، عندما اجتمع رهبان منطقتنا هناك في مؤتمر
ديني، عرضوا هذه الآثار علينا، وسمحوا لنا بحملهم وبتقبيلهم، وكان
بينهم سنان رمح الرب، الأعظم قداسة، وقد سمح أهل نوريمبيرغ
لكل واحد من الرهبان بلمسه بيديه، وكان ذلك صدوراً عن احترام
خاص شعروا به نحو الطائفة، ورأينا هناك، ووضعنا على رؤوسنا التاج
الذهبي لشارل الكبير، الثمين جداً، وكان كله مرصعاً بالجواهر، ورأينا
الصولجان الذهبي، والتفاحة الذهبية، والركابين الذهبيين، وبقية
الشعارات الإمبراطورية، وكلها كانت قد جلبت إلى نوريمبيرغ من
فرانكفورت في ذلك الأسبوع نفسه، وذلك حيث جرى انتخاب
مكسميليان، المجيد والمنتصر، دوق النمسا، وابن فردريك الثالث
الكبير، فقد انتخب ملكاً للرومان، وقد لبس هذه العلامات المقدسة.

وعلى هذا كانت جولاتي ورحلاتي واسعة، جعلتني أتجول في جميع
أرجاء الدنيا، ولسوف أعود الآن إلى القدس، التي بقيت بعد مغادرة
شارل الكبير لها بسلام لبعض السنين، وكان الغربيون مسموح لهم
بزيارة الأماكن المقدسة من دون أي معيقات، ولم يزعج المسلمون الذي
امتلكوا مملكة القدس، الحجاج الذين ارتحلوا إلى هناك، لأن شارل لم

يعد المملكة إلى المسيحيين، ولم يجعلها خاضعة له، بل قام فقط بإعادة السلام بين المسيحيين والمسلمين، وهو سلام — على كل حال — لم يعيش طويلاً، إنما طوال المدة التي عاشها السلام، زار الغربيون الأماكن المقدسة يومياً، في حشود كبيرة، وناموا في الليل في كنيسة الضريح المقدس، لأنه لم يكن هناك مكان لسكنى اللاتين في المدينة، ولم يكن هناك بعد دور ضيافة، ولم تكن هناك أية كنيسة لاتينية، بل تولى الروم الأرثوذكس ممارسة القداسات في كنيسة الضريح المقدس، وفي الكنائس الأخرى.

وحدث في هذه الأيام أن جلب التجار من أبوليا سلعاً جديدة غريبة، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفة في الشرق، وقد جلبوا هذه السلع إلى الاسكندرية، للحصول على الربح ببيعها هناك، ومن المعتقد أن هذه السلع، كانت البندق، كما سوف نوضح ذلك في ص ١٢٧ من القسم الثاني، وجلبت هذه السلع بمثابة أشياء ثمينة جداً إلى ملك مصر، الذي امتلك السلطة أيضاً على العربية، وفلسطين، واليهودية، وانجذب الملك بهذه السلع الجديدة، ووعد التجار مقابلهم بأنه سوف يمنحهم أي طلب يسألونه إياه، وهكذا سألوه وحصلوا على إذن ببناء مكان لإقامة الحجاج اللاتين، في أي مكان من القدس، يمكنهم اختياره.

وبناء عليه بنو ديراً تشریفاً للعدراء مريم أمام باب كنيسة الضريح المقدس، وأقاموا هناك راعي الدير، ورهبان لاتين، وبما أن اللاتين هم الذين فعلوا هذا، أطلقوا على المكان نفسه اسم القديسه مريم لللاتين، وبقيت هذه الكنيسة مقدسة، على بعد رمية حجر من ضريح الرب، وكان راعي الدير والرهبان رجالاً ذوي تقوى عظيمة، وقد استقبلوا الحجاج من وراء البحر بكل اللطف الممكن، وعاملوهم بكثير من التواضع، ومع استمرار تدفق حشود الحجاج إلى هناك من الرجال والنساء، جرى استقبال الرجال في بيت الضيافة في الدير، لكن النساء

أقمن خارج أسواره، بأفضل ما استطاعوه، وقد تعرضن في بعض الأحيان للمضايقات من قبل المسلمين، وعانين من خسائر بسبب ذلك، ولذلك قام الرهبان بعد الدعاء لمريم معينة الحجاج أن تساعدنهم، فبنوا إلى جانب ديرهم، في مواجهة جدار كنيسة الضريح المقدس، ديراً آخر للنساء، على جهة اليسار للانسان الداخل إلى الكنيسة، وأطلقوا عليه اسم دير مريم المجدلية، حيث جرى استقبال النساء الحاجات وجرى معاملتهن بشكل جيد، وهكذا تحسنت أوضاع الحجاج الغربيين في القدس، في أيام المسلمين، الذين بالاضافة لإثقالهم بكثير من الأعباء، ماكانوا يسمحوا لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أن يدفعوا لهم، ومن ثم الدخول بسلام، مثلما يفعلون هذه الأيام.

وهكذا فعل المسيحيون، وتدبروا أمورهم، لمدة تزيد على مائة سنة، أي من أيام شارل حتى أيام هنري الأول، الذي في أيامه، في سنة ١٠١٥، قام رجل مذنب، وأداة للشيطان، ومعذب لشعب المسيح، ومدمر للضريح المقدس اسمه الخليفة (الحاكم) ملك مصر الذي قام في نوبة جنون، فأزال من على وجه الأرض السلام والوئام الذي عمله شارل الكبير بين المسيحيين والمسلمين، وكان هذا الرجل قد ولد من أم مسيحية، وعندما صار ملك المسلمين، وخشية أن يعتقد أنه مقاد من قبل أمه، بدأ بممارسة أعمال وحشية ضد المسيحيين، فقد أرغم المسيحيين على التخلي عن عقيدتهم، وفرض ضرائب ثقيلة جداً عليهم، وضايقهم بكثير من الطرق الأخرى، وما من شيء أثاره ليكون متوحشاً ضد المسيحيين، وبحدة متناهية، مثل نقده بأنه شخصياً كان من دم مسيحي، الأمر الذي كان يشعر بالخجل الكبير منه، ولذلك ثار ضدهم بوحشية منفردة، من أجل أنه بفعله ذلك، يمكن أن يبرهن أنه ليس فيه نقطة دم مسيحي، ولا يمكن أن يتأثر بالحب نحو المسيحيين والميل إليهم.

وكان بين أعماله الشريرة الأخرى التي اقترفها مايلى: دخل المدينة المقدسة مع حشد كبير، ورمى أيضاً تاج المسيحيين إلى الأرض، حيث أمر بهدم كنيسة الضريح المقدس، التي بنيت بشكل فخم من قبل قسطنطين الأول والكبير، وتدميرها دماراً كلياً، وفي الوقت نفسه شعث الكنائس واستباحها على جبل صهيون وبيت لحم، وحولهن إلى عبادات ديانة محمد ﷺ وعندما عملت هذه الأفاعيل، أصبحت أوضاع المؤمنين في القدس أكثر سوءاً، من الحزن العظيم الذي شعروه بسبب تدمير الكنيسة، علاوة على ذلك منع المسيحيين من إقامة قداساتهم، أو الاجتماع مع بعضهم من أجل العبادات الربانية، وبذلك عاشوا في أوضاع ضيق شديد جداً، بسبب ازعاجاتهم اليومية، وكانوا غارقين في أعماق الأسى بسبب دمار الضريح المقدس والكنيسة هناك.

وواضح من هذا أن كنيسة الضريح المقدس التي بنيت من قبل هيلانة، بقيت قائمة لمدة سبعمائة سنة، حيث في نهايتها دمرت دماراً كاملاً، وحدث أنه في سنة ١٠٤٩، لتجسيد الرب أن جاءت الرحمة الربانية، فجلبت قليلاً من الطمأنينة للمسيحيين المدمرين، ففي ذلك الوقت أزيل الطاغية المتقدم ذكره من هذا العالم، مخلفاً وريثاً كان أحسن منه شخصياً، وانتهت هذه الاضطرابات كلها، فما أن أصبح الظاهر، الذي كان أكبر أولاده، ملكاً، حتى عمل معاهدة واتفاق مع الامبراطور قسطنطين، وقد تصرف بلطف نحو المسيحيين، وكانت عواطفه طيبة نحوهم.

وفي هذه الآونة رأى البابا المقدس ليو التاسع — وكان ألماني المولد — رؤيا أثناء نومه، قام بعدها بتحريض الامبراطور قسطنطين على إعادة بناء ضريح الرب في القدس، الذي جرى تدميره قبل سبع وثلاثين سنة من قبل البرابرة، وبناء عليه، أعطى الظاهر المسلم، بناء على طلب الامبراطور قسطنطين، الإذن للمسيحيين بإعادة بناء هيكل ضريح الرب

المقدس.

وبناء عليه ذهب المسيحيون إلى هناك بسرور عظيم، وشرعوا ببناء كنيسة جديدة فوق ضريح الرب، وفق نموذج الكنيسة القديمة، وبالنسبة لنفقات إعادة البناء، تحمل الامبراطور قسطنطين معظمها، وهكذا فإن كنيسة الضريح المقدس القائمة الآن، قد بنيت في السنة المتقدمة الذكر، أي قبل خمس وعشرين سنة، من استرداد الأرض المقدسة، وهو الاسترداد الذي تولى تنفيذه غودفري، كما سوف نبين فيما بعد.

وبالنسبة لليهود ولبنى اسرائيل، لقد كان لديهم هيكلين، واحد جاء بعد الآخر، هما هيكل سليمان، وهيكل عذرا أو زيرو بابل، ومثلهم امتلك المسيحيون هيكلين هما: هيكل هيلانة، والهيكل القائم في هذه الأيام، فقد عاش الأول سبعمائة سنة، وعاش الثاني أربعمائة وخمسين سنة، على أساس أننا الآن في سنة ١٤٨٨، وبعدما أعيد بناء الكنيسة، صار المسيحيون عندما يريدون زيارتها حسب طريقة ديانتهم، لا يسمح المسلمون لهم بالسير حول الأماكن المقدسة بسلام، بل كانوا يفرضون عليهم ضرائب مالية، أوزيرعجونهم بالكلمات، وقد توفرت كراهية كبيرة وحقد شديد فيما بين الفئتين، لأن المسلمين الذي امتلكوا وقتها السلطة على تلك البلاد حملوا حقداً كبيراً ضد المسيحيين الغرباء، ولذلك استثير العالم المسيحي كله بسبب شكاوى الحجاج، وأصبح حانقاً ضد المسلمين، وبإخلاص رغب في إزالة تسلطهم، لأنهم عانوا طويلاً من آلام ظلمهم.

فمنذ أيام عمر الأمير المسلم الذي اعتلى العرش في مصر (كذا) في أيام الامبراطور هرقل حتى أيام غودفري، الملك اللاتيني الأول للقدس، والذي عاش في أيام (الامبراطور) هنري الثالث، ظلت المدينة المقدسة خاضعة إلى سلطة المسلمين، أي لمدة تقارب الأربعمائة والتسعين سنة،

وصحيح أن الأباطرة هرقل، وقسطنطين الثالث، وشارل الكبير قد حرروا المدينة المقدسة، بعض الشيء ومعها الضريح المقدس، لكنهم لم يحرروها كلها، وظل المسلمون يمتلكون السلطة على المسيحيين، وهي سلطة حولها الأباطرة المتقدمي الذكر أقل إرهاقاً، لكنهم لم يتمكنوا من ازالتها مطلقاً، لأنهم تدبروا إقامة سلام بين الشعبين بمواثيق، ولذلك كان تحريرهم للأرض المقدسة ناقصاً، ومثل هذا الوضع كان من غير الممكن ديمومته، وخاصة بين أناس لا يمكن حملهم على الاتفاق في الدين، كما هو الحال بين المسيحيين والمسلمين، الذين توجد بينهما عداوة طبيعية، مع الكراهية التي نمت بين عرقين مختلفين من حيث الجنس، ومن حيث طريقة الحياة، والعادات، والديانة.

فصل يعالج التحرير الكامل للقدس وللضريح المقدس من قبل الأمم الغربية

حدث الانقاذ والتحرير الكامل لضريح الرب، ولمدينة القدس، ولكل الأرض المقدسة، في الوقت الذي كان فيه الامبراطور هنري، الثالث الذي حمل هذا الاسم، والذي كان بافاريًا والبابا أوربان، الذي كان الثاني بهذا الاسم، وفي الحقيقة غالباً ما قام سلف هؤلاء الأمراء بالتشاور حول هذه القضية، في اجتماعاتهم المهيبة، وفي مجالسهم التشريعية، واجتماعات الأمراء الأخرى والأساقفة، وقد بدأوا حتى بالعمل، غير أنهم لم يتوصلوا إلى أية نتائج طيبة.

وبناء عليه، حدث في أيام الامبراطور هنري الثاني، والبابا فكتور الثاني، وجرى عقد مؤتمر ألماني في تور، التي هي مدينة مشهورة في فرنسا، وكان ذلك في سنة ١٠٥٥ لتجسيد ربنا.

وتقرر وقتها وجوب تحرير الأرض المقدسة، وفي ذلك الوقت كان أوثو Othus، كونت أنجليريا Angleria، وأمير ميلان، متميزاً بحكمته الكبيرة، ومعلوماته الواسعة في إدارة القضايا العامة، إلى درجة أنه كان رجلاً له قيمة عظيمة من أجل السلم والحرب، وهذا الرجل الذي كانت شجاعته معروفة لدى جميع الذين التقوا في هذا المجمع في تور، جرى اختياره ليكون قائد الحشد، الذي كان سيقا تل ضد الأتراك والمسلمين، من أجل تحرير الضريح المقدس للرب في القدس، وقد وافق على طلب البابا والملوك الآخرين، بدون تردد، وسار منطلقاً يريد القدس مع البقية.

وقد أمضى الشتاء مع المسيحيين الآخرين في حصار المدينة، وأنزل بالمسلمين كثيراً من الجراحات والأذى، وضيق الخناق على المدينة المقدسة كثيراً، ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، وعندما كان محاصراً

لها، كان هناك أمير عربي مسلم من وراء الأردن اسمه **Volucer**، وكان يتصور نفسه رجلاً جريئاً، وقد تحدى أوتو — من خلال الترجمان — لمبارزته شخصياً، وقد تقبل أوتو هذا الاقتراح بكل سرور، وبناء عليه جاء الرجلان بعد ستة أيام، وهما مسلحان على ظهري فرسيهما، من أجل القتال، وحمل أوتو على ترسه سبعة أكايل، لأنه كان قد هزم سبعة مقاتلين شجعان جداً، وذلك بضربة واحدة بسيفه.

وحمل **Volux** (كذا) سلاحاً مختلفاً، فقد كان في خوذته أفعى برونزية ملتفة بشكل رائع حولها، وفي فم الأفعى طفل من قماش، مبتلع حتى أضلاعه، لكن رأسه وكتفيه كانا في الخارج، وقد بدا فمه المفتوح كأنه يدعو إلى المساعدة، وأخذ الرجلان مكانهما، وهما يحملان هذه الشارات، في حقل القصار، أمام مدينة القدس المقدسة، وفي أول حملة ألقى أوتو **Volux** من على ظهر حصانه، وعلى الفور تناول عموده ورفعه، وبضربة حطم جمجمته، ونثر دماغه فوق الأرض، وبعدما مات أخذ أوتو خوذته، وحملها معه مع أسلابه الأخرى، وهكذا رفع الحصار، ومن ثم عاد إلى أوربا لأن جيشه كان صغيراً.

وعندما وصل إلى ميلان، منح شعار سلاحه إلى المسيح والكنيسة، وأخذ الأفعى كدليل أبدي على نجاحه، وكرمز شخصي، ولهذا نجد في هذه الأيام أن دوقات ميلان وبقية أسرة الفيزكونت وهم يحملون هذا الرمز، يختمون نقودهم بصورة الأفعى، وهذه النقود قيد التداول الآن، ولها قيمتها وسمعتها في جميع ألمانيا، وتجلب أرباحاً كثيرة لدولة ميلان، واسم قطع نقودها الكبيرة **Blaffardi**، والأدنى **Spagurlines**، والنقود الوسط **Trigeras**.

وبناء عليه عاد القائد أوتو المتقدم الذكر إلى الوطن ثانية، وأخبر البابا وجميع أمراء الغرب، أن القدس والأرض المقدسة لا يمكن الاستيلاء عليها، إلاً بوساطة جيش كبير جداً، وفي غاية القوة، وأن يجري إرساله

عبر البحر.

وأعقب هذا، أنه في سنة ١٠٦٣، اجتمع حشد كبير من الألمان، للحج إلى ضريح الرب في الأرض المقدسة، وانطلق عبر البر نحو القدس: سيفرد Siphred (سيغفرد Siegfred ؟) رئيس أساقفة مينز، ووليم أسقف تريفيس، وغونثر Gunther أسقف بامبيرغ وأوتو أسقف راتسبون Ratisbon مع كثير من النبلاء والأتباع، وكان بنيتهم عبور بحر يوكسين Euxine، وعندما وصلوا إلى بلغاريا تعرضوا لأذى كبيراً من قبل الشعوب الشمالية، ومع ذلك وصلوا وسط بلايا كبيرة إلى آسيا، ثم وصلوا إلى تخوم سورية، وعندما سمع حاكم تلك المنطقة بوصول المسيحيين، جمع جيشاً من الأتراك، وزحف ضد أساقفتنا وشعبنا، ونظراً للتغلب عليهم بالتفوق العددي، فقد التجأوا إلى قلعة قديمة، حيث سدوا الثغرات في السور القديم، وجعلوا منها حصناً أقاموا به.

وحاول الأتراك الاستيلاء على ذلك الحصن بالقوة، فلم يتمكنوا من فعل ذلك، ومع ذلك تابعوا مهاجمة المكان لمدة يومين ليلاً ونهاراً بشكل متواصل، وفي اليوم الثالث، عندما جرى الاعلان عن هدنة لمدة ساعة حتى يستردوا قواهم، سأل رجالنا الأتراك أن يبعثوا ولاتهم وقادتهم للتناقش حول شروط سلام، وهكذا قدم ستة من كبار أعيان الأتراك إلى شعبنا، وفتح شعبنا لهم الباب، وتناقشوا معهم لمدة طويلة، فوجدوا الأتراك ذوي آراء معاكسة تماماً، لأن أساقفتنا عرضوا عليهم إعطائهم كل ماكان لديهم، ووعدوهم كثيراً من الزيادات، إذا ماكان بإمكانهم العودة إلى بلادهم بحياتهم فقط، ومع ذلك لم يبد الأتراك نحوهم أية رحمة، وماكان يرضيهم إلا الموت أو استرقاق السادة الأساقفة.

وعندما رأى قومنا حالة الضيق والشدة التي هم فيها، أرسلوا بشكل سري بعض الخدم الذين عرفوا المنطقة، ليركضوا بكل سرعة إلى عند

أمير الرملة وحاكمها، ولوعده بمبلغ كبير من المال، يدفع على الفور ليعطى له لقلع الأتراك، وبعدما أرسل جماعتنا هؤلاء الرسل، التمسوا من البرابرة منحهم شروط استسلام، ومنحوهم مالا، لكن هؤلاء اهتموا فقط بالقبض على أشخاصهم، ومن ثم اعدامهم أو جعلهم أدنى الرقيق، ولم يحصلوا منهم على جواب غير هذا، وعندما صار رجالنا في حالة من اليأس، انقضوا على المسلمين الذين دخلوا إلى قلعته، ووضعوهم في الحديد.

وعندما علم جيشهم بهذا، حاول خرق الأسوار، وهاجمها بالمقذوفات، وبالنشاب وبالآلات الحربية، لكن رجالنا وضعوا أعيان رجالهم وقادتهم وهم بالأغلال فوق الأجزاء الأعظم خطورة من السور، وبذلك أخذوا هجومهم وكبحوه، ودعوا إلى الرب بصلوات متوالية، وفجأة جاءهم العون ووصل إليهم، حيث كان أمير الرملة المسلم، قد حشد جيشاً من المسلمين ووصل إلى المكان، وطرده الأتراك، وأرغمهم على رفع الحصار، وحمل رجالنا من حصنهم، وطاردوا العدو المنهزم، وسلبوا رجاله، وأسروا كثيرين، قاموا بتعليقهم على المشانق، وبعد ذلك أعدموا القادة المأسورين مع عذاب مخيف.

وجاءت عملية الانقاذ للأساقفة في عشية يوم الفصح، أي في ليلة أحد الفصح، وكانوا عندما انطلقوا من ألمانيا، قد قرروا إمضاء أيام آلام الرب، والصعود، إلى الأماكن المقدسة في القدس، لكن هذا الحصار أعاقهم، هذا وقد حمل ذلك المسلم هؤلاء الحجاج سالمين إلى القدس، وبعدما أجازوه عاد ثانية إلى موطنه، وعندما عاد الأساقفة الحجاج الألمان إلى ألمانيا، عادوا عبر البحر، وتخلوا عن الارتحال عبر البر، خشية أن يقعوا ثانية فريسة للأتراك، لأن الأتراك كانوا قد استولوا على آسيا الصغرى وجميع تلك المنطقة، وصولاً حتى سورية، وغالباً ماكان الأتراك والعرب المسلمين على خلاف، وأتصور أنهم كذلك في هذه

الأيام أيضاً.

وفي سنة ١٠٧٠ قرر ثيودورك، رئيس أساقفة تريفس القيام برحلة إلى القدس عبر البحر، غير أن سفينته غرقت في البحر في العاصفة، وهلك هو وجميع أتباعه.

ولم يعد العرب المسلمون والأتراك بعد هذا يكتفون بمهاجمة القدس والأرض المقدسة بحدّة أكثر من ذي قبل، بل شرعوا يندفعون في كل مكان في العالم المسيحي، وغدت امبراطورية القسطنطينية ضعيفة جداً بسبب الأتراك، وبصعوبة بالغة كان بإمكانها الاحتفاظ بتراقيا، وغلاطيا، وبنطش، ويسيالي Thessaly ، ومقدونية وآخيا، ومن هذه المناطق اعتاد الأتراك والعرب على اقتطاع بعض الأجزاء، ونغصصوا حياة المسيحيين الذين سكنوا فيهم، وأسبئت بشكل خاص معاملة المسيحيين في القدس والأرض المقدسة، لأنه في سنة ١٠٨٢، انقض الـ Bo-reades أو الأتراك على فلسطين بجيش مسلح، ودمروا البلاد بالسيف والنار، ونهبوا في الوقت نفسه مدينة القدس، وقتلوا بشكل تعيس المسيحيين الذين وجدوهم هناك، ودنسوا الضريح المقدس بكثير من التجاوزات والانتهاكات.

وأرسل في الوقت نفسه امبراطور القسطنطينية، رسلاً إلى الامبراطور الروماني هنري الثالث، وإلى أمراء الغرب، شارحاً لهم ما حدث، وملتسماً منهم القدوم لانقاذ الأرض المقدسة، وفي أيام ولاية البابا أوربان الثاني والامبراطور هنري الثالث، كان هناك ناسك في فرنسا اسمه بطرس، وكان رجلاً عظيم الحكمة، ولا مثيل له بالقداسة، ومما لاشك فيه تحرك هذا الرجل بوساطة الروح القدس، حيث تحلى عن خلوته الهادئة، وحمل نفسه إلى القيام بجولات مقدسة، وقد انطلق مع كثير من الحجاج الآخرين، وعبر البحر، ووصل إلى ضريح الرب، في الأرض المقدسة، حيث قبل الأماكن المقدسة، ف شعر بقوة، وبتقوى

متوهجة، وعندما رأى هذه الأماكن الأعظم قداسة تعامل بقدر عظيم من السوء من قبل المسلمين، وسمعان المبجل، بطريك المكان واكليروسه يرفض ويقاوم، والمسيحيين الآخرين مظلومين، وأسيئت معاملته الحجاج كثيراً، وقد أحزنه وآلمه، وشعر قلبه بالمرارة تجاه مثل هذا الظلم، وكان قد حدث له أنه في مساء عيد الفصح، عندما دخل إلى كنيسة الضريح المقدس، ليبقى ساهراً في تلك الليلة الأعظم قداسة، وقد سحب نفسه إلى زاوية داخلية في الكنيسة، حتى يتمكن من صرف نفسه بهدوء أكثر وانتباه أعظم نحو حمد الرب وشكره، وهناك صلى بعقل واعٍ، وروح مضطربة، ومع دموع كثيرة قائلاً: «إلى متى يارب ستبقى أماكنك المقدسة مداسة تحت الأقدام، وحجاجك مضحكة ويستخف بهم وتساء معاملتهم؟ استمع يارب، وافعل هذا الشيء وهو تحرير الأرض التي أعطيتها إلى آبائي، وهذه المدينة التي مجدها بعقيدتك ومعجزات، والتي قدستها بدمك الثمين وصليبك، والتي جعلتها بقيامتك المجيدة وحولتها الأعظم شهرة في جميع أرجاء العالم»، وكان هذا الرجل المقدس يقول هذا وأمثاله من الصلوات، وقصد أن يريح أطرافه المتعبة لبعض الوقت، فجلس على البلاط، وأمال رأسه على الجدار، وبذلك بدأ ينام بجسده، مع أن عقله بقي مستيقظاً بصلاة مؤلمة إلى الرب، وفجأة رأى الرب يسوع خارجاً بشكل رائع من ضريحه، وقال له، وهو ينظر إليه: «انهض يا بطرس، وأسرع إلى روما، وقل لأوربان، باباروما، يقول لك الرب مايلي: مثلما جلبت في الماضي نوراً إلى الغرب من الشرق، مثل هذا، من الغرب سوف أجلب نوراً إلى الشرق، وإلى مدينة القدس، وذلك بسبب اسمي العظيم، ولسوف أعطي ضريحي المقدس إلى القادمين من الغرب، حتى يقوموا بعبادتي، واطهاري إلى غير المؤمنين، ولكي يقوموا باحترام الأماكن المقدسة، وهي أماكن انقاذ بني البشر»، وبعدما قال هذه الكلمات، انتهت الرؤيا، وقام بطرس الذي لم يكن لديه شك حول صدق الذي سمعه، بالعودة

إلى روما، وبجرأة ذهب إلى البابا أوربان الثاني (١)، وأخبره ببساطة بالرسالة التي كلف بحملها.

وفتح الرب عقل البابا، فأدرك بأن هذا الشيء كان من عند الرب، فقام على الفور بتوجيه الدعوة إلى عقد مجمع عام في كليرمونت في أوفرين **Auvergne** ، وكان ذلك في سنة ١٠٩٤ لتجسيد الرب، وقد أقنع المجمع بارسال جيش لمحاربة المسلمين، من أجل استرداد القدس، وعين ثلاثمائة ألف رجل مع الصليب، وتولى تكريس حشد حملة الصليب إلى مريم العذراء الأعظم مباركة، وأمر بوجوب تلاوة صلوات مريم العذراء المباركة، الساعة، يومياً، من قبل الكهنة، من أجل أن تصبح حامية لجيشها، وإلى بطرك الناسك أعطى مراسيم بابوية، وبعث به إلى ملوك وأمراء الغرب، حتى يسرعوا إلى انقاذ الأرض المقدسة، وفقاً لأوامر الرب، التي كشفها إلى بطرس.

وبناء عليه انطلق بطرس إلى الملوك والأمراء، والأعيان، وحكام المناطق، وقد استقبل من قبلهم جميعاً مثل ملاك الرب، وأصغوا إليه بعناية كبيرة جداً وعلى الفور أخذ جميع الناس بالاستعداد، طاعة منهم لأوامر الرب وأوامر البابا، وفي الحقيقة، كانت تلك مهمة عظيمة ألقاها على عواتقهم، بوجوب اصغائهم إلى رجل فقير، من أصل وضيع، وكان أيضاً رجلاً ليس معروفاً ومجهولاً، وذلك من دون رؤية، أو اظهار، أية معجزة، أو سماع أي خطاب وعظ فصيح، وكان أن صدقوا كلماته الواضحة، وقد لبى البابا، والكرادلة المثقفين، والاكليروس، ورجال الطوائف الدينية، مادعاهم إليه وأطاعوه، وصدقوه ووثق به، الامبراطور سيد الدنيا، مع الملوك، والحكام، والكونتات، وجاء ذلك دون تقديم

١ - الحكايات حول بطرس الناسك مخترعة، وهنا يقدم لنا فابري احدى هذه المخترعات ولنتذكر هنا أن أوربان الثاني لم يكن وقتها مقيماً في روما بل في فرنسا، وكان يشغل عرش البابوية في روما، بابا آخر عينه الامبراطور.

أي برهان، أو شاهد يشهد على صحة ما أتى به.

وفي الحقيقة كان الناس ذوي عقول أفضل، واستيعاباً أحسن، من بني إسرائيل، الذين بعد رؤيتهم لمعجزات رائعة ولم يُسمع بمثلها، لم يكن إلا بصعوبة بالغه جعلهم يصدقون موسى، ولدى انتشار هذه الحكاية في أرجاء أوروبا، تدفق جميع الناس مع بعضهم، مدفوعين برغبة جامحة، وجاءوا من اسبانيا، ومن بروفنس، وأكوتين، وبريتاني، وسكوتلندا، وألمانيا، ومن ألمانيا، أو بلاد التوتون من الشمال والغرب، ومن شواطئ البحر الشمالي، والبحر المتوسط، ومن أكثر الممالك قوة، ومن لومباردي، وإيطاليا، وأبوليا، ودالماشيا، وهنغاريا، وإيليريا، ومن جميع جزر المحيط، والبحر المتوسط، وبحر بنطش، ومن بلاد اليونان الأوربية، القائمة على جانبنا من البوسفور، والمتضمنة: تراقيا، ومقدونية، وإيبيروس، وآخيا، والبلونيز، وهي بلاد كانت في ذلك الوقت كلها مسيحية، لأنها الآن خاضعة للأتراك، وذلك حتى حدود إيليريا، وهنغاريا، وبانونيا، ودالماشيا، فلقد تدفق الناس من جميع هذه البلدان، وتجمعوا مع بعضهم مثل أسود منقضة على فريستها، ولم يكن هناك في جميع المناطق التي يضمها الغرب، بيت واحد وقف دونها نشاط، بل جاء من ذلك البيت الأول أب، ومن البيت الثاني ابن، ومن البيت الثالث الأسرة كلها، وكان الجميع شارعين بالاستعداد من أجل رحلتهم، وكانوا يقومون بالوداع مع الآهات والتنهدات، حيث كانوا يقولون «وداعاً» للمرة الأخيرة.

وفي الحقيقة صار الدواء أعظم من الداء، لأن بعضهم قد اقتنع برغبة الذهاب إلى القدس حتى ينسوا واجبهم في الوطن، وقطع كثير من النساك، ورهبان الديرة، والفتيات، والأزواج المرتبطين بروابط الزواج، وكثير من الراهبات، قطعوا عهود طاعتهم من دون إذن أو إجازة، وانطلقوا من ديرتهم، واختلطوا بصفوف الناس المسلحين، وعندما

طلبوا وضع علامة الصليب عليهم، وأخبروا من قبل الأساقفة الذين منحوا هذه العلامة، أنها بلا فائدة لهم، وأشار عليهم بالعودة إلى الوطن ثانية، أظهر بعضهم علامات مسامير الصليب وقد انطبعت بشكل اعجازي على أجسادهم، وقام آخرون، حتى من الفتيات والنساء العجائز، بالتفاخر بأنهن يحملن هذه العلامات، وقام آخرون بكّي أنفسهم بشكل متوحش بحديد محمى، حتى يرسموا على أنفسهم علامة الصليب، وكانت حمى الحماس بين جميع طبقات المسيحيين مدهشة.

وجرى تعيين قادة ومقدمين على الجميع، وعلى الفئات المسلحة المنفردة، من قبل أمرائهم وأساقفتهم، كما جرى بوساطة السلطة الرسولية تعيين ذلك النبل والمقاتل الذي لانظر له، الذي اسمه غودفري، كونت غالاشيا Gallacia (كذا) ودوق اللورين، وتسميته مقدماً، وقائداً عاماً للجيش كله، وحاكماً لجميع الفئات فيه، وتولى هو — مثل يهوذا مكابي ثاني — مع اخوانه، والرفاق النبلاء إثارة الحرب وشنها في سبيل الرب، وكان في جيشه عدداً كبيراً من المقاتلين الفائقين الشجاعة، والبارونات، والكونتات، والفرسان، وكان قد تولى المسؤولية الروحية همر (أدهمر) الذي كان مثلاً أعلى، وكان أسقفاً لبادوا Padua، وركض بطرس المتقدم الذكر إلى الأمام وإلى الخلف في جميع البلدان، وجمع جيشاً عظيماً وقوياً، حوى حوالي الأربعين ألفاً من الرجال المسلحين، تولى هو قيادتهم، ومثله فعل الرجال العظماء الآخرون، الذين نظر إليهم الناس نظرة احترام، فحشدوا رجالاً حولهم، وجرى اعداد هذه الحملة خلال سنوات ثلاث، وذلك قبل أن تقلع الحشود وتأخذ طريقها.

وفي الحقيقة اجتمع واحتشد: ملوك، وودوقات، وكونتات، وبارونات، وفرسان، وعساكر، ورجال أقوياء، وحكام، وولاة مناطق، ونبلاء، وعوام، وأغنياء وفقراء، وأهل مدن وسكان أرياف، ومواطنين

وأقنان، وأحرار وعبيد، وعلمانيون ولاهوتيون، وكهنة ورهبان، وأساقفة ورعاة ديرة، وكرادلة، ورجال ونساء من الطوائف الدينية، وشباب وشيوخ، ونساء وفتيات، وأرامل وزوجات، وعظم حجم حشد الرب إلى حد عظيم العدد حتى أن وليم (الصوري) قال: «لم يُر قط مثل هذه الأمم مجتمعة ومتفقة على هدف واحد، وكان عدد الناس فوق ما هو متصور، ذلك أن بعض الذين قاموا باحصاء الأعداد، قالوا بوجود ستة ملايين من الرجال قد حملوا شارة الصليب، فهؤلاء أعدوا أنفسهم من أجل الرب».

وكان بين هؤلاء — كما قلت — القائد الذي لانظير له، الذي هو غودفري، فهو كان الأعظم مكانة، حيث كان قائد جميع الحشود، وتحت قيادته جرى تعيين عدة قادة لكل فئة من الفئات، وعندما بات كل شيء معداً على هذه الصورة، في سنة ١٠٩٧، لتجسيد الرب، بدأ الحشد بالزحف من أماكن تجمعاته، وبما أنه لا الأرض ولا البحر كان من الممكن لهما استيعاب هذه الأعداد دفعة واحدة، فقد انقسم الجميع إلى حشود، والحشود إلى فيالق، والفيالق إلى جيوش، والجيوش إلى ألوية اقتيد كل منها من قبل قائد، وتحت هؤلاء القادة كان هناك قادة مئات وقادة عشرات، وهكذا توجهوا نحو البحر في مجموعات منفصلة إلى موانئ متعددة، وفي الوقت نفسه ذهب آخرون كثر على الخيول وعلى الأقدام من خلال هنغاريا إلى دالماشيا، ومن ثم دخلوا إلى بلاد الاغريق، ومضى بعضهم حول بحر يوكسين وبحر أزوف (Maeotic Marsh)، ووصلوا من خلال بلاد خلقيدونيا إلى كبدوكية، وعلى هذا أرغم هذا الحشد الكبير على البحث عن أطول الطرق هناك.

أما بالنسبة للمخاطر التي أملت بشعب الرب خلال الحاجة إلى الضروريات، ومن الشتات وعدم الاستقرار، ومن الصراعات بينهم أنفسهم، ومن الطاعون، ومن هجمات الأعداء، فهذا كله يحتاج إلى

وقت طويل للحديث عنه، والذي يريد أن يقرأ حول ذلك، عليه أن يعود إلى فنستوس أوف بوفيا Vincentius of beuvais في مصنفه Speculum Historiale — الكتاب: ٣١، الفصل: ٤٢، ولدى عدد كبير آخر من الكتاب.

والذي عانى منه المسيحيون على أيدي الأعداء والكفار من الممكن تحمله، لكن الشرور التي أنزلوها بأنفسهم، والمعوقات التي واجهوها من الهنغار والاغريق، والمذابح التي اقترفها هؤلاء بين رجالهم المسلحين، أعظم إيذاء من أن تحتل، ولسوف أكتفي بذكر قضية واحدة بين عدد كبير من القضايا، فقد كان هناك كاهن ألماني اسمه غونديكالكوس Gondcalcus، وكان شجاعاً ورجلاً جريئاً، وكانت ميوله الطبيعية نحو القتال، أعظم منها نحو تلاوة القداش، وحشد هذا الرجل جيشاً مؤلفاً من خمسين ألفاً من الرجال المسلحين وذلك من عامة الناس في ألمانيا، وعندما وصلوا إلى هنغاريا، ونهبوا بعض القرى هناك، لتزويد أنفسهم بالذي كانوا محتاجين إليه، انقض ملك هنغاريا عليهم، وأوقع فيهم مذبحه غير انسانية تماماً، حيث لم يميز بين البريء والمجرم، وبذلك مزق ذلك الجيش حتى مامن أحد فيه شارك في الصليبية كما كان ناوياً، بل الذين نجوا من سيف الهنغار عادوا آسفين إلى وطنهم في ألمانيا.

أما بالنسبة للأذى والمضار التي أنزلها بشعب الرب امبراطور القسطنطينية، فكتاب كبير من الصعب أن يكفي للحديث عنها جميعاً، والشيء نفسه الذي نزل بالمسيحيين في هذه الحملة، يشابهه ما نزل بالرومان عندما انطلقوا للقتال ضد قرطاج، فبعدما حشدوا جيشاً كبيراً جداً، وصلوا إلى أفريقيا، وبنيتهم القتال ضد قرطاج، ولدى وصولهم إلى أحد الأنهار انقض على فرقههم حيوان هائل، وكان ثعباناً متوحشاً جداً، حيث تمكن من قتل أعداد كبيرة من الرجال، وبعنف أعيقوا من

قبل هذا الحيوان الوحيد، إلى حد أرغموا فيه على جلب جميع آلات الحرب لديهم للحملة عليه، وبعد مقتل عدد كبير، أمكن أخيراً غلبة ذلك الحيوان، وسحق بالحجارة، ولقد كان مقياس جلده سبعين قدماً، وعندما حمل إلى روما، صعق كل من رآه عجباً ورعباً.

ومثل هذا الآن عندما وصل غودفري، ذلك الرجل المجيد مع قواته إلى القسطنطينية، قرر الانتظار هناك حتى تلحق به بقية قواته، لأنه كان عليه الاستعداد على حدود المسلمين الأتراك، حيث كان ما أن يعبر البوسفور، لا يمكنه المرور خلال الأراضي التركية من دون قتال، وإثر اجتماع جميع الفرق مع بعضها، تشكل هناك جيش واحد للرب الحي، ولدى استعراض جميع الفرق وجدوا هناك سبعمائة ألف من المقاتلين الرجالة، ومائة ألف من الفرسان الدارعين، فضلاً عن استمرار تدفق الرجال والتحاقهم بالفرق، وغادر هؤلاء جميعاً القسطنطينية، وعبروا بالسفن البوسفور، أي ذراع القديس جورج، وبذلك عبروا من تراقيا إلى بيسينيا، والبوسفور هذا هو ذراع ضيق من القناة التي يصب فيها البحر المتوسط في بحر يوكسين، وهو ضيق إلى حد أن الذي تتطلب أعماله، يمكنه أن يعبر ثلاث مرات أو أربع مرات من تراقيا إلى بيسينيا، ومن القسطنطينية إلى خلقيدونية، والعودة ثانية.

وعندما وصلوا إلى بيسينيا، وهي منطقة في آسية الصغرى، مروا بجميع القرى الأخرى والبلدات وقصدوا مباشرة مدينة نيقية، وهي مدينة مكتظة جداً بالسكان، شرعوا بمحاصرتها في ٢٠ حزيران ١٠٩٧، وهرب مقدم الأعداء (قلج أرسلان بن) سليمان التركي، الذي كان صاحب نيقية، مع كثيرين سواه، ونجا منهم، وطاف الأتراك في المنطقة، حيث تمكنوا من حشد جيش لقتالنا، وبعد ترتيب الأمور في نيقية انطلق الجيش، وزحف نازلاً من بيسينيا إلى بامفيليا Pamphylia مع عناء كبير، وهنا التقوا مع (قلج أرسلان بن) سليمان الذي كان معه جيشاً

كبيراً من المسلمين، واشتبكوا في القتال، وبفضل الرب هزم شعبنا الأعداء، وأرغموهم على الفرار، وقتلوا ثلاثة آلاف من نخبة مقاتليهم، في حين سقط من جانبنا من الناس غير المسلحين حوالي الستة آلاف.

ونزلوا من مقاطعة بامفيليا إلى أراضي كليشيا، وهناك هزموا العدو، واستولوا على مدينة طرسوس القديمة جداً، والجليلة، مع المدن الأخرى لتلك المنطقة، ومن أجل وصف لتلك الأراضي انظر ص ١٣٨ من القسم الثاني، وتابعوا زحفهم من هناك، فوصل جيشهم عبر محطات كثيرة إلى سورية المجوفة، ومن ثم إلى مدينة أنطاكية الجليلة، التي احتلت فيما مضى المقام الثالث بعد روما نفسها، وكانت المقدمة والسيدة لجميع المناطق في الشرق، وكان اسم هذه المدينة في العصور القديمة ريلة (١) (الملوك الثاني: ٢٥ / ٢٠ - ٢١. ارميا: ٣٩ / ٥ - ٦) وهنا جرى اعدام أولاد صدقيا، ملك القدس أمام عيني، كما جرى اقتلاع عيني صدقيا نفسه، وبعد موت الاسكندر المقدوني الكبير، قام انطوخوس بتحسين هذا المكان بالأسوار والأبراج، واتخذ من المدينة عاصمة لامبراطوريته، سماها انطاكية، صدورا عن اسمه، وهنا جلس بطرس المقدم بين الرسل، أسقفاً لمدة سبع سنوات، مشهوراً بسبب أعماله اللاهوتية والمعجزات التي عملها، وهنا جرى عقد أول مجمع للمؤمنين، خلاله منحوا اسم مسيحيين، لأنه حتى ذلك الحين، كان الذين اتبعوا تعاليم المسيح، قد عرفوا باسم النصاري، أو الرسل، لكن فيما بعد حملوا اسم مسيحيين، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل (١١ / ٢٦)، ويقال بأن بطريك هذه المدينة، يوجد تحت سلطته عشرين منطقة.

وهذه المدينة قائمة في منطقة سورية المجوفة، وتشغل مكاناً موائماً جداً، وموقعاً جميلاً، وهي كلها مروية تقريباً بينابيع وجداول، ويوجد في داخل اطار الأسوار هناك رايتان عاليتان كثيراً، وقد بدت الأولى بينها

١ - هذا وهم، وريلة بلدة واقعة على العاصي إلى الغرب من حصص.

هي الأعلى، وهي تحمل على حافتها قلعة جيدة التحصين، وهاتان الرايتان منفصلتان عن بعضهما بواد عميق جداً، وضيق، خلاله يجري جدول إلى وسط المدينة، ويقول بعضهم بأن طول المدينة ميلين ايطاليين، ويقول آخرون ثلاثة أميال، وهي تبعد عن البحر عشرة، أو اثني عشر ميلاً، ويتولى السلطة بشكل آثم فيها، منذ زمن طويل الأتراك، مع أن محمد ﷺ لم يتجرأ عندما كان حياً على الاقتراب منها، وقد ذكر في قرآنه أربع مدن، اثنتان مباركتان، هما: القدس ومكة، واثنتان ملعونتان هما: أنطاكية وروما.

وفي أثناء حصارها كان يحكمها رجل كبير بين الأتراك اسمه يغى سيان الفارسي، وعندما وصل رجال شعبنا إلى هذه المدينة الحصينة جداً، حاصروها لمدة ثمانية أشهر، وفي أثناء ذلك الحصار عانى جيشنا كثيراً، وتعرض بشكل دائم إلى حملات مفاجئة من قبل أهل المدينة، ومن كوارث كثيرة نزلت بهم أمام أسوارها، ولهذا صرخ الناس جميعاً بصوت مرتفع بأن الحصار ينبغي رفعه، ولولا أن أحد القادة عارض رفع الحصار، لرفعوا الحصار خاسرين ملومين، وكان هذا القائد يتآمر بشكل سري من أجل تسليم المدينة إليه بشكل خياني، الأمر الذي تم فعله.

وجرى الاستيلاء على هذه المدينة في سنة ١٠٩٨ لتجسيد الرب، وقتل المحاصرون عندما خرقوا المدينة ودخلوها، كل من صدفوه، واقترفوا كثيراً من الفظائع هناك فيها، ولم يكن في المدينة أطعمة، لأن أهل المدينة كانوا قد أكلوا ما كان فيها أثناء الحصار، لكنهم وجدوا مخزوناً كبيراً من الذهب والفضة والأشياء الثمينة، وفي اليوم الثالث بعد الاستيلاء على المدينة، وصل كربوغا، الذي كان أميراً فارسياً قوياً جداً، إلى مساعدة أهل أنطاكية، مع قوات كبيرة جداً، وجاء وصوله بناء على التماسات أهل أنطاكية بتقديم العون لهم، وقد أقام حواجز دفاعية من حول المدينة، وهكذا حدث أن المسيحيين الذين كانوا قبل أيام

يحاصرون المدينة، ثم جعلوها مدينتهم، انقلب حالهم تماماً، مثلما يحدث غالباً في الشؤون البشرية، وأصبحوا الآن تحت الحصار، وعانوا إلى أقصى الحدود من الحاجة إلى الطعام.

وتشدد الحصار عليهم إلى حد أن مامن انسان كان بإمكانه الخروج من المدينة أو الدخول إليها، وتغير وضع شعبنا إلى الأسوأ بشكل كبير، وكانت هناك ندرة عظيمة في الأطعمة داخل المدينة، إلى حد أن شعبنا كان مسروراً بإرضاء نفوسه بالأطعمة الملوثة وغير الطبيعية، ولم يمتلك ذوي النشأة الناعمة والطعام اللين، شيئاً ليأكلوه أفضل من البقية، ولم يكن هناك تمييز بين لحم نظيف ولحم نجس، ولماذا عليّ أن أقول أكثر؟

ونظر إلى الجمال، والحمير، والخيول، والبغال، وجميع أنواع الحيوانات النجسة، على أن لحومها طيبة جداً، من قبل الذين امتلكوا الحظ للأكل منها، وللحصول على مثل هذه الأنواع من الأطعمة، التي من المؤلم مجرد النظر إليها، تجول بعض الناس هنا وهناك بنفوس مكسورة وهم يتسولون في الشوارع والأزقة في المدينة، وامتزج الرجال الأقوياء مع النبلاء بالرعاع، ومامن تاريخ يمكنه أن يخبرنا عن مثل أولئك الأمراء العظام، وعن جيش بمثل تلك العظمة، استطاع بصبر تحمل مثل تلك الندرة بالأطعمة وتلك التعاسة وذلك الشقاء.

وفي الوقت الذي كان فيه شعب المسيح يعيش في ظل تلك المعاناة، نظر الرب إلى آلامهم، وبعث مواساة طيبة لهم، فقد كان في الجيش رجل ساذج، منصرف كثيراً إلى تقديس الرسول القديس أندرو، وقد تجلّى القديس أندرو إليه، عندما كان نائماً، وأخبره بأن العدو لا يمكن هزيمته إلاّ بسنان الرمح الذي طعن به جنب الرب يسوع، عندما كان على الصليب، علاوة على ذلك أظهر الرسول بوضوح إلى متعبده المكان الموجود فيه سنان الرمح المقدس تحت الأرض في كنيسة القديس بطرس.

وفي الصباح استيقظ هذا الرجل، وأخبر بما رآه الأساقفة والأمراء، فذهبوا بمسيرة إلى المكان الذي حدد له، وبعدما حفروا عميقاً في الأرض، وجدوا سنان الرمح وحملوه مع سرور عظيم، مع أن كثيرين استخفوا به وتشككوا، لكن جندياً عمل ناراً طولها ثلاثة عشر قدماً في وسط الشارع، وأخذ سنان الرمح بيده، ومشى خلال النار دون أن يصاب بأذى، وبذلك تشجع رجال جيش الرب كثيراً، لأنه بسبب معاناتهم نشبت الخلافات في المدينة، وشرع عدد كبير من الأمراء يفكرون بشكل سري، ويتآمرون لإيجاد السبل، ليتمكنوا من النجاة بأنفسهم، لكن بعد العثور على سنان الرمح المقدس، ربطوا أنفسهم بقسم جديد، وأقسموا بالرب بأنهم سوف لن يترك أحدهم الآخر ويتخلى عنه قبل إعادة المدينة المقدسة إلى حريتها الماضية.

وفي اجتماع عقد فيما بين الشيوخ والمقدمين، جرى تحديد يوم يقومون فيه بمواجهة العدو، ومقاتلته، وبناء عليه في الليلة التي تقدمت على اليوم الخامس والعشرين لحصارهم، لم يكن هناك راحة، بل أعدّ الرجال جميعاً أنفسهم من أجل القتال في الصباح، وتحزموا بأسلحتهم، واستمعوا إلى قداسات في الكنائس في المساء، واعترفوا بذنوبهم، وتناولوا القربان، وبوساطة هذا القربان، نال الناس كثيراً من النعمة، وبذلك غدا الناس الذين كانوا في البارحة بلا طاقة، وبلا فائدة، وغير قادرين على السير متجاوزين عتبات بيوتهم، الآن قادرين على التقدم، وقد تعهد كل واحد منهم وأقسم بأنه سوف يتفوق على البقية في المعركة، ولدى الفراغ من تنظيم الصفوف، فتحت الأبواب وقام الأساقفة مع رجال الدين الآخرين، وهم في ملابسهم المقدسة بمباركة الناس لدى توجيههم إلى القتال، وعندما كان الحشد يزحف خارجاً من المدينة، تساقط عليه ندى في غاية الحلاوة، وقد بلل جميع الحشد، مما أنعش كل من الناس والدواب سواء.

وزحف شعبنا ببطىء نحو الأعداء، وقد حملوا معهم رمح الرب، وبمعمونة الرب، وبعد قتال مرير، جرى تحطيم جناحي العدو، وتمزقت صفوفه، وبدأت عساكره بالفرار، ورجالنا يتولون مطاردتهم، وقد استمروا يضربون ويقتلون في صفوفهم حتى غياب الشمس، وعندما انتهت المعركة رجع شعبنا إلى معسكر العدو، حيث وجدوا كميات كبيرة وافرة من جميع الأشياء الضرورية، مع مخزون هائل من ثروات الشرق، والذهب، والفضة، والمجوهرات، والسلع الثمينة، مما لا يمكن حصره ولاعدّه، علاوة على ذلك تمّ العثور هناك على قطعان كثيرة، وعلى أطعمة وافرة، إلى حد أن الذين كانوا من قبل بحاجة ماسة لكل شيء، قد باتوا الآن لا يعرفون ماذا يختارون من الأشياء الجيدة الموجودة أمامهم، ولقد نالوا هذا النصر في سنة ١٠٩٨ م.

واستعدوا بعد هذا للزحف نحو القدس، وانطلقوا في اليوم الأول من ايلول، وبعد مرورهم بكثير من المناطق، والاستيلاء على كثير من المدن بالقوة، وذلك على طول ساحل البحر، دخلوا إلى سورية، وعسكروا أمام طرابلس، التي كانت مدينة بحرية فائقة القوة وعظيمة، عازمين على الاستيلاء عليها، وتقدم أهل طرابلس لقتال شعبنا، غير أنهم أصيبوا بالرعب مباشرة بوساطة معجزة، فأداروا ظهورهم، وركضوا راجعين إلى المدينة، وبعدما حاصر شعبنا المدينة المقدسة لبعض الوقت، بدأوا يتذمرون بسبب تعبهم ولأن صبرهم تلاشى لرغبتهم بالوصول إلى القدس، وقد كانت هناك خلافات فيما بينهم، لأن النبلاء، والأمراء والأعيان بينهم أرادوا الاستيلاء على كل مكان حتى القدس، في حين أراد الرعايا والعامة من الناس، واعتقدوا وجوب الاستيلاء على القدس أولاً، وأنه بعد ذلك، يمكن منها الاستيلاء على المناطق التي من حولها ومهاجمتها، ولذلك قام الأمراء ارضاء للشعب برفع الحصار عن طرابلس، وزحفوا على طول الساحل، ووصلوا في اليوم الثالث إلى

بيروت، وكانت بيروت مدينة عظيمة على شاطئ البحر، كما وكانت من قبل مستعمرة رومانية، وذلك حسبما حدثنا جيروم في روايته عن حياة وموت باولا، لكنها الآن ملك السلطان، ويوجد فيها ميناء لاستخدامات كل من التجار المسلمين والتجار المسيحيين.

ومن هناك وصلوا إلى صيدا، ومروا بصور، وقد وجدوا أن هاتين المدينتين، مدينتين عظيمتين على شاطئ البحر، محصتان بشكل جيد، وعلى استعداد لصد الغزاة، وتابعوا السير على طريقهم فوصلوا إلى سهل عكا، وهي مدينة حصينة جداً على ساحل البحر، وأصيب ساحل فلسطين كله بالرعب لدى وصول جيشنا، وعاش في حالة خوف عظيم، وتابعوا مسيرهم فوصلوا إلى جبل الكرمل، وتركوا الجليل على يسارهم، ومروا بقيسارية فلسطين، التي على شاطئ البحر، ونصبوا معسكراً في الحقل ليس بعيداً عن قيسارية، وعندما كانوا معسكرين هناك جرح صقر طائراً من الحمام كان يطير فوق المعسكر، جرحاً بليغاً، لذلك سقط فوق الجيش، فوجدوه يحمل رسالة جاء نصها كما يلي: «يتمنى ملك عكا الصحة إلى والي قيسارية، هناك جيل من الكلاب، من شعب مشاغب زاحف ضدكم، دافعوا عن شريعتكم ضدكم بأنفسكم وبالأخرين، واطلب من المدن الأخرى فعل الشيء نفسه»، ووقعت هذه الرسالة بأيدي أمراءنا، وفي الحقيقة استخدم الحمام في المراسلات الملكية في البلدان الشرقية، وهذا سوف نشرحه في ص ٨٥ من القسم الثاني.

وقد قوضوا معسكرهم، وزحفوا من هناك، ووصلوا في اليوم الثالث إلى قرب يافا، فنصبوا معسكرهم في الحقل أمامها، وقد علموا آنذاك، أنه ليس بعيداً عنهم توجد مدينة الرملة الغنية، فبعثوا بكونت فلاندرز أمامهم مع خمسمائة من الخيالة، حيث وجد المدينة فارغة، وقد دخلوها جميعاً من دون مقاومة، لأن سكان المدينة عندما سمعوا بوصول جيشنا أصيبوا بالرعب وهربوا إلى جبال اليهودية، لانقاذ حيواتهم، تاركين كل

ما امتلكوه وراءهم في المدينة، وعندما سمع شعبنا بذلك جلبوا قواتهم إلى المدينة وأقاموا فيها لمدة ثلاثة أيام، وقد وجدوا مايكفيهم من أطعمة لهذه الأيام.

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل شعبنا

جرى الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة من قبل شعبنا وفق الطريقة التالية: عندما سمع الذين سكنوا بالقدس عن قدوم الصليبيين، وبعدما عرفوا صدقاً بأن تلك الحشود القادمة لها اهتمام خاص محدد هو الاستيلاء على تلك المدينة، لذلك حصنوها بكل عناية ممكنة، وجمعوا الطعام والسلاح من جميع الأنواع، وأعادوا بناء الأسوار والأبراج، وجددوا الأجزاء التي تهدمت بحكم الزمان، ووضعوا حامية من نخبة مقاتليهم في القدس، وتوفر لديهم أربعين ألفاً من الرجال لرد الصليبيين وطردهم، وحفروا أيضاً خندقاً، وأقاموا سواتر دفاعية، من حول المدينة، وأفرغوا جميع الصهاريج التي في الوادي من الماء، وبنوا حصناً حول نبع سلوان، حتى لا يجد الفرنجة ماء، علاوة على ذلك اتفقوا بالاجماع على قتل جميع المسيحيين الذين سكنوا معهم في القدس، وعلى تهديم كنيسة قيامة الرب، وعلى إزالة ضريح الرب إزالة كلية، وعلى مسح صخرة الجمجمة وإزالتها من على وجه الأرض، حتى لا يأتي الصليبيون إلى هناك لعبادة هذه الأماكن إذا ما أزيلت من الوجود، إنما فيما بعد، رأوا بعد مناقشات عقلانية، أنهم بفعلهم ذلك سوف يثيرون حقداً عظيماً بيننا ضدهم أنفسهم، ولذلك سمحوا لهم جميعاً بالبقاء من دون أذى.

أما بالنسبة للمسيحيين من الجنسين، من الشباب والشيوخ، من الذين سكنوا معهم في القدس، فقد جردوهم من جميع ممتلكاتهم، ومن ملابسهم، وعاملوهم بدون رحمة، وطردوهم من المدينة مع بطيريركهم، وعندما جرى طرد هؤلاء الناس، جاءوا إلى معسكرنا، وجلبوا معهم

معلومات عن جميع دفاعات المدينة المقدسة وأوضاعها، ولدى سماع رجالنا بذلك سارعوا إلى تقويض معسكرهم، وزحفوا من الرملة إلى جبال اليهودية، وعندما رأوا أخيراً المدينة المقدسة، التي من أجلها تحملوا كثيراً من المشاق والمخاطر، بكوا من البهجة، ومجدوا الرب، واقتربوا من المدينة مع الأغاني ومظاهر السرور.

وعندما وصلوا إلى حقل القصار، الذي هو حقل كبير، على الجانب الغربي من المدينة، قسموا حشدهم وطوقوا المدينة من جميع الجهات، ونصبوا خيامهم فوق جبل الزيتون، وجبل العدوان، وجبل جيحون، وأقاموا ساتراً دفاعياً حول المدينة المقدسة والمحوبة، مع أنها كانت عدوة لهم، وبنى المسلمون منشآت كثيرة للدفاع عن المدينة خارج الأسوار، وقد جرى تهديمها جميعاً في ساعة واحدة من قبل شعبنا، وبدأ الحصار في سنة ١٠٩٩ لتجسيد الرب، وذلك في اليوم السابع من شهر حزيران، وقد قاومت خمسة وثلاثين يوماً، أي حتى يوم الحادي عشر من تموز.

هذا ولأعرف ما الذي فعله المسلمون مع اليهود الذي سكنوا في المدينة، حيث أنني لم أقف على أي ذكر لذلك، والذي اعتقده أنهم عدّوا بين المسلمين، وبقوا حتى النهاية، لأنه مع أن هذين الشعبين لا يجبان بعضهما، هما يتفقان دوماً ضد المسيحيين، وهذا واضح من التاريخ، ذلك أنه في أيام الامبراطور جستنيان اتفق اليهود والمسلمين (كذا) في الأرض المقدسة، وتكتلوا مع بعضهم ضد المسيحيين، واقترفوا مذبة قاسية بينهم، وحاولوا إزالتهم من الوجود، لكن الامبراطور المتقدم ذكره جاء إلى انقاذهم، وهزم المسلمين واليهود، ودمرهم تدميراً مريعاً.

وفي اليوم الخامس، بعد وصول جيشنا إلى المدينة، حمل جميع الرجال بلا استثناء أسلحتهم، وعانى رجالنا من كثير من الجراحات من أسوار المدينة، لأن المدينة — كما قلت — كانت حسنة الدفاعات، ومجهزة بكل

شيء كان محتاجاً إليه للدفاع، ولذلك جرى صد حملات رجالنا، وتمّ حمل عدد كبير من الجرحى إلى المعسكر، وبالطريقة نفسها بذل رجالنا غاية جهدهم لخرق الأسوار، غير أنهم رجعوا من الأسوار فقط على شكل أجساد موتى، وأجساد جرحى بين اخوانهم في السلاح، علاوة على ذلك بدأت الحاجة إلى الضروريات، وللماء والخبز، وبشكل خاص الماء، لا يمكن تحملها، فقد رأى رجالنا أن الشطر الأكبر من العوام كانوا مرضى بسبب الجفاف والعطش، وكان رجالنا كلما حاولوا الهجوم على المدينة، تمت مواجهتهم بمقاومة عنيفة، حتى أنه لم يعد لدى شعبنا أي أمل بالربح، والانتصار بقوتهم، وأدركوا بشكل واضح أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة من دون مساعدة سماوية، أو معجزة من نوع من الأنواع، ولهذا أقيمت القداسات وأعمال الوعظ لكل فئة من فئات الجيش في المعسكر كله، ولذلك حثوا كل انسان بأن ينصرف نحو الرب بقلبه كله، وساروا حفاة حول المدينة يصلون يومياً، وهذا ما فعلوه جميعاً، أي ليس من قبل الكهنة والعامّة فقط، بل من قبل الأمراء والقادة أيضاً، الذين كان الأول بينهم دوماً، غودفري المجيد، والقائد للحشد كله.

وفي اليوم الثامن لهذا الإذلال، أي في اليوم الحادي عشر من تموز، هاجموا المدينة بإرادة واحدة، وقاتلوا من الصباح الباكر حتى الظهر، وجرى قتل عدد كبير من رجالنا، وأنهكوا جميعاً من دون محصلات، وبعد ما بذلوا هذا الجهد الجبار، بدأوا يتراخون، وأنهك الناس إلى أبعد الدرجات نتيجة للتعب والجوع، وبدأوا يتوقفون عن القتال، ولدى رؤية الأعداء هذا، شرعوا من فوق الأسوار والأبراج يصرخون بصوت مرتفع، ويهينون شعبنا ويستخفون به، ولعنوا شعب الرب الحي، ورقصوا وغنوا بسرور فوق الأسوار، ولم يتوقفوا عن الاستخفاف برجالنا، وطلبوا منهم العودة، لكن هذا السرور العابث لم يطل كثيراً،

بل كان علامة على دمارهم المقبل، على أساس أن التفاخر يسير قبل الدمار كما قيل بالأمثال: ١٦/ ١٨.

وبعملهم هذا أظهروا أنفسهم حقى، ولذلك أغضبوا الحشد ضدهم، وأثاروا حقدهم ضدهم لأنه كتب في الالهيات: ١٢/ ٧: «على الانسان أن لا يضحك ليشير حقد الآخرين في أنفسهم، لأن هناك من قد يتواضع ثم يمجّد» وفي الأمثال: ٢٧ «الغضب قساوة، والسخط جراف، ومن يقف قدام الحسد؟» كما أنهم لم يقرأوا ما قاله ذلك الفيلسوف الكبير، الذي عدّ الحكيم الأول بين حكماء العالم السبعة هو الذي قال ينبغي أن لا نستخف بأي شكل من الأشكال ولا نهزأ بالرجل السيء الحظ.

ولدى سماع رجالنا السخرية منهم بآذانهم، وتلقيهم الشتائم واللعنات والتجديف، وقفوا بين شرين أو لنقل خيارين صعبين، ففي الوقت الذي لم يكن بإمكانهم فيه تحمل الإهانات التي انصبت فوقهم من دون الانتقام من فاعليها، كانوا في الوقت نفسه لا يدركون تماماً كيف يمكنهم الاستيلاء على مدينة الذين أهانوهم، وفيما هم في هذه الحيرة، فجأة ظهرت القدرة الالهية بينهم، وجلبت العون إلى المؤمنين وهم في وضعهم اليائس، فقد نزل من جبل الزيتون نحو حشدنا فارس كان مرتدياً لسابغة مشعة، وهو على ظهر مهر شجاع، وكان بيده رمح يتوهج ضياء، وأشار إلى عساكرنا بالعودة وتجديد الحملة، وبعدما أعطى هذه الإشارة لم يعد بالامكان رؤيته في أي مكان، كما أنه لم يكن هناك شك أنه ميكائيل، الذي كان مقدم الحشود المسيحية، أو كما تقول الأسطورة، اللومباردية بأن ذلك الفارس كان القديس جرجس، حيث قام من بين الأموات لمساعدة المسيحيين، وذلك مثلما قام ميركوري Mercury القديم للقتال ضد يولييان المرتد وجيشه، وهو الذي ورد خبره في التاريخ اللاهوتي.

ولدى رؤية جيشنا لهذه الإشارة، بات مسروراً، وعاد إلى الحملة على

المدينة بشجاعة أعظم من ذي قبل، وقد توهج بالحماسة هؤلاء الرجال، الذين كانوا قبل هذا مرهقين ومنهكين لما عانوه من متاعب وشقاء، وكانوا ضعفاء بسبب الجراحات، ومعاقين، غير أنهم الآن جددوا نفوسهم، وبها ضغطوا وتقدموا بشجاعة أعظم من ذي قبل، وحملوا على العدو حملة رجل واحد، وعم سرور عظيم في معسكرنا، وبدوا وكأنهم واثقين من النصر، ففي إطار ساعة واحدة طموا الخندق، وخرقوا السواتر الدفاعية، والموانع والحواجز، وأوصلوا الآلات الحربية إلى سور المدينة، وقد ستروا أنفسهم تحت هذه الآلات، وبذلك لم يعودوا يصابون بالحجارة التي رमित من الأسوار، وكانوا وهم تحت الآلات بإمكانهم شق طريقهم إلى السور واعتلائه، لأنه في ذلك الوقت لم يكن قد جرى اختراع المدافع، تلك الأسلحة المخيفة — حيث يقال بأنها اكتشفت من قبل ألماني في حوالي سنة ١٣٦٠ — والذي توفر لديهم فقط آلات لرمي الحجارة الثقيلة.

وكان مقاتلونا قد عملوا برجاً عظيماً وعالياً، على شكل سلة، ومثل قلعة، وملأوه بالتراب والحجارة، بصورة أن الذين يقفون خلفه، يكونون آمنين من الرمايات من الأسوار، ووقف هذا البرج، أو الحصن على عجلات، وكان قابلاً للتحريك، وكان العدو قد علق أشجاراً ضخمة وطويلة أمام الأسوار، لتحطيم قوة كبش التدمير، وقام رجالنا الذين كانوا في الحصن المتقدم ذكره بقطع الحبال التي ربط بها اثنتان من هذه الأشجار ورموها إلى الأرض، وعندما علم بهذا الدوق غودفري الذي كان يهاجم المدينة من ذلك الجانب، أمر بحمل الشجرتين المتقدمتي الذكر إلى الحصن، وبإسناد نهاية أولاهما على الآلة، ونهاية الأخرى على سور المدينة، وبذلك جعلهما تعملان بمثابة جسر، وفوق الجسر المعمول على هذه الشاكلة، كان غودفري ذلك الرجل المتميز، مع أخيه يوستاس، أول رجلين دخلا المدينة، وبعدهما جاء عدد كبير آخر،

واتخذوا لأنفسهم مكاناً فوق الأسوار وأعلامهم التي حملت شارة الصليب تحفّق، وزعقوا بأبواقهم إلى الحشد ليقدم لمساعدتهم، ولدى رؤية العدو لهذا تخلى عن الأسوار والأبراج، وهرب جميع مقاتلوهم من أجل الالتجاء في ساحة الهيكل، الذي اسمه هيكل سليمان.

وهنا نزل رجالنا الذين وقفوا على السور، وذهبوا إلى أقرب الطرقات، ثم ركضوا نحو الباب الشمالي، فكسروا أقفالَه وحواجزه، وتركوا رجال حشودنا التي كانت تنتظر في الخارج تدخل، ومن ثم تركض إلى هنا وهناك في الطرقات وسيوفهم مجردة، حيث قتلوا كل من صدّفوه، ولم يوفروا أحداً لالسنّة أو لجنسه، وتجمعت في الوقت نفسه القوات المقاتلة لدى العدو في الهيكل وفي ساحته، وقد استعدوا لمقاومة شعبنا، الذي اقتيدوا بصفوف قتالية للهجوم على الهيكل بقوة عظيمة، وجرى صد رجالنا خمس مرات من قبل المسلمين، لكن في الاشتباك الخامس(?) كانوا قادرين على تحطيم ميمنة العدو، وعندما منح هذا طريقاً لشعبنا، انخرط في مذبحة، إلى درجة أنه في بعض أجزاء الساحة وصلت دماء المقتولين إلى ركب الذين كانوا على ظهور خيولهم، ولم يرقط مثل هذه الكثرة من الدماء البشرية في مكان واحد ووقت واحد، لأنه بالإضافة إلى الذين ذبحهم شعبنا في البيوت، والأزقة، والشوارع في المدينة، قتلوا في الهيكل وحده مع ساحته عشرة آلاف من المسلمين، حيث ألقي بهم أرضاً وذبحوا، وكان بين الذين طعنوا بألف سيف الخليفة(الوالي)، أي ملك البرابرة في القدس، الذي عثر عليه شعبنا متوارياً تحت جدار مهدم، وبذلك جرى الاستيلاء على المدينة في سنة ١٠٩٩، وكان ذلك في الخامس عشر من تموز، وكان اليوم يوم جمعة، والساعة هي الساعة التاسعة، والسنة هي السنة الثالثة بعدما امتلك شعبنا الشجاعة للقيام بمثل هذا الحج الهائل.

وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة، ألقى المؤمنون أسلحتهم، ومع

الدموع، وبروح متواضعة، وبدون اهتمام بالدماء التي لطخت الهيكل، بادرُوا مسرعين في مسيرة إلى الهيكل الذي امتلأ بدم المسيح، وإلى كنيسة ضريح الرب، وكان يتقدمهم أساقفتهم وكهنتهم بملابسهم المقدسة، وعندما دخلوا إلى هيكل قيامة الرب، غنوا بسرور لاحدود له، ترانيم الفصح غنوها كل جماعة منهم بلغتها، وبموسيقاها، وساروا بخشوع عظيم وطافوا حول الأماكن المقدسة كلها في الكنيسة.

ولكم هو رائع أن نتحدث، ومقدس وممتع أن نسمع بأن جميع هذه الأماكن المقدسة، جرت بها مشاهدة فرسان مسلحين، وحجاج بشكل واضح ومكشوف، وهم رجال كانوا قبل وقت طويل يقابلون بالموت من قبل سيوف المسلمين، هذا وذكر الشطر الأكبر من الجيش، وأكدوا بالايان ماكانوا ذكروه، بأنهم عندما كانوا يتسلقون سور المدينة شاهدوا، الفرسان أنفسهم، الذين ماتوا في انطاكية وأماكن أخرى، وهم يرتدون دروعهم، ويمدون بسرور أذرعتهم إلى الذين كانوا يتسلقون على السلالم، ويشجعونهم على القتال، ولم يكن هناك من شك لدى الذين شاهدوهم، أنه كان من غير الممكن نيل النصر من دون الحصول على مساعدة ورضا الذين سقطوا في المعارك السالفة، وذلك مثلما حدث أنه لدى صلاة القديس باسيل، أقامت العذراء المباركة من الموت ميركوريوس Mercurius، الذي كان عسكرياً في غاية الشجاعة، كان قد استشهد على يدي يولييان المرتد، وقد أقامته لكي يقتل يولييان هذا نفسه، وقد فعل ذلك حقيقة، ومثل هذا فإن أشجع المقاتلين الذين ماتوا على أيدي المسلمين، قد رجعوا إلى الحياة ثانية حتى ينتقموا منهم، ولذلك شوهوا بشكل واضح يقاتلون بين الرجال الذين كانوا رفاقهم في الحياة، ولقد تبرهن بهذا بوضوح أن أولئك القوم، وإن كانوا قد فارقوا الحياة الأرضية، وأخذوا إلى السعادة الأبدية، مع ذلك لم تحب آمالهم في تحقيق رغباتهم، لابل في الحقيقة حصلوا على تحقيق كامل

للذي تشوقوا إليه بخشوع كبير، وغسلوا دمهم الشرير، وأقاموا مطابخ في كل مكان من أرجاء المدينة، وعينوا أناساً للقيام بتقديم الأطعمة، وأمضوا على هذه الصورة ثمانية أيام.

وهناك كثير من المؤرخين الذين أرخوا لهذا النصر المجيد جداً، وقد كتبوا بأسلوب ملحمي، وجاءت الكتابات من قبل كتاب متعلمين كثيراً، ومن قبل خطباء بلغاء، بكل من الإيطالية، واللاطينية، والفرنسية، وقد نسب كل واحد منهم الفضل إلى أمته، ولأنهم لم يذكروا الألمان، مع أن غودفري كان قد فعل كل شيء وتفوق على الجميع قام الشاعر العظيم أنياس سيلفيوس Aeneas sylvus بالقاء خطاب في فرانكفورت، وجهة إلى أمراء ألمانيا ونبلاء سوابيا، بمناسبة الغزو التركي، وقد تحدث إليهم قائلاً: «وإنني أعرف بأن غودفري، الذي كان دوق اللورين، قد سار خلال كثير من الممالك، براً وبحراً، وحرر ضريح الرب من أيدي المسلمين، وكان معه الألمان فقط، الذين قطنوا فيما وراء الراين، والسوابيين، وبعض الفرنسيين، وقلعة من الإيطاليين».

قائمة بملوك القدس اللاتين وبأمراء المملكة الصليبية في القدس

وهكذا حدث أنه في الخامس عشر من حزيران (اقرأ: تموز) من سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، استولى المسيحيون الغربيون على القدس، المدينة المقدسة، واستخلصوها من أيدي، ومن سلطان الأمم، وعينوها إلى ورثتها الحقيقيين، الذين هم أبناء المملكة، الذين ولدوا مجدداً أمام جرن المعمودية والذين هم أتباع المسيح، وأعادوها بعدما بقيت غريبة في أيدي الأمم لحوالي أربعمائة وستين سنة، أو أربعمائة وتسعين سنة.

وفي اليوم الثامن بعد تحرير القدس، اجتمع الأمراء المنتصرون في مؤتمر من أجل اختيار واحد من أفرادهم ليتسلم السلطة على البلاد،

ويتولى كملك العناية بالمنطقة المستولى عليها حديثاً، وبعدما صلوا من أجل أن تكون نعمة الروح القدس معهم في أعمال الاختيار، قاموا بصوت واحد، وبروح واحدة، باختيار غودفري، دوق اللورين، الذي تقدم ذكره مراراً، اختاروه ملكاً، وقد حمله الفرسان على أكتافهم إلى القصر وأعلنوه ملكاً للقدس. وقد حكم لمدة سنة واحدة

وكان غودفري هذا من مملكة فرانس، من مدينة بولليون في مقاطعة الراين، وكان كونت غالاريا Gallaria (كذا)، وكان أبوه اللورد يوستاس، وأمه اسمها ايدا Ida، وكانت أختاً لدوق اللورين، وبما أن هذا الدوق كان بلا أولاد، فقد تبنى ابن اخته غودفري هذا، واتخذته بمثابة ابن له، وعندما مات خلفه غودفري في دوقية اللورين، وكان هذا الدوق رجلاً رائعاً جداً، وكان متديناً، ورحيماً، ومقدساً، ومستقيماً، ومتحدثاً وقوراً، وصاحب أطلاق صلبة، يكره العبث الديني، وهذا كان أمراً نادراً بالنسبة للجندي، لاسيما في ذلك الوقت، وكان علاوة على ذلك كله متدفقاً في حاشيته، لا يمل ولا يتعب في الأعمال الدينية، ومع أنه كان نبيلاً، لم يكن منساعاً، بهي الطلعة، وجميلاً أن تنظر إليه، ومن حيث الجسم، كان طويلاً، ورشيماً، وفي غاية القوة، مع وجه جميل، وشعر أصفر، ولحية، وبالنسبة لاستخدام السلاح، والممارسة للأعمال العسكرية، قرر كل واحد بأنّه كان متفوقاً، وكانت أعماله دوماً رائعة، وجديرة بالاعجاب، فقام في إحدى المرات، مثل شمشوم آخر، أوداود، بمهاجمة أسد هائج وقتله، كما جاء في Frasciculus tem-porum) وهو تاريخ صنفه الراهب ويرنر رولونك وطبع سنة (١٤٧٧).

وعندما رفع إلى عرش مملكة القدس، لم يرفض اللقب، لكنه رفض أن يلبس تاجاً ذهبياً، قائلاً بأنه لا يجوز لرجل مسيحي ارتداء تاج ملكي من الذهب، في المكان، الذي لبس فيه المسيح، ملك الملوك، تاجاً من

شوك من أجل انقاذ الجنس البشري، ولهذا فإن بعض الذين لم يكن تواضعهم كما ينبغي، لم يضعوه في قائمة الملوك اللاتين للقدس، وبالنسبة لما أفكر به، هو لم يكن ملكاً فقط، بل الأفضل بين الملوك، وكان ضوئاً ومرآة للبقية، وعلينا عدم الافتراض بأنه رفض عرض تكريسه ملكاً، لكنه تواضعاً منه رفض الأبهة الدنيوية، والتاج الفاني، من أجل أن ينال تاجاً لا يفنى في العالم الآخر.

وعندما حصل هذا الأمير التقي على العرش، شرع مباشرة كرجل دين بتقديم أول الثمار في مملكته إلى الرب، كما أنه أسس أنظمة قانونية لكنيسة ضريح الرب، ولهيكل الرب، وعين لهما موارد وافرة، وفي الحقيقة قام هذا الرجل، الذي أحبه الرب، فجلب معه رهباناً نظاميين من ديرتهم، وقد أقام هؤلاء له، طوال الرحلة، القداسات في الليل وفي النهار، ومثل هذا بعث إلى كل من إيطاليا وفرنسا، فجلب اكليروس ديني، وزع فيما بينهم الأبرشيات، ولهم بنى الكنائس والديرة.

وفي هذه الأيام، تمّ العثور على قطعة من صليب الرب، في كنيسة القيامة، وهي قطعة كانت قد أخفيت من قبل المؤمنين خوفاً من الأمم، وفتح هذا راحة عظيمة إلى جميع المؤمنين، وجلب مجداً عظيماً إلى الكنيسة، وكانت الكنيسة قد بقيت حتى ذلك الحين، فارغة، لكن الآن، وضعوا في الكرسي البطريركي بموافقة جميع الناس، السيد ديبيروتوس Daybertus، الذي كان رئيس الأساقفة المبجل لبيزا، وكان قد جاء إلى الأرض المقدسة من إيطاليا مع آخرين كثر بالبحر، بعد الاستيلاء عليها.

وبعدما حل مشاكل الكنيسة وأرسى قواعدها، سار الملك غودفري التقي جداً من أجل توسيع حدود المملكة المقدسة للقدس، واصطحب معه اخوانه، وجميع حشد مقاتليه، وكلهم مجهز للقتال، وزحف خارجاً من المدينة المقدسة، ونزل إلى فلسطين لمحاربة كليمنت Clem-ent (الأفضل) ملك القاهرة، الذي كان معسكراً في عسقلان مع حشد

كبير من المحاربين المسلمين، وكانوا قد هاجموا الصليبيين من هناك بشكل غادر، وهاجم غودفري بلدة عسقلان، واستولى عليها، وقتل كليمنت [كذا] مع ثلاثين ألفاً من عساكره ووجدوا هناك المخزون الأعظم من الذهب والفضة، مما كان قد تمّ العثور عليه في أي ناحية من أنحاء العالم، وزحف من هناك هو وإخوانه، مستثمرين نصرهم وحظهم السعيد، فحاصروا واستولوا على مدينتي يافا والرملة، وبعض المناطق الأخرى الهامة مثلها.

وأخيراً عندما عاد الملك إلى القدس، سقط مريضاً، وأصيب بحمى حادة جداً، وتمدد على الفراش بحالة مرضية شديدة جداً، ولدى شعوره باقتراب منيته، قام مثله مثل معترف حقيقي بالمسيح، فتناول القربان الأخير، وغادرت روحه الجسد، وبذلك انتهت حياته سريعاً، ومع ذلك حقق أعمال أجيال كثيرة في وقت قصير، ودفنه إخوانه في كنيسة الضريح المقدس، عند سفح صخرة الجمجمة، وكان ذلك وسط بكاء وأسف جميع الشعب الصليبي، وجرى فهم بعض النصوص المقدسة (رؤيا يوحنا: ١٧-١٨) حرفياً، وشرحت على أنها تشير إلى غودفري، وذلك وفقاً إلى نيقولا دي ليرا، وإلى تاريخ أنطونيوس، القسم الأول، العنوان ٦، الفصل ١، الفقرتين: ١٤-١٥، وقد عُزي إليه كثيراً من المعجزات، قمت باسقاطها.

الملك الثاني

بعد وفاة غودفري، الملك الأول للقدس، في سنة ١١٠٠ لتجسيد الرب، خلفه أخوه اللورد بلدوين على العرش، وقد كان كونت الرها، ورجلاً قوياً، ولديه كفاية من المعرفة الأدبية العامة، وكان له أنف معكوف، وسلوك مهيب، وأحاديث جدية، وكان دوماً يرتدي عباءة على كتفيه، ولذلك بدا للغرباء أنه أكثر شبهاً بأسقف، منه بأمير علماني، وقدم إلى القدس، عدد كبير من الأمراء لحضور تنصيبه، واقتادهم هو إلى

بيت لحم، حيث تسلم التاج مع فرح عظيم في موضع ولادة الرب.

وأحتاج إلى وقت طويل للحديث عن عظمة هذا الملك، وعن شجاعته، وعن قوته، وعن معاركه الكثيرة وانتصاراته على الكفار، فقد هزم الأتراك مرات عديدة، وسحق المسلمين، وأذل المصريين ثلاث مرات، وقتل ملكهم الخليفة (كذا) على ظهر أحد الغلايين، وكان في أيامه زلزال عظيم هدد المدينة المقدسة كلها بالدمار، ومع ذلك تبرهن أنها لم تكن شارة سوء طالع، لأنه استولى بعد الزلزلة على كثير من مدن المسلمين، وقتل آلافاً كثيرة، وزاد كثيراً من حجم مملكة القدس، وقد استولى على مدينة عكا الحصينة جداً، ومثل ذلك بنى حصناً عظيماً في البتراء في القفار فيما وراء الأردن، وهي القلعة التي أطلق عليها اسم جبل الملك (مونتريال=الشوبك)، وكنا قد تحدثنا عن هذا المكان من قبل.

ونزل في أيامه طاعون بسورية، وقد هلك به جميع الشعب اللاتيني تقريباً، وعندما رأى الملك أن مدينة القدس المقدسة قد غدت شاغرة، ليس فيها أحد يسكنها، وأنه لم يعد في المدينة مايكفي من سكان للدفاع عنها ضد الأعداء، احتار كيف يمكنه إسكانها من قبل مسيحيين، وعلم أخيراً أنه يوجد عبر نهر الأردن وفي العربية عدد من القرى مسكونة من قبل المؤمنين، وهم يخدمون المسلمين، أعداء إيمانهم، في ظل شروط قاسية، ويدفعون الجزية إليهم، وجمع الملك هؤلاء جميعاً مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع آلهم، وأسكنهم في القدس، ورفع النير الثقيل من على أكتافهم، علاوة على ذلك اشترى أطفالاً من المسلمين، وأمر بتعميدهم، وعينهم للسكنى في القدس.

وفي سنة ١١١٨ لتجسيد ربنا، قام هذا الملك الفاضل بالنزول إلى مصر مع قوة كبيرة، وكان قصده الانتقام من المصريين للأعمال التي غالباً ما اقترفوها في مملكته، وقد هاجم بحدة متناهية مدينة قديمة جداً اسمها الفرما، وقد استولى عليها، وأباحها للنهب من قبل جنوده،

وكانت هذه المدينة قائمة على شاطئ البحر، ليس بعيداً عن مصب النيل، وكان اسمها في القديم تنيس، وعندما كان الملك مقيماً في هذه المدينة يستعد ليندفع نحو المناطق الداخلية من مصر، سقط مريضاً مرضاً عظيماً، ولذلك أمر جيشه بالتراجع، وقد حمل على محفه حتى غلبه مرضه، ومن ثم انتقل إلى الرب، وجرى حمل جسده عائدين به إلى القدس، وفي يوم أحد السعف جرى دفنه بأبهة ملكية، تحت موقع الجمجمة بقرب أخيه غودفري، وقد حكم في القدس لمدة ثمان عشرة سنة، ولم يخلف وريثاً من بعده.

الملك الثالث للقدس

وبعد وفاة بلدوين الذي كان الأول في حمل هذا الاسم، والثاني بين ملوك القدس، خلفه هناك على العرش بلدوين الثاني، الذي كان ثالث ملوكنا اللاتين في القدس، وكان ذلك سنة ١١١٨م، وقد حكم لمدة ثمان عشرة سنة، وكان ابن عم الملكين المتقدمين، وكان اسمه بلدوين دي بورغ، وكان فرنسياً من حيث الأصل، من مقاطعة الرايم، وكان ابن هوغو، كونت ريثيل Rethel ، وله لحية رقيقة، وصلت حتى صدره، وكان خبيراً في استخدام السلاح، وصاحب تجربة كبيرة في الحرب، علاوة على ذلك، كان رحيماً، متديناً، ويخاف الرب، مخلصاً في صلواته، حتى أنه امتلك جلدًا قاسياً فوق يديه وركبتيه من مداومة الركوع والسجود.

ومع ذلك، إنه على الرغم من هذا كله، ومن صفات أخرى جيدة، كان انتخابه للملك قد أغضب عدداً كبيراً من الأمراء، ولذلك بعثوا بسفارة مهيبة لدعوة يوستاس كونت أوف بولليون، الذي كان أخصاً للملك بلدوين الأول، للقدوم إلى المملكة، التي هي حقه الموروثة، وعلى الرغم من عدم رغبته، وكرهيته، جلبوا يوستاس هذا حتى أبوليا، حيث سمعوا وقتذاك بأن بلدوين دي بورغ قد تمّ تعيينه ملكاً في

القدس، وهنا استعد للعودة إلى الوطن، وعندما أعلموه بأن هذا قد عمل ضد القانون، ولا يمكنه بأي حال من الأحوال الثبات، يقال بأنه أجابهم: «ليكن بعيداً عني القيام بأي عمل تأمري في مملكة الرب، الذي من خلال دمه حصل العالم على السلام، ومن أجل الهدوء فيها بعث أولئك الرجال العظام، أي أخوي صاحبي الذكرى الخالدة، بروحيهما المجيدتين إلى السماء»، وبناء عليه حزم حقائبه، وعاد إلى موطنه ثانية، وفي الوقت نفسه ترسخ وضع بلدوين في مملكته، وقد هزم في السنة الثانية من حكمه ايلغازي، قائد الأتراك في آسية الصغرى، وكان قد زحف على رأس قوات كبيرة لمهاجمة القدس، وألقاه في السجن، وأنزل في السنة التالية الهزيمة بملك دمشق، الذي كان قد زحف بشكل مفاجئ على رأس جيشه ضد القدس مع نوايا عدوانية، وقد قتل ألفين من الأعداء، وأخذ ألفاً أسرى، وقد فقد ثلاثين فقط من رجاله.

وفي السنة الخامسة من حكمه، زحف هذا الملك، ضد ملك الفرثين، الذي كان يهدد كونيته الرها، وعندما كان في أحد الأيام، خارجاً من مدينة تك باشر، وكان يسير بلا انتباه مع آل بيته، في صف متخلف وراء الجيش، لحقه بلك المتقدم ذكره، ونصب كميناً له، فأسر ملك القدس مع نبلائه، وحملهم إلى قلعة وراء الفرات، حيث وضعهم بالأغلال واحتفظ بهم لمدة سنتين، وفي الوقت نفسه عندما سمع ملك مصر بوقوع ملك القدس بالأسر، جاء عبر الطريق الساحلي مع جيش لا يحصى عدده من شعبه، ووصل إلى عسقلان، قاصداً الزحف إلى القدس، وعندما سمع يوستاس غريمير، الذي إليه عهد بإدارة شؤون المملكة، أثناء غياب الملك بهذا، قام هو وأعيان المملكة بحشد جميع القوات المتوفرة، واستعدوا للحملة وكانوا قلة ضد كثرة، وليس لديهم أمل بالبقاء إلا بالرب، وقام أهل القدس، مثل أهل نينوى، فأعلنوا الصيام بالنسبة إلى الرجال والنساء سواء، لابل أكثر من هذا، منعوا

الطعام حتى عن الأطفال الرضع، وعن الدواب والسائمة، وعندما زحف جيش الرب خارجاً من المدينة المقدسة، زحف بطريك القدس على رأس الرتل، وهو يحمل صليب الرب عوضاً عن الراية، وحمل الذي كان فيما مضى راعي دير كلوني، سنان رمح الرب، الذي جرى اكتشافه مؤخراً، كما تحدثنا من قبل، وحمل أسقف بيت لحم حليب العذراء المباركة في حُق.

وهكذا ساروا وهم متسلحين بالايان، وقصدوا قتال أعدائهم، وقد وجدوهم في مكان اسمه بينا (ابلين)، ودون الاهتمام بأعدادهم الكبيرة، حملوا عليهم بجرأة، وضربوهم بسيوفهم، وتمكنوا بعون الرب من إلحاق الهزيمة بهم، وطاردتهم شعبنا، ولدى قيامهم بذلك عملوا مذبحة مرعبة بينهم، ومع الأعداد التي لا تحصى من الأسرى، يقال بأن سبعة آلاف منهم قد قتلوا في ذلك اليوم، علاوة على ذلك عمل شعبنا مذبحة أخرى كبيرة بين صفوف المسلمين في البحر، لأنهم طاردوا اسطول المسلمين الذي هرب لدى سماعه بالهزيمة، فوجدوه، وقتلوا أعداد كبيرة في المعركة التي وقعت إثر ذلك، وكانت مذبحة خارج اطار التصديق، حيث قيل بأن البحر قد تحول إلى أحمر لمسافة ميلين حول المكان، بسبب أعداد الجثث الكبيرة التي أُلقيت فيه.

وبعد هذا، والملك مايزال بالأسر، استولى شعبنا على مدينة صور التي كانت لا ترام، حيث ترافق ذلك مع مذبحة هائلة جداً بين صفوف المسلمين هناك، وصور مدينة قديمة جداً، ولها منحها الامبراطور سيفيروس، جائزة بسبب اخلاصها للدولة الرومانية، وكانت هذه الجائزة هي: *Jus Italicum*، وكان هذا امتيازاً اعتاد الأمراء الرومان على اصفائه فقط على عدد قليل جداً من المدن ذات الأهلية العالية.

ولم يشهد فقط الكتاب من الأمم على عظمة مجد هذه المدينة في العصور القديمة، بل أيضاً شهد وحي الأنبياء المقدسين، حسبما جاء في

إشعيا: ٢٣، وفي حزقيال: ٢٦ و ٢٧.

وإلى هذه المدينة ينتمي سيخايوس وزوجته ديدو، التي بنت مدينة قرطاج العجيبة، وحكم هنا حيرام الذي كان العامل المتعاون والتابع لسليمان في بناء الهيكل، وعندما جرى الاستيلاء على صور، أطلق سراح ملك القدس وعاد إلى القدس، وقد تمكن من إعادة المملكة المتداعية للمسيحيين وأضاف أنطاكية إلى مملكة القدس، وهزم ملك عسقلان الذي كان يزعم شعب القدس، وكان ذلك في معركة واحدة، وهزم طغتكين، أمير دمشق، الذي كان مثل ذلك يحاول مضايقة أهل القدس، وقد هزمه في ثلاث معارك، حيث جرى ذبح أعداد كبيرة من الأعداء مثل الأغنام.

ومنح الرب بعد ذلك، هذا الملك، حكماً هادئاً، وما من انسان تجرأ على الوقوف في وجهه، ولذلك قام وهو يعيش بسلام، فوجه نفسه نحو تحسين الخدمات الدينية، فجلب عدداً كبيراً من الرهبان، ومن رجال الدين، من العالم المسيحي، وشيد كثيراً من الديرة لكل من الرجال والنساء، وأسس في صور جامعة أو مدرسة عامة، إليها قدم كثير من العلماء من بلاد ماوراء البحر، وفي أيامه تأسست ثلاث طوائف دينية في القدس، وكانت الطائفة الأولى بينها الاستبارية، ومع أنه كان يوجد قبل استرداد الأرض المقدسة، في القدس استبارية، لكن لم تكن هناك طائفة منظمة، فلقد قرأت، كما ذكرت من قبل، أن المسيحيين اللاتين شيدوا بموافقة من السلطان، قبل أيام غودفري، ديراً للرجال، قرب كنيسة ضريح الرب، من أجل استخدامات الحجاج، فيه أقام الذكور من الحجاج كضيوف، وبعد ذلك، وبسبب تزايد أعداد النساء من الحجاج اللائي قدمن إلى هناك، جرى بناء دير آخر، أقامت فيه النساء من الحجاج، وبعد ذلك، وبسبب تدفق حشود الحجاج إلى هناك، لم يعد هذين الديرين قادرين على استيعاب مثل هذه الأعداد الكبيرة، ولذلك

قام راعي الدير والرهبان ببناء مشفى على مقربة من البيعة المكرسة إلى القديس يوحنا المعطاء، الذي كان بطريرك الاسكندرية وصار الحجاج يقيمون في هذا المشفى، ويتلقون جميع المؤن المحتاجة من هذين الديرين على أيدي الرهبان والراهبات هناك، الذين كما أتصور كانوا من طائفة القديس بندكت، لأنهم كانوا لاتين في الديرين معاً، ولم تكن طائفة الاسبتارية قد تأسست نظامياً بعد، ومع مرور الأيام، وبعد استرداد الأرض المقدسة، وبعدما نال الملك بلدوين السلام في البلاد، تدفق الحجاج على القدس، بأعداد كبيرة، ولذلك عين راعي الدير واحداً من النبلاء اسمه جيراد، كان قد تطوع بارادته للقيام بخدمة الذكور من الحجاج ورعايتهم، وقامت راعية الدير بالوقت نفسه بتعيين سيدة رومانية نبيلة لخدمة النساء من الحجاج، وقام هذان الشخصان بالتعهد بتقديم الولاء إلى راعي الدير المتقدم ذكره، تبعاً للنظام الذي عاشا في ظله، وكان نظاماً موافقاً للناس المقيمين في المشفى، وهو نظام عمل لهم من قبل راعي الدير مع موافقة بطريرك القدس.

وكان الثوب الذي ارتدوه أثناء الخدمات الدينية عباءة سوداء مع صليب أبيض عليها، وقد تزايدت أعدادهم بشكل كبير، مما دفع إلى تأسيس أديرة كبيرة لهم في جميع أرجاء العالم، وذلك بسبب أنهم كانوا رجالاً متدينين كثيراً، ولا يسمحون باقتراف أي عمل شرير، وباتوا الآن يعرفون باسم مزدوج: فبعضهم يدعوهم باسم اسبتارية، لأنهم كانوا يمتلكون السيطرة على المشفى، في حين دعاهم آخرون باسم فرسان القديس يوحنا، اشتقاقاً من اسم القديس يوحنا المعطاء، الذي إليه كرسست المستشفى في القدس، وقد احتفظوا بهذا الاسم حتى هذا اليوم، ولكي يمنحوا أنفسهم شرفاً أعظم، اتخذوا القديس يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، وكان ذلك بعد استيلائهم على جزيرة رودس، كما أنهم كانوا قد أخذوا بنظام القديس أوستين، وذلك بعد طردهم من القدس، لأنهم

أثناء إقامتهم في القدس لم يتخذوا يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، كما أنهم لم يعرفوا وجوب تطبيق نظام القديس أوستين، بل عاشوا في ظل أوامر الراعي والبطريرك، وعلى هذا بدأت طائفة فرسان القديس يوحنا في سنة ١١١٨ في القدس، في أيام حكم البابا غيلاسيوس Gelasius، لكن الطائفة ترسخت فوق نظام قانوني في سنة ١٣٠٨م في أيام حكم البابا كليمنت الخامس، في جزيرة رودس.

وهناك أيضاً رجالاً آخرون، بعد هؤلاء بوقت، عرفوا أيضاً باسم الاسبتارية، لكن هؤلاء القوم لم ينالوا هذا الاسم من المشفى في القدس، لكن حصلوا على اسمهم ونظامهم من مشافي أخرى كبيرة، خدموا فيها، تحت أنظمة متنوعة.

وكانت الطائفة الثانية، التي جاءت بدايتها في القدس، في أيام حكم الملك بلدوين، قد تطورت من الطائفة الأولى، لأنه بعد تأسيس المشفى، والمنح العظيمة التي نالته، استمر تدفق الحجاج بأعداد كبيرة جداً من جميع أرجاء العالم، ووصلوا يومياً إلى هناك، وهنا بدأ بعض اللصوص ينصبون لهم الكمائن على طول الطريق الساحلي، وشرعوا يسلبون الحجاج، ويقتلونهم أحياناً، وأحدثوا فوضى عظيمة بينهم، ولدى رؤية ذلك، قام بعض الفرسان الغيورين، فتعهدوا إلى البطريرك، بأنهم سوف يتولون حماية الطرق العامة، علاوة على هذا تعهدوا بأن يعيشوا حياة طهارة، وطاعة وفقرة.

ولدى انطلاقهم، كان هناك عشرة فقط منهم، وقد أسكنهم الملك في قصره، على مقربة من الهيكل، وبعد مضي تسع سنوات على تأسيس طائفتهم ثابروا على ارتداء ملابس علمانية، وظل هذا مستمراً حتى أخيراً، عندما عقد المجمع التاسع في تروي Troyes في فرنسا في ١١٢٨م، جرى تعيين نظام لهم، وعين لهم البابا هونوريوس رداءً أبيض مع صليب أحمر، ولأنهم سكنوا على مقربة من الهيكل، فقد عرفوا باسم

فرسان الهيكل، أو الداوية، ولهم عمل القديس بندكت نظاماً، وغالباً ماكتب رسائل لهم، هذا وكانت بدايتهم مقدسة، ومليئة بالفضائل، غير أنهم انحطوا وابتعدوا عن سلفهم، وكان ذلك بعدما صاروا أغنياء، وبعدها انتشروا في الخارج في جميع أرجاء الأرض.

ولهذا حدث في أيام البابا كليمنت الخامس، وبعدهما صار واضحاً لدى شعبنا بأنهم تحولوا وصاروا مثل المسلمين، واقترفوا آثاماً كثيرة بسبب ثروتهم العظيمة، فإن كل واحد منهم أمكن إلقاء القبض عليه من قبل المسيحيين جرى قتله، ولم يقتصر هذا على آسيا بل حدث أيضاً في فرنسا، حيث جرى تدميرهم من قبل فيليب ملك فرنسا، وذلك بموافقة البابا الحاكم في روما، لأنهم كانوا يمارسون حياة شائنة، وجرى منح جزء من ثرواتهم الهائلة إلى فرسان القديس يوحنا، وجزء آخر إلى طوائف دينية تأسست حديثاً، في حين استولى الأمراء العلمانيون على جزء من هذه الثروات، ومعروف بشكل جيد، أنه في تلك الأيام، استولى الرهبان الدومينيكان على كثير من الديرة المشهورة للداوية، من ذلك على سبيل المثال الديرة في: فينا، وستراسبورغ، وايسلنغ، ووورمز، وأماكن أخرى، هذا ودافع بعضهم عن موقف الداوية، ووأعلنوا بأن الملك كان متشوقاً لتدميرهم، حتى يتمكن من الحصول على ثرواتهم، حسبما قرأنا في تاريخ أنطونيوس - الجزء الثالث، العنوان: ٢١، الفصل: ١، الفقرة ٣.

وكانت الطائفة الثالثة التي تأسست في القدس، لكن ليس بعد مدة طويلة من تأسيس الطائفتين الأخرتين، هي الطائفة التي عرفت باسم فرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد قيل بأنها قامت كما يلي: بما أن الألمان قد تفوقوا على جميع الأمم المسيحية بتعلقهم التقوي بالأمكن المقدسة، ولأنهم اعتادوا على القدوم بأعداد كبيرة كل يوم، صار الاستتارية، الذين كانوا فرنسيين متعيين منهم، وصاروا يتعاملون بسوء

مع الألمان، وانتقل الآن واحد من الألمان وزوجته من موطنه إلى القدس، وسكن هناك، ولدى رؤيته للأوضاع التعيسة للمحاربين من أبناء وطنه، حصل على إذن وموافقة السيد بطريك القدس، فحول بيته الكبير مع بيعة العذراء المباركة إلى مشفى صغير.

وتعهد في هذا المكان بعض الرجال بأنهم سوف يتولون خدمة الفقراء وتدير شؤون الحجاج، ومع الأيام ازداد عددهم كثيراً جداً، وصاروا أغنياء إلى أبعد الحدود، ولذلك عين لهم البابا سيلستين Ce-lestine الثالث نظاماً، ولباساً أبيض مع صليب أسود، وقد وقفوا بالفعل في وضع وسط بين الطائفتين السالفتين، ذلك أنهم اعتادوا على خدمة الحجاج والفقراء مع الاستتارية، أو فرسان القديس يوحنا، وقاتلوا في الوقت نفسه ضد المسلمين وغير المسيحيين مع الداوية، وبعد فقدان الأرض المقدسة، وبناء على أمر من البابا، قدموا إلى سيزيا Scythia الأوربية حيث حولوا الشعب في الـ Ruthenians إلى المسيحية، وكان هذا الشعب حتى ذلك الوقت وثنياً، وبعد بذل جهود كبيرة حولوا: بروسيا، وليفونيا، والمناطق الحدودية الأخرى لألمانيا على المحيط.

وبعد ما تأسست هذه الطوائف، وتم إنجاز أعمال أخرى كثيرة، وقع بلدوين الملك التقى للقدس، مريضاً مرضاً شديداً، ولدى رؤيته بأن موته بات قريباً، خرج من قصره على شكل متسول، وبتواضع وضع جانباً ثيابه الملكية على مشهد من الرب، وأمر بحمله إلى قصر البطريرك، لأن ذلك المكان كان قريباً جداً من موضع قيامة الرب، وهنا استدعى ابنته وزوجها ختنه، وابنتها بلدوين، الذي كان آنذاك في الثانية من عمره، وبحضور مجمع أمراء المملكة عهد بالعناية بالمملكة لهم، في حين قام هو كمعترف حقيقي، فارتدى لباساً دينياً، وتعهد بالعيش كراهب نظامي إذا ما بقي حياً، وأسلم روحه إلى الذي هو أبو الأرواح كلها،

وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من حكمه، وقد دفن عند سفح جبل الجمجمة.

الملك الرابع للقدس

وكان الملك الرابع للقدس، اسمه فولك، وكان ختن بلدوين المتقدم ذكره، وكان كونت أنجو، ومين، وتورين، وكان قد حصل على العرش في سنة ١١٣١م، في الستين من عمره، وقد حكم إحدى عشرة سنة في القدس، وخاض هو وولديه كثيراً من الحروب، ليس فقط ضد المسلمين، بل ضد امبراطور القسطنطينية، وأمراء مسيحيين آخرين، تأمروا ضد مملكته، وفي أيامه أزعج المصريون - تحت قيادة متعددين - الصليبيين الذين كانت القدس بأيديهم، وخرقوا بلادهم في عدة أماكن وتوغلوا في مدنها، ولذلك تجددت الحروب، واستولى أثناء ذلك شعبنا على بعض المدن، وجعلوا مدناً أخرى تدفع لهم الجزية، وهكذا دواليك، وكان من بين أعمال هذا الملك المجيدة، إلحاقه الهزيمة مراراً بالترك الذين سكنوا في بلاد فارس، ولم يكتف بإلحاق الهزيمة بهم، بل تمكن في إحدى الحملات من قتل عدد كبير منهم بلغ ثلاثة آلاف، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، ووسع مملكته كثيراً.

وغزا الأتراك في أيامه مدينة الرها، التي كان الصليبيون قد استولوا عليها بوساطة جهود حربية كبيرة، واحتشدوا لطرده الصليبيين من هناك، وأمر كونت الرها، الذي كان ضعيفاً ومتقدماً بالسنين، ابنه بأن يأخذ قوة من الجند معه، وأن يهاجم الأعداء برجولة، لكن هذا الابن شرع بجبن يفتعل الأعذار، معلناً أنه سوف يكون خطيراً مهاجمة مثل ذلك الحشد الكبير بعدد صغير من الرجال، وقد غضب أبوه منه، وأمر باعداد محفة فرس - من النوع الذي يدعوه الألمان Rossbar - وامتنى فرسه، وانطلق مع القوات التي تمكن من جمعها، لطرده الأتراك من منطقته، وعندما علم الأتراك بأنه قادم، خافوا من دنوه، وهربوا إلى

بلادهم.

وفي الساعة نفسها، وفي المكان عينه حيث هزم الأعداء، أمرهم الكونت بوضع محفته على الأرض، ورفع عينيه نحو السماء، وقدم الشكر مع الآهات والتنهيدات، لأن الرب منحه في أيامه الأخيرة مثل هذه النعمة، أثناء وقوفه على أبواب الموت ذاتها، فأبقاه رعباً لأعداء الايمان المسيحي، وعندما فرغ من كلامه هذا، في الميدان المفتوح، وفي وسط رجاله، أسلم الروح.

وفي سنة ١١٤٢، نزلت بالصلبيين فاجعة كبيرة، فعندما كان اللورد فولك، ملك القدس، يتجول قرب عكا، وكان قد خرج من المدينة لتمضية الوقت، صدف أن أثارت كلابه أرنبا برياً، فركضت وبذلك ركضت الجماعة كلها خلفها وهي تصرخ، والملك الذي كان على ظهر فرسه لحق بها بسرعة مفرطة، وكبا حصانه، وانقلب على الأرض، وألقى بالملك بطريقة أن رأسه انسحق كله بالسرج، وخرج دماغه من أنفه وأذنيه، ووسط أسف عام حمل إلى المدينة، حيث تمديد لمدة ثلاثة أيام وهو فاقد للوعي، لكنه كان حياً ويتنفس، ثم إنه أسلم الروح في اليوم الرابع، وقد حملوا جسده إلى القدس، ودفنوه في موضع الجمجمة، حيث جرى دفن الملوك اللاتين المتقدمين، والذين ماتزال قبورهم مرئية حتى هذا اليوم، وهي تلمع برخام مصقول.

الملك الخامس للقدس

إثر وفاة فولك، الملك الرابع للقدس، خلفه في المملكة ابنه بلدوين الثالث، فكان الملك الخامس في سلسلة الملوك، وكان شاباً، صاحب أخلاق نبيلة، متحرراً من شرور الشباب، وقد حكم الدولة المقدسة بشكل في غاية الجودة، وعندما كبر، صار شاباً طويلاً، ووسياً جداً، حتى أن الغرباء اندهشوا لسمو أخلاقه، مما أعطى برهانا واضحاً عن

سماته وجلالته الملكية، وقد كان دمثاً، وصاحب قلب حنون، ولم يكن شرها تجاه أملاك الآخرين، كما انه لم يقيم كانسان مبذر، بالتجول لسلب رعاياه من ثرواتهم، وكان متعلماً بشكل جيد، وقد أحب قراءة تواريخ الملوك ومعارك التاريخ القديم، وتعامل بقدرة حربية فائقة مع مخاطر الحرب غير المؤكدة، وكان قد بدأ بممارسة سلطاته في ١١٤٢م، وحكم في القدس لمدة أربع وعشرين سنة.

وفي أيام حكم هذا الملك نهض الأتراك، والمصريون، والمسلمون، والبداءة العرب ضد المؤمنين، وكان من بينهم زنكي، وكان رجل آثام، كما كان أكثر الأتراك قدرة، وقد حاصر الرها واستولى عليها، وهي التي كانت تعرف من قبل باسم *Rages Medorum*، وكانت مليئة بالسكان اللاتين، الذين قتلهم جميعاً بضربة قاسية واحدة، وحشد الملك بلدوين جيشاً، وبادر مسرعاً لإنقاذ الرها، لكنه صد، واتخذ طريقه عائداً إلى القدس، بعدما خسر كثيراً من رجاله.

وجرى إعلام يوجينيوس الثالث، بابا روما، بالذي حدث، فأرسل رجال دين إلى مختلف أصقاع الغرب، لإيضاح صورة الأوضاع القاسية التي يعيشها الصليبيون في الشرق، وكان بينهم ذلك الرجل صاحب الذكرى الخالدة، الراعي القديس برنارد، الذي اختير لمتابعة تنفيذ هذه المقاصد والخطط، وقد بشر بحماس ملتهب، حتى أن كل من النبلاء والناس عامة وافقوا عن طواعية على فصاحته غير الأنانية، ووعدوا بأنهم سوف يرتحلون إلى القدس، فضلاً عن هذا أخذ الرجلان اللامعان: كونراد الثالث السوابي امبراطور الرومان (كذا)، والسيد لويس ملك فرنسا، طريقيهما نحو الشرق مع كثير من الأمراء من الأمتين، وقد كان جيشهما كبيراً جداً، حيث كان في جيش الامبراطور وحده سبعين ألفاً من الفرسان الدارعين، وذلك بصرف النظر عن الجنود الرجالة، ولم يكن أتباع ملك فرنسا أقل من حيث العدد، ولو

أنهما حظيا بنعمة الرب لأمكنهما بسهولة ليس فقط قهر سلطان قونية وآسيا الصغرى القوي، لابل لإستوليا على جميع بلدان المشرق لصالح المسيحية، والذي حدث أنه بقدر من الرب، ليس بمقدور الانسان فهمه، رفض الرب قبول خدمتهما، مثلما لايقبل أعطية، قد قدمت بأيدي غير جديرة، ولذلك تخلى الرب عنهما وسلمهما إلى أيدي الأتراك والمسلمين، الذين ضايقوهما، وهزموهما، وأنقصوا أعدادهما، وهما على طريقيهما، وقد وصلا إلى القدس بعد متاعب جمة، وتوفر الآن في القدس، ثلاثة ملوك عظام هم: كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك الفرنسيين، وبلدوين الثالث، ملك القدس، وقد اجتمعوا في مكان واحد مع جميع أمرائهم، وكونتاتهم، وباروناتهم، وبدأوا يتناقشون حول ما هو الأفضل والأكثر نفعاً أن يعملوه لمجد اسم المسيحية، ولتطور مملكة القدس وتقدمها.

كما أن هذا المؤتمر لم يحظ كذلك بالغاىة الربانية، ولهذا تراجعوا مجللين بالعار من مدينة دمشق، التي كانوا قد حاصروها للإستيلاء عليها، وتباحثوا بعد عودتهم إلى القدس حول حصار عسقلان، وبعد كثير من الأحاديث والخطابات، وصلت هذه الخطة أيضاً إلى لاشيء، وبناء عليه، عندما رأى الامبراطور، وملك فرنسا، بوضوح بأن الرب ليس معهما، ركبا السفن، وذهبا إلى بلديهما، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، تزايدت أوضاع اللاتين في الشرق سوءاً كل يوم، لأن المسلمين تصدوا الآن بلاخسائر لهذين الأميرين العظيمين، اللذين كان مجرد ذكر اسميهما من قبل يبعث الرعب في قلوبهم، ولهذا باتوا مسرورين جداً وواثقين من أنفسهم، ولم يعودوا من الآن فصاعداً يشكون مطلقاً بقوتهم، أو يخشون أن يضغط عليهم بشدة من قبل شعبنا.

وبعد تراجع جيوش المسيحيين الغربيين، أعان الرب بلدوين ملك القدس، حيث استولى عنوة على مدينة عسقلان، التي كانت مطوقة منذ

زمن طويل من قبل الصليبيين، وأعاد بناء غزة، وكانت مدينة قديمة جداً، ومهجورة تماماً، وأعطاهما إلى رهبان الداوية للسكن فيها، وكان ملكاً عظيماً جداً وشجاعاً إلى حد أنه هزم وطارد جيشاً من المقدمين الترك، مع إيقاع مذبحه كبيرة بينهم، بلغت خمسة آلاف رجل كلهم ماتوا، وهزم بعد هذا نور الدين قائد عساكر دمشق، في معركة دموية، وطارده حتى أحواز دمشق، كما أنه خاض عدداً آخر من المعارك المربعة، وبصعوبة بالغة نجا أحياناً من الوقوع بالأسر.

وثار في أيامه نزاع، وخلاف خطير بين السيد البطريرك، وريموند مقدم استبارية القديس يوحنا، الذي شرع مع رهبانه بتسبب اضطراب عظيم للسيد البطريرك، وللأساقفة الآخرين في مختلف الكنائس، بشأن ما يتعلق بمدى سلطات البطريرك، ذلك أنهم اعتادوا على أن يخضعوا عن طواعية لطقوس رجال قداسات كانوا لذنوبهم محرومين كنسياً، ومبعدين عن الكنيسة من قبل السيد البطريرك، أو من أساقفة مختلف الكنائس، وتولوا القيام بقيادة القداسات والمسح الأقصى بالزيت للمرضى، ودفن المحرومين كنسياً، وفعلوا أشياء كثيرة خرقوا بها امتيازات الكنيسة، وعندما عمل السيد البطريرك شكاوى كثيرة ضد هذه الأعمال المخالفة، ودعا إليه رعاياه كما اعتاد أن يفعل وعليه أن يفعل، غضبوا لذلك غضباً عظيماً، وحملوا أسلحتهم واندفعوا إلى داخل كنيسة الضريح المقدس لمقاتلة البطريرك.

وكان هذا بداية جميع الشرور، والخسارة التالية للمدينة المقدسة والبلاد، وتسببت كنيسة روما بنشوب هذه الشرور، بابقائها الاستبارية معفين دوماً من سلطان البطريرك، وذلك مثلما أعفت الداوية من حق السلطان القضائي للبطريرك، وأضفت امتيازات على فرسان التيوتون، وعندما جرى إعفاء هذه الطوائف، صارت امتيازات الإشراف القضائي للبطريرك والأساقفة قليلة جداً، لابل انعدمت تقريباً، وبذلك تقسمت

المملكة، وبالتالي تدمرت، وذلك وفقاً لما جاء في انجيل لوقا: ١٧/١١ قوله: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب».

وذهب الملك بلدوين من القدس إلى أنطاكية، لأن بعض المشاكل الصعبة استدعت منه فعل ذلك، وأثناء وجوده في أنطاكية وقع مريضاً، وكان مرضه شديداً، ولشعوره أنه على حافة الموت، وأنه في خطر عظيم، أمر بأن ينقل إلى بيروت، وهناك أمر باجتماع جميع الأساقفة وأمراء مملكته، والمثول بحضرته، حيث قام بتقوى وتدين بالاعلان عن إيمانه، واعترف بذنوبه مع كثير من الندم إلى الكهنة الأعلى، وقد تحرر من معاناته، ومن سجن الجسد، وحمل روحه إلى السماء في سنة ١١٦٣ لتجسيد الرب، وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر شباط، وجرى حمل جسده إلى القدس، ودفن بين سلفه في كنيسة الضريح المقدس.

وقد قيل بأن سماً قد أعطي له في دواء، وأن بقية ما أعطي إلى الملك ليشربه صب فوق بعض الخبز، وأعطي إلى كلب ليأكله، فمات ذلك الكلب على الفور، ولم يذكر التاريخ في أي مكان حزناً شهدته أية دولة مثل الحزن الذي شهدته مملكة القدس على هذا الملك، حتى قيل بأن أعداء الايمان قد حزنوا لموته، إلى حد أنه عندما اقترح بعضهم على نور الدين ملك دمشق -عندما رأى قادة الصليبيين في اضطراب كامل -وجوب مهاجمة مملكتنا، قيل بأنه أجابه قائلاً: «علينا أن نظهر نحوهم مواساتنا، وأن نتعامل معهم بلطف، ماداموا يكون بشكل صحيح أميراً، لم يبق الآن نظيراً له في العالم».

الملك السادس للقدس

إثر وفاة الملك بلدوين، ملك القدس، خلفه في المدينة المقدسة عموري الملك السادس للاتين، وهو أخو الملك المتوفى، وكان ذلك في

سنة ١١٦٣م، وقد حكم في القدس لاثنتي عشرة سنة، وكان عموري هذا رجلاً مليئاً بالحكمة الدنيوية، وكان حكيماً جداً، ومتيقظاً في الأعمال، ولم يكن كبير التعليم، لكنه تمتع بعبقريّة حية وبذاكرة قوية، ولا يمكن أن ننكر أنه كان شرها نحو المال، خارج حدود كرامته الملكية، ومع ذلك كان بالنسبة للقضايا الأساسية المتعلقة بصالح مملكته، هو لم يوفر لامالاً ولا جهداً من جهته الشخصية، وكان مقتدرًا في الحرب، لأنه بالفعل، هزم في السنة التي كانت قبل استلامه الحكم، بعون الرب شاور قائد المصريين، بمعركة، مع مذبحة كبيرة، وبعد قتله له، ألقى الحصار على الاسكندرية، وهي مكان كان شيركوه القائد التركي قد اغتصبه بشكل غير قانوني من السلطان.

ولم يكن أهل الاسكندرية، راغبين بأي حال من الأحوال بأن يصبحوا خاضعين للصليبيين، ومع ذلك استسلموا لعموري، على شرط أن يقوم بطرد طاغيتهم، ومن ثم يعادوا إلى مملكة السلطان على يديه، وبناء عليه استلم عموري من السلطان المتقدم ذكره أربعين ألف قطعة من الذهب وأعاد الاسكندرية إلى السلطان، بعدما طرد شيركوه من مصر، وجرى الآن عقد معاهدة سلام بين ملك مصر، وملك القدس، ولو أنه تمت المحافظة على هذه المعاهدة، لما تمكن أحد من ازعاج مملكة القدس، لكن الثعبان القديم الذي يزرع الخلاف بين الإخوة، جعل عموري والسلطان على خلاف، وتصور الملك عموري بأن السلطان أبرم اتفاقاً سرياً بينه وبين شيركوه، الطاغية التركي، الذي طرد مؤخراً من مصر، ولذلك حشد جيشاً، وذهب إلى مصر من خلال الصحراء، واستولى على بلدات مصرية عدة، وألقى الحصار على القاهرة، التي كانت المدينة الملكية، وكانت قوية جداً، والذي حدث هو أنه، بما أن الملك كان دوماً متشوقاً إلى المال، أزاحه السلطان عن أهدافه بإعطائه مبلغاً لا يحصى من المال، ذلك أن بعضهم قال بأنه قد وعده بمبلغ

مليونى قطعة ذهبية، وهو مبلغ كان من الصعب على مملكة مصر كلها أن تدفعه، وسلمه بيده مائة ألف قطعة من الذهب شريطة ان يسحب قواته، وعندما تسلم هذا المبلغ رفع الحصار عن القاهرة، ونصب معسكره على مقربة من حديقة البلسم، وبعد استعراضه لقواته، زحف عائداً إلى موطنه من جديد، وقد جعل كل من ملك مصر وملك دمشق أعداء له.

وبعد هذا عزم الامبراطور الاغريقي في القسطنطينية على ضم مصر إلى امبراطوريته، فأرسل أسطولاً كبيراً إلى سورية، حيث كان فيه مائة وخمسين سفينة منقارية، واثنين وستين سفينة نقل، ودعا اللورد عموري، ملك القدس، لمساعدته، وهكذا ذهباً معاً إلى مصر، في البحر وفي البر، وحاصراً دمياط، لكن دون أن يحدثا تأثيراً، ومن ثم توجب عليهما العودة إلى الوطن مجدداً مع خسائر لم تكن صغيرة.

علاوة على ذلك، قام في مصر ملك جديد، وكان رجلاً سعيداً جداً، اسمه صلاح الدين، سوف يأتي ذكر اسمه من الآن فصاعداً كثيراً، وهو الذي جعل جميع أسرة الخلافة والملوك طعمة للسيف، وصار سيداً لممالك مصر وسورية، ولم يعرف الراحة قط حتى نشر دولته على جميع الشرق تقريباً، وفي الحقيقة، كان رجلاً سريع الحركة، شجاعاً في الحرب، عميق التفكير، كريماً جداً، لاسيما نحو العسكريين، الذين كان على استعداد لمنحهم كل ما كان لديه، وبالإضافة إلى هذا، كان رحيماً تجاه المغلوبين، ملتزماً بصدق بوعوده وكان من جميع الجوانب رجلاً له شهرة عظيمة، وصيت كبير، ولم يكن يعوزه شيء لمدحه إلا الاسم المسيحي، وبما أنه لم يتميز بهذا، فقد أقام نفسه ضد المسيح والشعب المسيحي، وصار سوط عذاب للصليبيين في الشرق، علاوة على ذلك، لقد هزم الصليبيين هزيمة ساحقة، وطرد اللاتين، وفتح الأرض المقدسة، واستولى على القدس، وجعل ضريح الرب خاضعاً له، وأزال فخار

الكنيسة الشرقية، وحول تاج ومجد المؤمنين بالمسيح إلى عار لهم، كما سنوضح فيما يلي.

وقد قرأت عن صلاح الدين الحكاية المتميزة التالية، في واحد من التواريخ؛ فهو عندما كان يموت أوصى أن يحمل أمام موكب دفن جسده، قطعة قماش سوداء معلقة على رمح، أمامها ينبغي أن يسير مناديا ينادي: «عندما مات صلاح الدين فاتح آسيا لم يحمل معه من بين جميع مملكته وثروته سوى قطعة القماش السوداء هذه».

وعندما رأى عموري، ملك القدس، بأن صلاح الدين ملك سورية ومصر كان حكيماً وحذراً، وينوي أيضاً نيل الممالك الأخرى، أرسل سفراء إلى أمراء الغرب لإخبارهم عن جميع الشدائد التي لا يمكن تحملها، والتي وقعت فيها مملكة القدس، وعن مشاكل جميع الصليبيين هناك، وعن الدمار الوشيك المهددين بوقوعه، وقام هؤلاء السفراء برحلات موفقة في بلدان الغرب، وشرحوا هناك المخاطر التي تتهدد مملكة القدس، لكنهم حصلوا على لاشيء، ولم يصغ إليهم، لا من قبل الأمراء، ولا من قبل أساقفة الكنيسة.

وفي الوقت نفسه قام صلاح الدين بغارات يومية على مملكة القدس، واضطربت المملكة بشكل متواصل بتهديدات العدو، وعاشت في اضطراب خطير خانق، ولذلك قام الملك عموري في سنة ١١٧١م، وقد شعر بخوف مؤلم، فأرسل سفراء وقورين جدد إلى الغرب، وأبحر هو شخصياً مع أسطول مؤلف من عشرة غلايين إلى القسطنطينية، حيث خدم الامبراطور، وشرح له وبين حاجات مملكة القدس، وبعدما فرغ من عمله عاد إلى القدس، وأخيراً بعدما تمدد الملك عموري مريضاً بالحمى لعدة أشهر، مات في سنة ١١٧٥ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة من حكمه، والثالثة والثلاثين من عمره، وقد دفن مع أسلافه، وكان التالي لأخيه، في الخط نفسه أمام الجمجمة.

الملك السابع للقدس

وإثر وفاة عموري، الملك السادس للقدس، خلفه ابنه بلدوين الرابع، وقد كان في الثالثة عشرة من عمره، أثناء وفاة والده، وقد حكم في القدس لمدة ست سنوات، وفي أيام حياة أبيه، عندما كان في التاسعة من عمره، تبين أنه مصاب بمرض دار الفيل، وقال بعض الكتاب بأنه أصيب منذ طفولته بالجذام، لكن على الرغم من ضعفه الذي عانى منه، حكم مملكته بشجاعة عظيمة، وبحكمة بالغة، ذلك أنه تمكن من إلحاق الهزيمة مرتين في معركتين، بصلاح الدين ذلك الرجل البالغ الشجاعة والنشاط، وكانت المعركة الأولى عند عسقلان والثانية عند طبريا، وعن هاتين المعركتين تحدثت كتب التاريخ كثيراً.

وحدث في سنة ١١٨٧م، أن قام صلاح الدين ومعه جيشه بغزو مملكة القدس مرة ثانية، وعندما سمع الملك بهذا وعلم، دعا رجاله وحشدهم، وانطلق لقتال أعداء الايمان، وسقط في المعركة كثير من رجالنا طعمة للسيف، ووقع بالأسر اللورد أوتو، المقدم الأعلى للداوية، وقد مات بالأسر، كما جرى أسر آخرين كثير أيضاً، ونجا الملك نفسه بصعوبة، (حقيقة وقع بالأسر) وتشجع صلاح الدين بنصره هذا، فأحدث أضراراً بلا حدود في مملكة القدس، لكن أمكن أخيراً، بناء على وساطة بعض الأشخاص، الوصول إلى إقامة هدنة ستين بين صلاح الدين والصليبيين.

ونظراً لتزايد مرض الملك بلدوين، الذي لم يتزوج، ولم يكن له لا أبناء ولا بنات، لكن كان لديه أختين، الكبرى بينهما كان اسمها سيبلا، وقد عزم بشكل سري على توريثها المملكة، فكان أن زوجها إلى وليم، الملقب بصاحب السيف الطويل، وكان ابن مركز أوف مونتفرات،

وقاتل وليم هذا كثيراً وبشجاعة ضد المسلمين، وكان رجلاً عالي النسب كثيراً، إلى درجة أنه لم يكن له نظير في النبالة، لأن أخته كانت أم فيليب ملك فرنسا، وكانت أمه أخت صاحب السيادة الامبراطور كونراد، وحدث أنه بعد مضي ثلاثة أشهر على زواج وليم المتقدم ذكره، قد توفي مخلفاً زوجته وهي حامل.

وولدت في وقتها المناسب، ولدًا ذكرًا، أسمته بلدوين، ثم كان بعد ذلك أن زوج الملك أخته سيبلا إلى شاب نبيل، اسمه غي لوزغان، ولأنه كان راغباً في رعاية مصلحة ابن أخته عهد بذلك إلى غي نفسه، وإلى ريموند كونت طرابلس، وكلفهما أن يكونا حارسين له، شريطة، أنه طوال بقاء الطفل بلدوين تحت وصايتهم، عليهما معاً حكم المملكة، كما عليهما تسليمها إلى ابن أخته عندما يصل إلى السن القانوني، ومن أجل أن لا يقف شيئاً في وجه تنفيذ هذا، أمر برسم الطفل ملكاً على مملكة القدس، بحضور جميع فرسان المملكة، وكان هذا هو الملك التاسع (كذا) لمملكة القدس، جرى رسمه وتعميده قبل وفاة الملك الثامن (كذا)، الذي كان خاله.

وقبل مضي أيام كثيرة، توفي هذا الطفل بلدوين، الذي كان الملك التاسع (كذا) للقدس، وأخفت أمه خبر موته عن قصد لأيام كثيرة، لأنه بدا لها أن الملك بلدوين القديم المصاب بالجذام، قد اقتربت منيته، وأنه عندما يكون هو قد مات مع الطفل، سوف يتمكن زوجها غي من خلافتها على العرش، وهذا ما حدث بالفعل، ذلك أنه ليس بعد ذلك بكثير، مات بلدوين الثامن (السابع)، ملك القدس، ودفن في المدفن الملكي في موضع الجمجمة، وكان ابن أخته، الملك الطفل بلدوين التاسع (كذا) قد دفن في كنيسة ضريح الرب، إنما خارج البيعة في الجمجمة، حيث اعتيد على دفن الملوك الآخرين، لأنه عدّ ليس ملكاً، بل مجرد طفل.

الملك الثامن للقدس

بعد ما مات بلدوين الرابع، الملك السابع للقدس، ومات أيضاً ابن أخته بلدوين الخامس، ملك المدينة المقدسة، خلفهما غي لوزغان، الذي كان زوج سيبلا، أخت بلدوين المجذوم، كما كان أخاً بالزواج لبلدوين الرابع، وقد حكم لمدة عامين في القدس، وقد وصل هذا الملك إلى العرش وسط مصاعب، وحكم دوماً في شدائد كبيرة، وأنهى حكمه مع مأساة مرعبة، وأوصل مملكة القدس إلى نهاية مخزنة.

وعندما مات الملك بلدوين الرابع وبلدوين الخامس، تطلع ريموند، كونت طرابلس، والوصي على بلدوين الطفل المتوفى إلى العرش، وقد وقف إلى جانبه كثير من الأمراء والكونتات، وتآمروا ضد غي زوج سيبلا، التي كانت ورثة المملكة، وتمكنت السيدة سيبلا بوساطة رشاوى كبيرة وأعمال استعطاف من السيطرة على بطريك القدس، وعلى المقدم الأعلى للدواية، وعلى النبلاء واقناعهم برسم زوجها وتويجه ملكاً للقدس، وغضب ريموند، صاحب طرابلس، تجاه هذا غضباً عظيماً، ونشبت خصومة مريرة جداً بينهما، ولما كان ريموند صديقاً سرياً لصلاح الدين التركي، وكان متحالفاً معه، فقد تسبب بإلحاق أذى عظيماً بغي وبالصلبيين الآخرين، وفي الحقيقة دفعت الغيرة بريموند إلى حد من الشر أنه تخلى عن الايمان المسيحي، واختتن، واعتنق الدين الاسلامي، لكن ذلك لم يكن بشكل مكشوف، بل بشكل سري.

وفي سنة ١١٨٧م، قام صلاح الدين، الذي صار قويا، من خلال التمزق بين شعبنا فحشد عساكر لا تحصى، وهاجم المملكة المقدسة، وكسب أراضي كثيرة من الصليبيين، وعندما شعر الملك غي أنه محاصر الآن من كل جانب من قبل المسلمين، قام بناء على نصيحة أمراءه فأرسل السيد بطريك القدس، والمقدم الأعلى للدواية، ورئيس الاستتارية، إلى أمراء الغرب، ليشرحوا لهم الوضع المأساوي للشعب

الصلبيي في الشرق، ووصلوا أول كل شيء إلى فيليب ملك فرنسا، فمنحوه مفاتيح ضريح الرب، والهيكل والمدينة المقدسة، وتوسلوا إليه أن يتلطف بالقيام بانقاذ الأرض المقدسة، المشرفة الآن على الضياع، وبناء عليه دعا إليه هذا الملك التقي جداً جميع الأساقفة، وعقد مجمعاً في باريس، وأرسل بعض الجنود الشجعان جداً إلى الأرض المقدسة على حسابه.

وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين قد حشد عدداً كبيراً من الأتراك ومن المسلمين من جميع أرجاء الشرق، وغزا أرض الصليبيين، واستولى على منطقة الجليل، وحاصر طبريا، وحشد غي ملك القدس جيشاً كبيراً، وزحف للقتال ضده، لكن، وبالأأسف، هزم شعبنا، من خلال خيانة ذلك الرجل الشرير، أي كونت طرابلس، لأنه عندما كان الجيشان مصطفىان وعلى وشك الاشتباك، قام الكونت، وعلمه مرفوع، بالفرار من صف القتال، مما جعل جيشنا يتخبط باضطراب، وقد لحق به بعض أعداء ملك القدس، والمتآمرين ضده، وحدث هذا قبل فرار جيشنا، وأثناء فراره، وقعت مذبحة مروعة بين شعبنا، وخلال هذه الشدة، أصيب أسقف عكا، الذي كان يحمل صليب الرب أمام الجيش، بجراحة بليغة، ولشعوره بنفسه أنه على خافة الموت، وعندما لم يعد بإمكانه الركوب على حصانه، أعطى الصليب إلى رجل آخر، حملة إلى الملك غي.

وأخيراً بعدما قاتل الملك بشجاعة حتى نهاية المعركة ومعه صليبه، هاجمه العدو من جميع الجهات، وكان معظم رجاله قد قتلوا، وحوصر هو من قبل الأعداء، حتى أنه لم يعد بإمكانه الفرار، وهنا أخذ أسيراً مع خشبة الصليب المانح للحياة، ولم تكن هناك معركة في جميع زمان وجود المملكة اللاتينية في الشرق، قد سفكت فيها دماء صليبية مثلما سفكت في ذلك اليوم، فقد تهاوت في ذلك اليوم قوى الصليبيين كلها في الشرق

وانهارت، وكان أكثر الذين تميزوا بالشجاعة هم الاسبتارية والداوية، وهلك في هذه المعركة المحزنة جداً جميع النبلاء ورجال الحرب، باستثناء قلة أخذوا أسرى، كان من بينهم الملك، ومقدم الداوية.

وقال فنستوس في مصنفه *Speculcem historiale* - الكتاب الثلاثين، الفصل: ٤٣، بأن الأولاد الذين ولدوا بعد ذلك اليوم، الذي وقع فيه الصليب المقدس، بالأسر، ولدوا بعشرين سناً، أو بواحد وعشرين سناً فقط، في حين اعتادوا من قبل على الولادة بثلاثين، أو بثلاثة وثلاثين.

وبعد هذا النصر استغل صلاح الدين حسن طالعه، فقاد جيشه للاستيلاء على مدن وقلاع الصليبيين عنوة، واحتل الأماكن القائمة على ساحل البحر، وكان أول كل شيء احتله عكا، ثم بيروت والمدن الأخرى المسورة، كلها استسلمت له دون ابداء مقاومة تذكر ضده، ذلك أنه لم يعنف ضد أي مدينة من هذه المدن، شريطة أن تبقى المدينة تحت سلطانه، وتدفع الجزية له، ولم تكن هناك مدينة واحدة من عكا حتى عسقلان تجرأت على مقاومته، لأن هذه المدن جميعاً قد فقدت الذين توجب عليهم الدفاع عنهن، وقام أهالي عسقلان، الذين اعتقدوا أن مدينتهم لا ترام، فأعاقوا مهمة صلاح الدين لبعض الوقت، ورفضوا تسليم مدينتهم، وأعلنوا أنهم لن يستسلموا بأي حال من الأحوال، قبل أن يتأكدوا يقيناً، بأن سكان مدينة القدس قد سلموا مدينتهم، وعندما سمع صلاح الدين بهذا، أقام ساتراً من الركام أمام المدينة، وثابر على مهاجمتها لمدة عشرة أيام، غير أن جهوده لم تثمر شيئاً، لأن عسقلان كانت مدينة حصينة جداً، وهي التي استولى عليها غودفري، أول ملوك القدس، كما تحدثنا من قبل، وقد ورد الحديث عنها في أقدم أسفار الكتابات المقدسة، وهذا يمكن لأي إنسان أن يراه.